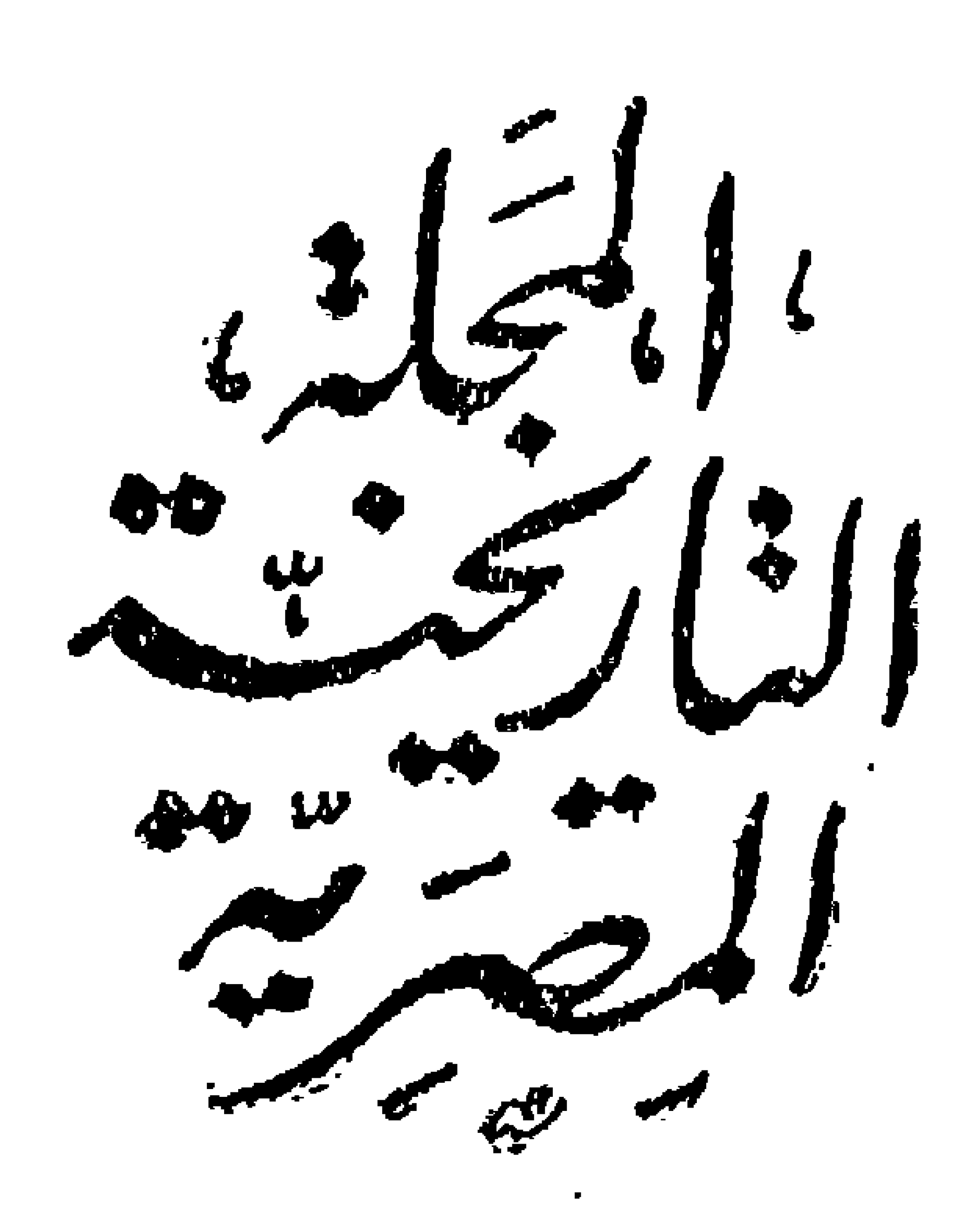
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIÉTÉ ÉGYPTIENNE D'ÉTUDES HISTORIQUES



المجلد العشرون ١٩٧٣

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٤ سنة ١٩٧٣

روعت البلاد – وهذا المجلد من المجلة ماثل للطبع بفقد علم من أعلام التاريخ والآثار هو :

الأستاذ الدكتور أحمد فخرى

أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم بجامعة القاهرة ونائب رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية قضى حياته أستاذاً وباحثا ومعلما ومنقبا عن آثار حضارتنا القديمة ، استشهد وهو يؤدى واجبه فى خدمة العلم فى خارج البلاد ، تغمده الله برحمته وأنزله منازل الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا .

وستقيم الجمعية حفلا لتأبينه فى أكتوبر القادم وتنشر كلمات التأبين فى العدد التالى من المجلة .

المحتـــويات

بحوث

بردية أوكسيرينخوس رقم ٢٤٣٥

ولقاء بين الإمبراطور أغسطس والاسكندريين

وترحيب الاسكندرية بمقدم جرمانيكوس

للدكتور مصطفى كمال عبد العليم
كلية الآداب — جامعة عين شمس

ضم المجلد الخامس والعشرون من مجموعة بردى أوكسيرينخوس Oxyrhnchos (البهنسا) البردية رقم ٢٤٣٥ (١) . وقد قام على نشرها الأستاذ تيرنر E.G.Turner . ولهذه البردية أهمية خاصة ، إذ أنها تكشف عن العلاقة بين مواطنى الاسكندرية والامبراطور أغسطس فى عام ١٣م (٢) من ناحية ؛ وتضيف تفاصيل جديدة لزيارة جرمانيكوس Germanicus للاسكندرية على عهد عمه الامبراطور تيبريوس فى عام ١٩م(٣) .

وقد سجل كاتب البردية على وجهها الأول (recto) تسجيلا لحوار دار بين مدير بلدية الإسكندرية exgetês وبين إمبراطور (autocrator) رجح الناشر أنه جرمانيكوس .

وسجل الكاتب على الوجه الثانى للبردية (verso) محضر جلسة شهدها الإمبراطور أغسطس مع مجلسه الخاص Consilium principis وسفراء مدينة الإسكندرية .

ولما كان النص المثبت على الوجه الثانى يتعلق بأحـداث سبقت تلك التى يتضمنها النص المـكتوب على الوجه الأول ، فإننا نرى أن نبدأ بالحديث عنه أولا .

سفارة الاسكندرية والامبراطور أغسطس :

يبدأ النص بذكر الملف وذكر العمود رقم ٨٠ وهذا يعنى أن الـكاتب نقل محضر جلسة من ملف معين . وفيما يلى ترجمة النص :

« العام ٤٢ من حكم قيصر الشهر الرابع ، الساعة التاسعة . أخـذ أغسطس مجلسه فى معبد أبوللون فى مكتبة روما واستمع لسفراء الاسكندرية . وكان يجلس معه تيبريوس قيصر ودروسوس Drusus ابن قيصر وفاليريوس ميسالينوس كورفينوس Valerius Messalinus Coruinus .

(وخمسة أشخاص كتب اسم أحـدهم كاملا وهو ماركوس أفيـديوس أورجلانيوس Marcus Auidius Orgolanius (٤) .

وقد سلم اسكندر قرارات (المدينة) psephismata ، وقال :

« . . . إن مدينتى قد بعثت بى فى مهمة . . . لأقدم لك . . . ولأسلم لك هذه القرارات . . . . الثناء على ليفيا و . . . تيبريوس قيصر . . . السفراء . . . النصر » .

ورد أغسطس : « لقد رأيته » .

وتعالت صيحات : « بالحظ الحسن ، بالحظ الحسن » .

وعندئذ تحدث الخطيب تيموكسينوس Timoxenus ، مثل هـذه . . .

. . . التى منحتها ، يا مولانا أغسطس إلى . . . الذين . . . ، مثل هذه المنحة نضرع إليكم أن تضفوها على رعاياكم . . . نحن نبدو هنا فى مظهر المتوسلين إليكم ، ولكن فى الحقيقة . إن مدينتنا بكل حرارة وصدق تتضرع proskynesasan من أجل ملاككم الحارس tychê المعظم فى قداسته ...».

ويرى الناشر أن العام الثانى والأربعين من حكم الإمبراطور أغسطس ، وهو تاريخ الجلسة يقابل عام ١٣/١٢ م ، وأن تاريخ الجلسة ، على التحديد ، ينحصر بين أول يناير و ٢٩ أغسطس عام ١٣ م . ويبنى افتراضه على أساس أن اسم جرمانيكوس لم يرد بين أسماء أفراد الأسرة الإمبراطورية الثلاث الذين ضمهم مجلس Consilinm qrinciqis عند إعادة تشكيله عام ١٢م أو ١٣م (٥) . وهم تيبريوس قيصر بن ليفيا زوجة أغسطس وابنه بالتبنى وولى عهده ، ودروسوس بن تيبريوس ، فضلا عن جرمانيكوس بن دروسوس شقيق تيبريوس الذى لم يذكر اسمه . وفى رأى الناشر ، وهو رأى صائب ، أن تاريخ الجلسة لا يمكن أن يكون عام ١٢ م لأن جرمانيكوس كان فى روما فى خريف عام ١٢ م فى حين أنه كان متغيبا فى بلاد الغال فى عام ١٣ م . وهذا يتفق مع عدم ذكر اسمه بين أعضاء المجلس . وقد ضم المجلس أيضا بعض القناصل وبعض أعضاء الشيوخ . وكان لقرارات المجلس بتشكيله هذا نفس قوة قرارات مجلس الشيوخ Sunatus consult .

والمفهوم من التفاصيل القليلة الواردة فى هذا النص الذى يعتوره النقص أنه كان

برأس سفراء الاسكندرية شخص يدعى اسكندر سلم أغسطس قرارات المدينة psephismata وقال أن مدينتى (أى الاسكندرية) قد أرسلتنى على رأس سفارة لتسليم هذه القرارات . ولا ينبغى أن يفهم من ذلك أن تلك القرارات قد صدرت عن مجلس دستورى من تلك المجالس التى ألفتها المدن الإغريقية ، بل أن المرجح قياساً على ما ورد فى بردية أخرى من مجموعة بردى أوكسيرينخوس أيضاً (٦) ، وما ورد فى بردية أخرى (٧) ، أن يكون مجلس شيوخ المدينة (gerousia) وهو الذى تولى إصدارها . ولم يكن المجلس مجلسا دستوريا بالمعنى المفهوم وإنما كان مجلسا يضم كبار شخصيات المدينة تغلب عليه الصفة الاجتماعية ومتصل فى الغالب بمعهد الجومنازيوم ، وكان بمثابة حلقة الاتصال أو أداة التفاهم بين روما وجالية المواطنين الإغريق . ولعل هذا المجلس كان يقوم باختيار السفراء المبعوثين من قبل المدينة إلى الأباطرة لعرض شكاوى المواطنين أو الدفاع عن قضاياهم فى بعض الأحيان . وكان يصدر أيضا القرارات psephismata الخاصة بتكريم الأباطرة (٨) .

وحقيقة أن البردية ناقصة إلا أنه يمكن أن نفهم ، بمقارنتها ببردية لندن رقم ١٩١٢ ، أن الوفد الاسكندرى أراد أن يعرب للامبراطور عن توقير مدينتهم لشخصه ورغبتها فى إحاطته بمظاهر التكريم والتبجيل . وكان سفراء الاسكندرية على قدر من اللياقة بحيث أجزلوا الثناء لعدد من أفراد الأسرة الامبراطورية ظهر بين أسمائهم فى البردية اسم ليفيا زوجة الامبراطور وإبنها تيبريوس . وفى رأى الأستاذ تيرنر ناشر البردية أن الوفد أراد أن يرفع تهنئته لهما لتبنى أغسطس لتيبريوس (٩) . والمعروف أن أغسطس تبنى تيبريوس فى عام ٤ م مع تقليده

سلطة التربيونية trbunicia potestas لمدة عشر سنوات ثم جددت له تلك السلطة فى عام ١٣ م . وهو تاريخ النص الذى نناقشه (١٠) .

ووردت كلمة النصر على لسان رئيس الوفد الاسكندرى . . وقول أغسطس « لقد رأيته » أو « لقد رأيتها » . وقد يكون المقصود أن أغسطس رأى تمثال النصر الأغسطى Victoria Augusta ، كما يقترح موميليانو A.Momigliano أو أن يكون الذى رآه الامبراطور ، فى رأى الناشر ، هو مدينة الاسكندرية (١١) .

وجاء فى حديث تيموكسينوس Timoxenus الخطيب الاسكندرى رجاءه أن يستجيب الامبراطور لتضرع السكندريين أن يمنحهم ما منحه لغيرهم » . والذى كان السكندريون يلحون فى طلبه ، ولم ينالوا ، طوال العصر الرومانى إنما هو مجلس الشورى ، والمقابلة هنا بين ما أقره الامبراطور لليهود بأن يكون لهم مجلس شيوخ وبين حرمان السكندريين من حق إعادة تشكيل مجلس الشورى الذى كان لمدينتهم فى العصر البطلمى ثم أقدم أحد الملوك البطالمة على إلغائه ، لعله الملك بطلميوس يوارجيتيس الثانى (١٢) .

وأرى أن الأستاذ تيرنر ناشر البردية على حق فى مقابلته بين هـذا النص وبين نص بردية P.S.I. 1160 المعروفة باسم بردية مجلس الشـورى (Boulê-papyrus) (١٣) ؛ ذلك لأن البردية الأخيرة تتضمن حوارا بين وفد من مواطنى الاسكندرية ، وامبراطور ذكر أنه « قيصر » . وموضوع الحوار محاولة من الوفد الاسكندرى اقناع الامبراطور بالموافقة على السماح لهم بتشكيل مجلس شورى boulê ، يستطيع أن يضمن « عدم أختلاط الدخلاء بمنع الذين يتمتعه

إدراجهم فى سجل الخاضعين لضريبة الرأس laographia من إدراج أسمائهم سنويا فى القائمة الرسمية بجانب الشبان epheboi « ويستطيع أن يحول دون قوم يفتقرون إلى التربية والتعليم أن يلوثوا جالية المواطنين الاسكندريين » .

والواضح أن المقصود بهذا التجريح هم اليهود الذين إذا نجحوا فى إدراج أسمائهم فى سجل الشبان ، باعتبار أن هذه هو خطوة أساسية للحصول على مواطنة الإسكندرية ، فإنهم من ناحية أخرى يستطيعون الدخول إلى الجومنازيوم . وإذا تخرجوا منه فإنهم ينضمون إلى جماعة خريجى الجومنازيوم المعروفة باسم Hoi apo tou gymnasiou مما يعفيهم من دفع جانب من ضريبة الرأس .

ومن هنا كان التسلل إلى منظمات الإسكندرية الدستورية طريقا سهلا للتحلل من دفع ضريبة الرأس أو جانب منها على الأقل . وهذا يفسر محاولة إغراء وفد الإسكندرية للامبراطور ليسمح لمواطنيها بتشكيل مجلس الشورى .

وعندما نشرت بردية البولى للمرة الأولى فى عام ١٩٣٠ ، ساد بين كثير من المؤرخين أن اللقاء تم بين أوكتافيانوس (فيما بعد أغسطس) فور استيلائه على الإسكندرية فى عام ٣٠ ق . م . ولكن ضريبة الرأس laoyraphia فرضت لأول مرة في عام ٢٤/٢٣ ق . م . وهذا يبعد البردية عن عام ٣٠ ق . م . وساد بين نفر من المؤرخين أن قيصر المذكور قد يكون أغسطس أو أحد خلفائه ، الأباطرة الثلاث تيبريوس أو جايوس أو كلوديوس . وكان من رأى الأستاذ بل H.I.Bell أن الخط الذى كتبت به السطور الثلاث الأخيرة فى البردية إنما من نفس الخط الذى كان عليه الخط الذى كتبت به برديات الفترة المتأخرة من عصر الامبراطور أغسطس أو السنوات الأولى من حكم خلفه الأمبراطور تيبريوس (١٤) .

وقد يدعم رأى بل أن ناشرى مجموعة البرى اليهودى .

(CpJud. = Corpus Papyrorum Judaicarum)

أن أغسطس الذى أشير إليه فى البردية على أنه قيصر إنما هو بالفعل الامبراطور أغسطس ، ذلك لأن أغسطس وحده هو الذى يقال له فى نصوص البردى فى مصر الرومانية «قيصر» مجرداً من أى إضافات أخرى مثل الآله theos أوالامبراطور autokrator ، وأن اللقاء تم فى مكان ما بين أغسطس وبين الوفد الاسكندرى فى عام ٢٠ أو ١٩ ق . م . عندما كان الامبراطور يقوم بزيارة بعض ولايات الشرق كان من بينها سوريا ، وأنه كان فى نيته زيارة مصر ولكن لأمر ما لم تتم هذه الزيارة . وقد أملى عليهم هذا التصور قبول ترجمة السطور الثلاثة الأخيرة فى البردية على النحو التالى :

« قال قيصر : سوف أبت فى هذه المسائل (بمدقيامى بزيارة ؟) الإسكندرية وذلك بدلا من عبارة ؟ قال قيصر : « سوف أبت فى هذه المسائل . . . (بعد عودتكم ؟) إلى الإسكندرية » .

وبذلك يتفق ناشرا البردى اليهودى مع الأستاذ بل فى التسليم بأن قيصر هو أغسطس ولكنهما يقدمان تاريخ اللقاء إلى عام ٢٠ أو ١٩ ق . م . فى حين أن بل يؤخره إلى الأعوام الأخيرة من حكم أغسطس .

وقبل أن نرجح أحد التاريخين أود أن أشير إلى بعض أوجه الشبه القائمة بين نص بردية الشورى (البولى) ونص بردية أوكسيرينخوس ٢٤٣٥ .

من أهم أوجه الشبه أن كلا منهما يبدأ بذكر رقم الملف أو الدوسيه ، (وقد ذكر فى برديه البولى الملف رقم ٤٠ ، فى حين سقط من البردية الثانية رقم الملف) ورقم العمود ، وأن أسم قيصر ذكر مجردا فى كليهما ، وأنه فى كلا النصين تحدث

خطيب نيابة عن الوفد الاسكندرى ، وأن كلامن الخطيبين أبرز تلهف الآسكندريين أن يكون لمدينتهم مجلس شورى وإن كان خطيب بردية البولى ألح فى إثبات أن تشكيل مجلس الشورى سيكون من مصلحة الحكم الرومانى نفسه ، بينما حرص خطيب بردية أوكسيرينخوس فى التضرع للامبراطور أن يمنح للاسكندريين مجلسا على نحو ما فعل مع اليهود ، وأن كلا النصين يتضمن الإشارة إلى اليهود ، وإن كانت نغمة التعريض بهم قد غلبت على بردية البولى .

ولذلك فإنى أرى أن هناك صلة وثيقة بين البرديتين ذلك أنهما يتضمنان الحديث فى نفس الموضوع . وليس من الصعب القول بأنهما نسختان نقلتا من السجلات الرسمية الخاصة بالإسكندرية :

ذلك بدليل ابتداء كل منها بذكر رقم اللف ورقم العمود . ولذلك فلا أستبعد أن يعود تاريخهما إلى وقت واحد أو وقت متقارب . وإذا كنا قد عرفنا أن تاريخ بردية أوكسيرينخوس هو عام ١٣ م ، فإن ذلك يجعلنا نقبل تاريخ الأستاذ بل لبردية البولى بأنها تعود إلى أواخر عهد الامبراطور أغسطس وليس عام ٢٠ أو ١٩ ق . م . الذى رجحه ناشرا مجموعة البردى اليهودى ; وبالتالى أن ذلك يجعلنا نرجح أن يكون اللقاء بين أغسطس والوفد الاسكندرى قد تم فى روما بالذات . وقد يدعم هذا الرأى أخذنا بترجمة السطور الثلاثة الأخيرة من بردية البولى بأن الامبراطور رد على مطالب أعضاء الوفد الاسكندرى بأنه سيبت فيها بعد عودتهم إلى الاسكندرية . وهذا هو التفسير المعقول لهذه العبارة التى تردد بعض المؤرخين فى قبول ترجمتها على هذا النحو .

وبذلك تكون بردية أوكسيرينخوس قد ساعدت على توضيح بعض ما غمض

من بردية البولى فهى تسجيل للقاء حدث فى روما بين الامبراطور أغسطس ووفد من الاسكندرية وفى السنوات الأخيرة من عصر هذا الامبراطور .

وقد كان الرأى السائد بين كثير من المؤرخين أن بردية مجلس البولى تنتمى إلى تلك المجموعة من البرديات التى اصطلح إلى تسميتها بأعمال شهداء الاسكندرية Acta Alexandrinorum لأنها تشتمل على عبارات التعريض باليهود . ولكن الأسلوب الأدبى المميز لأعمال شهداء الاسكندرية يختلف عن أسلوب نص بردية البولى . ثم أن هذا النص لايسجل حوارا بالمعنى المفهوم بل هو التماس تقدم به خطيب الوفد الاسكندرى وكانت إجابة الامبراطور أنه سيبت فى هذا الالتماس أوهذا الطلب. فضلا عن أن تاريخها يعود إلى الفترة الباكرة من الحكم الرومانى فى حين أن تاريخ وثائق أعمال شهداء الاسكندرية تتأخر كثيرا عن هذه الفترة . وإذا كانت البردية قد تضمنت تعريضا باليهود فإن اسم اليهود لم يذكر صراحة وإنما الذى قاله وفد الاسكندرية أن مجلس البولى فى حالة تكوينه فإنه سيحول دون أنضمام من لايستحق قانونا حقوق مواطنة الاسكندرية أن ينضم إلى هيئة مواطنى المدينة . وزاد الوفد الاسكندرى قوله أن المجلس سينهض بواجباته الأخرى . وحتى إذا سلمنا أن الوفد الاسكندرى قدعرض باليهود فماذا نسمى ماأقدم عليه الامبراطور أغسطس من إخضاع يهود مصر جميعا لضريبة الرأس مثل المصريين سواء بسواء ؟ ولذلك فإننى أوافق ناشرى مجموعة البردى اليهودى على أنه من الأفضل استبعاد بردية مجلس البولى من مجموعة أعمال شهداء الاسكندرية .

وبالنسبة لبردية أوكسيرينخوس فإن ناشرها الأستاذ تيرنر يتساءل عن إمكان إلحاقها بمجموعة أعمال شهداء الاسكندرية . وأوافقه على أن النغمة التى تسود هذه البردية تختلف عن النغمة السائدة فى أعمال شهداء الاسكندرية فهى تسجل تفاصيل

لقاء تم بين الامبراطور أغسطس ووفد سكندرى أبدى أعضاؤه مجاملة واضحة للامبراطور وأسرته وتضرعوا إليه أن يقبل التماسهم بتشكيل مجلس شورى مثلما سمح لليهود بالإبقاء لهم على مجلس الشيوخ الخاص بجاليتهم . فليس فى نص البردية اذن تعريض باليهود أو التعريض بالامبراطور ، وهاتان هما النغمتان اللتان تغليان على أعمال شهداء الاسكندرية . ويضيف الأستاذ تيرز أنه بالاضافة إلى ذلك فإن العلاقات كانت لاتزال طيبة بين الرومان والاسكندرية . ويتحفظ الأستاذ تيرز فى قوله بأنه إذا كانت هذه البردية تنتمى إلى أعمال شهداء الاسكندرية فانها تعتبر ، بلاشك ، نموذجا لهـذا النوع من المحاضر التى رجح الأستاذ موزيرللو Musurillo أن تـكون قد كتبت فى نفس الوقت الذى وقعت فيـه الأحداث المثبتة ثم حفظت فى ملف وأتيح للـكاتب الذى كتب بردية أوكسيرينخوس أن يطلع عليه وأن ينقل منه إلى تلك البردية والتى ذهب بها إلى أوكسيرينخوس(١٦) .

فبردية أوكسيرينخوس إذن أقرب إلى الوثائق التاريخية الصحيحة ذلك أنها تورد أسمـــاء بعض أعضاء مجلس الامبراطور بتشكيله الجديد وخاصة وأنه ضم الشخصيات البارزة فى البيت الامبراطورى . ولعل سفراء الاسكندرية تخيروا هذا الوقت بالذات لأن المجلس أصبح بحـكم هذا التشكيل قادرا على إصدار قرارات فعالة ، كما أسلفنا ، وتـكون لصالح الاسكندرية .

وبذلك يـكون من الأنسب أن نستبعد هذا النص ، كما فضلنا استبعاد بردية مجلس البولى من مجموعة أعمال شهداء الاسكندرية .

وإذا سلمنا بالصفة التاريخية للنصين ، فإنه ليس من المستبعد أن اللف الخاص بالمقابلات التى تمت بين أغسطس وبين مواطنى الاسكندرية كان ممر وضا على الإمبراطور

كلوديوس (٤١ — ٥٤ م) وهو يبحث فى الرد على طلب الوفد الاسكندرى الذى مثل فى حضرته فى روما بخصوص المطالبة بمجلس الشورى . وإذا كان الامبراطور قد ذكر فى رسالته المشهورة إلى الاسكندريين (بردية لندن رقم ١٩١٢):
« وأما عن مجلس الشورى ، فليس فى وسعى أن أقول ما هى السنة التى درجتم عليها فى عهد الملوك القدماء . ولكنكم تعلمون جيدا أنه لم يكن لديكم مجلس فى عهد من سبقونى من الأباطرة ، وحيث أن هذا مقترح جديد يثار الآن للمرة الأولى ولا يتضح إذا ما كان سيعود بالفائدة على المدنية وحكومتى ، فقد كتبت إلى أيميليوس ركتوس (الوالى) ليبحث الموضوع ويخبرنى عما إذا كان من الضرورى إنشاؤه أصلا ، وكيف ستكون طريقة إنشائه إذا تبين أنه ضرورى »(٧١) أحد أمرين أما أن الامبراطور ، لم يلتزم الدقة وهو يقول إن هذا الطلب يثار للمرة الأولى، وأما أنه كان يريد التخلص من الموقف واكتساب الوقت بإحالة الطلب على حاكم مصر الرومانى ، وإلا لما ذكر فى إجابته أن دراسة الوالى بخصوص المجلس ستتركز على مدى ضرورته للمدينة وللحكم الرومانى نفسه ، ولتبين مصلحة روما فى إنشائه . رأينا فى بردية مجلس البولى أن الاسكندريين ذكروا للامبراطور أغسطس أن فى إنشاء المجلس مصلحة الحكم الرومانى وبالذات مصلحة الخزانة الإمبراطورية . فهل نستبعد أن يكون الوفد الاسكندرى قد أثار أمام الامبراطور كلوديوس مسألة تطابق مصلحة روما مع مصلحة الاسكندريين فى إقامة المجلس أو أنهم أشاروا إلى طلبهم الذى تقدموا به إلى أغسطس وتضمنه نص بردية مجلس البولى أو أنهم قدموا له نسخة من هذا النص . وإذا سلمنا بإمكان حدوث ذلك ، فإننا نستطيع أن نفسر إشارة الإمبراطور إلى ضرورة تشكيل المجلس وإلى مصلحة روما فى وجوده .

فى ضوء الاعتبارات السابقة ، يكون إسباغ القيمة التاريخية على بردية مجلس الشورى وبردية أوكسيرينخوس مما يساعد على الربط بينها وبين بردية لندن ١٩١٢ على أساس أن الموضوع المشترك بين البرديات الثلاثة هو المطالبة بمجلس الشورى .

بقى أن نتعرف على بعض شخصيات الوفد الاسكندرى الذين وردت أسماؤهم فى بردية أوكسيرينخوس وهما اسكندر الذى سلم الامبراطور قرارات المدينة بتكريمة وتيمونيكس Timonex الذى ألقى بخطبة الوفد الإسكندرى بين يدى أغسطس .

يقترح الأستاذ تيرنر ناشر البردية أن يكون اسكندر هو اليهودى اسكندر الذى كان من أكبر أثرياء يهود الاسكندرية ، وهو شقيق فيلون Philo الفيلسوف اليهودى الاسكندرى ووالد ماركوس رجل الأعمال اليهودى وتيبريوس يوليوس اسكندر اليهودى السابق والذى قلده الامبراطور نيرون فى عام ٦٦ م. منصب والى الاسكندرية ومصر praefectus Alexandraea et Aeggpti . وهو من أرقى المناصب التى يطمح فى الوصول إليها رومانى ينتمى إلى طبقة الفرسان والمعروف أن اسكندر كان يشغل منصب مدير الضرائب الجمركية arabarchês المختص بالإشراف على تحصيل المكوس الجمركية على السلع الشرقية فى الطرق المؤدية من وادى النيل إلى موانى البحر الأحمر عبر الصحراء الشرقية (١٨) . وفى الوقت نفسه كان اسكندر هذا يشغل منصب رئيس الجالية اليهودية فى الاسكندريه ethranchês(١٩) . وكان الاثنارخيس على حد قول استرابون ، يحكم الشعب ethnos اليهودى ويباشر اختصاصات قضائية واسعة كما لو كان « أرخونا فى مدينة حرة »(٢٠) . فإذا كان اسكندر المذكور فى البردية هو اسكندر لوسيماخوس ، فإنه ، فى رأى تيرنر يمكن تخيل أن يهود الاسكندرية

وإغريقها كانوا على وفاق على عهد الامبراطور أغسطس . وهذا أمر يصعب التسليم به لأن تيرنر نفسه عاد فاستدرك قائلا أنه لايمكن توقع أن يجد يهوديا عضوا فى سفارة يتحدث أعضاؤها عن عبادة الامبراطور والصلاة من أجله . وفى الواقع أننا لانكاد نصدق أن يكون إغريق الاسكندرية قد عدموا رجالا أكفاء لتمثيلهم فعمدوا إلى يهودى ، حتى ولو كان اسكندر ، ليحمل قرارتهم إلى الإمبراطور فى روما .

أما عن تيمونكس الخطيب السكندرى فإن تيرنر لم يوفق إلى التعرف عليه(٢١) .

زيارة جرمانيكوس للاسكندرية :

على الوجه الأول rrecto للبردية حوار داربين مدير بلدية الاسكندرية exgetês وبين امبراطور autokrator فى حضرة جماهير الاسكندرية . ونص الحوار كما يلى :

مدير البلدية exgetês : لقد سلمت الإمبراطور نفسه كلا القرارين « ta Psephismta » .

الإمبراطور : أنا الذى أرسلنى أبى ، ياأهل الإسكندرية . . .

وهلل الجمهور وصاحوا : بالحظ الحسن ، يامولانا ، سوف ، تحظى بالبركات . .

الإمبراطور : ياأهل الإسكندرية الذين أعليتم قدرى بحديثى إليكم . انتظروا ولاتصفقوا حتى أنتهى من الإجابة على كل سؤال من أسئلتكم ، أنا الذى أرسلنى أبى ، كما سبق أن ذكرت ، لتنظيم الولايات eparchiai فيما وراء البحار . وهو عمل صعب ؛ أولا بسبب السفر فى البحر ، وأيضا لأنه أبعدنى عن أحضان

أبي وجدتي وأمي ، وإخوتي ، وأخـــواتي وأبنائي وأصدقائي المقربين. هذا العمل الذي أشرت إليه . . . (ربما كانت الجملة الناقصة هنا حملني إلى عبور بحر جديد).. بحرا جديدا حتى أستطيع أن أرى مدينتكم في المقام الأول .

وصاح الجمهور . . . بالحظ الحسن .

الامبراطور : وحتى قبل الآن ، كنت أعتقد أن سيكون منظرا يخلب الألباب . وهذا يعود أولا إلى البطل الذي أنشأ مدينتكم والذي يدين له جميع أولئك الذين يتملكهم نفس الطموح وثانيا بسبب الخدمات الجليلة التي قدمت لجدي أغسطس ، ولأبي ، وكما هو الحال بالنسبة لي ، وأني لا أتحدث ، . . .

وهلل الجمهور : ليطول عمرك وليمد في حياتك .

الامبراطور : (انني لا أتحدث) عمـا يعرفه كل شخص ، ولـكنني لن أنسى كيف وجدت هتافاتـكم التي ترحب بي وهي تتضاعف متصاعدة في صدوركم لأن القرارات psephismata الخاصـة بتـكريمي يمـكن أن تصدر عن إجتماعات تضم قلة من الرجال ، ولـكن . . . »

ويتساءل الأستاذ تيرنر ،ناشر البردية ، عن الشخص الذي وصف في البردية بأن امبراطور Atoukrartor ويحصره بين قيصر بن أجريبا ، وحفيد أغسطس وابنه بالتبني ، وبين جرمانيكوس قيصر بن نيرون دروسوس وابن شقيق الامبراطور تيبريوس والذي تبناه بأمر من أغسطس في عام ٥ م . وكان الامبراطور قد فوض أولهما بسلطات خاصة impcrium proconslare وقام بمهمة في الشرق في العام الأول ق . م . وقدم إلى مصر وهو في طريقه إلى سوريا . أما جرمانيكوس فقد فوضه الامبراطور تيبريوس في عام ١٨ م بسلطات مماثلة وبعث به في مهمة خاصة

إلى الشرق وقدم هو الأخر إلى مصر فى عام ١٩ م . وكلاهما انفصل عن أبيه بسبب مهمته ؛ جايوس قيصر عن أبيه أغسطس ، وجرمانيسكوس عن أبيه تيبريوس . ولكن فى حين لم يكن جايوس قد تزوج حتى الوقت الذى سافر فيه إلى الشرق ، كان لجرمانيكوس أسرة كبيرة مكونة من عدد من الأبناء والبنات من بينهم (جايوس الذى سيخلف الامبراطور تيبريوس علي عرش الامبراطورية باسم الامبراطور جايوس أو كاليجولا) . وكانت زوجته أجر يبينا تصحبه فى رحلته تلك إلى الشرق وولدت له أثناءها ابنته ليفيلا . ويرجح تيرز أن يكون جرمانيكوس هو الامبراطور المذكور فى النص سيما وأنه لم يذكر أنه افترق عن زوجته . ويدعم هذا الترجيح ما قاله المؤرخ تاكيتوس أن جرمانيسكوس عندما كان يعالج سكرات فى سوريا عتب الموت على الآلهة تخليها عنه وجعلته يفترق وهو فى هذه السن النضة عن أبويه وأطفاله ووطنه (٢٢) .

وليست هذه هى المرة الأولى التى ذكرت فيها زيارة جرمانيكوس الإسكندرية ومصر التى تخللت عمله فى الشرق إذ تحدثت عنهـا مصادر البردى(٢٣) فضلا عن المصادر الأدبية(٢٤) .

تضمنت إحدى البرديات منشوراً ينوه فيه بالشعور الطيب الذى أبداه نحوه مواطنو الاسكندرية . ولكنه يناشدهم إلا يهتفوا له بألقاب كالقاب الآلهة تثير عليه البغضاء ولا تليق إلا بأبيه (الامبراطور تيبريوس) المنقذ الحقيقى للجنس البشرى كافة ومسدى الخير له . . »

وتضمنت البردية منها منشورا آخر يعلن فيه « جرمانيكوس قيصر بن أغسطس (أى تيبريوس) حفيد أغسطس المؤله نائب القنصل » عدم إكراه الأهالى على

تقديم للراكب والدواب ومنع اغتصاب المنازل لتكون تحت تصرفه هو ورفاقه أثناء رحلاتهم فى مصر العليا(٢٥) .

وتضمنت بردية لندن ١٩١٢ إشارة للامبراطور كلوديوس إلى زيارة ابن أخيه جرمانيكوس للاسكندرية وكيف أنه خاطب مواطنى الإسكندرية بلغة صادقة كل الصدق .

أما البردية الجديدة ، بردية أوكسيرينخوس ، فانها تقدم شاهداً جديداً على ترحيب الاسكندريين بمقدم جرمانيكوس حتى أن مدير البلدية exgetês تقدم مستقبليه ليسلمه قرارات المدينة بالترحيب به عند أول وصوله إلى مدينتهم . والناشر محق فى ملاحظته أن جرمانيكوس لم يكن يتوقع حرارة هذا الاستقبال الحافل الذى قوبل به ، وأنه لم يكن مستعدا لمواجهته بحديث مناسب حتى أنه نسى نفسه ووقار منصبه فأفضى إلى جمهور الاسكندرية بحقيقة مشاعره وما يعتمل فى نفسه من تحسر على مفارقة روما حيث خلف أهله وأحبائه . وبقابل جرمانيكوس هذه الحفاوة بالثناء على المدنية ويردد أن ذلك راجع إلى الاسكندر البطل الذى أنشأها، وهى نغمة ترددت فى خطاب أغسطس لدى دخوله الاسكندر فى عام ٣٠ ق . م (٢٦) كما وأن رسالة كلوديوس إلى الإسكندريين تضمنت الثناء على المدينة وماتكنه أسرته نحوها(٢٧) .

وقد أثارت زيارة جرمانيكوس لمصر مسألتين ، وأولهما مدى مخالفة جرمانيكوس لتعليمات أغسطس التى تحرم على أعضاء مجلس الشيوخ والشخصيات البارزة من طبقة السناتو المجىء إلى مصر بدون إذن مسبق من الامبراطور . والمسألة الثانية حق جرمانيكوس أن يصدر منشورات مع وجود الوالى الشرعى .

وقد بعث تيبريوس برسالة إلى مجلس الشيوخ يشكو فيها من أن جرمانيكوس خالف قواعد الامبراطور أغسطس بدخوله مصر بدون اذن منه . وواضح أن جرمانيكوس بوصفه بروقنصل ، نائب قنصل ، كان فى عداد هيئة الشيوخ ان لم يكن بحكم مركزه عضوا فى ذلك المجلس ، وبذلك كان لايحق له دخول مصر، ولعله اعتقد أن سلطته البروقنصلية الكبرى imperium pronsulare maius وهى سلطة تعلو سلطة حكام ولايات الشرق تعطيه الحق فى دخول مصر دون استئذان الامبراطور خاصة وأن جايوس قيصر وكان مزدوا بنفس السلطة جاء إلى مصر وان كنا لانملك شاهدا على أن الامبراطور أغسطس اعترض على تلك الزيارة مثلما اعترض الامبراطور تيبريوس على زيارة جرمانيكوس . ثم ان جرمانيكوس أصدر المنشورين الذين أسلفنا الاشارة إليهما. حقيقة أنه كان مضطرا إلى اصدارهما. ولكن ذلك ما كان ليتم لولا أنه كان يعتقد أن سلطته تعلو سلطة حاكم مصر ، لأنه وهو ولى عهد الامبراطور له نفس السلطات العليا التى تحجب سلطة الوالى فى حالة مجىء الامبراطور بنفسه إلى مصر . ومن ناحية أخرى ، لانعتقد أن جرمانيكوس كان يجهل مشاعر الامبراطور نحوه . ولو كان يعلم أن زيارته لمصر ستثير ثائرته لما أقدم على المجىء إليهـــا . والذى أشفق منه بالفعل هو أن الألقاب الإلهية التى خلعها عليه مواطنو الاسكندرية قد تتسبب فى حقد الامبراطور عليه ولذلك طالبهم بالكف عن مناداته بها فأصدر منشوره الذى أفهمهم فيه أن ذلك من حق الامبراطور وحده(٢٨). ولذلك لايبدو معقولا أن يتحدى جرمانيكوس الامبراطور ويقدم على زيارة مصر مهما كان حبه للاسكندرية ورغبته فى زيارة آثارها فانتهز فرصته استطاعته قضاء فترة إستجمام تتخلل عمله فى أرمينيا ، فتذرع ، كما قال تاكيتوس ، بحجة الاهتمام بالولاية ، أو انقاذها من مجاعـــة ولكن غرضه الحقيقى كان التعرف إلى تاريخ مصر القديمة وآثارها . وقد يوحى بهذا

الاهتمام ماذكره تاكيتوس من تفاصيل كثيرة تتعلق بوصول جرمانيكوس إلى طيبة وكيف شاهد على صروحها الضخمة الكتابة باللغة المصرية التى تحكى أمجاد الماضى ، وكيف أنه طلب أن يترجم له ما كتب بهذه اللغة . وسمع جرمانيكوس النغم الموسيقى الذى كان يتصاعد من تمثال ممنون عندما تمسه أشعة الشمس وانبهر بمنظر الأهرام الضخمة التى لها ضخامة الجبال .

وثمة ملاحظات تتعلق ببعض كلمات وردت فى النص ؛ من بينها كلمة القرارات Psephismata وقد تكررت فى النص الذى أسلفنا الحديث عنه والمكتوب على الوجه الثانى من البردية ، والكلمات التى قالها جرمانيكوس وهى أن قرارات التكريم قد تصدر عن مجلس يضم عدداً قليلا من الرجال . هل يمكن أن نقول ان جرمانيكوس يقصد مجلس الجيروسيا الاسكندرى الذى أسلفنا الاشارة إليه ؟ . وجاءت فى البردية أيضا كلمة eparchia وهى تقابل الكلمة اللاتينية provincia فهل اعتبر جرمانيكوس مصر واحدة من الولايات التى كان عليه الاهتمام بتنظيمها وهى بذلك ولاية عادية ؟ واضح أن الامبراطور بشكواه التى قدمها إلى مجلس الشيوخ رفض وجهة نظر جرمانيكوس وأوضح أن جرمانيكوس تجاوز حدود سلطته . ومن ناحية أخرى لانظن أن جرمانيكوس كان من الغفلة بحيث أنه جهل حقيقة وضع مصر بالنسبة للامبراطورية الرومانية فأقدم بكل بساطة على دخول مصر ضارباً عرض الحائط بالقيود التى كان الامبراطور أغسطس قد وضعها على دخولها لرجال من طبقته وفى مكانته . ويبقى التفسير المحتمل وهو أن ظن أنه بوصفه ولى العهد وابن الامبراطور بالتبنى لايرتكب مخالفة للقواعد التى وضعت لحكم مصر إذا دخلها دون إذن من الامبراطور .

وينبه الناشر إلى الشبه القائم بين هذا النص وبين النص الذى تضمنته بردية P. Fouad 8 والخاص بزيارة الامبراطور فسباسيانوس (٦٩ — ٧٩ م .)

للاسكندرية والاستقبال الحافل الذى نظمه لاستقباله حـــاكم الاسكندرية ومصر تيبريوس يوليوس اسكندر فى حلبة سباق الخيل hippodromos . ونعرف من المؤرخ اليهودى يوسف أن جند الفرق الرومانية فى مصر وشعب الاسكندرية كانوا يتوقون لإظهار مشاعرهم نحو الامبراطور . وأن الحاكم جعلهم يقسمون له يمين الولاء . أما بردية P. Fouad 8 فانهـــا تسجل الهتافات التى تعالت بحياة « فسباسيان المنقذ والمصلح والمحسن مولانا قيصر سيرابيس ابن آمون قيصر المؤله » (٢٩) .

وفى رأى الأستاذ تيرنر أن الوصف التفصيلى لزيارة الشخصيات الـكبيرة للإسكندرية مثل أعضاء البيت الامبراطورى كان موضوعاً للنشرات السياسية . هذه النشرات تعرف باسم em phanismoi بمعنى ظهور تلك الشخصيات أو تجليها أمام الشعب . وقد استعمل جرمانيـكوس هذه الـكلمة بهذا المعنى عندما هدد شعب الاسكندرية أنه لن يظهر بينهم كثيراً إذا أصروا على مناداته بألقاب التأليه (٣٠) .

وواضح اذن أن نص بردية أو كسير ينخوس المثبت على وجهها الأول إنما هو تسجيل لاستقبال السكندريين لجرمانيـكوس عند أول نزوله بالاسكندرية . وأعرب جرمانيـكوس عن شكره وامتنانه بأن فتح صوامع الغلال ووزعها على المواطنين وقد يكون لهذا التصرف صلة بالمجاعة التى تحدث عنها تاكيتوس أو قد لايكون . المهم أن حماس السكندريين تجاوز حدوده حتى اضطر جرمانيـكوس إلى اصدار منشوره الذى طلب فيه اليهم الاعتدال فى اظهار عواطفهم والتوقف عن تلقيبه بألقاب الآلهة.

وأخيراً ما الذى جمع بين هذا النص الخاص باستقبال جرمانيكوس وبين النص الخاص بالحواريين وفد الاسكندرية والامبراطور أغسطس المثبت على الوجه الثانى لبردية أوكسيرينخوس ؟

المعقول أن مواطنا من الاسكندرية اطلع على سجلات المدينة ونقل عنها النصين وسجلهما على وجهى البردية ، وحملها إلى أوكسيرينخوس حيث كانت تتداول على هيئه منشور سياسى .

الحواشى

١ — The Oxyrhynchus Papyri, Part XXV, Lond. 1959, No. 2435, p. 103 f f.

٢ — عندما دخل أوكتافيانوس (أغسطس) الاسكندرية فى أول أغسطس عام ٣٠ ق.م. كان فى صحبته أستاذه آريوس Areius الفيلسوف الاسكندرى. وأعلن الامبراطور فى خطاب ألقاه باللغة الاغريقية أنه يعفو عن الاسكندرية لثلاثة أسباب وأولها لأن منشىء المدينة هو الاسكندر الأكبر، وثانيها لجمالها الفائق وضخامتها، وثالثها من أجل صديقه آريوس. راجع. Dio Cassius Ll, I6,A

G. W. Bowersock, Augustus & the Greek World, Oxford, 1962, p. 33.

٣ — عن زيارة جرمانيكوس للاسكندرية ومصر فى عام ١٩ م. راجع؛ عبد اللطيف أحمد على، مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، القاهرة ١٩٦٥، ص ص ٧٠ — ٨٠.

٤ — كان تيبريوس وابنه دروسوس، وابن أخيه جرمانيكوس الأعضاء الدائمين فى مجلس الامبراطور Consilium وكانوا فى الوقت نفسه أكثر رجال روما قوة وتأثيرا. وقد احتفظ أغسطس لنفسه بحق ادخال أعضاء فى المجلس يطمئن إلى مساندتهم له وذلك ليحصل من المجلس على القرارات التى يريدها إذ أن هذا المجلس لم يعد مجلسا استشاريا، بل اكتسبت قراراته القوة القانونية التى كانت لقرارات مجلس الشيوخ Senatus consulta أنظر.

Dio Cassius, lvi, 28, 2—3; J. A. Crook, Consilium Principis, Cambridge, 1955, p. ls No. 2, 3.

وكان أغسطس قد بلغ من العمر ٧٤ عاما عندما أعاد تكوين هذ المجس في عام ١٢ م أو ١٣ م . بحيث تتضمن عضويته هؤلاء الثلاثة من البيت الامبراطورى والقناصل وأعضاء من الشيوخ ليخفف عن نفسه عبء العمل وهو فى هذه السن المتقدمة . ويمكننا أن نتعرف ، بفضل النص الذى تضمنه الوجه الثانى من بردية أوكسيرينخوس ، على القنصل فاليريوس مسالينوس كورفيوس الذى كان صديقاً لتيبريوس والثانى هو ماركوس أفيديوس أورجالانيوس الذى كانت أورجولانيا Urgulania أخته أو ابنته صديقة مقربة من ليفيا فضلا عن أن الأمبراطور كلوديوس تزوج من أبنتة . ويرجح أن أغسطس بضم هذين الشخصين إنما كان يريد التمهيد لنقل السلطة إلى تيبريوس P. Oxy. 43. recto & pp. 104, III

٥ — يرى الأستاذ تيرنر أن الامبراطور أعاد تشكيل المجلس فى عام ١٢ م وذلك فى تعليقة على هذه البردية ص ١٠٤ فى حين أن كروك J, A. Crook فى المرجع المذكور فى الحاشية السابقة ص ١٤ يذكر أن التشكيل تم فى عام ١٣ م وإذا أخذنا بالتاريخ الثانى فإن تغيب جرمانيكوس عن حضور الجلسة يكون أمراً طبيعياً لأن المجلس تشكل أثناء غيابه فى بلاد الغال . وعلى أى حال فإن موعد مجىء وفد الاسكندرية للاجتماع بالامبراطور ومجلسه فى شكله الجديد ، ان لم يكن قد رتب من قبل ، كان موعداً مناسبا دون شك .

٦ — P. Oxy. 1089=Musurillo,P. Acta. II = C. P. Jud. 124,

مصطفى كمال عبد العليم ، اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٤٨ وحاشية ٤٤ .

٧ — P. bibl. univ. Ciss 46 = Musurillo, p. Acta. III = C. p. Jud. 155.

عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ص ٩٣ وما يليها .

٨ — الحاشية السابقة؛

H. E. Masurillo The Acts of the Pagan Martyrs (Acta Alexandrinorum), Oxford, 1954, p. 110.

٩ — P. Oxy. Part XXV p. 105.

١٠ — A. E. R. Boak, A History of Rome to 565 A. D., 3 rd. ed. N. york, 1947, p. 286; P. Oxy; Part XXX. p. 105.

ونحن نميل إلى رأى موميليانو وذلك بمقارنة ماورد فى بردية لندن ١٩١٢ بخصوص تمثال Pax Augusta Claudiana

١٢ — L. A. Yehya, On lhe question of the Qlexandrian Senate in Ptolemaic Egyprt. Bul. of the Fac. of Arts, Alexandria university, Vol. II, 1958, p. 77 ff.,

بالنسبة للرأى القائل بأن بطلميوس يوارجيتيس الثانى هو الذى أقدم على إلغاء مجلس الشورى راجع .

C. P. Jud. Vol I, P, 24; H. I. Bell The Acts, of The Alexandrians, J. J. P. lv, 1950, b. 21

١٣ — P. S. I. 1160 = Masurillo I = C P Jud. 150

والبردية ترجمة طيبة باللغة العربية اعتمدت عليها ، راجع عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ص ٨٤ هامش (١٢١ قارن P, Oxy .2339 .

١٤ — V. Tcherikover A. Fuks. Corpus Papyrorum Judaicarum Vol II Harvard university Press, 1960 pp. 22–29.

١٥ — المرجع السابق ، راجع بصفة خاصة تعليق الناشرين على السطر ٢١ ، السطور ٢١ — ٢٣ من النص الذى تضمنته بردية PSI, 1160

١٦ — P. Oxy., part XXV, p 107.

١٧ — P. Lond. 1912

راجع عبد اللطيف أحمد على، المرجع السابق ص ١٠٣ وما يليها وأنظر أيضا ـ L. A. Yehya, op. cit., p. 78–82

١٨ — راجع مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ص ٢٠٣ وما يليها .

١٩ — Jos. Ant. 18, 160, 259; 19, 276, 20 100 Ct. C. P. Jud, II. 197 f.

٢٠ — Srrabo, ap. Jos. Ant. XIV, 117

مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ، ص ٢٣٢.

٢١ — p, Oxy. part XXV, p. 105.

٢٢ — Tacirus, Ann., 11, 69.

٢٣ — SB 3924 = Sel. Pap, II 211.

راجع ترجمة البردية التى تضمنت منشورين أصدرهما جرمانيكوس عند ، عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ص ٧٨ وما يليها ، وراجع أيضـــا , P, Lond, 1912 - W. Chrest .413

٢٤ — Suetonius, Tiberius, L 11, 2; Tacitus, Ann. II 59–61

٢٥ — SB 3924 = Sel. Pap. II 211

٢٦ — P. Oxy. part XXV, p. 110; Dio Cassius, LI .16 .3-5

٢٧ — P. Lond. 1912

٢٨ — عن تفاصيل زيارة جرمانيكوس للاسكندرية ومصر راجع عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق . ص ٧٠ ومابليها .

٢٩ — عبد اللطيف أحمد المرجع السابق ض ١٤٣ .

C P Jud. II, pap-No. 418 a = g. Fuoad.

راجع تعليق الناشر يين وشرحهما p.190 f.

٣٠ — P. Oxy. part XXV, p. 106

مصطفى كمال عبد العليم
كلية الآداب — جامعة عين شمس

مبحث فى دراسة البطريسطيقا

بقلم الدكتور على الغمراوى

أستاذ مساعد تاريخ وحضارة العصور الوسطى بجامعة عين شمس وجامعة الكويت

اعتمدت فى هـذه البحث على هانز فرايهر فون كامينهاوزن « آباء الكنيسة اليونان » (الطبعة الرابعة . شتوتجارت ١٩٦٧)(١) و « آباء الكنيسة اللاتين » (الطبعة الثانية . شتوتجارت١٩٦٥)(٢) ولويس جون بيتو « دليل دراسة التاريخ الوسيط » (طبعة منقحة . نيويورك ١٩٦٤)(٣) وقاموس أكسفورد الكلاسيكى (الطبعة الثانية . أكسفورد ١٩٧٠)(٤) .

موضوع البطريسطيقا هو البحث فى المؤلفات الأدبية واللاهوتية لآباء الكنيسة القدامى ؛ فالبطريسطيقاتعتبر بهذا المعنى تاريخا للأدب الكنيسى فى عهوده الأولى، ودرسا للعقيدة والسنن المسيحية ، وفضلا عن هذا مضمونا هاما فى تاريخ الأدب الكلاسيكى الأخير . ولما كان مبحث البطريسطيقا وحده لا يكمن فى الدراسات الفيلولوجيةأو فى تاريخ الكنيسة الشامل ، فإنه ليس من اليسير أن نتفهم نطاقها وفقا للخواطر العقيدية ووجهات نظر المصنفين اللاهوتية فحسب .

لعله من الثابت أن التعاليم الإنجيلية ، ورسائل الرسل ، ورؤى الأنبياء ، كانت وحدها منبع للمعرفة الروحية المسيحية فيما قبل القرن الثانى . وقد جاءت بعض

النبوات والوصايا والرسائل مجهولة المنشأ أو منسوبة إلى الشهود الرسوليين فى الزمن الأول . وفى غضون القرن الثانى ، بعد أن أصبح التصور الموضوعى لتعاليم الكتاب المقدس أمرا ممكنا ، ظهر من المفكرين المسيحيين من عرفوا بآباء الكنيسة الذين لم يعد فى وعيهم أنهم شهود لدعوة المسيح كما كانت تشعر أجيال العصر الرسولى وما بعده ، ولم يعد كذلك فى حسبانهم أن يكتبوا مؤلفات من نوع الأناجيل وأسفار الرؤيا وبشارات الرسل . لقد كانوا رجالا أرادوا ، بمطلق حريتهم ، أن يضعوا ثقافتهم ومواهبهم فى خدمة الكنيسة ، فقدموا لها تفاسير وبحوثا ومقولات جدلية ودفاعية عن العقائد المسيحية ، لها صفة تصنيفية وتهذيبية ، وتاريخية فى بعض الأحيان .

ولما كان الأدب المسيحى قد نما فى بادىء الأمر على يد المثقفين فى الكنيسة اليونانية ، فلم يكن من المستطاع بطبيعة الحال أن يتطور الفكر الدينى بعيدا عن تأثير العقلانية اليونانية وتقليد الثقافة الهللينستية . ولعل تساوق الفكر المسيحى بصفة عامة مع كثير من مفاهيم التراث الكلاسيكى ، ذلك التساوق الذى هو من عمد الثقافة الأوربية ، كان أهم انجازات آباء الكنيسة الذين لم يكن يعنيهم فى واقع الأمر ، وفى خضم الجدل حول مضامين العقيدة والتربية المسيحية ، مجرد الحفاظ على تراث العالم القديم بقدر البحث عن الحقيقة المطلقة التى لا تنبعث هناك ، وإنما هم يجدونها فى الكتاب المقدس وفى تقليد الكتاب على مر العصور . وإذا كانت البطريسطيقا كما سبق أن قلنا هى دراسة تاريخ الأدب الكنيسى القديم وتاريخ الدوغما ، الذى يعرض فيما يعرض وجهات النظر اللاهوتية ، فانه يصبح من المتعين على المؤرخ أن يدقق النظر فى مهمة الكنيسة وفى دروس وتعاليم الآباء ، حتى يتفهم الفكر الروحى فيما نبع فى ذلك العالم والزمان .

وأيا ما كان الأمر فإن مفهوم « أبي الكنيسة » ، كما قال فريدريش أوفربك ، قد نشأ عن اعتبارات دوغماطيقية صرفة ، وعن حاجات البرهان على التعاليم الجامعة(٥) . فقد انصرف الاهتمام إلى تجميع شواهد المتوترات والمعتقدات من أجل إسناد التعاليم الدارجة الموثوقة والمظنونة على السواء . وبهذا القصد عنى المفكرون في القرن الرابع بمقولات اللاهوتيين الأسبقين ، بوصفها إمامة مع الشرائع وأسفار الكتاب المقدس . ولعل هذه العناية الدوغماطية بالتقليد الكنيسي لاتزال تلعب دوراً هاماً في اللاهوت الكاثوليكي حتى يومنا هذا .

غير أن علم اللاهوت يختلف في اعتباره وفي نظرته إلى بعض الشراح الأوائل الذين أصابوا في عصورهم قدراً عظيماً من الشهرة وذاع صيتهم في تفسير العقيدة . فهو ينفي عن أوريجين الاسكندراني لقب أبي الكنيسة بصفة قاطعة ، كما يرتاب في حجية أكليمنس هذا . وإن قد أولى أغلب الآباء وفي مقدمتهم جوستين، وأرنايوس، ويوساب أسقف قيسارية فلسطين ، وأطناس، وفازيل العظيم ، وغريغور النازيانزي، وغريغور النيساوي ، وسيناز القوريني ، ويوحنا ذهبي الفم ، والأنبا كيرلس بطريرك الاسكندرية ، تقديراً خاصاً بوصفهم صفوة المثقفين والعلماء في الكنيسة . ولا جدال في أن هذا التصنيف اللاحق يسد بالضرورة تقيماً للشريعة المسيحية والأدب المسيحي القديم .

ومن الجدير بالذكر أن سياقاً من الحجج « الأبوية » قد عد ضمن التراث الرسولي ، وأصبح مع العهد الجديد في مجموعة الشرائع الدوغماطية القياسية . هذا وإن كنا نرى أن اللاهوتيين قد استبعدوا بعض المقولات ، على الرغم من قدم عهدها كما اعتبروا بعضاً آخر مقولات أبوقريفية لعوزها الصحة . ولا ينبغي على المؤرخين أن يقفوا عند هذه الفروق ، إذ أن الأبوقريفا لها دلالة خاصة ولا شك بالنسبة للمسائل الكنيسية ، بل أن صحة مضمونها يمكن أن تتأكد من واقع ماقد ينطبق عليها

من نصوص العهد ، بحيث يصبح من الجلى أن الدراسة التاريخية الحقة لآباء الكنيسة لا يمكن أن تقلل من شأنها . وما دامت البطريسطيقا القديمة قد اعترفت بتلك المقولات فانها لم تكن تعرف من ثم ما أسمـــاه فريدريش أوفريك بحالة الفوضى والاضطراب .

لقد دعا أوفريك بوصفه فقيهاً ومؤرخا إلى نقد مؤلفات الآباء نقداً أدبياً دقيقاً وهذا يعنى بالدرجة الأولى دراسة النصوص « الأبوية » دراسة تحليلية . ولعل هذا المنهج هو الذى صادف منذ القرن التاسع عشر مزيداً من الإجماع بين العلماء ، رغم أن الهدف من ورائه لم يتحقق بعد بصفة تامة ، ولا نعتقد أنه سوف يتحقق على هذا النحو ، إذ أن النظرة التاريخية الأدبية هذه ليست كافية بحد ذاتها ، ولا يمكن أن نضعها وحدها فى اعتبارنا ونحن بصدد الدراسة البطريسطيقية الموضوعية . فلم يكن يدور وقتذاك بخلد واحد من آباء الكنيسة أنه من علماء اللاهوت أو جماعة الأدباء بالمعنى الذى نعرفه ؛ فالآباء كانوا ، حسب ظنهم ، يبسطون الحقيقـــة التى استرشدوها من أجل صلاح الطائفة المسيحية ، والتى توجب عليهم أن يبشروا بها العالم أينما كانوا بعيداً عن مدارج الخطابة والبيان . لقد كانوا فى نظر أنفسهم معلمين للكنيسة وفلاسفة مسيحيين وأصحاب حركة تنويرية لشرح الكتاب المقدس .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن ننوه بالجدل الذى ثار حول أول اللاهوتيين من آباء الكنيسة اليونانيين الذين حاولوا فهم المسيحية بروح الفكر الاغريقى ، ونعنى به جوستين الشهيد أو جوستين الفيلسوف كما كان يلقبه المعاصرون . وكان من الطبيعى أن يثور مثل هذا الجدل ، إذ أن تاريخ الفكر يمتد عبر مراحل تتداخل بحكم الضرورة على نحو من شأنه أن يجعل التحديد الذى يضعه المؤرخ لبداية ونهاية أية مرحلة من هذه المراحل من قبيل التيسير على الدارسين ليس إلا ، وهذا مالا يمكن أن ينطبق على الواقع كما يريد .

حقاً لقد تمت كذلك فى النصف الأول من القرن الثانى محاولات عرضية لسوق الرسالة المسيحية فى عبارات فلسفية ، بقصد تبيان أبعاد جديدة ، غير أنها كانت محاولات تفتقر إلى الجدية فى خلق منهج للتفسير اللاهوتى ، الأمر الذى يجعل صدارة آباء الكنيسة من حق جوستين ، فقد كان أول من فسر العقيدة المسيحية بتعاليم الفلسفة الأفلاطونية ، وسبق أكليمنس ومدرسة الاسكندرية بفكرة « اللوغوس سبرماتيكوس » التى تعنى بلوغ الحقيقة فى المسيح ، كما سبق أوريجين الاسكندرانى ويوساب القيسارى بفلسفة التاريخ المسيحية .

ومما سبق قوله فانه يصعب علينا أن نضع بالتالى نهاية لحقبة آباء الكنيسة ، وأن كنا نستطيع أن نتلمس هذه النهاية بقدر الإمكان ، فى الفترة التى أخذ التغير فيها يطرأ على تقليد الآباء ، وأخذت حرية البحث الجدلى لكتب العهد تتحدد من أساسها ، وبعبارة أخرى عندما تغير المنهج اللاهوتى وأصبح أسكولائيا منذ القرن الخامس على التقريب.

ومن المرجح ، حسبما نعرف من تاريخ الفكر المسيحى ، أن أدب آباء الكنيسة اللاتين بدأ بمؤلفات البرشبتر القرطاجى ترتوليان ، وذلك بعد نحو مائة عام على بدئية أدب الكنيسة اليونانية الذى ظل الأدب الرائد فى الغرب اللاتينى إلى قرابة نهاية القرن الرابع . ومع ذلك نرى أن الحياة الكنسية فى أوروبا اللاتينية قد اكتسبت بادىء ذى بدء شكلا جديداً لم يسبق أن عرفته المسيحية اليونانية من قبل ، وأن اللاهوت بصفة خاصة أخذ يتطور تطوراً ذاتياً كان له على عالم النصرانية أثر فاق بكثير أثر اللاهوت اليونانى ، الذى كان مساره فى تيار الفكر الاغريقى ولا شك على حساب الأصول العبرانية فى العهد القديم .

صحيح أن الغرب اللاتينى ، كما هو الحال فى شأن الكنيسة القديمة ، كان قد انضوى منذ زمن بعيد تحت لواء الثقافة اليونانية ، ولعل هذا هو الذى عجل بتطور الكنيسة الغربية ، غير أن تراث العالم الرومانى لم يذوب فى أفق الفكر الهلينستى ،

وإنما أمكنه بالحوار أن يحتفظ بصفاته وأن يصوغ قالباً فكرياً طبعته العقلية الرومانية بطابعها الخاص . وإذا كان الآباء اللاتين قد درسوا الثقافة الدينية واستقوها من علوم الأساتذة اليونان ، إلا أنهم اختطوا لأنفسهم منذ البداية مدخلا خاصاً إلى الكتاب المقدس وقبل كل شيء إلى العهد القديم .

وصحيح كذلك أن تحفظ الآباء اللاتين ، قبل ميول الفكر الإغريقي الفلسفية واتجاهاته الميتافيزيقية . قد زال في القرن الرابع ، وازدهر اللاهوت من جراء ذلك ازدهاراً كبيراً ، نلمسه في مؤلفات القديس أوغسطين ، إلا أن هـذا اللاهوت « الفلسفي » الجديد لم يخلص كذلك من أصول التفكير الرومانية ، ولذلك لم يكن محض مصادفة أن يهتم اللاهوت اللاتيني بالمسألة التي أثارها بولس الرسول عن الإيمان والناموس . والتي كاد اللاهوت اليوناني لايهتم لها ، بل أنها ظلت في معناها غريبة عنه إطلاقاً .

وعلى أية حال كانت هذه الألفة النرية بين الوجود الروماني واليهودية هو الذي جعل الكنيسة اللاتينية قادرة على إدراك ماكان « الإنجيـل » يعني بالنسبة لها :

ويهمني في ختام هذا البحث أن أقدم ثبتا بمجموعات المصادر والكتب التي تلزم الباحث في الباترولوغيا وتاريخ الدوغما . أما كتب تاريخ الكنيسة واللاهوت وتاريخ الأدب المسيحي فهي كثيرة ، وأرجو أن أعرض لها في سياق آخر . وان كنت أجد من الضروري أن أشير إلى موالر « تاريخ الكنيسة(٦) » وليتسمان « تاريخ الكنيسة القديمة »(٧) وهارناك «تاريخ الأدب المسيحي حتى يوساب»(٨) وشتيلين « الأدب اليوناني المسيحي القديم »(٩) وباردنهيفر «تاريخ الأدب الكنسي القديم »(١٠) لما لهذه المؤلفات من أهمية خاصة بالنسبة لموضوعنا هذا .

Adnotationes

(1) Campenhausen (H. F. V.), Griechische Kirchenvaeter. 4. Aufl. Stuttgart 1967.

(2) Campenhausen (H. F. V.), Lateinische Kirchenvaetr. 2. Aufl. Stuttgart 1965.

(3) Paetow (L. J.), A Guide to the Study of Medieval history. Revised edition prepared under the auspices of the Medieval Academy. of America New York 1964.

(4) The Oxford classical dictionary. 2 nd ed. Oxford 1970 S. V. Justin Martyr.

(5) F. Overbeck, Ueber die Anfaenge der patristischen Litkratur : Historische Zeitschrift 48 (1882). 418 : "Der Begriff des Kirchenvaters stammt aus der Dogmatik und ist aus den Beduerfnissen des Katholischen Traditionsbeweis entstanden".

(6) Mueller (K.), Kirchengeschichte. 2 Bde. Tuebingen 1892-1902. ImGrundriss der theologisvnen Wissenschaften IV 2 (II, 3. Aufl. 1941 in Gemeinschaft mit H. Von Campenhausen).

(7) Lietzmann (H.), Ceschichte der alten Kirche. 4 Bde. 2. u. 3. Aufl. 1953.

(8) Harnack (A.), Geschichte der christlichen Literatur bis Eusebius. I. Ueberlieferung und Bestand 1893. II. Chronologie 1897-1904.

(9) Staehlin (O.), Die altchristliche griechische Literatur. Als Teilband Von W. V. Christ, Ceschichte der christlichen Literatur. 6. Aufl. Muenchen 1924.

(10) Bardenhewer (O.), Ceschichte der altkirchlichen Literatur. 4 Bde. Freiburg i. B. 1913 —.

Libri

Altaner (B.), Leben, Schriften und Lehre der Kirchenvaeter : in Patrologie. 6. Aufl. 1960 — Bach (j.), Die Dogmengeschichte des Mittelalters Vom christologischen Standpunkt. Bde. Wien 1873—1875— Bibliothek der Kirchenvaeter. 2. Aufl. Kempten-Muenchen 1911 — Bonwetsch (C. N.) Crundriss der Dogmengeschichte. Muenchen 1908 — Clavis patrum Latinorum (= Sacris Erudiri III 1951). ed. E. Dekkers, E. Gaar — Corpus Christianorum (Series latina). St. Peters-Abtei in Steenbrugge 1953 - Corpus ecclesiasticorum latinorum. Wien 1866 — Fischer (G. P.) History of Christian doctrine. New York 1896 (The international theological library IV) — Chiechische christliche Schriftsteller der ersten drei Jahrhunderte. Berliner Akademie 1897 — Hagenbach (K. R.), A history of Christian doctrines (English translation). Edinburgh 1883-1885 — Harnack (A.), Dogmengeschichte. 4. Aufl. Tuebingen 1905 — Harnack (A.) Lehrbuch der Dogmengeschichte. 3 Bde. Freiburg 1886 — 4. Aufl. Tuebingen 1909-1910. 5. Aufl. 1932. Translated from the 3rd ed by N. Buchanan, Histay of dogma. 7 Vols. London 1897 — Loofs (Fr.), Leitfaden Zum Studium der Dogmengeschichte. Halle 1889. 5. Aufl. hrsg. Von K. Aland 1950—1953.6. Aufl. 1959—Patrologiae

Cursus Completus. ed. J. P. Migne. Series Latina. Paris 1844—Series Graeca ; Paris 1857. Supplementum. ed. A. Hamman 1958 — Quasten (J.), Patr logz. Utrecht 1950—Sammlung ausgewaehlter Kirchen-und dogmengesohichtlicher Quellenschriften. hrsg. Von G. Krueger. Tnebingen — Leipzig- Freiburg 1891-1911 — Schmaus (M.), Geiselmann (P.), Rahner (H.) (hrsg.), Handbuch der Dogmengeschichte. 1951 — Seeberg (R.), Grundriss der Dogmengeschichte. 3. Aufl. Leipzig 1910 — Seeberg (R.), Lehrbuch der Dogmengeschichte. 2 Bde. 2. Aufl. Leipzig 1908-1910. Translated into English by C. E. Hay. 2 Vols. Philadelphia C. 1905 — Thomasius (D.) Die Christliche Dogmengeschichte 2 Bde. Erlangen 1836-1887 — Tixeront (J.), Histoire des dogmes. 3 tomes. Paris 1906-1912. Translated by H. L. B., History of dogmas. St. Louis 1910

أبيـــلارد

اللاهوتى الحـــــر

بقلم دكتور إسحق عبيد / مدرس العصور الوسطى
بكلية الآداب جامعة عين شمس

يقول الشاعر مارلو فى التعبير عن انطلاقة العقل بحثاً وراء المعرفة الحرة :

Still Climbing after Knowledge infinite
And ever moving as the restless Sph eres

« ويظل يحلق فيا وراء المعرفة اللانهائية »
« ويسبح أبداً كدوائر لاتهدأ »

ويصدق هذا الوصف أشد مايصدق على بطل مقالنا ، بطرس أبيلاردوس باللاتينوس (١٠٧٩ — ١١٤٢ م) ، فهو الذى أنشد أعذب ألحان الحرية — حرية الفكر — فى تحد صارخ ضد جبروت الكنيسة وأحبارها المتربصين لكى يئدوا كل وليد فكر حر ، فى ذلك الحين الوسيط من القرن الثانى عشر للميلاد . اسمع ابيلارد فى هذه الأبيات اللاتينية المذبة ، وهو يتوسل إلى الطير أن يمن عليه بنصته صامتاً برهة من الزمان ، حتى يشدو هو فيها بعضـــا مما يعتمل فى قلبه من معان وأغانى .

Sile, Philomene,
Pro tempore,
Surge Cantilena,
de Pe Ctore

صمتا أيها المحبوب
من أجل الوقت
ولتخرج الأنشودة من القلب .

ولد أبيلارد لأسرة نبيلة : فوالده هو سيد (لورد) إقطاعية Le Pallet في إقليم بريتاني الواقع إلى جنوبي نهر اللوار بفرنسا .

وقد تلقى أبيلارد الصبي تعليمه في بلدة Loches حيث درس المنطق ما بين عامي ١٠٩٤-١١٠٦ ثم انتقل إلى باريس حيث تتلمذ على يد كل من روسلينوس ووليم من شامبو . ثم ضطلع الفتى بالتدريس في مدارس ميلون وكوربيل . وبعد قليل عاوده الحنين إلى باريس فالتحق بمدرسة وليم دي شامبو (guillaume de Champeaux) ولكنه سرعان ما تمرد ضد أستاذه وهاجم آراءه في مسألة « الكليات » universals

بعد هذا اضطلع ابيلارد بالتعليم في مدرسة مونت سانت جنفياف ، ثم ما لبث أن التحق بمدرسة العلم أنسلم من لاوون أستاذ اللاهوت المرموق (حوالي سنة ١١١٤ غير أن أبيلارد سرعان ما هاجم آراء أستاذه الكبير . وعاد أبيلارد مرة أخرى إلى باريس ليعلم المنطق واللاهوت في مدرسة نوتردام .

إن هذا الفتى العارف من المشائين لم يكن يعرف الاستقرار في مكان واحد فهو يطلب العلم والمعرفة أينما وجدها . وليس أدل على طبيعة مزاجه من أنه كان قد تمرد أول ما تمرد ضد هرم عائلته الإقطاعية ، وضد تقاليد فرنسا والنبالة ، فنجده يتنازل طواعية لأخيه الأصغر عن حقه في الإقطاع ، وكذا عن تقلد زخرف الفروسية وهكذا سعى ذلك العاشق الولهان وراء نبع المعرفة ينهل منها ، وهو بعد ظمآن حتى إذا ما ارتوت تلك النبتة الأصيلة ، أثمرت فأذهلت أروقة جامعة باريس وبيعها وصالوناتها الأدبية .

بشر أبيلارد بالخلاص وذلك بتحرير العقل وملكاته من أغلال الكلمة المملاة وورق الكتاب ، فحرر بهذا النداء عقلية العصر الوسيط من طغيان الكهنوت ومن صلف العلمانية المجهولة . وسنرى من تاريخ مأساته أنه المصلح الأول للكنيسة ، والرائد لمنهاج الديالكتيكا ، والإلقاء في الحركة الرومانسية .

عندما طبقت شهرة أبيلارد العلمية كل الأفاق طلب إليه أحد كبار رجال الدين فى نوتردام ، واسمه فولبير ، أن يقوم بالتدريس لإبنة أخيه الفتاة إلواز Heloise وإلواز هذه جد فاتنة فطنة ، وهى بعد هذا تمشق المعرفة الحرة وتبغض القيود .
وقع المعلم فى غرام تلميذته الجميلة ، وصحت باريس ذات يوم على نبأ هروب الأستاذ الراهب وتلميذته الفتاة وسرت القصة فى ربوع فرنسا سريان النار فى الهشيم ، فأمست حديث أوروبا كلها . وبينما العلاقة بين الهاربين تثمر جنينا ، كانت لعنات رجال الإكليروس تطارد أبيلارد، فأشاروا إليه على أنه لوسيفر وبعلزبول ، وأذاعوا أنه لابد قد اختطف إلى فوق لكى يطرح به غضب الرب إلى سعير الجحيم حيث البكاء وصرير الأسنان ! هذا بينما تناقل الشباب على ضفاف السين غــزل أبيلارد وعشيقته فى غابات فرنسا وبراريها ، وراحوا ينشدون هاتيك الرومانسيات على قارعة الطريق وعلى أعتاب الكاتدرائيات ونوتردام . استمع إلى إيلواز ، وهى الآن زوج فى الخفاء لأبيلارد تخاطبه تقول :

« كل المدائن ، لابل والقرى كلها هبت لتنعم بحسن مقدمك :
وتلك العيون جميعا لاتملك إلا أن تحملق فى وجهك ، أيا زينة الرجال »

ولكن فولبير ــ عم الفتاة إلواز قد نجح فى الانتقام من أبيلارد فلقد استأجر من أوقع به فى الشرك ، وقاموا بخصى الرجل وحرمانه من كينونة الرجولة .

لكن جولياث لم ينهزم ، فالدنيا كلها تلهث من خلفه ، وهو الآن يحمل على كتفيه جثة مأساته ، وإنما هو يتوقف بين الحين والحين ليلتقط هراوة هرقل (وهى هنا قلم أبيلارد ويراع الحرية) ليحطم بها كل المسلمات من القضايا عند المناطقة والفلاسفة ورجال اللاهوت . إنه رجل الديالكتيكا !!

وهذا يقودنا إلى البحث فى فكر أبيلارد .

كانت الفلسفة التى تشغل العصر الذى ظهر فيه أبيلارد تدور حول القضايا الكلية Universals ، وتقصى العلاقة بين الكليات (أو النوع genere) وبين جزء (فرد) هذا الكل أو النوع .

وتلكم هى قضية العام والخاص فى الوجود . وكانت مشكلات هذه القضية مطروحة لدى العارفين فى تساؤلات من قبيل : الصلة بين كلى مجرد كقولنا « حيوان » أو « آدمى » بالنسبة إلى ملموس الواحد الفرد فى عوالم الآدمية أو بين مملكة الحيوان. ثم هل هذه المسميات الكلية هى مجرد مدركات عقلية أم أن لها واقعاً محسوساً؟

وكانت نوعية الإجابة على هـــذه الأسئلة هى الفيصل بين نهجين مختلفين من الفلسفة فى ذلك العصر : فكانت هناك مدرسة الإسميين Nominalists ثم مدرسة الواقعيين Realists .

أما الإسميون فقد رأوا أن الكليات هى مجرد مسميات أو مدركات لا وجود لها إلا فى اصطلاحنا العقلى ونعبر عنها فى دلالاتنا الصوتية Flatus Vocis ، ذلك لأن ليس لها ترجمة فى الواقع الملموس ، أما الكينونة والوجود فهى من حق الخاص أو الجزء أو الفرد لهذا المدرك العقلى أو ذاك .

هذا فى حين أن أتباع المدرسة الواقعية قالوا بأن للكليات وجوداً أسبق لوجود الفرديات ، كما وأن كل جزء يحمل فى طياته جوهر كله (نوعه) .

أما أبيلارد فقد طرح كل هذه القضايا من جديد وقام بسلبها Negatiou أى عراها تماما وراح يتناولها بمنهج الشك أى أنه يضع السؤال ويتقصى جوابه ، ثم يناقش ضـــديات ما قد يصل إليه من جواب . طرح أبيلارد من جديد الأسئلة الثلاثة التى أوردها الفيلسوف Porhpyry فى كتابه بعنوان Isagoge دون أن يقدم لها جوابا شافيا . ثم أضاف أبيلادر عليها سؤالا رابعامن عنـــده . وهى تجرى كالآتى :

١ — هل للكليات واقع أو وجود ، أم أنها مجرد مدركات عقلية؟

٢ — وإذا افترضنا أن للكليات واقعاً ، فهل هذا الواقع أو الوجود محسوس (مادى) أم غير محسوس (غير مادى) ؟

٣ — هل وجود الكلى قاصر على ذاته لذاته، أم أن له وجوداً فى المحسوسات؟

٤ — إذا قلنا بأن لاوجود للجزء ، فهل رغم هذا يكون للكل (نوع) هذا الجزء وجود ؟ أو بطريقة أخرى: هل وجود الكل وقف على تواجد جزءه أم لا ؟

كان الفيلسوف بوء ثيوس (٤٧٠ — ٥٢٥ م) هو أول من حاول إيجاد حل لهذه المشكلات فقال بأن الجزء (الخاص — الفرد) إن هو إلا تجسيد للكل ، بمعنى إن الخاص فى خواصه المادية وأعراضه الملموسة يمثل كل هذا الخاص . وساق مثالا على هذا بأن كلا من أفلاطون وارسطو — على سبيل المثال — إن هما إلا تعبيران فرديان للنوع وهو « الإنسان » . وهذا المصطلح الأخير (الإنسان) ليست له دلالة مادية، ولا يمكن إدراك هذا المصطلح إلا إدراكا عقلياً مجرداً . وبوء ثيوس على هذا هو رائد المدرسة الواقعية فى العصور الواسطى .

أما الفيلسوف روسلينوس ومدرسته فيرون أن الوجود قاصر على الخاص فحسب ، أما الكليات (العام) فهى مجرد تسميات أو ألفاظ (VOX) . وهذه هى المدرسة الإسمية .

هاجم أبيلارد المدرستين . الأولى — الواقعية — لأنها تنكر على الخاص جوهره أو كيانه ، وهذا — فى رأيه — ضد طبيعة الأمور : فإذا سلمنا بقول الوقعيين أن الجوهر موجود قبل خلق الخاص (أو الجزء) ، فمعنى هذا أنه لن تكون هناك فوارق فى الصفات بين فرد وأخر ، لأن جميع الأفراد يشتركون فى جوهر واحد . والأخطر من هذا — وفقا لذات النظرية — أن الإنسان يصبح شريكا

الحيوان — كالكلاب والخيل — فى الأصل genere وبذلك تختلط الأصول العاقلة مع غير العاقلة .

كذلك عاب أبيلارد على الإسميين إنكارهم التام للكليات ، واهتمامهم الزائد بالخاص .

كان على أبيلارد بعد هذا أن يقدم مفهوما مقنعا للكليات ، وفى هذا نجده يقول إن الكل هو ما يتواجد فى الأشياء من صفات وخواص وليس للأشياء ذاتها، فهو ليس جوهر الجزء أو الشيء وإنما هو خواصه . وفى حالة الفرد الأدمى فإن الكل يعنى لا الإنسان الفرد فى حدذاته وإنما كيان هذا الإنسان ، وهى الحاجة السائدة فى كل أفراد الجنس الأدمى برمته . ولما كان من المتعذر الفصل بين هذه الخاصية وبين الفرد ذاته ، فإنه لايمكن فهم كنه الكل إلا من خلال الجزء . وقد خلص من هذا إلى قوله الشهير :

« إن الكل إن هو إلا مفهوم يستنبطه العقل من خلال الجزء ، ذلك لأن كل إدراك واع — على مايبدو — إنما منبعه من الجزء . وعندما نلمس الجزئيات بمعونة حواسنا ، نبدأ فى إدراكها فى الصور العقلية » .

وفى اللاهوتيات وضع أبيلارد كتابه « نعم ولا Sic et Non وفيه يطرح المؤلف عديداً من المسائل اللاهوتية فى صيغة السؤال ، ثم يسوق سلب هذه المسائل أيضاً فى أضدادها . وهدف الكاتب من هذا المنهج الديالكتيكى أن يصل إلى الحقيقة — إن كان هنالك حقائق — عن طريق العقل ؟ كذلك بتمحيص مختلف وجود وأبعاد القضايا اللاهوتية . هو يبدأ دائما بإثبات بطلان حجج آباء الكنيسة الباكرين فى كل قضية يعرض لها . وشعاره فى هذا قوله : إن الشك يقودنا إلى البحث ، والبحث ، بدوره يؤدى بنا إلى مشارف اليقين » وقد طرح ابيلارد فى

هذا المؤلف ١٥٠ سؤالا تدور حول المسائل اللاهوتية المويصة كقضية ميلاد المسيح وتجسد الكلمة Logos ، وبتولية السيدة مريم ، ولاهوت المسيح وناسوته ، وتحول القربان إلى جسد السيد المسيح إلى آخره من هذه القضايا . وقد قدم أبيلارد تفسيراً لواحدة من كبرى المسائل اللاهوتية ، آلا وهى طبيعة الثالوث : فهو يرى أن الله واحد فى ثلاثة أقانيم ، ويشير كل أقنوم من هذه الثلاث إلى خواص: فالأب يمثل خاصية القوة ، والآبن يمثل خاصية الوعى ، بينما يمثل الروح القدس خاصية الخير . غير أن هذا التفسير الأبيلاردى قد أدين بالهرطقة فى مجمع Sens سنة ١١٤٢م كذلك هاجم القديس برنارد ده كليرفوه هذا التفسير بأنه شبيه بحجج الهراطقة المبكرين . آريوس وبيلاجيوس ونسطور .

ولقد وضع أبيلارد كتاباً آخر بعنوان « حوار بين فيلسوف ويهودى ومسيحى Dialogus inter Phiosophum, judaeum et Christianum يندد فيه بالتسليم الغيبى عند الثانى والثالث ، ويغلب عليهما الأول لأنه يقر ملكات العقل ، كما وأنه يهيب بضرورة انتهاج مبدأ الشك والديالكتيكا لأن هذا هو السبيل الأوحد للإقناع والفهم الراسخ .

وهو بعد هذا لا يجد حرجاً فى تناول كلمات الكتاب المقدس بالبحث ، وحجته فى ذلك أن هذا الكتاب إنما هو عمل الله ، نقله إلينا بشر مثلنا وهم عرضة للخطأ ، وسجله كتبة بشر ، ثم فسره لنا بشر أيضا ليسوا منزهين عن الخطأ ، ذلك لأن اللغة إن هى إلا أداة عاجزة للتعبير ، وهى أيضا عرضة للتعبير والتأويل .

وفى الأخلاقيات Ethics نقرأ أراء جريئة لأبيلارد فى مؤلفه بعنوان « أعرف نفسك » Scito te ipsum .

وعندما يعرج الكاتب على قضية الخطيئة الكبرى لآدم وحواء ، نجده ثائراً ضد آراء القديس أغسطينوس ومن ورائه الكنيسة الكاثولكية برمتها .

فهو لايرى فيما أقدم عليه آدم وحواء من أكل الثمرة المحرمة فى جنة عدن إثماً وهو بعد هذا يميز بين الخطأ والإثم : فالأول يمثل ميلا نحو شيء محظور ، أما الاثم فهو العمل الذى يغضب الرب . ويمضى الكاتب ليجاهر بان الاثم هذا عنصر سلبي لاوجود له ، فهو تضاد أو انتفاء أو غياب الخير ، فحيثما توافر الخير لاوجود للاثم . هذا كما أن أى فعل ماهو إلا حاصل نية ، ولا يمكن الحكم عليه بالخير أو بالشر إلا على ضوء استقراء هذه النوايا ، لمعرفة إذا ماكان صاحبها كان يقصد بها خيراً أم شراً .

ومن هنا فقد انتهى أبيلارد إلى قوله : « لافرق بين عمل وآخر فى حد ذاته وإنما يصبح هذا العمل خيراً وذاك شراً على قدر نوايا صاحب هذا العمل أو ذاك » . ومن هذا الاستنتاج أنكر أبيلارد حاجة الانسان إلى وصاية غيبية لتعينه على فعل الخير ، ومن ثم فلا حاجة ألبتة إلى الدوغما ولا إلى الكنيسة . وبهذا نقل أبيلارد موضوع الاخلاقيات من عوالم الغيبيات إلى كادر ذاتى بحت ، فحرر الانسان الفرد من الاوصياء ، وباتت الحقيقة برمتها الكونية ملكا للبشر الفرد على أساس من الفهم العاقل ، وأدار أبيلارد ظهره لمفاهيم الكاثوليكية وأرائها الغامضة عن الخير والشر .

بعد أن شن القديس برنارد ده كليرفوه حرباً مسعورة ضد أبيلارد ، تحداه هذا الاخير أن يلقاه فى حوار على مرأى ومسمع من أساتذة اللاهوت والفلسفة فى باريس . ولكن برنارد ارتعد من فكرة لقاء أبيلارد ولم يجرؤ على أن يلتقط القفاز الذى ألقى به الفيلسوف فى وجهه . ونجح برنارد بفضل صلاته القوية بتلميذه يوجين الثالث الجالس على عرش البابوية فى أن يدفع أراء أبيلارد بالهرطقة .

ولكن أبيلارد قرر أن يسافر بنفسه إلى روما ليطعن فى هـذا القرار ولـكن صديقه المخلص بطرس الشهير بالوقور Le Venerable رئيس دير كلونى أقنعه بالعدول عن هذه الرحلة ، واستضافه فى ديره فى سانت مارسيل على مقربة من بلدة شالون سير ساءون ، وبقى أبيلارد هناك حتى توفى فى ٢١ ابريل لسنة ١١٤٢ م .

كتب بطرس الوقور رئيس دير كلونى إلى إلواز — وهى الآن رئيسـة دير البار اقليط — ينقل إليها النبأ الحزين فى الآتى :

« إن هذا الذى كان لك (tuo illo) ، العظيم بطـرس أبيلارد ، قد مات . لقد كان ثروة تفوق كنوز الذهب . لشد ما كان حريصا على حضور القداسات منكسراً صامتا لا يرفع الطرف عن الـكتاب ، وهو سيد العلماء . نعم « تعلمـوا منى فأنا بسيط متواضع القلب » . أيتها الأخت التالية ، إن هذا الذى ربط الله بينـك وبينه ذات يوم فصرتما جسداً واحداً ، ثم ثبت الله هذا الرباط إلى ما هو أشد وأقوى فى المحبة العلوية حيث خدمة الله ركعاً سجداً من بين الصابرين ، إن هذا الرجل قد ضمه المسيح إلى أحضانه مع القديسين ، وهو هناك حتى المجىء الثانى يوم ينفخ كبير الملائكة فى البوق ، ويومها يفرح القلب بالمحبوب فى رحاب الأبدية » .

لا أجد أبلغ من شعر أبيلارد فى التدليل على معاناته المأساوية . استمع إليه ينشد يوم الجمعة الحزينة ، لعله يقصد هنا أنه هو أيضا قد صلب على يد الآثمين :

Solus ad Victimam Procedis, Domine,
morti te Offerens quam Venis to Ilere :
qnid nos miserrimi Possumus dicere
qui quae Commisimus Scimus te Iuere ?

وحبذا ، ياسيدى تتقدم الخطى نحو القربان

واهبا نفسك للموت شامخا

فما الذى تستطيع قوله كى « نبعثه من جديد »

تلك الأشياء التى ارتكبناها نعرف أنك تعانيها »

بقى أن نحصر أهم مؤلفات هذا العملاق ، فى الآتى :

1 — Theologia Summi Boni
2 — Theologia Chlristiana
3 — Theologia Scholarium
4 — Apologia
5 — Sic et Ncn
6 — Expositio in Hexaemeron
7 — Expositio in Epistolam ad Romanos
7 — Scito te ipsnm
9 — Dialogne inter philosophum, judaeum, at Christianum
10 — Logica Ingredientibus
11 — Logica nostrorum Petitoni
12 — Dialectica
13 — De Intellectibus
14 — Sententiae
15 — Historia Calamitatum

جدل حول :

الخوارج وقضية التحكيم

دكتور محمود اسماعيل عبد الرازق
مدرس بكلية الآداب — جامعة عين شمس

يمثل الخوارج فى نظر مؤرخى الفرق الإسلامية كل من خالف أو خرج على الخلفاء والأئمة سواء فى عصر الراشدين أو فى العصور التالية(١) ؛ باعتبارهم مارقين على رأى الجماعة الإسلامية التى اتفقت على اختيارهم . لكن هذا التفسير اللغوى لايستقيم مع التعبير الاصطلاحى الذى يخص بتلك التسمية جماعة أو فرقة إسلامية بعينها ؛ أو بالأحرى حزبا سياسيا دينيا معينا ؛ فإلى جانب الخوارج وجدت جماعات وأحزاب أخرى خرجت عن طاعة الخلفاء والأئمة .

فقد اصطلح على إطلاق لفظة الخوارج على تلك الجماعة التى شايعت عليا بن أبى طالب فى نزاعه مع معاوية بن أبى سفيان ثم خرجت عليه إبان حادثة التحكيم المشهورة وهى التى عرفت أيضا بالحرورية نسبة إلى كورة حروراء — بجوار الكوفة — حيث لاذت بها بعد مفارقتها إياه(٢) . وإذا كان من المحقق أن الخوارج أطلقوا على أنفسهم اسم « الشراة » اعتقادا بأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ، أو باعوا أنفسهم فى سبيل الله(٣) فليس من المستبعد أن يكونوا هم أيضا الذين سموا أنفسهم « خوارج » — كما ذهب

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ص ١٠٥ .
(٢) الإسفرائينى : التبصير فى الدين ص ٤٦ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٧٥ .
(٣)
Smith : The Ibadites; Muslim World, Vol. 12, P. 284.

دوزى(١) ــ استنادا على قول زعيمهم عبد الله بن وهب الراسبى « ... فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البـــدعة المضلة (التحكيم) والأحكام الجائرة »(٢) .

والدارسون يذهبون مذاهب شتى فى تفسير ظهور الخـوارج ، وهى فى الغالب تستند على أسس سياسية واقتصادية واجتماعية . ونحن لا ننكر أهمية الدوافع الاقتصادية والاجتماعية فى إجلاء غوامض التاريخ الإسلامى ، وهو أمر عول عليه كثير من المستشرقين من أمثال بارتولد وبيكر وكايتانى وماسينيون وبرناردلويس(٣) ، إلا أن الفهم الموضوعى لعصر النبوة والراشدين لا يتم دون وضع العامل الدينى فى الاعتبار. فظهور الخوارج مرتبط حقا بمسائل السياسة والحـكم ، وأيضا بالتطـور الاقتصادى والاجتماعى الذى عم العالم الإسلامى بعد الفتوحات ، لـكن ذلك كله كان يجرى فى إطار دينى وفى مسوح إسلامى .

تفصل ذلك فنقول إن من المؤرخين من ذهب إلى أن ظهور الخوارج يعبر عن رغبة القبائل العربية من غير قريش فى إقصائها عن التشبث بالخـــلافة والاستئثار بالحـكم(٤) ، فالخوارج من هـــذه الزاوية حزب سياسى وحسب(٥) ، وحركتهم

---

(١) Spanish Islam, P. 39.

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ٢ ص ٢٢٤ .

(٣) انظر : Lewis, B : Some Observations on the Sgnificance of hersey in the hitovy of Islam, Studia Islamica, 1, P. 46.

(٤) Muir, W : The Galiphate; itrrise, decline and fall, P. 281.

(٥) سهير القلماوى : أدب الخوارج فى العصر الأموى ، المقدمة ، ص هـ .

تمثل ثورة ديموقراطية ضد الارستقراطية التيوقراطية الجديدة من كبار الصحابة(١) فهم لذلك « جمهوريو الإسلام»(٢) « ودستوريو الإسلام »(٣) .

ومن المؤرخين(٤) من غلب العامل الاقتصادى الاجتماعى ، فرأوا فى ظهور الخوارج انتفاضة لعرب البادية الذين استوطنوا الكوفة والبصرة بعد الفتوح الأولى فهؤلاء — وخاصة من كان منهم من قبيلة تميم — كانوا قبل الاسلام يعيشون فى فقر مدقع ، ولم تتحسن أحوالهم كثيراً فى ظل الاسـلام بينما كانت القبائل الأخرى تنعم بالثراء وترفل فى الترف ، فامتلأت قلوبهم حقـدا وغيظا ، وزاد فى ثورتهم تمسكهم الشديد بالتقاليد والطبائع البدوية كالتعصب للقبيلة والولاء لها ، فبغضوا الحكومة السياسية وتمردوا على نمط الحياة الاجتماعية فى ظلها ، فثورتهم من ثم « تمثل ثورة البدو على سيادة الدولة»(٥) .

وثمة رؤية ثالثة(٦) تجمع بين الاتجاهين السابقين ، مؤداها أن بدو تميم احتدمت بينهم فكرة الخروج على نظام الخلافة القائم ، ورغبتهم فى الدعوة إلى نظام جديد للخلافة تعبر عن تطلع العرب من غير أهل الحجاز فى عدم التقيد بالخضوع لقريش.

---

(١) انظر :
Biquet, F : Hietoire de L' Afrique Septentrionale Sous la domination musulmane. P. 35.

(٢) Smith : Op. Cit P. 279.

(٣) Faroughy, A ; A Persian dynasty in North Africa, The Rustumides; The Islamic Review, April, 1952. P. 12.

(٤) راجع : محمد أبو زهرة : المذاهب الإسلامية ص ١٠٤ ، عمر أبو النصر : الخوارج فى الإسلام ص ١٨ .

(٥) Lewis : Op. cit P. 47.

(٦) انظر : عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ٢ ص ١٣٥ .

لكن الملاحظ أن الخارجية لم تكن حكراً على قبيلة تميم وحدها ، صحيح أن غالبية الخوارج الأول كانوا من تميم(١) ، إنما منهم أيضاً من انتمى إلى القبائل الأخرى كبكر وهمدان والأزد وغيرها(٢) . بل وقفت بعض بطون تميم من الخوارج موقفاً عدائياً ، وبطش بعض رجالاتها بزعامات الخوارج من بنى جلدتهم ، كعباد بن علقمة الذى قتل أبا بلال مرداس الخارجى(٣) ، وحرموز بن الفجاءة قاتل أخاه قطرى أحد زعماء الأزارقة(٤) ، ومعقل بن قيس الرياحى قضى على حركة المستورد ابن علفة وسفك دمه(٥) ... الخ . معنى ذلك أن نزعة العصبية عند الخوارج كانت أقل خطرا وأهون شأنا من الرأى والمذهب(٦) ، وحسبنا دخول كثير من الموالى فى مذهبهم وعملهم جنبا إلى جنب مع العرب فى نصرته .

كما أن الهدف السياسى — لذاته — لم يكن محور نشاطهم وغاية مرامهم ، وفى ذلك يقول ابن خلدون (٧) « ... الخوارج المستميتون فى شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ، ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القومية » .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص٥١٦ ، ابن خلدون : العبر جـ٣ ص١٤٥ ،
، Masqueray : Chronique d'Abou Zakaria. P. XXXII,
Brockelman, k :History of the Islamic People. P. 70.

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٣٦٤ ، الدينورى : الأخبار الطوال ص١٩٧ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٧٨ .

(٣) ابن حزم : المرجع السابق ص ٢٠٠ .

(٤) نفسه ص ٢٠١ .

(٥) نفسه ص ١٨٩ .

(٦) طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ٢ ص ١٤٠ .

(٧) المقدمة جـ ٢ ص ٦٩ .

فذلك نعتقد أن للعامل الديني أثرا واضحا في تطور تاريخ صدر الإسلام ، ذلك أن الدين والدولة إذ ذاك شيء واحد ، والجماعة السياسية انبثقت من الجماعة الدينية ، وقد فطن إلى ذلك فلهوزن حين عالج تاريخ الخوارج والشيعة باعتباره تاريخ أحزاب سياسية دينية (١) ، كذلك أكد برناردلويس (٢) أن التاريخ الإسلامي حتى العصر الأموي كان في جوهره تاريخ « حركات سياسية دينية » ، ونفس النظرة تتضح عند طه حسين (٣) في تناوله الفتنة الكبرى حيث ذكر أن « القدماء نظروا إلى جميع الأحداث التي كان منها عيب عثمان والاختلاف عليه نظرة دينية خالصة ، كما نظر إليها الذين عاصروا عثمان سواء منهم من خاصمه ومن ناصره .. » . وليس ادل على أن كافة المشكلات السياسية في عصر الراشدين كانت ترى وفق منظور ديني من تعويل الأطراف المتنازعة على تكفير بعضها بعضاً (٤)، وتبادلهـــا الاتهامات بالمروق والهرطقة (٥) . فمسألة الكفر والإيمان صارت من ثم أم المسائل التي عالجتها كافة الفرق الإسلامية .

ولانزاع في أن ماشجر من خلافات داخل الجماعة الإسلامية إنما دارت حول مسألة الإمامة أو الخلافة ، خاصة وأن الرسول (ص) مات ولم يضع نظاماً ثابتا محددا لمن يخلفه في حكم المسلمين . ولسنا بحاجة لعرض المشكلات التي نجمت عن

---

(١) وعنوان كتابه : أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام .

(٢) أنظر : أصول الإسماعيلية ، المقدمة ص ٥ .

(٣) أنظر : الفتنة الكبرى ج ١ ص ١٧٥ .

(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٣٣٠ .

(٥) Gautier : Les siecles obscurs du Maghreb, P. 260,
Bel : Lareligion Musulmane en Berberie, Vol. 1, p. 29,
Gibb : Mohammedanism, P. 110 .

ذلك وهى مشكلات لاننكر أن النعرات القبلية والأطماع الشخصية كانت تغذيها ، لكنها بوجه عام اتخذت طابعاً دينياً واضحا . فقد انبرى المسلمون يتلمسون فى القرآن والسنة مخرجا ، فكثرا الجدل والتأويل ، وتعددت الآراء وتشعبت ، وزعم كل طرف أن وجهة نظره هى الحق . ونجم عن ذلك كله ظهور الفرق الإسلامية التى كان خلافها فيما بينها « خلافا اجتهاديا فى مسائل دينية ظنية » (١) ومالبث هذا الخلاف أن تحول إلى صراع دموى عبر عنه الشهرستانى(٢) بقوله « وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة ، إذ ماسل سيف فى الإسلام عـلى قاعدة دينية مثلما سل على الإمامة » .

وتأسيسا على ذلك،نرى أن ظهور الخوارج مرتبط بمشكلة الإمامة والاجتهاد حولها ، وحتى أعداؤهم نظروا إليهم نظرة من حاول الوصول إلى الحق فأخطأه(٣) ولم يكن بوسعهم إنكار حسن نواياهم فى طلب الحق وصدق عزيمتهم فى الموت دونه ، فلم يأخذوا عليهم أكثر من « إهمال النظر وإغفال التأمل بعين البصيرة والميل عن الحجة البحتة إلى الشبهة المهلكة » (٤) . بل إن فقيها مثل ابن عباس حين جادل زعماء الخوارج بالنهروان لم يحاجيهم بصحة موقف على إلا على أساس أنه « ... ابن عم الرسول (ص) وصهره وعليهم نزل القرآن وهو أعلم بتأويله » (٥) . وشهد

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٧٨ ، ٧٩ .

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٠ .

(٣) ورد فى حديث نبوى عن عبد الله بن مسعود أن « الخوارج أمة يذهبون يريدون الحق فيخطئونه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » أنظر : ابن حيون : شرح الأخبار ورقة ٩٨ ، ٩٩ ، مخطوط .

(٤) جعفر بن عبد السلام : إبانة المناهج فى نصيحة الخوارج ، ورقة ١٥٤ ، مخطوط .

(٥) ابن حيون : المرجع السابق ورقة ٨٧ .

على نفسه بحسن نواياهم تلك حين نهى ـ قبيل موته ـ عن قتالهم من بعده لأن « من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأدركه » (١) فكأنه بذلك لم يطعن في إيمانهم وإنما اكتفى بمهاجمة طريقة تنفيذهم لما أرادوا (٢) . ومن هنا يبطل الزعم بأن الخوارج هراطقة ، وأقصى ما يمكن أن يؤخذ عليهم تشددهم وتطرفهم في معتقداتهم (٣) .

أما وقد انتهينا إلى أن نشأة الجماعة السياسية في الإسلام انبثقت من الخلاف الفقهي الديني (٤) ؛ فإن ظهور الخوارج لم يشذ عن تلك القاعدة ، وحسبنا أن قضية التحكيم بين علي ومعاوية ـ وهي التي أسفرت ضمن ما أسفرت عن ظهور الخوارج كانت تكمن في مسألة فقهية دينية بحتة هي هل يجوز تحكيم البشر في أحقية إمام معترف به وببيعته ؟ أم لا ؟؟ . كانت إجابة أولئك الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد بالنفي بطبيعة الحال؛ ومن ثم انشقوا على علي وكفروه بنفس الدرجة التي كفروا بها عدوه معاوية ، فكانت عداوتهم للخصمين المتنازعين قائمة على أساس خروجهما عن جادة الشريعة ، وكان ظهورهم على مسرح الأحداث للعودة بالحق إلى نصابه .

ويتفق الدارسون على صعوبة البحث في تتبع نشأة الخوارج (٥) ، فتؤرخ تلك الحقبة « تمتحن أعسر الامتحان وأشقه » (٦) . ولكن الصعوبة ليس في ندرة

---

(١) سهير القلماوي : أدب الخوارج ص ٣٢ .

(٢) نفسه ص ٣٣ .

(٣) Masqueray : Op. Cit. p. xv, Gibb : Op. cit. p. 110.

(٤) فلهوزن . تاريخ الدولة العربية ص ١ .

(٥) سهير القلماوي : أدب الخوارج ، المقدمة ، ص هـ .

(٦) طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ٢ ص ٩٢ .

المعلومات وشحنها ، إنما في وفرتها واضطرابها ، والمرء بوسعه أن يدين من يشاء ويبرىء من يشاء وله في الحالتين من القرائن والأدلة مايمينة . وهذا في الواقع يعكس حقيقة هامه هي إيمان أطراف النزاع جميعا بعدالة مواقفها، وتفانيها في النضال للوصول إلى مراميها. فعلى بن أبي طالب لم يخامره الشك في أحقيته للخلافة وجدارته بها بعد وفاة النبي مباشرة ، واستند شيعته على كثير من الأحاديث النبوية لإثبات هذا « الحق المشروع » (١) ، ولا يخفى أنه كان آخر من بايع أبا بكر من كبار الصحابة ، كما سكت على مضض حين آلت الخلافة إلى عمر بعد أبي بكر ، وفاض كيله حين تحولت عنه إلى عثمان بعد عمر (٢) ، فخرج عن صمته ، وضرب بسهم في الفتنة التي

---

(١) أنظر : ابن حيون : أساس التأويل الباطني ، ورقات ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، مخطوط .

(٢) لانأخذ بما قاله الدكتور طه حسين بأن عليا بايع أبا بكر مخلصا . (انظر : الفتنة الكبرى جـ ١ ص ١٥٢) . فقد ذكر في مكان آخر أنه « كان معارضا للخلفاء الثلاثة » (أنظر : نفس المصدر ص ١٥٣) . مصداق ذلك ماجاء بإحدى خطبه « ... بعد وفاة الرسول ما كان يلقى في روعى ولا يخطر ببالى أن العرب تعدل هذا الأمر عنى ؛ فما راعنى إلا إقبال الناس على أبي بكر ؛ فأمسكت يدى ورأيت أنى أحق بمقام محمد في الناس ممن تولى الأمور ... فلما احتضر أبو بكر بعث إلى عمر فولاه ؛ فسمعنا وأطعنا وبايعنا وناصحنا ... فلما احتضر ؛ قلت في نفسى ليس يصرف هذا الأمر عنى ؛ فجعل الأمر شورى وجعلنى سادس ستة ؛ فخشوا إن وليت عليهم أن لايكون لهم في هذا الامر نصيب ، فبايعوا اجتماع رجل واحد حتى صرفوا الأمر عنى لعثمان ، فأخرجونا منها وجاء أن يتداولوها حين يئسوا أن يتداولوها ، ثم قالوا لى هلم بايع عثمان وإلا جاهدناك ، فبايعت مستكرها ، وصبرت محتسبا ... »

راجع : ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ٢ ص٠٠ .

أدت إلى مقتل عثمان (١) ، وإحداث صدع فى كيان الإسلام (٢) . أما معاوية فقد أخذ على كاهله عبء الثأر لعثمان ، متخذا من تلك الدعوى تكئة لتبرير مطامعه فى الخلافه . ومهما قيل حول صدق نواياه فى طلب الموادعة لو أن عليا سلم له قتلة عثمان (٣) ، فلاشك فى تطلعاته المريضة خاصة بعد أن آلت إليه قيادة العثمانية بعد مقتل طلحة والزبير ، وهو أمر أذكى إصراره على مطاولة علي ومنافسته على الخلافة التى آلت إليه بالفعل «مغالبة» على حد قول ابن حزم(٤) . وإبان النزاع بين علي ومعاوية برز الخوارج كحزب سياسى منشق رافض لدعاوى الشيعة والعثمانية، فكان خروجهم حسبما اعتقدوا طلبا للحق واحتسابا لله .

---

(١) انظر فى ذلك ما ذكره نصر بن مزاحم فى كتابه : أخبار صفين ص ١٠٥ ، ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص ٧٦ ، ٧٧ ، ١٠٤ .

(٢) افترقت الجماعة الإسلامية بعد مقتل عثمان — حسبما ذكر مؤرخ مجهول — إلى فرق ثلاث ؛ « فرقة قتلته ؛ وأخرى وقفت عنه وعن قتله ؛ وثالثة طالبت بدمه » ؛ فالفرقة القاتلة له تتمثل فى على بن أبى طالب وأصحابه من أهل المدينة والمهاجرين والأنصار ، والواقفة عنه تضم سعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد؛ أما المطالبة بدمه فمن أقطابها طلحة والزبير ومعاوية . وقد عرفت الفرقة الأولى « بأهل الاستقامة » والثانية « بالشكاك » ، والثالثة « بالعثمانية » .

انظر : قطعة من كتاب فى الأديان والفرق ؛ ورقة ٢٧ ؛ مخطوط .

(٣) نصر بن مزاحم : أخبار صفين ص ١٠٣ .

وفى خطاب من معاوية إلى على فى هذا الصدد قال معاوية « .... إن الخليفة عثمان قتل معك فى المحلة وأنت تسمع من داره لهيعه فلا تدفع عنه لقول ولا فعل ، وأقسم بالله لو قمت فى أمره مقاما صادقا فنهنهت عنه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحدا وأخرى وأنت بهـا ظنيني؛ ايواؤك قتلة ؛ فهم عضدك ويدك وأنصارك وبطانتك . وبلغنا أنك تبتهل من دمه ، فان كنت صادقا فأمكنا من قتلة نقتلهم به ؛ ونحن أسرع الناس اليك ، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف ... » أنظر : الطبرى : جـ ٥ ص٦٦، الدينورى : ص١٦٢، ابن الأثير : جـ ٣ ص١١٥ .

(٤) نقط العروس ص ٥٦ .

وبديهي — حسبما سلف القول — أن يبادر كل حزب إلى تبرير موقفه ودعمه بقرائن وأدلة مستوحاة من القرآن والسنة، صريحة أو مؤولة. وبديهي أيضاً أن يعمد مؤرخو كل طائفة إلى الانحياز والتعصب الكامل لطائفته، فالمصادر السنية والشيعية على السواء منحازة في جانب علي على طول الخط في عرض حوادث صفين المثيرة، ولدينا في هذا الصدد روايتان هامتان إحداهما لأبي مخنف والآخرى لنصر ابن مزاحم المنقري. ونعتقد أن وجهة النظر الأموية درست وذوت حين دون التاريخ في العصر العباسي، ونقف على آثار منها عند البلاذري (١). وإذا كانت المصادر السنية والشيعية تحمل على بني أمية وتزيف أخبارهم، فإن حملتها على الخوارج أشد وأنكى، فهم كفرة مارقون يجب بترهم، وعليهم تقع مسئولية خذلان علي بإرغامه على قبول التحكيم ثم معاودة إرغامه على التنصل منه (٢). ومن الطبيعي ألا نقف على روايات معاصرة تحمل وجهة نظر الخوارج، رغم وفرة ماصنفوه من تواليف حوت عقائدهم وسيرهم وأخبارهم وطبقات مشاهيرهم، وهو ما ذكره ابن النديم في الفهرست، فقد أبيدت كتب الخوارج وأحرقت على أيدي أعدائهم، وماوصلنا من روايات متأخرة عن وقائع صفين لمؤرخين من الخوارج تتسم بطابع التحيز الشديد لأجدادهم ممن عرفوا « بالمحكمة الأولى »، فتلقي تبعة التحكيم وما أسفر عنه على كاهل علي وتندد بضعفه وسوء رأيه. وهكذا نجد اضطرابا واضحا وخلطا شديداً يكتنف تاريخ حادثة خطيرة في صدر الإسلام؛ ألا وهي حادثة التحكيم (٣).

ولما كان ظهور الخوارج مرتبطا بتلك الحادثة، ومحاولة الكشف عن أصولهم

---

(١) فلهوزن: تاريخ الدولة العربية، المقدمة، ص ت، ذ.
(٢) انظر الناصري: منهج المدارج لأخبار الخوارج، ورقة ٦٢٥، مخطوط.
(٣) فلهوزن. تاريخ الدولة العربية ص٨٣.

يلزم الباحث بالتعرض لمواقف أشخاص لهم فى نفوس المسلمين منزلة خاصة — وهو أمر يزيد البحث صعوبة — وجب أن نختط منهجا قوامه الغوص وراء الحقيقة فى خضم الروايات المتعارضة بغض النظر عن تلك المكانة الخاصة لأولئك الذين شاركوا فى قضية التحكيم، ذلك أن «النتائج التى ترتبت عليها — كما يعتقد البعض —(١) أكبر وأوسع وأضخم من هؤلاء الأشخاص» .

وقضية التحكيم كانت ولاتزال مثار جدل بين المؤرخين ، قدامى ومحدثين، وقصتها متواترة فى كافة التواريخ الخاصة بصدر الإسلام . وما ينبغى إبرازه أولا تشكيك بعض الثقاة فى روايتى أبى مخنف والمنقرى اللتين شاعتا فى تاريخ الطبرى ومن أخذ عنه . فابن عربى (٢) يقول فى هذا الصدد « ... هذا كله كذب صراح ، وإنما هو شىء اخترعته المبتدعة ووضعته التاريخية للملوك » . كما نقف على نزعة التشكيك تلك فى الجدل والمساجلات الكلامية التى كانت تجرى — لزمن طويل — بين متكلمى الخوارج والشيعة (٣). ونفس الاتجاه نجده عن بعض المحدثين من أمثال يوليوس فلهوزن (٤) وفيليب حتى (٥) .

وتجمل القصة بصورتها الشائعة فى الرواية العراقية ، أن الخلاف بين على ومعاوية تفاقم حتى قامت الحرب بينهما فى صفين سنة ٣٧هـ ، تلك التى بدأت بمبارزات بين أنجاد المعسكرين

---

(١) انظر : طه حسين : الفتنة الكبرى جـ١ ص ٤٩ .
(٢) القواصم والعواصم ورقة ٢٠٨ ، مخطوط .
(٣) انظر : مجهول . محاورة بين شيعى وخارجى فى شان الشيخين أبى بكر وعمر وشأن الحكمين وما قيل فى ذلك ، ورقة ٨ مخطوط .
(٤) انظر : مقدمة كتابه عن الخوارج والشيعة .
(٥) انظر : History of the Arabs, P. 181.

كان الظفر فيها لرجال على. ثم اندلعت الحرب الشاملة والتحم جيشا الشام والعراق ، وكانت الغلبة أيضا للعراقيين حتى صار النصر النهائى وشيكا . غير أن حيلة أحكمها عمرو بن العاص وأقرها معاوية غيرت مسار الأحداث ، إذ أمر برفع المصاحف على أسنة الرماح تحكيما لكتاب الله فى الظاهر وبثا للفرقة فى جيش العراق فى الباطن. وقد فطن على للمكيدة وحذر عسكره من مغبتها ، إلا أنه غلب على أمره ورضخ لمشيئة جماعة القراء الذين صاروا فيما بعد زعماء الخوارج ، فقبل التحكيم على مضض. كما أرغم أيضا على اختيار أبى موسى الأشعرى ممثلا له فى مفاوضة عمرو بن العاص . وكان ما كان من خدعة عمرو لأبى موسى وخلع على وتثبيت معاوية ، وخروج الخوارج . والرواية تدافع عن موقف على وتظهره بطلا دراميا مخذولا أسقط فى يده أمام ضغوط مصدرها خيرة رجاله الذين أرغموه على قبول التحكيم ، ثم عادوا يطالبونه بنكثه وهم الذين عرفوا بالخوارج ، ثم القبائل اليمنية وزعيمها الأشعث ابن قيس الكندى الذى خيره بين قبول التحكيم وبين تسليمه لخصمه والخروج عليه (١) .

أما مصادر الخوارج (٢) ــ وهى متأخرة نسبيا ــ فتلقى باللوم على على ، وتتهمه بالتفريط فى حقه تحت تأثير من الأشعث بن قيس ، وتبرر خروج الخوارج

---

(١) راجع : نصر بن مزاحم : ص ٢٥٠ وما بعدها ، الطبرى : ج٥ ص١٦ وما بعدها ، المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠٠ ومابعدها ، الدينورى : ص ١٨٩ وما بعدها ، الشهرستانى : ص١٠٥ ، ١٠٦ ، أبو الفدا : ج١ ص ١٨٠ ، ابن عبدربه : العقد الفريد ج٤ ص ٣٤٨ وما بعدها ، ابن الأثير : الكامل ج٣ ص ١٢٦ وما بعدها ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٧٤ وما بعدها ، الناصرى : ورقة ٢٢١ وبعدها .

(٢) انظر : الشماخى : السير ص ٤٦ وما بعدها ، البرادى : الجواهر المنتقاة ، ورقة ٦٠ ، مخطوط ، البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ٢٨٩ وما بعدها ، دبوز : المغرب الكبير ج١ ص ٣٤٠ وما بعدها .

بقبوله تحكيم البشر فى حق من حقوقه الأمر الذى يعنى الشك فى إمامته ، ومن هنا عمدوا إلى اختيار إمام منهم هو الله بن وهب الراسبى بعد رفض على إعلان التوبة تكفيرا عن إثمه . ومن مؤرخى الخوارج(١) من ذكر أن عليا استجاب لطلب التوبة ، ثم عاد فنكث تحت تهديد الأشعث . ويخرج بعض الدارسين(٢) من ذلك بان تواطؤا تم بين الأشعث وأهل الشام لبث الفرقة فى معسكر على وحرمانه من خيرة رجاله الذين صار واخوارج . وعموما ، تتلخص وجهة النظر الخارجية فى إلقاء مسئولية التحكيم على على ، ودفع التهمة عن الخوارج الذين ماخرجوا عليه إلا لقبوله إياه . ومن الغريب أن نجد فى بعض المصادر غير الخارجية — وبعضها شيعى — من النصوص مايدلل على صحة وجهة النظر الخارجية ، فالنوبختى (٣) يقول «خرج الخوارج على على بعد تحكيم الحكمين » « لتفريطه فى حق من حقوق الرعية على الإمام وهو سد الثغور ، فاتهموه بتفريطه فى ثغر الشام بتحكيم الحكمين » على حد قول ابن طباطبا (٤) . ونتلمس عند الرازى (٥) نفس حجة الخوارج فى الخروج وهى أن قبول على التحكيم يعنى بطلان حقه فى الإمامة . كما نجد عند المبرد(٦) ماذكره مؤرخو الخوارج عن مسألة التوبة وقبول على إياها تكفيرا عن إثمة بقبوله التحكيم .

والواقع أن اختلاف الروايات وتضاربها لاينهض دليلا على الزعم بان حادثة التحكيم وهم تاريخى محض ، حقيقه نسج حولها من الروايات ماجعل خيوطها تزادا

---

(١) الشماخى : ص ٤٩ .
(٢) Dozy: op. cit p. 37 ، طه حسين : الفتنة الكبرى جـ٢ ص ٨١، ٨٢.
(٣) فرق الشيعة ص ٢٦ .
(٤) الفخرى فى الآدب السلطانية ص ٨٢ .
(٥) اعتقادات فرق المسلمين ص ٤٦ .
(٦) الكامل فى اللغة والأدب جـ٣ ص ٨٩٢ .

اضطرابا ، ولكن دراسة تلك الروايات وتحليلها مع إعمال العقل والمنطق قمين بأن يزيح كثيراً من الغموض ، ويكشف عن بعض الحقائق .

وأولى تلك الحقائق أن القتال فى صفين لم يجر فى صالح أهل العراق على طول الخط كما تزعم الرواية العراقية ، بل كانت الحرب سجالا ، وإن فاق جيش الشام جيش العراق تماسكا ونظاماً وهو أمر يرجح كفته فيما لو استمر القتال . فأهل العراق لم يكن ولاؤهم لنصرة على وحماسهم لقضيته مخلصاً ؛ فمنهم من حاربه من قبل فى موقعة الجمل ثم أرغموا على مشايعته بعد مصرع طلحة والزبير ، وجلهم من أهل البصرة ، أما الكوفيون ، فقد سئموا القتال من جراء ما لاقوا من أهوال فى حرب الجمل . وهو أمر لم يغب عن فطنة عمرو بن العاص حين حث جند الشام على طلب النصر حيث قال « .. إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم وفلوا احدهم ، ثم إن أهل البصرة مخالفون لعلى ، قد وترهم وقتلهم ، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل(١) . . » معنى ذلك أن « جيش على كان يضم عثمانية لا يقاتلون معه عن رضى وصدق بل كان منهم المخلص والمدخول ، (٢) أما جيش الشام ، فكان يدين لمعاوية بالولاء ويطيعه طاعة رجل واحد إيماناً بعدالة قضية الثأر لعثمان(٣) . ولا غرو ، فحين التحم الجيشان فى صفين انكشف أهل العراق « حتى لم يبق منهم إلا ابن بديل فى مائتين أو ثلاثمئة من القراء [الخوارج فيما بعد] قد أسند بعضهم ظهره إلى بعض(٤) » واستماتوا فى القتال . وقدهال انكسار

---

(١) الطبرى : جـ٤ ص ٥٦٣ .
(٢) طه حسين : الفتنة الكبرى جـ٢ ص ٨١ .
(٣) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٥٧ .
(٤) الطبرى : جـ٥ ص ١٨ .

جيش علي رجلا كالأحنف بن قيس حيث صاح مذعوراً « هلكت العرب(١) » ، إذ بلغ عدد القتلى سبعين ألفاً من العسكرين جلهم من جيش علي(٢) .

والحقيقة الثانية أن الدعوة للتحكيم صادفت هوى في نفوس الأكثرية من جيش علي ، بينما رفضت الأقلية مبدأ التحكيم من أساسه . والذي نؤكده أن الأقلية الرافضة كانت تشمل جماعة القراء التي أصرت على مواصلة القتال حتى النصر أو الموت دونه ، وهؤلاء القراء هم الذين صاروا خوارج بعد استجابة علي لرأي الأكثرية(٣) وقبوله التحكيم . وسواء أكان قبول الأكثرية خذلاناً وضعفاً أو عن نية صادقة(٤) في في طلب السلم والموادعة أو نتيجة الشك في موقف علي وقبول التحكيم كسراً للشك باليقين (٥) ، فعليهم تقع مسئولية إرغام علي على الرضوخ لمشيئتهم صاغراً (٦) .

---

(١) نصر بن مزاحم : ص ٢٠٥ .

(٢) ابن الخطيب : رقم الحلل في نظم الدول ص ١١ .

(٣) المسعودي : جـ٢ ص ٤٠١ .

(٤) كانت جمهرة كبيرة من المقاتلة تحبذ وقف القتال حقنا لدماء المسلمين ؛ منهم المخارق ابن الصباح الحميري الذي قال :

أعوذ بالله الذي قد احتجب	بالنور والسبع الطباق والحجب
أبي ذوات الدين منا والحسب	لا تبكين عيني على من قد ذهب
ليس كمثل الله شيء يرتهب	يارب لا تهلك أعلام العرب

انظر نصر بن مزاحم : ١٦٣ .

(٥) يتضح موقف جماعة الشكاك من الرواية الآتية « ... جاء رجل إلى عمار بن ياسر أثناء المعركة قائلا : إني خرجت من أهلي مستبصرا في الحق الذي نحن عليه لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم وأنهم على الباطل ؛ فلم أزل على ذلك مستبصرا حتى كانت ليلتي هذه صباح يومنا هذا ؛ فتقدم منادينا فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ونادى بالصلاة ، فنادى مناديهم بمثل ذلك ، ثم أقيمت الصلاة فصلينا صلاة واحدة ودعونا دعوة واحدة وتلونا كتابا واحدا ؛ فأدركني الشك . . » .
انظر : نصر بن مزاحم : ص ١٦٦ .

(٦) ترى الدكتورة سهير القلماوي أن عليا رضي بالتحكيم حقنا لدماء ابنيه الحسن والحسين . انظر : أدب الخوارج ص ١٩ .

ولا تقع تلك المسئولية البتة على الأقلية كما زعمت الرواية العراقية ، فما خرجت الأقلية على على إلا لقبول التحكيم ورفض استئناف القتال . كانت جماعة القراء الخارجة مدفوعة فى رفضها التحكيم بسبب سياسى ، فقد رأوا فى استمرار القتال حتى الاستشهاد خيراً من وقوعهم تحت طائلة عقاب معاوية لو جاءت نتيجة التحكيم فى صالحه باعتبارهم ضالعين فى مقتل عثمان وأكثر جند على حماسة لنصرته[1]. وثمة دافع آخر دينى ، إذ رأى القراء المتمسكون بأهداب الشريعة فى تحكيم الرجال فى حق منحه الله علياً بعد بيعته بالخلافة خروجاً على الدين وكفراً بنعمة الله ، ومن ثم وجبت توبة على كشرط لعودتهم إليه ، فلما رفض إجابتهم خرجوا عليه نهائياً .

ولدينا من النصوص ما ينفى عن الخوارج شبهة إجبار على بن أبى طالب على قبول التحكيم ، وما يؤكد خروجهم عليه لرفضهم مبدأ التحكيم من أساسه . ذكر ابن حيون — وهو مؤرخ شيعى — فى كتابه « شرح الأخبار » نقلا عن يحيى بن يحيى بن آدم عن حبيب بن أبى ثابت أحد رجال صفين « .. لما دعى عمرو إلى التحكيم ... ومال أكثر الناس إلى الموادعة ، جاءت الخوارج ونحن نسميهم براءة القراء وأسيافهم على عواتقهم ، فقالوا يا أمير المؤمنين أتمنعنا أن نسير بأسيافنا إلى هؤلاء فنقاتلهم ويحكم الله بيننا وبينهم .. » (٢) ويقول ابن قتيبة(٣) « .. لما سمع على قول الأشعث ورأى حال الناس قبل القضية وأجاب إلى الصلح ، قام إلى على أناس وهم القراء منهم عبد الله بن وهب الراسبى فى أناس كثير قد أخترطوا

---

(١) Muir : op. cit. p. 281. ولعل فى إنكار عمار بن ياسر التحكيم وإقدامه على الموت بطريقة انتحارية مايرجح ذلك . أنظر : البرادى : ورقة ٦ .

(٢) ابن حيون : شرح الأخبار ورقة ١٠٣ ، مخطوط .

(٣) الإمامة والسياسة ج٢ ص ٢٠٦ .

سيوفهم ووضعوها على عواتقهم ، فقـالوا لعلى اتق الله فإنك قد أعطيت العهد وأخذته منا لنفنين عدونا أو يفيء إلى أمر الله ، وإنا نراك قد ركنت إلى أمر فيه الفرقة والمعصية لله والذل فى الدنيا ، فانهض بنا إلى عدونا فلنحاكم إلى الله بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين . . . » ويقول مؤرخ مجهول(١) « الخوارج هم الذين خرجوا على على بن أبي طالب لما حكم الحكمين ، وذلك أنهم عاتبوه ومنعوه واحتجوا عليه، فتاب وأظهر لهم توبته، فبايعوه بعد التوبة ووازروه وقبلوا منه، ثم خرج عن قولهم إلى التحكيم بعد التوبة والرجعة ... » وثمة قرائن أخرى تؤكد مانذهب إليه، منها رفض ابن عباس تلبية طلب على فى قتال الخوارج(٢) إيمانا منه بصحة موقفهم ، فاكتفى بدعوتهم « لطاعة آل البيت (٣) » . بل نجد فى كتاب على إلى أهل النهروان بعد إعلان نتيجة التحكيم ما ينم عن ندمه واعتذاره واعترافه باستقامة رأيهم ، إذ ورد به « ... فهلموا نعطيكم الرضى ونرجع إلى الأمر الأول الذى طلبتموه منى ونقاتل عدونا وعدوكم حتى يحكم الله بيننا والله خير الحاكمين »(٤) .

ولما كان الخوارج — حقا — براء من تهمة إجبار على على قبول التحكيم ، وإذا كان على فى خطبه فى أهل العراق يبدى غيظا وحنقا عليهم لأنه قبل التحكيم كارها ، ولم يرض به إلا إذعانا ورضوخا لمشيئتهم ، وجب أن نبحث عن دور تلك الطغمة من أهل العراق التى كانت وراء إذعانه ورضوخه .

والمصادر جميعا — سنية وشيعية وخارجية — تشير بأصابع الاتهام إلى قبائل

---

(١) قطعة من كتاب فى الأديان والفرق ورقة ٩٦ ، مخطوط .

(٢) مجهول : كشف الغمة لأخبار الأمة ورقة ٢٨٧ ، مخطوط .

(٣) ابن حيون : شرح الأخبار ورقة ٨٧ .

(٤) كشف الغمة ورقة ٢٨٠ .

كنده وزعيمها الأشعث بن قيس . فمؤرخوا السنة يقرنون دوره بدور الخوارج فى الدعوة للتحكيم والحض على قبوله واختيار أبى موسى الأشعرى على كره من على اعتمادا على ثقل مكانته باعتباره زعيما لليمنية فى جيش العراق [١] ، حتى ليذكر المسعودى [٢] أن عليا اتهم الأشعث صراحــة بأنه صاحب اليد الطولى فى مهزلة التحــكيم . وفى نفس الاتجاه ينساق المؤرخون فيصورونه معول هدم وعامل فرقة فى معسكر على ، فتحت تهديداته تخلى على عن حقه الشرعى فى الخلافة بقبوله ذكر اسمه مجرداً من لقب « أمير المؤمنين » فى وثيقة التحــكيم [٣] ، وهو الذى أوقع بين على وبين من عرفوا بالخوارج ، فحرضه على قتالهم واستئصال شأفتهم بالنهروان كشرط للمضى معه بجنده اليمنية لقتال أهل الشام [٤] وهو الذى خذل عليا بعد النهروان حين أزمع قتال أهل الشام ، فانسحب بجنده إلى الـكوفة متذرعاً بالحاجة إلى الراحة والاستعداد قبل المواجهة الحاسمة [٥] .

ومؤرخو الشيعة ينحون نفس النحو مبرزين دوراً مخرباً للأشعث فى معسكر على منذ البداية ، بلغ حد التآمر على حياته [٦] ، وقيل أنه تواطأ مع ابن ملجم فى المؤامرة التى انتهت بقتله [٧] .

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ١٨٧ .

(٢) مروج الذهب جـ٢ ص ٤١٢ .

(٣) ابن الأثير : جـ ٣ ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٤) نفسه ص ١٣٧ .

(٥) نفسه ص ١٣٩ .

(٦) قيل أن الأشعث دخل فأغلظ له على ؛ فعرض له الأشعث بأن يفتك به . عن مزيد من التفصيلات انظر المبرد : الـكامل جـ٣ ص ٩٨٣ .

(٧) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ٢١ .

والرواية الخارجية تقول بتواطؤ مسبق بين الأشعث ومعاوية الذي كان يمده ويمنيه (١)، فكان لذلك أداة له في بث الفرقة في جيش علي، وحسبه نجاحا في ذلك تحريض عليّ على قتال الخوارج والوقيعة بهم في النهروان وحرمانه من خيرة جنده وأكثرهم إخلاصاً لقضيته (٢).

ومن الدارسين المحدثين من أكد دور الأشعث الشائن هذا، فدوزي (٣) أطلق عليه «الخائن الأعظم» على أساس أن اتفاقاً تم بينه وبين عمرو بن العاص بقصد خذلان علي وإحداث صدع في جيشه، والدكتور طه حسين (٤) يرى أن «المؤامرة قد أحكمها الأشعث ماكر أهل العراق وعمرو بن العاص ماكر أهل الشام وداهيتهم . . . فهي لذلك أثار بين طلاب الدنيا من أصحاب علي وأصحاب معاوية».

وإذا كانت تلك الروايات جميعاً تدين الأشعث وتدمغه بالخيانة، فلا نعدم من المؤرخين من دافع عنه وبرر موقفه، فالدينوري (٥) ذكر أن الأشعث تحمس للتحكيم عن نية صادقة في حقن دماء المسلمين، ذلك أن استمرار القتال كان يعني «بوار العرب وضيعة الحرمات» على حد قول الأشعث نفسه. ويرى الدينوري أن أن الأشعث كان لذلك أول من فكر في وقف القتال، وأن فكرته صادفت هوى في نفس معاوية، فأمن قول الأشعث خشية — على «ذراري أهل الشام من الروم وذراري أهل العراق من دهاقين فارس» عن نية صادقة كذلك، عندئذ دعى إلى إشهار المصاحف على أطراف القنا داعياً إلى تحكيم كتاب الله، فاستجاب علي

---

(١) الشماخي: ص ٤٧، ٤٨، البرادي: ورقة ٦٠.
(٢) البرادي: ص ٦٦.
(٣) Spanish Islam. p. 37.
(٤) الفتنة الكبرى ج٢ ص ٨١، ٨٢.
(٥) الأخبار الطوال ص ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠.

للدعوة عن رضى واقتناع؟ فكأن الدينورى لا يرى فى الموقف برمته شيئاً من تدبير أو مكائد. وهى رؤيا أخذبها يوليوس فلهوزن (١) حيث قال « ... فالبحث عن خونة لا جدوى له ولا محل » فهو يفند مزاعم الخيانة والتواطؤ على أساس انتفاء دوافعها وأسبابها.

والقول الفصل فى موقف الأشعث — أمام تضارب الروايات — نتلمسه بالبحث فى مقومات شخصية ، فالذى يستعرض حياته ، ويستقرىء مواقفه قبل صفين يمكنه — دون لأى — أن يقف على مكامن الخيانة فى طبعه ، رغم ما قيل عن إخلاصه لعلى إبان معركة صفين وصدق عزمه على حقن دماء المسلمين عن طريق الدعوة للتحكيم. فمن مظاهر الولاء المزعوم موقفه البطولى حين أقصى جند الشام عن موارد المياه بصفين حين عولوا حرمان جيش من السقيا (٢) والراجح — فيما نعتقد — أنه كان مدفوعا لذلك بالحفاظ على حياته وحياة رجاله من اليمنية أكثر من إخلاصه لعلى وقضيته وما قيل عن رفضه الأبى الانضمام لمعاوية حين ألح فى استمالته (٣) ، يفسر فى ضوء الخصومة التقليدية بين قومه من اليمنية وبين القيسية أشياع معاوية. كان الأشعث « رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن (٤) » يتطلع إلى مكان الصدارة عن طريق

(١) الخوارج والشيعة ص ٦ — ص ١٣ .

(٢) نصر بن مزاحم : ص ٨٧ ، الدينورى : ص ١٦٩ . وتذكر الرواية أن الأشعث قال لعلى : « يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت فينا ومعنا السيوف ، خل عنا وعن القوم فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت . فقال على : ذلك إليك ، فرجع الأشعث فنادى فى الناس : من كان يريد الموت فميعاده الصبح ، فإنى ناهض إلى الماء . فأتاه من ليلة إثنى عشر ألف راجل ، فشد عليه سلاحه مرتجزا :

ميعادنا اليوم بياض الصبح هل يصلح الزاد بغير ملح
لا لا وأمر بغير نصح دبوا إلى القوم بطعن رمح

فلما أصبح ، زاحف أبا الأعور فاقتتلوا ، وصدمهم الأشتر والأشعث فنفيا أبا الأعور وأصحابه عن الشريعة وصارت فى أيديهما ، . انظر : نصر بن مزاحم : ص ٨٧ .

(٣) نفسه ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٤) نفسه ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

الرهان على الجواد الرابح ، والوقف قبيل صفين كان ينبيء بارتفاع أسهم على خاصة بعد انتصاره فى حرب الجمل . فالأشعث من ثم كان من أولئك النفر الطموحين الذين يغلبون الاعتبارات القبلية والأمجاد الشخصية على الحماس للقضايا الدينية والإخلاص فى نصرة أصحابها .

وسجل حياة الأشعث ينطق بما يؤيد ذلك ويؤكده ،فقد أسلم فى عهد الرسول قسراً حين أعيته الحيلة والقـدرة على مناهضة تيار الإسلام الجارف ، ثم ارتد بعد وفاته وألب قومه على أبى بكر وورطهم فى حروب الردة ، لـكن أذعن من جديد معلنا توبته التى قبلها أبو بكر على مضض (١) . وفى خلافة عمر ذوى شأنه أمام هيبة عمر وسطوته ، ثم عاد للظهور منتهزا ضعف عثمان ، فزوج ابنته لعمر بن عثمان ، وظفر بولاية أذربيجان (٢) . ولما قتل عثمان وبويع على بالخلافة عزل عن إمارته فرضخ للأمر كارها ، مضمراً لعلى شرا مبيتا . وكان رضوخه — كما قلنا — مداراة لعلى الذى بدأ نجمه فى الأفق صاعدا(٣) . فلما بدأ فى الأفول فترت همته فى نصرته ، وطفق يظهر ما أضمر من أحقاد . ومع أننا نشارك فلهوزن(٤) الرأى فى استبعاد تدبير لعبة التحكيم مع عمرو بن العاص ، إلا أنه لايمكن الشك فى دوره الفعال فى الدعوة له والحض عليه والترويج له بين القبائل منتهزا فى ذلك موجات الشك ومشاعر الهلع ودعاوى الخذلان جنبا إلى جنب مع صدق النوايا فى إيثار العافية والرغبات الحقيقية فى وضع حد للفتنة الـكبرى . وكلها أمور جالت بصدور عسكر على ، انتهزها الأشعث فى تأليب أكثرية الجيش على علىّ لوقف القتال . وهكذا أسهم — سواء عن حسن نية

---

(١) قيل أن أبا بكر ندم على ذلك لأنه كان يرى فى الأشعث «رجلا لا يرى غيا ولاشرا إلا أعان عليه . ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص ٣٢ .

(٢) نفسه جـ ٢ ص ١٤٩ .

(٣) نصر بن مزاحم : ص ١٤ .

(٤) الخوارج والشيعة ص ٧ ، ٨ .

أو سوء قصد — فى إقرار مبدأ التحكيم وإرغام علىّ على الأخذ به ، وكبح جماح القلة المخلصة الرافضة له واستئصال شأفتها فيما بعد فى النهروان ، فكان فى النهاية معول هدم فى قوة جيش العراق .

الخلاصة — أن عوامل الضعف والفرقة فى معسكر علىّ أفرزت نتائجها الطبيعية وما كان بوسع علىّ وقف تيارها ، فقد أفلت من قبضته زمام الموقف حين غالبته الأكثرية وأرغمته على التفريط فى حقه الشرعى فى الإمامة بقبول التحكيم .

الذى نستخلصه فى النهاية ، براءة القراء الذين صاروا خوارج من مسئولية التحكيم انطلاقا من موقف سياسى ودينى فى آن واحد ، جعلهم يثورون رفضا له لا رغبة فيه .

ومما يؤكد ذلك أن أول شعار نادوا به هو « لاحكم إلا لله » ، فقد قيل(١) إن « رجلا من ربيعة من بنى يشكر كان مع علىّ بصفين ، فلما رأى اتفاق الفريقين على الحكمين استوى على فرسه وحمل على أصحاب معاوية وقتل منهم رجلا ، وعلى أصحاب على وقتل منهم رجلا ، ثم قتل أصحاب على حتى قتله رجل من همدان » . وقيل (٢) إن أول من حكم كان عروة بن أدية الذى شد بسيفه على الأشعث ابن قيس فأخطأه حين كان الأشعث يقرأ وثيقة التحكيم على قبائل تميم . وذكر (٣) أن أخوين من عنزة هما جعد ومعدان — صاحا فى وجه الأشعث « لاحكم إلا لله » وضرباه فأخطآه ، ثم شدا على أهل الشام حتى قتلا . وفى قول(٤) رابع أن أول من حكم هو سعيد بن محارب من قيس عيلان . وفى رواية أخيرة(٥) أن الحجاج ابن عبدالله المعروف بالبرك كان أول المحكمة .

---

(١) البغدادى : ص ٧٥ ، الإسفرائينى ص ٤٦ .
(٢) الطبرى: حـ ٥ ص٥٥ ، المسعودى : حـ ٢ ص٤٠٤ ، ابن قتيبة : المعارف ص٤١٠ .
(٣) الدينورى : ص ١٩٢ .
(٤) المبرد : حـ ٣ ص ٩٠٩ .
(٥) نفسه ص ٩١٧ .

ومهما اختلفت الروايات فالمحصلة النهائية أن المحكمة أو الخوارج ارتبط ظهورهم برفض التحكيم وليس بالدعوة له كما زعمت الرواية العراقية. وهذا محض اجتهاد متواضع فى قضية أثارت الخلاف بين القدامى والمحدثين، وخفيت حقيقتها حتى على أولئك الذين عاصروها، بل كثر الجدل حولها بين من عايشوها، وهو جدل دار بين تبادل « السباب والشتائم والضرب بالمقارع ونمال السيوف بين الرجل وابنه والأخ وشقيقه » على حد قول المسعودى (١)

(١) مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٠٥.

عبد الرحمن السعدى

عصره — وكتابه « تاريخ السودان »

بقلم : احمد فؤاد بليغ

تاريخ السودان الغربى من المراجع العربية

كان الجغرافيين والرحالة والمؤرخين العرب، منذ القرن التاسع الميلادى ، فضل الريادة فى مجال استكشاف القارة الإفريقية ، والبحوث والدراسات المتعلقة بها . فقد كانوا يخترقون صحراء القارة ، ويتجشمون الصعاب ، ويتعرضون للمخاطر ، بصحبة قوافل التجارة والدعاة والعلماء سعيا وراء كشف النقاب عن المجهول . ومنذ القرن السادس عشر بدأ العلماء من أبناء القارة أنفسهم ، وبخاصة أبناء إفريقية الغربية الذين يعنوننا فى هذا المقال ، يستكملون الرسالة ، ويسجلون تاريخ وتراث بلادهم .

ولم يعرف الرحالة الأوربيون طريقهم إلى القارة إلا مع «بزوغ فجر الاستعمار» وقد انتشرت حركتهم فى الأساس مع مطلع القرن الثامن عشر . ولا يستطيع هؤلاء أن يغمطوا الرحالة والجغرافيين العرب ، والمؤرخين من أبناء المنطقة ، فضل السبق إلى هذا المجال . بل إن ما كتبه الأخيرون يعد مرجعا رئيسيا لكل الدراسات الأوربية فى القارة الإفريقية ، التى تتناول الفترة ما بين القرن التاسع وأوائل القرن التاسع عشر .

وبذا يمكن أن نقسم المراجع العربية القديمة التى تتناول هذه الحقبة من تاريخ إفريقية الغربية إلى قسمين رئيسيين : مؤلفات المؤرخين والرحالة العرب منذ القرن التاسع إلى نهاية القرن الخامس عشر ، مؤلفات علماء المنطقة الذين لم تكن لديهم لغة مكتوبة غير العربية ، والذين كانوا جميعا من المسلمين بالضرورة ، ويغطى هؤلاء الفترة التى تمتد إلى أوائل القرن الماضى .

وترجع أهمية مؤلفات القسم الأول إلى أنها مؤلفات فريدة في هذا المجال . فقد كتبت فى فترة كانت أحوال هذه المنطقة مجهولة لغيرفيها الرحالة والجغرافيين العرب ، كما تمد المصدر الرئيسى لتاريخ دول ازدهرت فى المنطقة مثل دولة غانة القديمة ودولة مالى الإسلامية . ونخص بالذكر هنا : الفرازى ، الفلكى العربى ، الذى كان أول من ذكر غانة وعدة بلدان إفريقية من المؤرخين العرب قبل ١٨٥ هـ (٨٠١ م)، وابن عبد الحكم (١٨٨ — ٢٥٧ هـ ، ٨٠٣ — ٨٧١ م) فى فتوح مصر والمغرب، ابن حوقل (— ٣٦٧ هـ ، — ٩٧٧ م) فى المسالك والممالك (كتاب صورة الأرض) ، المسعودى (٢٨٧ — ٣٤٦ هـ ، ٩٠٠ — ٩٥٧ م) فى مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أبو عبيد البكرى (٤٣١ — ٤٨٧ هـ ، ١٠٤٠ — ١٠٩٤ م) فى المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من المسالك والممالك) ، الإدريسى (٤٩٥ — ٥٦٣ هـ ، ١١٠٠ — ١١٦٦ م) فى نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ياقوت الحموى (٥٧٤ — ٦٢٥ هـ ، ١١٧٨ — ١٢٢٨ م) فى كتاب معجم البلدان ، أحمد بن فضل الله العمرى (٦٩٩ — ٨٧٦ هـ ، ١٣٠٠ — ١٣٨٤ م) فى مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، ابن بطوطة (٧٠٣ — ٧٨٠ هـ ، ١٣٠٤ — ١٣٧٨ م) فى تحفة الأنظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار ، ابن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٩ هـ ، ١٣٣٢ — ١٤٠٦ م) ، فى العبر وديوان المبتدأ والخبر ، القلقشندى (٧٥٤ — ٨٢١ هـ ، ١٣٥٣ — ١٤١٨ م) فى صبح الأعشى ، المقريزى (٧٦٥ — ٨٤٦ هـ ، ١٣٦٤ — ١٤٤٢ م) فى مؤلفاته العديدة ؛ ليو الإفريقى (— ٩٥٩ هـ ، ١٥٥٢) فى وصف أفريقيا ، وغيرهم كثيرون .

وقد غطى المستشرق الروسى الكبير ، اغناطيوس كراتشكوفسكى ، هذه الفترة تغطية كاملة ، وقدم عرضا شاملا ومثيرا للرحالة والجغرافيين والمؤرخين الذين برزوا

فى خلالها ، وذلك فى سفره العظيم تاريخ الأدب الجغرافى العربى (١) .

كذلك قام الدكتور صلاح المنجد ، بالاتفاق مع حكومة مالى ، بإعداد كتاب قيم بعنوان ، مالى والجغرافيين العرب ، جمع فيه من مؤلفات هؤلاء الجغرافيين والمؤرخين قدرا كبيرا من المقتطفات المتعلقة بدولة مالى الإسلامية ، وبخاصة زيارة منساموسى لمصر فى أثناء ذهابه للحج .

أما القسم الثانى فنقول عنه إن الكتابة بالعربية ، والتأليف بها ، قد عرفا بهذه المنطقة فى أثناء قيام دولة المرابطين، ونهوضها بتزويململكة غانا الوثنية القديمة (٤٧١ - ٤٧٥ هـ ، ١٠٧٨ - ١٠٨٢ م) ، أى فى فترة انتشار الإسلام بالمنطقة ، ونشير هنا سريعا إلى أبرز من كتبوا بالعربية ، وبخاصة المؤرخين الإفريقيين الذين سجلوا تاريخ بلادهم: أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى (-٩٠٩ هـ ، -١٥٠٤م) الفقيه التلمسانى الأصل ، والداعية والمجاهد الشهير ،الذى ألف كثيرا فى علوم الفقه ، وفى شرح أركان المذهب المالكى ، والذى أفاد المصلح الإمام الشيخ عثمان دان فوديو كثيرا من مؤلفاته وآرائه ، محمود كعت (٨٧٣ - ١٠٠٢ هـ ، ١٤٦٨ - ١٥٩٣ م) ، العالم والإمام الكبير ، صديق أسكيا الحاج محمد ومستشاره الأمين ، ومؤرخ دولة السنغى ، وصاحب المؤلف الذائع الصيت تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس (٢) ، أحمد بابا التمبكتى (٩٦٠ - ١٠٣٦ هـ ،

---

(١) قام بنقل هذا الكتاب إلى العربية (من اللغة الروسية مباشرة) الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ، وتولت نشره « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ، تحت إشراف الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

(٢) حقق هذا الكتاب ، ونقله إلى الفرنسية ، وعلق عليه ، وقدم له ، المستشرقان الفرنسيان هودا وديلافوس ، ونشرته « المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية » فى عام ١٩١٣ ، فى طبعتين عربية وفرنسية . وأعادت اليونسكو طبعه مصورا فى مجلد واحد يضم الطبعتين العربية والفرنسية فى عام ١٩٦٤ .

١٥٥٣ - ١٦٢٧ م) ، أكثر علماء المنطقة مهابة وجلالا وتضلعا فى الفقه ، تربو مؤلفاته على الأربعين ، وفى طليعتها نيل الابتهاج بتطريز الديباج (٣) ، وهو معجم سيرة يؤرخ لعلماء المنطقة ورجالها البارزين، عبد الرحمن السعدى (١٠٠٤- ه ١٥٩٦ - م) ، صاحب تاريخ السودان (٤) ، الحاج سعيد وآخرين ، أصحاب تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان (٥) الذى يعد تكملة لكتاب تاريخ السودان ، الشيخ عثمان دان فوديو (١١٦٧ - ١٢٣٢ ه ١٧٥٤ - ١٨١٧ م) زعيم قبائل الفولانى ، وقائد البعث الإسلامى بإفريقية الغربية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وضع كتبا كثيرة فى الفقه لدينا منها إحياء السنة وإخماد البدعة (٦) ، الشيخ عبد الله (١١٨٠ - ١٢٤٥ ه، ١٧٦٦ - ١٨٢٩ م) شقيق الشيخ عثمان ، وصاحب كتاب تزيين الورقات (٧) ،محمد بلو (١١٩٥ - ١٢٥٣ه - ١٧٨١، - ١٨٣٧م)

---

(٣) حققه ونشره عباس بن عبد السلام بن سقرون ، القاهرة فى عام ١٣٥١ ه على هامش الديباج المذهب لابن فرحون .

(٤) حققه ، ونقله إلى الفرنسية ، وعلق عليه ، وقدم له ، المستشرق الفرنسى هودا ، ونشرته « المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية » فى عام ١٨٩٨ ، فى طبعتين منفصلتين عربية وفرنسية ، وأعادت اليونسكو طبعه مصورا فى مجلد واحد يضم الطبعتين العربية والفرنسية ، وذلك فى عام ١٩٦٤ .

(٥) حققه ، ونقله إلى الفرنسية ، وعلق عليه ، وقدم له ، المستشرق الفرنسى هودا ، ونشرته « المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية » فى عام ١٩٠١ ، فى طبعتين منفصلتين عربية وفرنسية .

(٦) نشرته الإدارة العامة للثقافة بالأزهر فى عام ١٩٦٢ ، وقام بتحقيقه أصحاب الفضيلة المشايخ طه الساكت وحافظ محمد الليثى وعبد الرحيم فرج الجندى المفتشون بالأزهر .

(٧) نشرته مطبعة جامعة إبادان بنيجيريا فى عام ١٩٦٣ ، وقام بتحقيقه ، ونقله إلى الانجليزية ، والتقديم له ، والتعليق عليه ، المستشرق الانجليزى م . هيكست الأستاذ بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ، التابعة لجامعة لندن ، ونائب مدير مدرسة الدراسات العربية بكانو سابقا .

ابن الشيخ عثمان ، والجد الأكبر لأحمد بلو رئيس وزراء نيجيريا الأسبق، وصاحب كتاب إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور (٨) ، وغيرهم كثيرون .

وقد كان حرص المستعمرين شديدا للغاية ، لأسباب يضيق الحيز عن ذكرها ، على الاستئثار بهذا التراث القيم، فبذلوا ما فى وسعهم لجمع مخطوطاته ونقلها إلى مكتبات ومتاحف بلادهم مثل المتحف البريطانى والمكتبة القومية بباريس. كما نشطت الجمعيات والمعاهد الخاصة بالدراسات الإفريقية ، وأسهمت فى تحقيقها ونشرها ، ولا سيما ما اتصل منها بتاريخ المنطقة . ومع ذلك ما زالت توجد على الأرض الإفريقية أكداس من هذه المخطوطات، وبخاصة فى المعهد الفرنسى للآثار بدكار (بالسنغال)، وفى جامعة إبادان ومكتبة مدرسة الشريعة بسكتو ومكتبة كانو (بنجيريا) .

ونلقى فيما سيأتى نظرة سريعة على تاريخ دولتى غانة الوثنية ومالى الإسلامية ، ثم نستطرد بشىء من التفصيل فى تاريخ امبراطورية السنغى ، والغزو المراكشى ، الذى ولد عبدالرحمن السعدى بعد وقوعه بنيف وخمس سنوات ، وعاصر جانبا هاما من أحداثه ، والذى أعلن نهاية إمبراطورية السنغى ، وبداية ما عرف فى تاريخ المنطقة « بالفراغ الكبير »، ذلك الفراغ الذى استمر إلى حين انبثاق الروح القومية، وظهور حركة البعث الإسلامى على أيدى دعاة ومصلحين من أمثال الشيخ الكانمى فى برنو ، والشيخ عثمان دان فوديو بين قبائل الفولانى ، والحاج عمر بين قبائل

---

(٨) نشرت مكتبة لوزاك فى لندن عام ١٩٥٧ ، طبعة مصورة للكتاب تحت إشراف مستر ويتنج ، المحاضر بمدرسة العلوم العربية بكانو ، وذلك عن مخطوط حصل عليه هوتينج من نيجيريا ؛ ثم نشرته وزارة الأوقاف المصرية ، فى عام ١٩٥٦ ، بمناسبة زيارة أحمد بلو ، حفيد المؤلف ، ورئيس وزراء نيجيريا الأسبق ، لمصر ، واشترك فى تحقيقه الأساتذة والمشايخ على عبد العظيم والسيد محمد أبو المجد وطه الساكت وحافظ الليثى وعبد الرحيم الجندى من موظفى الوزارة والأزهر ، مع نبذة عن حياة المؤلف كتبها الشيخ أبو بكر محمود غمى قاضى قضاة شمال نيجيريا .

المالكة بالسنغال ، عند نهاية القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر .

سقوط دولة غانة الوثنية

تمكن المرابطون فى عام ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) ، تحت قيادة ابن يس ، من إخضاع قبيلتى لمتونة وجدالة ، ثم من السيطرة على سجلماسة . وفى عام ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) قاموا بغزو المركز التجارى العظيم فى قلب الصحراء أودغشت ، وبذا أحكموا قبضتهم على طرق التجارة . ومن بعد ابن يس نذر المرابطون حياتهم ، تحت قيادة خليفته أبى بكر ، بغزو غانة التى كانت تجارتها قد تأثرت بالفعل نتيجة لسقوط أودغشت فى أيديهم . وكانت المقاطعات الشمالية من غانة تسقط ببطء فى أيدى المرابطين ، ولكن ملك غانة ظل مسيطرا على بلده الأصلى ، إلى أن سقطت عاصمته فى عام ٨ – ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) بعد حرب دامت أربعة عشر عاما ، ولم تعد غانة توجد كقوة عظيمة .

قيام دولة مالى الإسلامية

وبعد غانة بدأت دولة مالى الإسلامية . وقد عرف الإسلام طريقة إلى الأسرة الحاكمة فى مالى فى منتصف القرن الحادى عشر ، فى أثناء ازدهار مملكة غانة ، وكان ذلك حينما غزا المرابطون ديار غانة الخارجية فى عام ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) . وبعد ذلك بقرنين بدأ تشييد امبراطورية مالى الكبرى ، عندما بدأ سنديأته عد سلطانه عن طريق المصاهرة ، وإخضاع القبائل المجاورة ، وعندما انعقد لواء النصر لسندياته فى معركة كيسى فى عام ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) . وبلغت هذه الامبراطورية أوج قوتها عندما اعتلى عرشها أعظم حكامها منساموسى ، فى عام ٧٠٥ هـ (١٣٩٥ م) . وقد أحدثت رحلة الحج التى قام بها هذا العاهل العظيم فى عام ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ م) ، ومر فى خلالها بمصر فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، دويا كبيرا فى العالم الإسلامى ، كما احتلت مكانا هاما فى مؤلفات مؤرخى ذلك العصر . وبموت منساموسى

موسى فى عام ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) بدأ نجم مالى فى الأفول ، إلى أن كانت بداية القرن السادس عشر ، حينما عادت إلى المكان نفسه الذى نشأت فيه منذ قرون ، إلى الدولة القديمة كنجابة .

دولة السنغى

وعلى أنقاض مالى قامت دولة السنغى . فثمة مملكة كبيرة كانت قائمة حتى فى أيام عظمة غانة هى مملكة جاو ، التى يشير اليعقوبى إلى أن كل ملوك الزنوج كانوا يدفعون لها الجزية . وكتب المهلبى حوالى عام ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) يقول إن ملكها كان مسلما ، وإنه كانت لديها مساجدها ومدارسها ، فى حين يقول البكرى إن عامة الشعب مع ذلك كانوا وثنيين ، وإن المسلمين وحدهم هم الذين كان بإمكانهم أن يصبحوا حكاما لجاو . بيد أن شعب جاو (السنغى) لم يستطع أن يسيطر على جيرانه إلا عندما ازدادت أهمية طرق التجارة فى المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى ، ولذا لم تبرز دولته إلا فى وقت متأخر . وكلما كانت مالى تتمزق بسبب الفتنه ، كانت قدرة جاو على تأكيد وجودها تزداد وتتدعم .

وقد اتحد السنغى فى عهد أسرة ديا (أو زا كما يقول السعدى) ، واتخذوا كوكيا مركزا لهم على بعد ١٤٠ كيلو مترا من جاو . وكان ديا كوسى (أو زا كسى كما كتبها السعدى) هو الخامس عشر فى سلسلة الحكام ، وأول من اعتنق منهم الإسلام (حوالى ٤٠٠ هـ ، ١٠٠٩ م) . ونقل هذا الحاكم عاصمته من كوكيا إلى جاو . وعرف هذا الحاكم ومن تلاه ، كما يقول السعدى ، بأنه « مسلم دم » ، أى اعتنق الإسلام طوعاً . وفى أيام المؤرخ العربى البكرى فرض السنغى سلطانهم على القبائل المجاورة ، ولكنهم إلى حين غزو مالى لبلادهم لم يكونوا قوة كبيرة . وقد أخذ منسا موسى اثنين من أمرائهم — هما سلمن نار وعلى كلن، رهينتين لضمان استتباب

النظام . وقد استطاع الأميران الفرار فيما بعد، واتفقا على أن تعرف أسرتهما الحاكمة بأسره شى(٩) (أوسن كما يقول السعدى) وشرع على كان فى دعم استقلال بلاده وتوسيع رقعتها ، ومع ذلك لم يبرز السنغى كقوة كبيرة إلا فى عهد مادع الذى حرر أربعا وعشرين قبيلة كانت تسيطر عليها مالى .

وسار اتساع رقعة بلاد السنغى بطيئا إلى أن كانت أيام سن على ، ذلك الحاكم الجبار القاسى ، الذى اتحد فيه العنصران التوأمان فى هـذه المنطقة ، وهما الإسلام والوثنية ، فأمه كانت وثنية ، وأبوه كان مسلما . وجمع سن على بين فكرة ملك مقدس وفكر زعيم دينى ، واستطاع أن يصبح سلطانا وساحرا فى آن واحد . وفى عهده اتسعت رقعة البلاد ، وسقطت فى يده كلا من تمبكتو فى عام ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) ، وجنى فى عام ٨٨١ هـ (١٤٧٦) . وقد توفى فى طريق عودته من حملته على الجورما حوالى عام ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ، وخلفه ابنه سن بارو الذى رفض اعتناق الإسلام . وقد ثار ضده محمد تورى ، وانتزع منه السلطان ، وتقول الروايات إن ذلك سبب تسمية أسكيا ، ومعناها عندهم « المتغصب » . وأصبح أسكيا هو لقب كل حكام السنغى الذين جاءوا بعد ذلك . وحاول أسكيا محمد تورى ، أو اسكيا الحاج محمد الكبير ، إضفاء الشرعية على اغتصابه السلطة ، فسعى إلى الحج ابتغاء الحصول على اعـتراف الخليفة به سلطانا ، كما أخذ يجزل العطاء للعلماء والمرابطين ويتقرب إليهم .

وفى مكة أجزل الأسكيا العطايا ، وأقام إحدى التكايا ، وقضى وقته بين العلماء ،

---

(٩) جاء فى تاريخ الفتاش ، ص ٤٣ ، أن « معنى شى كى بتند أى خليفة السلطان أو بدله أو عوضه » ، ومن ذلك يفهم أنه كان تابعا لإمبراطور مالى . ويقول هودا وديلافوس فى تاريخ الفتاش ، الطبعة الفرنسية ، ص ٧٣ حاشية ، إن معنى الكلمة فى لغة السنغى « يحل محل الرئيس » .

والتقى بالإمام عبد الرحمن السيوطي وتأثر كثيراً بآرائه ، واستطاع إغراء أسرة من الأشراف بمرافقته عند عودته إلى بلاده . كما قدم الولاء للخليفة العباسي « المتوكل » الذي عينه واليا من قبله على السودان، وبذا أصبح أسكيا محمد الكبير هو السلطان الشرعي للبلاد . وفي عهده إزدهرت مكانة تمبكتو الدينية ، وتدعمت قواعد الإسلام . وكان على اتصال دائم بالداعية والفقية محمد المغيلي ، ويأخذ برأيه في مسائل الشريعة .

واستطاع ابن أخيه موسى انتزاع السلطة منه في أخريات أيامه ، بيد أن حكمه لم يدم طويلا (٩٣٥ — ٩٣٨ هـ ، ١٥٢٩ — ١٥٣١ م) فقد خلفه أحد أبناء أسكيا الحاج محمد الكبير ، الذي جلس على العرش تحت إسم أسكيا محمد بونكان (٩٣٨ — ٩٤٤ هـ ، ١٥٣١ — ١٥٣٧ م) وقد عزل بدوره ، ونودى أخوه إسماعيل أسكيا جديدا ، ودام حكمه سنتين وسبعة شهور (٩٤٤ — ٩٤٧ هـ ، ١٥٣٧ — ١٥٤٠ م) اجتاحت أمبراطورية السنغى في خلالها مجاعة كبيرة . وفي عهد هؤلاء الثلاثة الآخرين ضعفت السلطة المركزية . وانتهت هذه الفترة بتولى أسكيا إسحق الأول العرش (٩٤٧ — ٩٥٦ ، ١٥٤٠ — ١٥٤٩ م) ، فعمل على إعادة النظام وروح الانضباط إلى الإدارة . وفي عهده واجه السنغى أول تحد من جانب سلاطين مراكش .

وخلف أسكيا داوود أخاه اسحاق وكان حكمه الذي استمر أربعة وثلاثين عاما (٩٥٦ — ٩٩٠ هـ ، ١٥٤٩ — ١٥٨٢ م) سلسلة من الحملات ضد الحكام الذين ورث عداءهم لأسرته ، وحقق كثيراً من الانتصارات . وبعد داوود جاء أسكيا الحاج ، الذي حكم أربع سنوات وخمسة شهور (٩٩٠ — ٩٩٤ هـ ، ١٥٨٢ — ١٥٨٦ م) ، ثم عزله أخوه محمد باني الذي لم يدم حكمه أكثر من سنة وبضعة أشهر ، وفي عهده اندلعت حرب أهلية وحدثت مجاعة فتكت بالناس .

وقد خلفه أسكيا إسحاق الثانى (٩٩٦ — ١٠٠١ هـ ، ١٥٨٨ — ١٥٩١ م) أكبر ابناء أسكيا داوود .

الغزو المراكشى

كان غزو السودان الغربى موضع تفكير طويل لدى سلاطين مراكش . فقد كان ذهبه يثير خيالهم ، ويلهب أطماعهم ، وبخاصة على ضوء ما كانوا يعتقدونه من أنه ينمو كما ينمو النبات . بيد أنه كانت هناك مشكلة غزو الصحراء ، والخوف من قوة إمبراطورية السنغى ، ومما يمكن أن يؤدى إليه فشل الغزو من انقطاع العلاقات التجارية ، وتدفق الذهب عبر مناطق أخرى . ولذا كثيرا ما كانوا يفضلون الوسائل الدبلوماسية . وكانوا يعتقدون أنه إذا أمكنهم الاستيلاء على تغازة استطاعوا تحقيق السيطرة الاقتصادية على السودان . فتغازة كانت المصدر الرئيسى لاستخراج الملح العالى القيمة فى السودان ، وبخاصة فى تمبكتو ، حيث كان يعادل وزنه ذهبا . بيد أن محاولاتهم كانت تبوء بالفشل المرة تلو الأخرى ، ذلك لأن الطوارق ، أصحاب المصالح الحقيقية فى تجارة ملح تغازة ، كانوا يتخذون جانب السنغى ، وكان بإمكانهم الدفاع عن المكان . ولم تسفر هذه التحرشات إلا عن البحث عن مصادر أخرى للملح ، وقد بدأ السنغى بالفعل فى عام ٩٧٠ هـ (١٥٦٢ م) فى استغلال مناجم تاودينى .

وقد انصرفت مراكش حينا عن غزو السودان الغربى ، وذلك لانهما كانا فى صراع مستمر مع مسيحيى الأندلس ، وهو الصراع الذى انتهى بخروج المسلمين من أسبانيا والبرتغال ، وتفكير المسيحيين فى غزو شمال أفريقيا . ومرة أخرى عادت مناجم الملح ، فى عهد السلطان أحمد المنصور ، الشاب الواسع الأطماع ، الذى عرف بالذهبى ، عادت تقوم بدور بارز فى العلاقات بين مراكش والسنغى .

وطوال هذه الفترة كان لمراكش مزية كبيرة على السنغى . فالتجار فى المدن

السودانية كانوا أساساً من العرب ، وبذا كانت توجد بالبلاد طبقة كومبرادورية تسيطر على حياتها الاقتصادية ، وكانت سيطرتها كاملة ، وبخاصة فى المدن ، كما كانت لهم ميزة هامة أخرى ، فأبناؤها يعرفون العربية ، وكانوا ينتمون ، أو يدعون الانتماء ، إلى عائلات الصحابة . ولما كان الملوك وأفراد الطبقات العليا من المسلمين ، فقد كانوا يرحبون بإخوانهم فى الدين الأوسع علما القادمين من الشمال .

وفى عام ٩٨٩ هـ (١٥٨١ م) أرسل السلطان الذهبى حملة على توات هدفها تقدير الصعاب التى تكتنف إرسال جيش كبير عبر الصحراء ، ثم اتبعها فى عام ٩٩٢ هـ (١٥٨٤ م) ببعثة دبلوماسية كبيرة إلى بلاد السنغى لتعرف حالة البلاد ، واستكشاف الطرق وموارد المياه . وخدع الأسكيا فى البعثة ، ورحب بها كبشير بعودة السلطان إلى الاهتمام بالتجارة والثقافة . واستنادا إلى السعدى فإن السلطان أرسل جيشا قوامه عشرون ألفا ، ولكنه هلك فى الصحراء ، وعندئذ قدم إنذارا إلى السنغى يطالبهم بالتنازل عن تغازة والاعتراف بالسيادة المراكشية ، وكان رد أسكيا إسحاق عليه ردا مليئا بالسخرية قوامه حزمة من الأقواس والحراب .

وراح السلطان يتحين الفرصة . وحانت هذه الفرصـــة فى عام ٩٩٨ هـ (١٥٨٩ م) ، عندما هرب زنجى إلى مراكش مدعيا أنه الأخ الأكبر للاسكيا ، وأنه أحق بعرش السنغى ، وطلب تأييد السلطان له فى مسعاه . وأعد السلطان حملة بقيادة خصى أندلسى يدعى جودر ، وزودها بالبنادق والسلاح وبحاجتها من الخيول والجمال والمؤن . وكان معظم حملة البنادق من الأسرى المسيحيين ، وكانت الأسبانية هى اللغة « الرسمية » للحملة .

وبدأت الحملة مسيرتها فى ١٥ ذى الحجة ٩٩٨ (١٦ أكتوبر ١٥٩٠) م ، وبعد رحلة طويلة شاقة فادحة الخسائر ، استغرقت ١٣٥ يوما ، وصلت إلى إحدى مدن النيجر . ولم يكن السنغى يتوقعون الغزو ، وكانت الصحراء تعطيهم شعورا

كاذبا بالأمان منهم حتى من إتلاف الآبار ، وعندما أفاقوا، وشرعوا فى الاستعداد، كان الوقت قد تأخر كثـــيرا . فالمراكشيون كانوا على الأبواب ، وكان على سهام أسكيا إسحاق أن تواجه حملة البنادق من المراكشيين والأسبان . ورفض إسحاق طلبا من جودر بالتسليم ، والتقى الجيشان فى موقعة تنديبى الشهيرة عـلى النيجر . وعجز السنغى عن الصمود أمام الأسلحة الحديثة ، وسحقت قوتهم . وبينما كان إسحاق يستعد لموقعة أخرى خدعه مستشاره الألفا بو بكر لامبر ، صنيعة المراكشيين، وأقنعه بألا يحارب . فعاد أسكيا إلى جاو مهيض الجناح ، تعوزه أية رغبة فى القتال. واضطر فى النهاية إلى التفاوض مع جودر الذى كان قد دخل جاو .

كان جودر قد تخلى عن أية أوهام بشأن ثراء السودان ، بعد أن رأى حال جاو أمام عينيه ، ولكنه لم يكن مخولا توقيع الصلح ، فأسرع يعرض شروط أسكيا اسحاق على السلطان ، وكان أسكيا قد أبدى رغبته فى الاعتراف بسيادة مراكش ، وفى أن يدفع مائة ألف مثقال من الذهب وألفاً من الرقيق ، وفى أن يسمح بتصدير الملح والأصواف ، مقابل الإنسحاب العاجل من السودان . ولـكن السلطان لم يكن مدركا لحقيقة النصر الذى أنجزه جودر ، وكان متبرماً بالنتائج الهزيلة للحملة ، ورأى أن إحداث تغيير بين قادتها ربمـا يسفر عن نتائج أفضل . وبعث بمحمد بن زرقون، وهو أسير أسبانى بدوره ، ليحل محل جودر ، فى حين كان الأسـكيا عاكفاً على إرضاء جودر بأية طريقة ممكنة . وكانت حالة الجيش المراكشى يرثى لهـا ، فالمناخ شديد الوطأة ، والأوبئة تفتك برجاله ودوابه . وأشار الأسكيا على جودر بأن يتحرك برجاله إلى تمبكتو ، حيث الأحوال أفضل والمناخ أقل قسوة ، فاستجاب للنصيحة وراح ينتظر رد السلطان .

وترتب على وصول ابن زرقون إفساد خطط كل من الأسكيا وجودر ، ووضع ابن زرقون نصب عينيه نهب أكبر قدر ممكن من ذهب البلاد وثرواتها. وساعدت الانقسامات

بين أمراء السنغى على إيقاع هزيمة أخرى بهم ، وعزل أسكيا اسحاق الثانى ، وحاول أسكيا محمد جاو محله (١٠٠١ – ١٠٠٢هـ،١٥٩١ – ١٥٩٢م) . وكان الأسكيا الجديد بدوره شديد الحرص على السلام ، وحاول استرضاء المراكشيين ، ووفر لهم احتياجاتهم من الطعام والمؤن ، ولكن الباشا المراكشى أصر على أن يقسم الأسكيا يمين الولاء للسلطان فى حضرته . ونصحه معاونه الألفا صنيمة المراكشيين بالقبول . وما إن وصل مع حاشيته إلى حضرة ابن زرقون حتى وضعوا جميعا فى الاغلال فيما عدا الفا . وعندما جاءت الأوامر من السلطان قطعت رءوسهم جميعاً .

ويشير موت أسكيا محمد جاو إلى إنتهاء مرحلة هامة فى تاريخ السنغى ، وبموته أصبحت أمجاد غانة ومالى والسنغى ذكريات ماض ، ولكنها ذكريات ظلت مترسبة فى وجدان الشعب . وعرفت القرون الثلاثة التالية « بالفراغ الكبير » كما أصبحت فترة ممالك سريعة الزوال ، وحروب مستمرة ، وغارات من جانب المراكشيين والطوارق . ولم يعرف السودان عند منحنى النيجر طعم السلم مرة أخرى إلا عندما سقطت بلادهم نهائياً فى أيدى الفرنسيين .

ومع ذلك لم تتوقف مقاومة السنغى تماماً . فبينما نصب المراكشيون أسكيا عميلا هو أسكيا سليمان ، تراجع السنغى إلى موطنهم الأصلى فى « دندى » ، وكان باستطاعتهم الاحتفاظ بالجنوب كله ، ونصبوا عليهم أسكيا نوح بن أسكيا داوود ، وواصل نوح مقاومته للمراكشيين دون إحراز نصر يذكر ، فيما عدا الهزيمة الكبيرة التى أوقعها بهم فى بورناى فى عام ١٠٠٢ هـ (١٥٩٣ م) .

وواجه المراكشيون المتاعب أيضاً من جانب الطوارق والبمبارا وغيرهم من القبائل ، سواء فى الصحراء أو فى المدن . ولكنهم بعد أن تغلبوا على ثورات الشعب فى تمبكتو وجنى إستداروا نحو القبائل وعاملوهم بقسوة بالغة ، واستطاع ابن زرقون بحيلة دنيئة تجريد أهالى تمبكتو من ذهبهم ونفائسهم وأموالهم ، وجمع من وراء ذلك ثروات طائلة ، وبعد ذلك قام الجنود المراكشيون باغتصاب نساء المدينة وقتل أعيانها .

ومع ذلك لم تكن تمبكتو قد تجرعت كأس المهانة حتى الثمالة . فقد سيق علماؤها، وعلى رأسهم العالم الجليل أحمد بابا ، إلى مراكش مقيدين بالأغلال . وهكذا قضى على الصفوة المتعلمة فى تمبكتو التى كان احمد بابا من أبرز ممثليها .

ولم تهدأ للسلطان ثائرة ، ولم يقنع بالثروات التى نهبت من السودان ، ولا بما قدمه الأسكيا ، وهو مائة ألف مثقال ذهباً ، لقاء انسحاب الجيش المراكشى ، بل كان يرغب فى المزيد . واعتقد أن ابن زرقون لم يرسل له نصيبه كامـــلا ، فبعث منصور بن عبد الرحمن مزودا بتعليمات سرية تقضى بقتله وبأن يحل محله . وترامت الأنباء إلى ابن زرقون الذى فضل أن يموت وهو يقاتل السنغى .

ولم يكن دور جودر قد انتهى بعد . واستغـــل قدرته على التآمر ، وأثار المشكلات أمام الاعتراف بابن عبد الرحمن . ورفع الخلاف إلى السلطان الذى قسم السلطة فيما بينهما : فالسلطة المدنية لجودر ، والإشراف على الجيش لابن عبد الرحمن . وتوالت الأحداث سريعة ، فقد مات ابن عبد الرحمن بعد عشرين شهراً ، وقيل إن جودر دس له السم . وحـل محله محمد تابا الذى قدم من مراكش على رأس جيش صغير . وقدم تابا على تصرف أحمق عندما أعفى جودر من القيادة العسكرية التى كان قد تسلمها بعد موت ابن عبد الرحمن ، وكانت النتيجة أن مات بدوره . بيد أنه على الرغم من النجاح الذى حققه جودر فى سحق محاولة الملسا محمود الثالث ، ملك مالى ، للاستفادة من الفوضى التى أعقبت الغزو المراكشى لدعم مملكته ، إلا أن عمار باشا ، وهو خصى من أصل برتغالى أوفد من مراكش ، نجح فى شغل منصب جودر وإعادته إلى مراكش فى عام ١٠٠٨ هـ «١٥٩٩م» .

ولم يكن باستطاعة مراكش أن تحتفظ فى السودان بقوات تكفى لإقرار السلم فى منطقة السنغى ، فبين عودة جودر ووصول قمر — وهو آخـــر باشا يرسل من مراكش فى عام ١٠٢٧هـ «١٦١٨م» — كان المراكشيون يجلسون فوق برميل من

البارود . وعلى الرغم من أن الباشوات قد استمروا فى تمبكتو ، إلا أن نفوذ السلطان أصبح موضعاً للسخرية ، وأصبح الجيش هو القوة الفعالة ، وكان باشوات تمبكتو يتغيرون بسرعة مزهلة حقاً . وقد حكم بعضهم بضعة أيام ، وحكم عدد آخر بضعة شهور ، والقليل منهم هم الذين امتدت ولايتهم إلى أكثر من عام . وبحلول عام ١٠٤٩هـ «١٦٢٠م» لم يكن نفوذهم يتجاوز تمبكتو .

ولم يحاول المراكشيون التغلغل إلى دندى مرة أخرى ، إلى أن كان عام ١٠٤٥هـ «١٦٣٥م» عندما أوقعوا هزيمة كبيرة بالسنغى ، ومع ذلك فشلوا فى إخضاعهم لسيطرتهم . وفى عام ١٠٥٠هـ «١٦٤٠م» استطاع السنغى اكتساح المراكشيين بمساعدة الجورما . وعلى الرغم من أن السنغى ظلوا يحتفظون بوجود مستقل فى دندى ، إلا أنهم كفوا عن التدخل فى أمور السودان السياسية .

بيد أنه بحلول هذا العام كان الحكم المراكشى قد انتهى حتى من الناحية الإسمية ، ولم تعد الخطبة تلقى باسم السلطان ، ولم يستطع المراكشيون أن يعدوا نفوذهم إلى ماوراء المدن الرئيسية : جنى وتمبكتو وجاو ، وكفوا عن إرسال الجند أو المؤنة ، وتركوا قواتهم هناك تقرر مصيرها بنفسها ، فنشأت أسرة محلية من باشوات تمبكتو تدين بالتبعية الاسمية لسلطان مراكش ، وتعتمد على عنصر خليط من البربر وأهل البلاد . وقد تعاقب على حكم تمبكتو فى الفترة ١٠٧٠ — ١١٦٣هـ «١٦٦٠ — ١٧٥٠م» مائة وثمانية وعشرون من هؤلاء الباشوات .

لقد كانت الحملة المراكشية هى المقدمة لانهيار القانون والنظام فى السودان . وعلى الرغم من الانتصارات العسكرية التى أحرزها المراكشيون ، إلا أنهم فشلوا فى تأسيس إمبراطورية . ومع ذلك فإن السودانيين فقدوا المبادرة فى ظل القبضة العسكرية ، والتهديد المستمر لحياتهم وأسرهم وممتلكاتهم .... وتضاءلت التجمعات السكانية عندهم إلى قرى لا شأن لها ، وانخفض عدد سكان تمبكتو إلى خمسة

عشر ألفا ، بعد أن كانوا يزيدون على مائتى ألف . وفى زحام ذلك الكرب الشامل تحللت القيم الروحية وتفككك المجتمع .

وقد كان الأثر الهام للحملة المراكشية هو أن نظام الدولة السودانية ، الذى ظل قائما باستمرار منذ تأسيس دولة غانة، لم يعد قائما . وكان الفترة مابين موقعة تندبى وبداية القرن التاسع عشر، عهد أزدهار الإسلام مرة أخرى، هى فترة «الفراغ الكبير» فى التاريخ السودانى . لقد كانت فترة حاول فيها كل من الموسى والبمبارا والفولانى والطوارق والبربر الاستيلاء على جاو وتمبكتو ، مدينتى السنغى الهامتين ، بيد أن ظهور عصابات المرتزقة التى أخذت تنهب القرى ربما كان الأمر الأكثر بلاء بالنسبة لعامة الشعب .

التنظيم الإدارى فى بلاد السودان

يمكن القول إن إمبراطوريات السودان فى العصور الوسطى كانت دولا أكثر منها تجمعات هائلة من القبائل أدت إليها ، وجمعت بينها ، القوة وحدها ، وإنها كانت دولا ذات تنظيمات عالية الكفاية . ومن الخطأ النظر إلى هذه الدول على أنها دول إقطاعية بالمعنى الذى عرف به الاقطاع فى أوربا ، وإن كان قد وجد بها إقطاع وليد محدود شديد الاختلاف عن الاقطاع الأوربى .

وفى السودان كان النظام العام نوعا من التفوق والسيادة ، فالسلطة العليا كان يعترف بها على هذا النحو ، وكانت الدول متابعة تحتفظ كل منها ببلاطها وجيشها، وكانت الجزية والرقيق هما الأسلوب المعتاد لاعتراف الأمراء المهزومين بالإمبراطور سيدالهم ، أى أن سلطتهم كانت تظل دون تحطيم ، ولذا كان أى إضعاف لسلطة الإمبراطور يسفر عن الثورات والحروب المستمرة التى كانت الطابع لتاريخ هذه الدول .

وكان التنظيم الإدارى يختلف من منطقة لأخرى . ففى مالى والسنغى وغيرها كانت الدولة منظمة كوحدة مفردة ، ومقسمة إلى إدارات إقليمية ، وكانت العناصر الاقطاعية فيهما ضعيفة . فالسلطة كانت فى أيدى الأمراء ، أو فى أيدى حكام يدفعون الجزية أو قادة عسكريين .

وكان التنظيم الإدارى عند السنغى بسيطا للغاية . ففى المركز توجد السلطة الامبراطورية ، وحولها تتجمع الدويلات التى تدفع لها الجزية ، وتقدم لها الهدايا، وتساعدها فى حملاتها على الدول الأخرى بالرجال والمؤن . وكان بوسع هذه الدويلات رفع راية العصيان كلما أحست بضعف السلطة المركزية، أو تولى الإمارة فى إحداها أمير نزاع إلى الحرب . وكانت الأقاليم الرئيسية حسنة التنظيم ، ومقسمة إلى مناطق يتولاها حكام . وكان هؤلاء غالباً أمراء من الدم الملكى ، أما إخوة السلطان أو ابناء عمومته وكانت سلطتهم على اقطاعاتهم تتوقف على مدى الرضا الملكى، كما كانوا ينقلون من إقطاعة لأخرى .

وكان هذا التنظيم الإدارى يقوم على مستويات ثلاثة . فعند المستوى الأعلى يوجد ثلاثة من نواب الامبراطوار الكبار : السكورمينا فارى ، أو السكانفارى، المسئول عن المناطق الشمالية وعاصمته تنـــدرم ، الدندى فارى ، نائب الملك فى الجنوب ، الباجانافارى ، نائب الملك فى المناطق الشمالية المتاخمة لمالى . وكان هؤلاء الثلاثة ممن يحوزون دائما الثقة الكاملة للامبراطور . وكان يوجد إلى جانبهم البلما قائد الجيش (كتبت هذه الأسماء فى تاريخ السودان على النحو التالى: كرمن فارى، دندى فارى ، باغن فارى ، بلمع ، ص ٧٢ ، ٧٨ ، ٧٥ ، ٧٧ على التوالى وفى غير ذلك من المواضع). وبذا يمكن اعتبار هؤلاء الأربعة أكبر موظفى الدولة ،وكان بإمكانهم إذا ما اتحدوا أن يطيحوا بالأسكيا . هذا ويضيق بنا الحيز عن تناول المستويين الأدنيين .

وفى امبراطورية السنغى كان الرقيق يشكل أهمية كبيرة فى المستويات الدنيا من الإدارة . وكان المملوكون هم الأشخاص المهمون حقيقة فى الحكومة المركزية ، فقدرتهم على القراءة والكتابة ، وكذلك معرفتهم بالشريعة ، كانتا تمنحانهم ميزة ساحقة . وكان أحدهم يشغل منصب السكرتير الخاص للامبراطور ، أى مستشاره الأمين ، ولذا بدت أهمية الرقيق فى مجالات أخرى . فقد كانوا المشروفون على القصر، ورسل الإمبراطور، وكانوا يشكلون الحرس «البريتورى» والجزء الأكبر من الجيش بما فيه كل الفرق المختارة ، وكانوا يتحكمون فى الإيرادات . وقد استفحل نفوذ الموظفين منهم فى أيام الأساكى الأخيرين .

ولم تكن وراثة العرش عند السنغى مقيدة بنظام معين ، وإن كان يشترط فى الامبراطور أن يكون من سلالة مؤسسى الأسرة الإمبراطورية . وكان كبار الحكام والأمراء يطالبون بذلك ، وإن وجدت لذلك إستثناءات عبر التاريخ . وفى مثل هذا المجتمع من الطبيعى أن يكون البلاط هو محور السلطة كلها . وكان الأمراء ومعظم الحكام ، فيما عدا المسئولين منهم عن الحدود ، موجودين فى البلاط . وكان هناك تدرج فى مراتب النبلاء . فالبلما كان له حق الجلوس على سجادة فى حضرة الإمبراطور ، وله أن يترب بالدقيق بدلا من التراب . وكان رئيس الخصيان وثيق الصلة بالإمبراطور ، وله أهميــة كبيرة فى البلاط . ولما لم تكن له أسرة ، فقد كان يعتقد أن نصيحته لسيده لايشوبها غرض .

الاقتصاد والحياة التجارية

كان للتجارة دور كبير فى اقتصاد السودان وسياسته ، وكانت محل اهتمام وتشجيع معظم الحكام . وكان التجار الأجانب يقومون بدور بالغ الأهمية فى هذه التجارة . وكانوا عندما يصلون مع بضاعتهم يتركونها فى مكان عام يقوم أهـل الســودان على

حراسته ، ويحلون فى ضيافة أحد التجار الأجانب المقيمين الذى يرتب الصلة بينهم وبين التجار المحليين الذى يعملون كوسطاء ووكلاء تجاريين . وكان للبيوت التجارية الأجنبية الكبيرة ذات المصالح الدائمة فى السودان مندوبون مقيمون يرعون مصالحها ، مثال ذلك إخوان المقرى المشهورين الذين كان لهم مندوب مقيم فى تمبكتو . وكان التجار الأجانب، وكذلك الجاليات الأجنبية بشكل عام، يعيشون منفصلين فى حى خاص بهم بالمدينة ، ويرأسهم تاجر منهم جرت العادة على أن يكون أكبر التجار المقيمين سنا ، ومن واجبه تقديم المشورة للقادمين الجدد، وله مكان فى مجلس المدينة ليستطيع تمثيل وجهة نظر الجالية . وقد أثنى الأجانب بشكل عام على أمانه السودان وصدقهم ونزاهتهم . وبسبب شدة اهتمام السلطات بالتجارة الخارجية كانت تحرص على نزاهة الإدارة ، وتأمين الطرق ، ووجود نظام سليم للموازين والمكاييل .

أما عن الإيرادات فقد كان ضريبة الأرض هى أساس النظام المالى . ولم تكن الضرائب تفرض على المحصول ، وإنما على الزارع . ففى كانو لم يكن السكوردين — كاسا (ريع الأرض) يفرض على الأرض ، وإنما كان على كل رب أسرة أن يدفع ألفين وخمسمائة كوردى . وفى أمكنة أخرى كانت الضريبة تفرض على الأدوات ، خمسمائة كوردى على الفأس مثلا . وكانت هناك ضرائب أخرى فى كانو وبرنو : سبعمائة كوردى على « الزلمة » من الصبغة ، ستمائة كوردى على كل نخلة ، ضرائب صغيرة على المحصولات التى تباع فى السوق ، الخ وكان يوجد أيضاً نظام محكم للغرامات والرسوم التى تفرض على مواد التجارة . وفى العصور المبكرة لم تكن ضريبة الأرض تمثل عبئا على الفلاحين ، بيد أنها كانت تشتد فى بعض المراحل والعصور ، وفى بعض الممالك ، مما كان يضطر الناس إلى مغادرة أوطانهم .

التنظيم الحربى

لم تكن أساليب الحرب المستخدمة فى السودان تختلف كثيراً عن تلك المستخدمة

فى آسيا وأوربا. فالأسلحة تتكون من الأقواس والسهام والنبال والسيوف ، وإن لم تكن الخيول شائعة بالدرجة التى عرفتها آسيا. وكانت العناية بالخيول كبيرة وقيمتها غالية. وقد عرف السودان الأسلحة الجديدة ، وعن طريق الجمع بن الخيول والاسلحة الحديدية استطاعت إمبراطوريتهم أن تحقق مزايا ساحقة على الوثنيين . ولم تكن جيوشهم تقل كفاية عن أى جيش آخر فى ذلك الوقت، كالم تكن القوارب غريبة عليهم. فسن على حاصر جنى بأربعمائة قارب ، بل فكر فى استخدام مجرى النيجر للالتفاف حول جناح جيش الموسى. وكان لديهم نظام للفروسية. وكان الفرسان الشجعان، استناداً إلى العمرى ، يكافأون على شجاعتهم بلبس خلاخيل أو قلادات أو أساور من الذهب حسب درجة شجاعتهم .

وكان التنظيم الحربى بسيطاً . فهناك جيش صغير دائم يتكون من رقيق القصر ، ثم هناك القوات التى يقودها أمراء الأقاليم . وكان على كل حاكم أن يقدم عدداً محدوداً من الجنود للجيش الإمبراطورى، وإلى جانب ذلك كان الحكام مسئولين عن حراسة أقاليمهم وتمهد الحدود. اما القوات الإمبراطورية فكانت تحرس المدن الهامة ، وبخاصة تلك الواقعة على طرق التجارة ، والطرق الصحراوية وطرق التجارة الهامة .

الحياة الاجتماعية

كان عدم قيام مدنية فى أفريقيا الغربية إحدى الحقائق الثابتة فى فكر المؤرخين الأوربيين ، وإلى أن كان منتصف القرن التاسع عشر ، عندما عثر على كتابات كثيرة باللغة العربية . وعلى الرغم من أنه لم يكتشف إلى الآن إلا النذر اليسير من المدونات أو من الآثار القديمة ، فإن ما نعرفه عن السودان الأوسط على قدر من الأهمية يكفى لأن نستخلص بعض الاستنتاجات الطيبة عن المدينة فى هذه المنطقة .

ولابد أن نضع فى أذهاننا أنها مدنية من مدنيات العصور الوسطى ، أى، لا يمكن مقارنتها إلا بالمدنية التى وجدت فى أوربا قبل الثورة الصناعية . ولا يختلف التنظيم الاجتماعى هنا اختلافا ماديا عن التنظيم الاجتماعى فى أى مجتمع من مجتمعات الرقيق أو الأقنان . وفى إمبراطوريات السودان الإسلامية كان الحاكم يعتبر أميراً للمؤمنين ، وكانت السلطة الإمبراطورية تتصل اتصالا وثيقا بالسحر . فلم تكن الدول الوثنية هى وحدها التى تعبر الملك كائنا مقدسا ، بل كانت تشاركها فى ذلك الإمبراطوريات الإسلامية الشهيرة . ومن المؤكد أن الملك كان فى العصور المبكرة كاهنا أساسا، بيد أن السلطات الكهنوتية كانت تنتقل تدريجيا إلى آخرين.

ولما كان الملك أو الإمبراطور هو مصدر كل السلطة ، كان البلاط هو المؤسسة الأكثر أهمية فى هذه الدول . ويقدم لنا ابن بطوطة وصفا حيا ، ورواية شاهد عيان ، لبلاط إمبراطورية مالى ، وللاحتفالات المتصلة بالاجتماعات الملكية . وقد أعقب عودة منساموسى من مصر ، عقب أدائه فريضة الحج ، إدخال عادات إسلامية إلى البلاط ، وهى العادات التى استمرت من بعده ، وأضاف إليها أخلافه الشىء الكثير .

وقد وجد الفجور كثيرا من التشجيع فى الحق الذى كان يتمتع به الحاكم من أخذ بنات الجنود كمخطيات .وسبب ذلك أن الجنود كان يعدون رقيقا للامبرطور، فكان له حق على بناتهم . ولما كان الرقيق هو أساس المجتمع السودانى فقد تفشى الفجور . وكانت الطبقات العليا تحتفظ بحريم كثير . وجرت عادة السلاطين أن يقدموا هبات من الجوارى لكبار النبلاء والعلماء . ويقول تاريخ الفتاش إنه لم يولد أحد من الأساكى من أم حرة فيما عدا مؤسس الأسرة أسكيا الحاج محمد الكبير . وعلى الرغم من أن الحريم كان شائعا فإن النساء كن محل تقدير ،ولم

يكن ينظر إليهن كمجرد متاع . وكثيرا ما كانت الملكة الأم والملكة تشغلان مناصب هامة فى البلاط . ويقول ابن بطوطة إن العادة جرت فى بلاط مالى بتتويج الإمبراطورة مع الإمبراطور ، وبأن تشاركه السلطة الامبراطورية . بيد أنه فى إمبراطورية السنغى ، حيث قامت دولة إسلامية متشددة ، لم يكن للملكة الام أو الملكة أى دور على الاطلاق .

وكان يلى طبقة الأمراء والملوك الأتباع طبقة العلماء التى كان نفوذها يتوقف على ورع الملك أو على سياسته . وقد زاد نفوذهم للغاية فى عهد أساكى السنغى ، على حين احتل السحرة مكانهم فى الدول الوثنية . ويلى رجال الدين التجار ورؤساء الطوائف . وكان رؤساء الطوائف موظفين من قبل البلاط برغم ضآلة مرتباتهم . وكان لدى البعض منهم عدد كبير من الرقيق الذين كانوا يستخدمون إما كحمالين أو فعلة فى الورش . وعلى الرغم من أنهم نادراً ما كانوا يهتمون بالسياسة ، ومن أن دورهم الاجتماعى كان محدودا ، إلا أنهم كانوا يقومون بدور هام فى الحياة الاقتصادية .

ودون هؤلاء بكثير تأتى طبقة التالا كاوا ، وهى أكبر مجموعة فى كل المجتمعات الافريقية ، بل كثيرا ما كان عددهم يتجاوز نصف السكان ، وكانوا بشكل عام أسوأ حالا بكثير من رقيق المنازل لدى الحكام والأمراء . إذ بينما كان باستطاعة هؤلاء الرقيق الارتقاء إلى المناصب العالية ، فإن الفلاحين الفقراء كثيراً ما كانت تستحقهم الضرائب ، وتخرب الحروب المستمرة حقولهم ، كما كانوا يؤسرون فى حملات اقتناص الرقيق ، ويتعين عليهم أن يكونوا فى حذر دائم لا من حكامهم فحسب ، بل من قطاع الطرق من الطوارق والبربر أيضاً .

ويلى الأحرار من هم من نسل الرقيق . فهؤلاء وإن لم يعودوا رقيقاً ، لم

يصبحوا قط أحراراً تماماً . وكانوا يستخدمون عادة فى بيوت أسيادهم ، ويظلون من موالى الأسرة . ويلى الأحرار أيضا أبناء الرقيق ، فهؤلاء يظلون رقيقاً، ويعمل أغلبهم لدى أسيادهم ، ويظلون على أرض السيد لايغادرونها أو يتزوجون إلا بإذنه ، وتصبح زوجة الواحدمنهم جارية لسيده إذا حازت إعجابه . ومن الناحية الأخرى لم يكن باستطاعة السيد بيعهم ، وهكذا كانوا أكثر شبها بالأقنان منهم بالرقيق .

وكانت الزراعة فى السودان تقوم على عمل الرقيق ، وكان الإمبراطور يملك عدداً كبيراً من القبائل ملكية شخصية . من ذلك أن الأسكيا الحاج محمد الكبير حصل بعد انتصاره على سن بانى على أربع وعشرين قبيلة . وقد حرر منها أثنى عشرة قبيلة بناء على نصيحة عبد الرحمن السيوطى : أما القبائل الاثنتا عشرة التى احتفظ بها فكانت أساسا طبقات محترفة لتشتغل بأعمال السخرة .

وثمة عيب آخر كان يشوب التنظيم الاجتماعى السودانى ، عيب نابع من الأسس التى يقوم عليها . إذ كان يفتقر إلى مايمكن أن يسمى إيديولوجية . فالدولة السوادنية بجهازها الإدارى وأساليبها الإنتاجية القائمة على الرقيق أصبحت بهذا الشكل أوذاك دولة مغتصبة . لقد قامت على اقتناص الرقيق ، ومن ثم دخل الرقيق والإسلام فى نزاع مستمر طويل . ولم يكن من المصلحة المادية للدولة ، ولا من مصلحة التجار الأجانب الذين يعيشون على تجارة الرقيق ، أن ينتشر الاسلام فى المناطق الاثنية . وقد ترتب على تحريم الإسلام لاستعباد المسلمين أن تباطأ انتشار الإسلام . وفى الصراع بين المصالح التجارية والدينية كان الدين يخرج منتصراً .

وقد شكل الصراع بين الإسلام والوثنية جذور المشكلة الأساسية فى هذا الجزء من العالم الإسلامى . فلوأن الدول الإسلامية مضت بدينها قدما ، لنسفت تجارتها ، بل إطارها الاجتماعى بأسره . ومن ناحية أخرى كان دينها يفرض عليها هداية غير المؤمنين . ولم تحل هذه المشكلة إلا فى القرن التاسع عشر ، عندما تناثرت تجارة

شمال أفريقيا أشلاء ، ولطخت تجارة الرقيق بالعار عبر الأطلنطى . وعندئذ حاول الدعاة والمجاهدون فى كل مكان (من أمثال الشيخ عثمان والحاج عمرو الـكانمى) إدخال الوثنيين فى الاسلام . ودون أن نضع هذه المشكلة نصب أعيننا يظل تاريخ الإسلام بأسره فى هذه المنطقة ، وعجز الدول الإسلامية عن كسب قبائل مثل الفولانى والبمبارا ، بل قسم كبير من السننى ، لغزا محيراً .

ويدحض محمود كعت والسعدى الفرية القائلة بأن الإفريقيين كانوا قوما من الهمج العراة ، ويفيضا فى وصف أنواع الملابس التى كانت ترتديها مختلف الطبقات . ولم يكن ارتداء الملابس مقتصرا على المناطق التى كان التأثير الإسلامى سائدا فيها، بل عرفت الملابس الشديدة التنوع طريقها إلى مختلف المجتمعات الافريقية . وقد عرفت الملابس الحريرية والقطنية الفاخرة المطرزة ذات الالوان الزاهية . وكانت النساء الافريقيات شديدات الاهتمام بشعورهن وزينتهن ، وكن يستخدمن الاصباغ والحناء .

كذلك كان الافريقيون يبدون عناية كبيرة بطعامهم. وكان طعامهم متنوعا يضم الحبوب والبقول والخضروات ولحوم الحيوانات والطيور والاسماك ، كما كانوا مولعين بالشراب ،واشتهر عندهم « عرقى البلح »، ومشروب أقوى منه يصنع من الاذرة .

الفنون والثقافة والحياة الفكرية والدينية

وكان الفن فى إفريقية الغربية فناهادفا ، ولم يكن الأفريقيون يهتمون بمذهب الفن من أجل الفن . وكان الفن عندهم يخدم غرضين : أولها توفير سلع الترف للبلاط، والآخر دينى واجتماعى فى الاساس. وقد برع الافريقيون فى أشغال البرونز والنحاس والعاج والفضة . وقام الفن الافريقى بدور كبير فى توفير الاشياء اللازمة للمعابد ، وفى تصوير تاريخ الشعب وعرض الجوانب المختلفة لتطور المجتمع . ويظهر الطابع

الاجتماعى للفن فى الاقنعة الافريقية الشهيرة التى تعد الدستور الاخلاقى للمجتمع الافريقى، والتى اضطلعت بمهمة الحفاظ على تقاليد القبيلة وتراثها وعاداتها .

وكانت الموسيقى والغناء والرقص فى مقدمة وسائل التسلية . ويقول ليو الإفريقى إن الإفريقيين كانوا مغرمين بالموسيقى والرقص، وإنهم كانوا يفضلون تمضية سهراتهم فى الرقص وإقامة الولائم . ومن آلاتهم الموسيقية الاكثر انتشارا القيثارة والناى الذى يشبه المزمار والطبلة . وكان من وسائل التسلية عندهم التمثيل بالملابس التنكرية والملاكمة ، وكانت الملاكمة أشبة بصراع الحياة أو الموت وكثيراً ما كانت تنتهى بموت أحد المتنافسين .

وكانت المواد التى تتوافر عند بناء البيوت والاكواخ هى التى تحدد طراز البناء . وكان الطمى مستخدما بكثرة لتوافره . وتبنى البيوت فى داخل مجمع كبير محاط بأسوار تتخذ عادة شكلا رباعيا . أما بيوت الزعماء وعلية القوم فتبنى من طابقين . والاكواخ متسديره ذات جدران منخفضة وسقف مخروطى . وكان هناك البيت المستدير الذى تغطيه الجدران المساوية متانة كبيرة ، وتستند أبوابه على مسندين جانبين . أما الغرف الواسعة التى لا يمكن تسقيفها بشدة واحدة فكانت تبنى من الداخل بعقد زائف من الطين يستر الكوابيل الخشبية الحاملة . ولم يكن السودان يجهلون فن البناء بالحجارة ، ومع ذلك لم تكن الحجارة تستخدم على نطاق واسع . ويقول البكرى إنه فى غانة ، فيما عدا القصر، كانت البيوت الوحيدة التى تبنى بالحجارة هى بيوت التجار الأجانب ، وهى بيوت كبيرة الحجم محاطة بالحدائق . وعند عودة منسا موسى من مصر أحضر معه مجموعة من المهندسين المعماريين والحرفين . وفى بعض المناطق كانت البيوت تبنى من الخيرزان . وكانت المدن السودانية مخططة بعناية ، وتتبع نموذجا عاما، وتكثر بها الاسواق وتمتد الاشجار على جانبى

طرقها . وحيث كانت الجياد تستخدم فإن الطرق كانت من الاتساع بحيث تسمح بسير ثلاثة أو أربعة جياد جنباً إلى جنباً إلى جنب دون مضايقات .

وقد ذاع صيت السودان على الدوام بأنه أرض السحر : وتقول الأساطير إن الفراعنة كانوا يحصـــلون على سحرتهم من جاو . وجاء الإسلام فعزز ما به من قصص عن الجان ما كان لدى الأهالى من أساطير . وكانت أم أسكيا محمد من الجان طبقاً للأساطير . ومن المعروف أن السحر قام بدور هام فى فولكلور هذه المنطقة. وكثيراً ما زعم الأباطرة أنهم سحرة متمرسون ، بل إن بعض المجاهدين ، من أمثال الحاج عمر (١١١٢ — ١٢٨١هـ ، ١٧٩٧ — ١٨٦٤م) ، استطاعوا أن يدخلوا فى روع أتباعهم أن التمائم التى يباركونها يمكن أن تحمى الجنود من طلقات البنادق . لقد أدى الإسلام إذن إلى دعم الأساطير المختلفة ، بدلا من أن يضعفها .

وقد كان الوثنيون من الوضوح فى هـــذه المنطقة بحيث شبههم العمرى فى مسالك الأبصار بالبقع البيضاء فى جسم بقرة سوداء . ويضيف العمرى أن دولة مالى كانت فى حرب دائمة ضد الكفار ، ومع ذلك استمرت الوثنية على قوتها فى مالى . ويتفق معظم الجغرافيين والمؤرخين العرب على أن الملك وعلية القوم فقط هم الذين كانوا من المسلمين ، أما عامة الشعب فقط حافظوا على دينهم التقليدى . وقد حاول منساموسى ، فى أثناء وجوده بمصر ، أن يبرر عدم إدخاله الوثنيين فى الإسلام . ولكنه مع ذلك لم يكن يفرض الجزية على الوثنيين الذين يعملون فى مناجم الذهب خشية أن يؤدى ذلك إلى انخفاض الناتج . ويقول ابن سعيد إن الأباطرة تعلموا من خبرتهم أنهم كلما انتزعوا إحدى مناطق الذهب من أيدى الوثنيين ، وأقاموا الصلاة فيها ، انخفض ناتج الذهب ، على حين يزيد فى المناطق الوثنية المجاورة . ولذا كانوا يؤثرون ترك هذه المناطق فى أيديهم مقابل إتاوة سنوية من الذهب والرقيق .

فلماذا إذن كان يقبل هؤلاء الأباطرة الإسلام ديناً لهم ؟ كانوا يعتنقونه لأنه

كان ذا دلالة اجتماعيــة أكثر منها سياسية ، كما كان وسيلتهم إلى الهيبة والمكانة ، فالتجار القادمون من الشمال كانوا جميعاً من المسلمين ، وكانوا يكثرون الحديث مع الحكام عن قوة الدول الإسلامية واتساع رقعتها. وكان هؤلاء الحكام يأملون عن طريق اعتناق الإسلام أن ينتموا إلى جماعة المسلمين « الأقوياء » . وسبب آخر هو أن الأديان الإفريقية كانت أدياناً قبلية ، وعندما تحقق إحدى القبائل هيمنة سياسية فإن القبائل المهزومة لا يمكن أن تقبل ديانة القبيلة المنتصرة . وقــد أفاد الإسلام فى توحيد الطبقات الحاكمة فى مختلف القبائل ، ولـكن بينما اعتنقت هـذه الطبقات الإسلام فإنها لم تتخل عن دينها القبلى ، وظل أفرادها بمثابة الكهنة الكبار لطقوسهم القبلية . وهكذا كان الإسلام أساساً دين طبقة عليا ، كما كان ديناً حضرياً فى المقام الأول . وكانت النتيجة أنه لم ينتشر على نطاق واسع ، بل إنه إلى القرن التاسع عشر، عندما نشطت دعوة المجاهدين إلى الإسلام تؤازرهم قوة السلاح، لم يتجاوز عدد المسلمين فى القبائل المسلمة نصف عدد أفرادها . والأمر الغريب أن مجاهدى القرن التاسع عشر يقررون أن شعوب مالى وبرنو، التى تحولت إلى الإسلام منذ القرن الحـــادى عشر ، كانت شعوباً وثنية . فما أسباب فشل هذه الشعوب فى الحفاظ على تراثها الإسلامى ؟

إن الإسلام لم يؤد إلى تخلى هذه الشعوب عن المعتقدات الوثنية ، وكانت طريقة إقامتها للشعائر الإسلامية مجرد قشرة رقيقة تخفى تحتها عاداتها وتقاليدها القديمة . بل إن أقساماً واسعة من التكرور ، أقوى المجموعات المسلمة بالمنطقة ، ما زالت تتبع النظام الأموى . ومع ذلك لم يكن الأمر يخلو من حرص شديد على شعائر الدين . ويذكر ابن بطوطة أن المسلمين كانوا يتزاحمون بشدة على المسجد الجامع فى أيام الجمع لأداء الفريضة ، كما كانوا يحرصون على تحفيظ أبنائهم القرآن.

وقد كانت الطبقات المتعلمة تمارس نفوذاً أكبر بكثير مما يسمح به عدد أفرادها ،

وكان باستطاعتها أن تساند الحاكم أو تلطخ سمعته ، وحاول حاكم كبير مثل أسكيا الحاج محمد أن يكسب جانبهم بكثرة العطايا . وأدرك السلطان الذهبي أنه ما لم يسحق العلماء فلن يستطيع السيطرة على البلاد . وكانت أسباب هذا النفوذ الهائل متعددة . فالعلماء كانوا الحفاظ على سلامة العقيدة ، وكان باستطاعتهم التأثير على المسلمين حتى فى المناطق التى تشتد فيها قبضة الوثنية والسحر . وكان باستطاعة العلماء دائماً استمالة القسم المتعصب من السكان وشن الجهاد . وكان العلماء بوصفهم عماد الطبقة المتعلمة يشغلون مناصب القضاء والمناصب الرئيسية فى الإدارة ، ويسيطرون على مجلس الشورى . وكان منهم الكتاب الذين يسجلون أعمال الملوك ، ويحملون مراسلاتهم إلى الدول الأخرى ، بل كان من المستحيل أن تستمر أعمال الإدارة دون تأييدهم . كذلك كان العلماء يتميزون بتماسك تفتقر إليه الطبقات الأخرى من المجتمع ، إذ كانوا يدركون أنهم كمتعلمين يتفوقون كثيراً على كبار القوم العاديين، وربما كانوا الطبقة الوحيدة التى إذا ما اتحدت أمكنها أن تشكل تحدياً فعالا للسلطة الحاكمة . وكان الأساكى يسعون إلى اعترافهم بهم كى يرتضوهم خلفاء ، وجرت عادتهم على أن يسألوهم النصيحة والمشورة فى كل المسائل الهامة ، وكثيراً ما كانوا يأخذون برأيهم .

ولم يكن العلماء كطبقة مبالين بالسياسة ، أو يهمهم فى شىء ما إذا كان الأساكى أو المراكشيون هم الذين يحكمون السودان . وهم لم يكونوا يهتمون إلا بأمرين اثنين : أن يكون طابع الدولة إسلامياً ، وأن تظل امتيازاتهم على حالها . ولم يكن الباشوات المراكشيون ، مقتفين فى ذلك أثر كل الأسبان الذين ارتدوا عن الإسلام ، يعاملون العلماء بالاحترام الذى اعتادوه فى خلال حكم الأساكى ، ومن ثم دخلوا فى نزاع معهم . ومع ذلك ففى البداية كانت هناك أعداد لها دلالتها منهم شديدة الميل إلى المراكشيين ، لاعتقادهم أن سيطرتهم السياسية ستؤدى إلى دعم

الإسلام وتطهيره مما أقحم عليه ، ومن أبرز هؤلاء الألفا بوبكر لامبر الذى نذر نفسه بإخلاص لخدمة المصالح الراكشية .

وقد كوّن العلماء طبقة هامة فى السودان ، وكان السلاطين يمنحونهم كطبقة الكثير من العطايا . وكانت أفضل وسيلة لتعبير السلطان عن ورعه هى تقديم العطايا من الأرض والرقيق للعلماء . ومن حسن طالعهم أنهم كانوا من بعض النواحى طبقة وراثية . فمحمود كعت ، صاحب تاريخ الفتاش ، كان الصديق الحميم لأسكيا الحاج محمد ومستشاره الأمين . وقد شغل أسلافه وأخلافه وأقاربه كثيراً من المناصب الهامة فى الدولة. كما أن أسرة أقيت كانت أكثر الأسر تميزاً طوال فترة عظمة جاو . وقد استقرت أصلا فى ماسينا ، ثم غادرتها إلى ولاته ومنها إلى تمبكتو . وكان محمد ابن عمر بن محمد بن أقيت قاضياً لتمبكتو، ثم أصبح شيخاً للاسلام بها ، وخلفه ثلاثة من أبنائه — محمد والعاقب وعمر — على التوالى فى منصب قاضى تمبكتو . ومن علمائها البارزين أيضاً أحمد بن محمد بن سعيد حفيد عمر بن محمد أقيت . بيد أن أبرز أفراد هذه الأسرة جميعاً كان بلا جدال العالم الجليل أحمد بابا الذى يعد أشهر عضو فى الصفوة المثقفة بتمبكتو ، والذى وضع أسفاراً كثيرة لم يصل إلينا منها إلا القليل النادر ، ولذا فهو يعرف بالإشارات إلى أسفاره فى أعمال المؤرخين . ويضيق المقام هنا عن ذكر أسماء أسر أخرى من تلك الأسر الكثيرة التى كان أفرادها يتوارثون المناصب جيلا بعد آخر.

وقد كان السودان الغربى مركزاً عظيما من مراكز الفقه . يقول ليو الأفريقى إن « تجارة الكتب كانت شديدة الرواج هناك ، وكانت تجارتها تحقق أرباحا أكثر مما تحققه أية تجارة أخرى » . فإذا علمنا أن التجارة فى الملح والذهب كانت هى التجارة الأشد رواجا ، أدركنا أن النهم للمعرفة كان شديدا للغاية . وقد كان الأساكى يشجعون العلم ،وكان لدى أسكيا داوود مكتبة رفيعة الشأن ، وكان معتادا ، كما يقول

تاريخ الفتاش ، شراء نسخ من المخطوطات والكتب الجديدة التي تصل إلى السودان. وكان الكتاب في مجلس الشورى يقومون بنسخ هذه الكتب ، ثم يتولى الأسكيا توزيعها على المتعلمين. كذلك جرت عادة الأساكي على إهداء الكتب إلى المتعلمين ، من ذلك أسكيا داوود الذي اشترى لحمود كعت نسخة من القاموس المحيط قيمتها ثمانون مثقالا من الذهب .

وكانت الرغبة في الحصول على الكتب من الشمال يفسرها أن الإنتاج الأدبي ، على الرغم من وجود طبقة متعلمة كبيرة ، لم يكن في مثل جودته بالمراكز الإسلامية الأخرى . كما أن الكتب التي وضعها علماء السودان لا يمكن مقارنتها بتلك التي كانت تصدر عن جامعات الأزهر وفاس والقيروان. وعلاوة على ذلك كانت هناك مسألة اللغة ، فالطبقات المتعلمة في السودان كانت بارعة في اللغة العربية — لغة الدين والثقافة والأدب — بيد أن السودان كان يبعد كثيرا عن المراكز العلمية العربية الحيوية . ولذا كان السودان يذهبون إلى فاس والأزهر : يذهبون إلى فاس لدراسة المذهب المالكي (المذهب الوحيد المنتشر في السودان) ، وإلى الأزهر ومكة لدراسة الفقه والشريعة . وكان العلماء القادمون من الشمال يستقبلون باحترام كبير ، ويمنحون المناصب الهامة . لقد كانت الرغبة تسود علماء المنطقة في أن يكونوا على صلة مستمرة بآخر التطورات الأدبية والفقهية في العالم ، فاشتد إقبالهم على مصادرها .

وقد كانت العناية بالتعليم كبيرة في السودان ، وتحولت المساجد ، وفي مقدمتها جامع سنكوري المشهور ، إلى مراكز للتعليم والفقه . وكان باستطاعة أي أسرة إرسال أطفالها إلى المعلمين لتلقي العلم . بيد أن تكاليف التعليم الباهظة ، وصعوبة الحصول على الكتب ، والعمل الشاق الذي يتطلبه نسخها ، وحفظ القرآن عن ظهر قلب ، والوقت الطويل الذي يتطلبه التمكن من الحديث والشريعة وفقه المالكية ، وكذلك تكلفة السفر إلى الخارج — كل ذلك يعني أن التعليم كان وقفا على أقلية .

لقد كان الفقهاء مالكيين فى حياتهم وتقاليدهم وإنتاجهم وتأليفهم وتدريسهم ، والشعوب مالكية تتأثر بهؤلاء الفقهاء وتستهدى بهم ، وتراجم العلماء والفقهاء التى وردت فى نيل الابتهاج أو تاريخ الفتاش أو تاريخ السودان تعطينا هذه الصورة المالكية الصرفة . وكادت مدارس الثقافة الإسلامية فى السودان الغربى أن تكون مدارس مغربية بحتة ، فكأننا فى فاس أو أودغشت أو القيروان . الأسلوب نفسه ، والحياة نفسها ، والوسائل نفسها ، حتى طريقة الكتابة تأثرت بالطابع المغربى . فالقلم العربى المستخدم هو القلم المغربى ، والمناهج والكتب المتداولة مناهج وكتب مغربية أساسا : كتب عياض وسحنون ، وشروح ابن القاسم ، وخليل ، وكتب القبلى والونشريشى ، وموطأ مالك ، والمدونة والخزرجية ، وتحفة الحكام والعباد ، إلخ . (تاريخ السودان ، ص ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٦) . ونماذج التأليف التى ظهرت نماذج مغربية الصورة ، وعنوان ذلك الفقيه المشهور أحمد بابا والمؤرخ عبد الرحمن السعدى ، اللذين نجدهما فى أسلوبهما وطريقة تناولهما للموضوعات وكأنهما مغربيان .

لقد كانت الثقافة فى السودان الغربى ثقافة مغربية فى أرض سودانية . بيد أن هذا لا يعنى أن مدارس السودان الغربى لم تتأثر بإنتاج المدارس الإسلامية الأخرى . فقد تأثرت على وجه الخصوص بمدارس مصر المملوكية ، ورحل أهل السودان إلى مصر وتعلموا فيها ، ورحل بعضهم إلى الشام والحجاز ، ووصلت تآليف المصريين إلى السودان . وقد ابتاع منساموسى كتبا كثيرة من مصر ، وحملها معه إلى بلاده ، كما شاعت بالسودان مؤلفات السيوطى وغيره من علماء مصر . ولكن ذلك كله لا ينتقص من الحقيقة المؤكدة ، وهى سيادة الطابع المغربى ، فالوافدون إلى الأزهر كانوا يتعلمون فقه المالكية ، وأنشأوا بمصر مدارس مالكية ، وتأثرهم بمصر لا يختلف عن تأثر المغاربة أنفسهم .

أما عن المراكز التى استقرت بها هذه الثقافة ، فإن أهمها مدينة تمبكتو التى قاربت

مكانتها ما كان للقيروان وفارس وقرطبة والقاهرة من مكانة فى العالم الإسلامى. وقد ارتبط تاريخ الثقافة فى هذا العالم الإفريقى بتاريخ هذه المدينة، بدأت يوم ولدت المدينة، واشتد ساعدها بالساع أفق المدينة وتطورها، ثم خضعت لما تعرضت له هذه العاصمة الروحية من مظالم الاحتلال المراكشى، ولما أعقبه من اضطرابات وتطورات، إلى أن دخلت فى النفوذ الفرنسى آخر الأمر. لقد كانت القلب النابض للحركة الفكرية، اجتمع فيها العلماء من كل عنصر ولون: المغاربة والأندلسيون والمصريون والحجازيون، كما كانوا يفدون إليها من كل بقاع السودان الغربى. والأمر الذى كان يزيد الحركة الفكرية توقداً فى تمبكتو أنها لم تكن محلية الطابع، وإنما كانت عالمية اتصلت بالبيئات العالمية المعاصرة.

وكانت جنى تلى تمبكتو فى الأهمية، ويبدو أن الثقافة الإسلامية كانت قد تسربت إليها قبل أن يدخل أميرها الإسلام، إذ يستفاد من رواية تاريخ السودان أن أميرها عندما تهيأ للدخول فى الإسلام أمر بحشد جميع العلماء الذين كانوا فى أرض المدينة، فجمع منهم نيفا وأربعة آلاف، وأسلم على يدهم (ص ١١، ١٢). وقد نشطت الحركة التجارية فيها، ورسخت قدمها فى الثقافة الإسلامية. وكان أسكيا الحاج محمد أول من عين بها القضاة للفصل بين الناس وفق الشريعة الإسلامية، ثم تتابعت وثبتها بعد ذلك.

عبد الرحمن السعدى وكتابه: تاريخ السودان

اسمه كاملا كما ورد على صدر كتابه هو الشيخ عبدالرحمان بن عبدالله بن عمران بن عامر السعدى (وقيل السعيدى) (١٠٠٤ – هـ؛ ١٥٩٦ – م). ومن هذا الاسم يتضح أنه ليس فى أجداده إلا أسماء عربية، ومع ذلك لا يحق لنا أن نستخلص بطريقة قاطعة أنه كان من سلالة عربية خالصة. ففى ذلك العصر جرت عادة المسلمين

الذين ترجع أصولهم إلى البربر ، أو إلى غيرهم ، على أن ينسبوا أنفسهم إلى أصل عربي أو شريف ، ولذلك كانوا يقفون في سرد الأسلاف عند حد معين بحيث لا يحتوي اسم الواحد منهم على أي اسم غير عربي. ولو كانت كلمة السعدي صحيحة لرجح ذلك انتسابه إلى قبيلة بني سعد الذين تنتمي إليهم حليمة مرضعة الرسول ، كما ينتمي إليهم الأمراء السعديون الذين حكموا مراكش .

وقد أخذنا في تاريخ ميلاده روايته في تاريخ السودان :

« وفي ليلة الأربعاء ليلة الفطر عند استهلال الشهر والناس مازال في الزغاريت والتهاليل عليه والتباشر به ولد جامع هذه الكراريس عبد الرحمن بن عبد الله ابن عامر السعيدي ألهمه الله رشده واثبته في ديوان السعادة عنده وذلك في العام الرابع بعد ألف (مايو ١٥٩٦) . . . تاريخ السودان ، ص ٢١٣ .

وعلى أية حال فإن السعدي ينتمي إلى أسرة من الفقهاء في تمبكتو ، مسقط رأسه. وقد دهم الاحتلال المراكشي بلاده قبل مولده بخمس سنوات وبضعة شهور ، فنشأ وشب وأمضى حياته كلها تحت نير هذا الاحتلال. وعاني هو وأسرته، كما عاني شعبه ، من مظالم المراكشيين ، وما ترتب على حكمهم من فوضى واضطراب ، وتدهور للحياة الثقافية والاقتصادية . لذلك ظلت الروح الوطنية طيلة حياته تؤجج وجدانه وتلهب مشاعره . وكان يدفعه هذا في بعض الأحيان إلى الإفراط في التحامل على مساوىء المراكشيين ، والتحيز في أحكامه ضدهم ، ولو أنهما تحامل وتحيز كان لهما ما يبررهما تماما ، ويقلان كثيرا عما يمكن أن يتوقعه المرء من مؤرخ في ظل ظروفه يؤرخ لوطن عزيز عليه .

وقد تلقى العلم في شبابه على يد الفقية أحمد بابا ، وأخذ عنه في كثير من المواضع من تاريخ السودان . كما تلقى العلم على كثيرين غيره من علماء المنطقة الأفذاذ، نذكر منهم القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ :

« ومنهم القاضى محمود بن أبى بكر بغيغ والد العالمين الفاضلين الصالحين الفقيه محمد بغيغ والفقيه أحمد بغيغ وهو جنوى بلدا (من جنى) ونسكرى أصلا (من قبائل الواكورى أو الونجارا) كان فقيها عالما جليلا تولى القضاء بعد وفاة القاضى العباس كب ... » (تاريخ السودان، ص ١٩)

«بعده أخذ عنه جماعة كالفقيهين الصالحين شيخنا محمد وأخيه أحمد ابنى الفقيه محمود بغيغ قرأ عليه الأصول والبيان والمنطق والفقيهين الأخوين عبدالله وعبدالرحمن ابنى الفقيه محمود وغيره وغيرهم وحضرت أنا عليه أشياء عدة وأجازنى جميع ما يجوز له وعنه وسمعت بقراءة الصحيحين والموطأ والشفا . . . » (تاريخ السودان، ص ٤٣).

وقد سعى السعدى هو وإخوته إلى الانتقال من تمبكتو إلى جنى للعمل بها ، وهى البلدة التجارية القديمة التى كانت تنافس تمبكتو فى الحياة التجارية والثقافية . وعمل السعدى محررا للعقود فى جنى ، واستطاع فى عام ١٠٣٦ هـ (١٦٢٧ م) الحصول على منصب إمام جامع سنكورى الشهير بجنى (١٠) ، الذى كان

---

(١٠) مصدرى فى هذا الصدد دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة العربية القديمة ، مادة السعدى ؛ وكذلك مقدمة المستشرق هودا للنص الفرنسى من تاريخ السودان ، ص٨ . إذ يفيد المصدران أن مسجد سنكورى يوجد بمدينة جنى ، وأن السعدى قد ولى إمامة هذا المسجد بعد رحيله من تمبكتو إلى جنى ببعض الوقت . بيد أن السعدى فى تاريخ السودان ، وهو مصدرنا الذى نعول عليه فى هذا الصدد ، أشار فى كثير من المواضع إلى أن المسجد موجود فى تمبكتو .

« ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلا قليلا حتى استكملوا فيه وزيادة .... فاول الحال كانت مساكن الناس فيه زريبات الاشواك وبيوت الأخشاش ثم تحولوا من الزريبات إلى الصناصن .. ثم بنوا الجامع حسب الإمكان ثم مسجد سنكرى كذلك» (تاريخ السودان ، ص ، ٢١ ،

« منهم الفقيه الحاج جد القاضى عبد الرحمن بن ابى بكر بن الحاج تولى القضاء بتنبكت فى أواخر دولة أهل ملى وهو أول من أمر الناس بقراءة حزب من القرآن للتعاليم فى جامع سنكرى ... » (تاريخ السودان ، ص ٢٧) .

(انظر أيضا ، تاريخ السودان ، ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ وغيرها من المواضع) .

بمثابة جامعة إسلامية . وفي أواخر عام ١٠٣٩ هـ (١٦٧٠ م) وسع معارفه عن العالم برحلة قام بها إلى مملكة ماسينا (أو ماسنة كما كتبها السعدى) الفولانية شمالى جنى على الضفة اليسرى لنهر النيجر. وكان قد دعاه إلى زيارة المملكة قاضيها ، بيد أنه استقبل بحفاوة من السلطان نفسه ومن أعيان المملكة ، مما شجعه على معاودة زيارة المملكة بعد ثلاث سنوات،وأدى فيهذه المناسبة خدمة للسلطان بعقد الصلح بينه وبين تابع له كان بينهما ثأر قديم (١١). وقد قام السعدى بهذا النوع من الوساطة مرات كثيرة بين أمراء المنطقة مما أكسبه خبرات واسعة وعلاقات وطيدة مع عدد كبير من حكام المنطقة . بل إنه كان ضالعا في الشئون السياسية لبلاده، فتزايدت قدرته على تقويم الأحداث السياسية وتدوينها . وساعده نسبه ونشأته ، والبيئة التي تتلمذ فيها ، والعلماء والفقهاء الذين درس على أيديهم ، على تسجيل حياة الطبقة المثقفة المستنيرة ودورها في التاريخ السوداني .

وقد قاسى السعدى وأسرته الأمرين من طغيان الولاة المراكشيين في جنى . ونفى أحد إخوته في عام ١٠٤٤هـ(١٦٣٤م) من موطنه الجديد إلى تمبكتو، فاضطر السعدى إلى العودة إلى تمبكتو ،ليتدخل في الأمر باسم أخيه ، بل إن السعدى نفسه عزل من منصبه بعد ذلك بسنتين ، فشكا أمره إلى باشا تمبكتو . وكان هذا الباشا مدركا لمكانة السعدى ، وبلغ من حرصه على مرضاته أن طرد القائد الذى تسبب في فصله ؛ بيد أنه كف عن المطالبة بالمنصب ، وفضل أن يعيش عيشة سواد الناس .

وكان السعدى بين الحين والحين يضع معارفه تحت تصرف صغار الحكام في ممالك السنغى الجنوبية كاتبا ومؤدبا . وقد حدث في عام ١٠٥٦ هـ (١٦٤٦م) أن

---

(١١) انظر الباب الثانى والثلاثين من تاريخ السودان (ص ٢٣٠ ومابعدها) ، (عنوان ، هذا الفصل في النص الفرنسي : « رحلة المؤلف إلى ماسنة لعقد معاهدة صلح ») .

استدعاه باشا تنبكتو (محمد بن محمد بن عثمان الشرجى) ، وعينه سكرتيراً له (كاتباً) :

«وفى ليلة السبت الثامن من المحرم الحرام الفاتح للعام السادس والخمسين والألف توفى أخونا الإمام ... ، وفى يوم الإثنين السادس من الربيع النبوى توفى أخونا وحبنا ، وفى يومئذ بعث الباشا محمد بن محمد بن عثمان مرسول إلى جنى ... فوصل الرسول اليهم يوم السبت سابع الولادة فكتبوا إلى فى ذلك يوم الأحــــد ووصلنى الرسول والكتاب وقت العصر فخرجت من بيتنا فى غده يوم الإثنين وبتنا فى الطريق ليلتين لأجل يبس الماء فوصلت جنى ضحوة الاربعاء ... واستهل علينا شهر الربيع الثانى فى بلد وك ليلة الخميس ووصلنا مرسى كرنز فى نهار الأحد فصرف لى الحصان وطلعت مدينة تنبكت ليلة الاثنين الخامسة منه والتقيت معه تلك الليلة فرحب بى واكرمنى ورتبنى كاتباً نسال الله تعالى العفو والعافية والسلامة والمعونة فى الدين والدنيا والآخره ... (تاريخ السودان ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧).

ويبدو أنه ظل يشغل هذا المنصب فى عهد خلفاء محمد بن عثمان أيضا إلى أن وافته المنية . وقد كان يكره على مرافقة الباشا فى رحلاته الكثيرة ، فوسع معارفه عن شمال السنغى وجنوبها ، وهى مناطق لم يكن يعرف عنها شيئاً من قبل. ومن هذا نرى أنه كان يسهم بطريقة مباشرة فى شئون بلاده منذ عام ١٠٩٣هـ (١٦٣٠) ، ويقوم بالأعمال العامة والسفارة والوساطة. وربما طرأت له فى إحدى هذه المناسبات فكرة كتابة تاريخ لبلاده يتيح له ربط الأحداث الماضية والأحداث التى تجرى أمام عينيه . ولقد شرع بالفعل فى كتابة تاريخ السودان. وظل السعدى يواصل هذا العمل الهام إلى أن توقف به عند أحداث الخامس من ذى الحجة ١٠٦٣ (٨ نوفمبر ١٦٥٢) .

« وهنا انتهت المجموعة بحمد الله وحسن عونه بتاريخ نهار الثلاثاء لخمس خلون من ذى الحجة الحرام الثالث والستين والألف والحمد لله رب العلمين وهو حسبى

ونعم الوكيل.» (تاريخ السودان ، ص ٣١٤) .

وبهذه الفقرة ينتهى الباب السابع والثلاثون من وتاريخ السودان، حسب التقسيم الذى أدخله المستشرق هودا على الكتاب . ولكن السعدى عاد بعد ثلاث سنوات فأضاف إليه باباً جديداً ، هو الباب الثامن والثلاثون ، تنتهى أحداثه عند تاريخ ١٦ جمادى الأولى ١٠٦٥ (١٢ مارس ١٦٥٥) :

« وفى يوم الأحد السادس عشر من الربيع الثانى ورد كتاب من مراكش من القائد يحيى بن يحيى الحيانى للباشا محمد بن أحمد بن سعدون وأخبر فيه أن السلطان مولاى محمد الشيخ توفى فى الثانى والعشرين من الربيع النبوى عام خمسة وستين وألف وبايعوا ابنه السلطان مولاى العباسى ساعتئذ فجاء وفق المراد وظهرت منه البركة فى الساعة والحين وفى السادس عشر من جمادى الأولى ورد كتاب من عند القائد على ابن عبد العزيز الفرجى فى جنى .. ، تم وكمل بحمد الله تعالى وحسن عونه » (تاريخ السودان ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ وهى الصفحة الأخيرة من الكتاب) .

وفى ذلك التاريخ يكون السعدى قد قارب الواحدة والستين بالتقويم الهجرى (٥٩ سنة ميلادية) . والأرجح أنه لم يعش طويلا بعد ذلك ، وإلا لما توانى عن أن يضيف بابا جديداً إلى تاريخ السودان . وهكذا فعلى الرغم من أن السعدى قد بدأ فى إعداد تاريخ السودان بعد أن بدأ محمود كعت فى إعداد تاريخ الفتاش بوقت طويل ، ومن أن محمود كعت قد توفى قبل مولد السعدى بحولى عامين ، إلا أن أحداث تاريخ السودان تنتهى قبل أحداث تاريخ الفتاش بحوالى عشر سنوات . ذلك أن محمود كعت ، ولو أنه عمر طويلا ، إذ تجاوز الخامسة والعشرين بعد المائة (بالتقويم الهجرى) ، إلا أنه لم يكمل كتابه ، بل أكمله أحد حفدته من بعده . إذ يشير تاريخ الفتاش بالفعل إلى أحداث تذهب إلى ١٠٧٦ هـ (١٦٦٥م).

تاريخ السودان

كان ا . روسو هو أول من أشار إلى وجود هذا الكتاب ، بيد أن الرحالة الألمانى بارث كان أول من عرفه فى شىء من التفصيل ، فقد استقى منه جانباً كبيراً من المعلومات التى استخدمها فى سرد رحلته إلى إفريقية . ولكن أهالى تمبكتو خدعوه فيما يبدو فنسب الكتاب خطأ إلى أحمد بابا . ومرجع الخطأ أن تراث السودان الثقافى بأسرة متجسد فى تلك الشخصية الشهيرة ، ولذا لم يكن من غير المألوف أن ينسب إليه كل عمل قيم . ومما يسر الخطأ أيضا أن معاجم السيرة تختلط فى أعين العرب مع المؤلفات التاريخية الحقيقية . ولما كان معجم أحمد بابا ذيل الديباج معروفا للجميع ، فقد أعتبر تاريخا السودان .

وإذا كنا قد استطعنا من غير صعوبة تفسير الخطأ الذى وقع فيه بارث ، فإن رالفس الذى ترجم عدداً من مقاطع تاريخ السودان ،والذى اضطلع حقاً على العمل بأكمله ، لم يجد إشارة محددة تبين المؤلف الحقيقى للكتاب . وقد أبدى شكه فى حقيقة المؤلف عندما رأى بعض الاقوال لأحمد بابا . وليس من النادر أن يذكر مؤلف ما أعماله الخاصة ، ولكن من غير المألوف أن يتكلم عنها بصيغة الشخص الثالث . وعلاوة على ذلك فإن أسم أحمد بابا كانت تعقبه دائماً عبارة « رحمة الله تعالى » ، وهى عبارة وإن كانت لا تستخدم إلا بالنسبة لشخص راحل ، إلا أنها يمكن أن تعزى إلى ناسخ قام بالعمل بعد وفاة المؤلف . وأخيراً فإنه فيما يتعلق بوفاة أحمد بابا فإننا نجد فى الكتاب العبارة التالية :

« وفى يوم الثلاثاء العاشر من ذى القعدة الحرام فى العام السادس عشر بعد ألف وردالشيخ العالم العلامة فريد دهره وحيدعصره الفقيه أحمد بابا بن الفقيه أحمد ابن الحاج أحمد بن عمر مدينة تنبكت سرحه إليها الأميرمولاى زيدان بوعد منه فى

حياة أبيه مق من الله عليه بدار ابيه يطلقه أن يسير إلى دار أبيه وبعد ما وفى له ذلك الوعد وانفصل عن المدينة ذاهباً ندم على ما صدر منه لولا أن الله تعالى قدر تربته فى مسقط رأسه » (تاريخ السودان ، ص ٢١٨ — ٢١٩) .

وإلى جانب هذه البراهين ذات الطابع السلبي نجد براهين أكثر إيجابية على شخصية المؤلف الحقيقية ، ففى ص ٣٢٥ يتحدث المؤلف عن مولده ، بل يذكر وفاة عدد من أقاربه ، إلخ (أوردنا فيما سبق جزءاً من هذه الصفحة للاستدلال على على تاريخ ميلاد المؤلف) .

وقد أعتمد المستشرق هودا فى تحقيق تاريخ السودان على مخطوطات ثلاثة A,B&C . وللمخطوطين A&C دلالتهما فيما يتعلق باسم المؤلف . فعلى واجهة الورقة الأولى من المخطوط A لا يوجد عنوان الكتاب واسم المؤلف فقط ، وإنما توجد أيضاً سيرة موجزة للمؤلف . أما المخطوط C فيبدأ بهذه الكلمات : « جامع هذه الكراريس عبد الرحمان بن عبد الله » . ولذا لا يوجد محل للتردد بشأن هذه النقطة . وكل ما يمكن قوله أن السعدى أعاد فى بداية مؤلفه نسخ معجم أحمد بابا ، ثم أضاف إليه عمله كملحق له . ولكن حتى فى هذه الحدود يكون تأكيد ذلك أمراً غير مقبول . فالسعدى قد ذكر أحمد بابا فى عدة مواضع من كتابه دون أدنى مواربة . ومن ثم يكون لنا أن نتساءل عن السبب فى أنه فعل ذلك لو أنه قد استعاد كلامه . وعلاوة على ذلك فإننا لا نلاحظ أى فرق فى الأسلوب بين الجزءين الأول والثانى ، فى حين أن الجزء الثانى لا يمكن أن يكون من عمل أحمد بابا لأن أحداثه فى معظمها لاحقة لموته . وإلى جانب ذلك فإننا فى كل مواضع الكتاب نجد الأخطاء النحوية نفسها ، والتعبيرات نفسها التى تنتمى إلى لغة الحديث والتى يخلو منها معجم أحمد بابا . وأخيراً لا يوجد دليل واحد على أن أحمد بابا هو الذى كتب تاريخ السودان .

ومن المفهوم بطبيعة الحال ألا يدفعنا ذلك إلى الافتراض بأن السعدى لم يأخذ من أعمال أخرى المواد التى أوردها فى الجزء الأول من كتابة . ولكن ما نجهله هو إلى مدى فعل ذلك ، وهل فعله بتوسع أم فى إيجاز . ومن المستحيل أن يكون الأمر على غير هذا النحو : فالتاريخ لايخترع ، وهو بالضرورة يتعلق فى الجانب الأكبر منه بأحداث سابقة يستعيرها المؤلف من أعمال أخرى ، أو من روايات متناقلة . ومن حق المؤلف أن يبرزها ، وأن يعرضها فى صورة جديدة . ولكن من غير المسموح له أن يغير شيئاً من جوهرها ، وإلا كان عليه أن يقدم براهين مؤكدة على أقواله .

*

وقد كان المخطوط A جزءاً من مجموعة مخطوطات أرسلها الكولونيل أرشينار إلى «المكتبة القومية» بباريس . وهو مخطوط غير مؤرخ ، ويبدو أنه يرجع إلى أواخر القرن الثامن عشر . وكانت الرطوبة قد غيرت الجزء العلوى من بعض صفحاته ، بيد أن المقاطع غير المقروءة كانت مع ذلك قليلة للغاية . أما المخطوط B فقد نسخ من المخطوط A ، بناء على طلب فليكس دى بوا (صاحب الكتاب الممتع تمبكتوا الغامضة Tombouctou la Mysterieuse) إبان رحلته إلى تمبكتو فى عام ١٨٩٦ ، وبذا يكون المخطوطان A&B من عائلة أو فصيلة واحدة . وقد أهدى دى بوا هذا المخطوط بدوره إلى « المكتبة القومية » . وعندما كان المستشرق هودا على وشك الانتهاء من تحقيق الكتاب وترجمته والتقديم له بعث إليه السيد رينيه باسيه مدير مدرسة الآداب بالجزائر مخطوطا ثالثاً (C) لكتاب تاريخ السودان كان قد أرسله إليه الدكتور توتان . وهذا المخطوط أفضل بصفة عامة من المخطوطين A&B ، وقد نسخ عن أصل مختلف . فكتابته أكثر وضوحاً ، والتشكيلات التى تصحب أسماء الأعلام وضعت بصفة عامة بقدر كاف من العناية ، وإن كانت به بعض مقاطع منسوخة بطريقة سيئة ، وبضع كلمات وبضعة سطور

محذوفة كلية . ولكن يبدو أن ذلك يرجع إلى خطأ النسخة التي تم النقل عنها أكثر مما يرجع إلى جهل الناسخ وإهماله . وقد محي جزء كبير من اسم الناسخ ، وبقي منه « الأمين بن محمد (؟) البوركو (؟) بن محمد » ، واسمه مسبوق بكلمة الإمام . ويبدو أنه كان ناسخا محترفا . وكان المخطوط C مخصصاً (مهدى) للألفا الحاج بن (؟) ، وقد تم الانتهاء منه في ٢٥ جمادى الأولى ١٢٠٦ ، الموافق ٢٠ يناير ١٧٩٢ .

وقد واجه المستشرق هودا صعوبة كبيرة في ترجمة النص العربي إلى الفرنسية مرجعها الخلط في أسماء الإعلام. ففي بعض المواضع كان السعدي إستخدم اسم أحد البلدان لرئيس أو زعيم هذا البلد أو العكس . ومن جانب آخر لم يكن من الواضح دائماً ما إذا كان يتحدث عن لقب الشخص أو اسمه . وإذا كان ممكنا بالنسبة لأسماء الإعلام العرب كتابتها بطريقة صحيحة ، فإنه لا يتوافر الشيء نفسه بالنسبة للأسماء السودانية ، فالتشكيلات لا توضع دائماً على الحروف الساكنة التي يجب وضعها عليها، ومن ثم كان من المتعذر الحسم بين مختلف القراءات للمخطوطات المختلفة . ومن ناحية أخرى فإن أسماء كثيرة قد اختفت أو حورت . فمثلا كالا تسمى اليوم سكتو (ص ١٩ حاشية من الترجمة الفرنسية ، ص١٠ من النص العربي)، وباغن أو باغنة قد أستبدل بها باكونيه (ص ١٨ ، ص ١٨ حاشية من الترجمة الفرنسية ، ص ٩ من النص العربي) ، إلخ . ومن ثم يتعين الاطلاع على وثائق جديدة للوصول إلى حسم أكبر فيما يتعلق بكتابة هذه الأسماء . وتلك مهمة لا يمكن أن تقوم بها إلا أقلية يعتمد عليها عاشت طويلا في السودان .

إن الكتابة العربية غنية بالحروف الساكنة ، ولكنها فقيرة في حروف العلة ، كما أن التشكيلات الثلاثة التي تملكها تستخدم في إخراج سلسلة من الأصوات الطفيفة الاختلاف دون أن يبدو من الناحية المظهرية أن هناك تمايزا . وحتى عندما

يتعلق الأمر بكلمات أجنبية عن اللغات السودانية ، فإننا نجد تشكيلات مختلفة للتعبير عن النطق الواحد . ومن ثم لا يجب أن يدهش المرء من وجود كتابة لا تتفق دائماً مع النطق الجارى أو الشائع . وبالنسبة للـكلمات التى استقرت طريقة كتابتها بالفرنسية عن طريق الاستخدام رأى المستشرق هودا أنه من غير المفيد تعديلها بحجة الوصول إلى قدر أكبر من الدقة . وأخيراً يوجد فى كل اللغات اختلاف بين طريقة كتابة بعض الأسماء وطريقة نطقها ، وذلك أشد انطباقا على اللغة العربية عند كتابة الأسماء السودانية والبربرية .

وتاريخ السودان على الرغم من عنوانه العام ، لا يتناول إلا جزءا من السودان . وهو من الناحية الفعلية لا يتحدث بطريقة مطولة إلا عن امبراطورية السنغى، والاحتلال المراكشى للمنطقة الواقعة على جانبي النيجر . ولا يزودنا عن إمبراطورية مالى إلا بفقرات قليلة . وينصب الاهتمام الأكبر للسعدى على مدينة تمبكتو مسقط رأسه ، وعلى الدور العظيم الذى قامت به فى عالم السودان. وقد شرع المؤلف فى إعداد كتابه حين بدأت هذه المدينة فى التدهور . فقد عجز المراكشيون عن إدارتها ، وعن أن يجعلوا منها مركز رخاء وثروة لبلادهم الأصلية . وترتب على معاملتهم الفظة للسودان أن انتشر الخراب بين هؤلاء القوم الذين يتميزون بوداعة الأخلاق والعزوف عن الشر ، كما أن تماديهم فى هذا المضمار أوجد نوعا من المقاومة الشعبية التى تمكنت فى أول الأمر من أن ترفع نيرهم عن معظم أرجاء البلاد ومن أن تحصره فى تمبكتو ، ثم من إزالته نهائيا بعد ذلك.

وتاريخ السودان ، كما وصل إلينا ، يمكن تقسيمه إلى جزئين رئيسيين يتميز كل منهما بخصائص مختلفة عن الآخر:

الجزء الأول ، ويتجاوز أكثر من نصف الكتاب، ويشمل المعلومات التي جمعها المؤلف من مصادر شفهية أو مكتوبة . وهي معلومات جافة ورتيبة إلى حد كبير أهمل السعدي الإشارة إلى مصادرها . وفي كثير من الأحيان يمكن استنتاج أنها نابعة من الروايات المتداولة على لسان الناس . وهي يحتوي بالطبع على كل الثغرات ومظاهر عدم اليقين التي يتميز بها مثل هذا المصدر من مصادر المعلومات . ونحن لا يمكننا القطع بحجم الوثائق المكتوبة التي كانت موجودة قبل القرن السادس عشر ، أو بأهميتها وإمكان الاعتماد عليها . وكثيراً ما يقول السعدي إن المعلومات التي يوردها قد حصل عليها من أصدقائه من العلماء ، وهو لا يشير بالنسبة لتاريخ السودان إلا إلى كتابين فقط ، هما ذيل الديباج لأحمد بابا ، وقد أخذ عنه كثيراً ، وكتاب آخر اسمه الخبر . أما فيما يتصل بتاريخ المغرب فلا يذكر إلا كتاب الحلل الوشية في تاريخ أخبار المراكشية . والأرجح أن السعدي قد استعان بكتب أخرى ، وبخاصة بالنسبة لتاريخ المغرب . ولكن صمته عن ذكر أسماء هذه المراجع لا يعني عدم وجودها .

أما الجزء الثاني فعلى نقيض ذلك ، إذ يتكون من انطباعات السعدي ومذكراته الشخصية . ومصدر المعلومات في هذا الجزء شهود عيان ، بل السعدي نفسه وتجربته الشخصية في بعض الأحيان . فقد كان على صلة مباشرة بالأحداث السياسية في بلاده . ويتميز هذا الجزء بالحيوية ، وبوفرة المعلومات . وفيه يتحدث السعدي عن أشياء رآها بنفسه أو رواها له شهود عيان يثق في روايتهم . فلقد مكنته المناصب العامة العالية ، التي كان يشغلها بحكم كفايته وتطلعه ، من أن يقيم علاقات وطيدة مع كثيرين من شاغلي المناصب العامة . وأعطاه ذلك الفرصة في كثير من لأن يتغلغل في دقائق الأمور ، ولأن يقدم لنا تفصيلات بالغة الدقة . وعلى الرغم من أن اهتمامه الزائد بوصف الظروف المحيطة به كان ينطوي في بعض المواضع على شيء من المبالغة ، إلا أن هذا الاهتمام يوفر لنا صورة واضحة عن البيئة التي عاش فيها وساعدته على أن

يتطور . وفي هذا الجزء من تاريخ السودان نقف بوضوح شديد على الأفكار التي كانت تدور في رأس السعدي ، وعلى اتجاهاته ومواقفه .

وقد كان غالبية المؤرخين العرب يفتقرون إلى وجود خطة في كتاباتهم ، ويتبعون طريقة الحوليات ، أي يكتبون تاريخهم سنة بسنة . وقد اتبع الطبري شيخ المؤرخين العرب هذه الطريقة ، وإن كان اليعقوبي الذي عاصره قد ابتعد عنها . وانتقد ابن خلدون طريقة الحوليين ، ولكنه عندما شرع في كتابة التاريخ وقع فيما نقد فيه غيره . ثم جاء السعدي فكتب تاريخه على نسق الغالبية العظمى من هؤلاء المؤرخين ، فخلت كتابته من أية خطة .

وكان السعدي إلى حد ما يجهل فن الكتابة الأدبية ، ولغة الكتابة عنده بها شيء من الركاكة . وكثيرا ما كان يستخدم كلمات غير موجودة في المعاجم العربية ، ويغير في تركيب الجمل العربية وفق هواه . وفي بعض الأحيان يشعر القارىء أنه يفكر بطريقة سودانية ، ويكتب بلغة ليست لغته الأصلية ، ومع ذلك خلت معظم كتابته من الغموض . هذا ويمكن إرجاع بعض ثغرات الكتاب وعيوبه إلى العادة التي جرى عليها النساخون في البلاد الاسلامية من حرصهم على جمال الخط ورونقه أكثر من حرصهم على دقة النقل وحرفية الموضوع . وليس من العدالة في شيء أن نطلب من رجل إفريقي عاش في هذه الفترة أن ينقد الأحداث التي يقصها وأن يحللها ، أو أن نطلب منه أن يحكي لنا أسباب هـــذه الحوادث ونتائجها .

وعلى الرغم من عدم وجـــود منهج بالكتاب ، ومما به من ثغرات ، إلا أنه يتيح لنا أن نلم بوجه عام بفكرة عن التنظيم العسكري والإداري لجزء هام من السودان في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ومن أن نقف على الأسباب التي أوجدت بهذا الجزء من السودان فترات رخاء وفترات شقاء . والكتاب في المقام

الأول يلقى ضوءاً على المساوىء التي تنتج عن نظام إقطاعى يقوم على أفنان شاغلهم تحطيم وحدة الحكومة ، ويساعدون بهذه الطريقة على تيسير مهمة الاعتداءات الخارجية . ثم يعدد لنا بعد ذلك الأخطاء التي ارتكبها المراكشيون ، والتي أساءت علاقاتهم بالشعب المحكوم ، وتسببت فيما قام به هذا الشعب من جهود لرفع نيرهم عن بلاده . ونجد في بعض مواطن الكتاب بيانات مختصرة عن تاريخ الشعب المراكشى . وتفيد هذه البيانات في تقويم ما كتبه المراكشيون أنفسهم في تاريخ بلادهم ، فلم تكن كتابات هؤلاء تتميز بالحياد ، بل كثيراً ما كانت تكتب لإرضاء الحكام ومحاباتهم على حساب الحقيقة ، دون أى اهتمام بصحة المعلومات .

ويوضح الكتاب كيف أن المراكشيين قد ألبعوا منذ البداية نظام الحماية . بيد أن الشعب احتفظ بقوانينه وتقاليده وموظفيه ، كما لم يتغير الموظفون من ألقابهم . واحتفظ السودان بالأساكى كرأس للادارة المحلية ، وهم لم يكونوا بالطبع حكاما بمعنى الكلمة ، وإنما كان لهم اللقب ، وكان ذلك كافيا في نظر الشعب للاعتقاد بأنه لم يتغير شىء عن العهد القديم . أما بالنسبة للاجانب ، سواء أكانوا من عنصر أبيض ، أم من عنصر أقل بياضا ، فكانوا يوضعون تحت تصرف الحكام المراكشيين . وقد كان الباشا يعين من قبل سلطان مراكش ، وكانت له السلطة العليا من الناحية الإدارية . وكان يوجد إلى جانبه موظف كبير مختص بالشئون المالية يعين بدوره عن طريق الحكومة المراكشية . وهذا الموظف كان يسمى « الأمين » ، وهو لم يكن مسئولا أمام الباشا ، وإنما أمام السلطان . وكان « الأمين » يتحكم في الضرائب ، وفي المصروفات العامة لجيش الاحتلال . وكان ضباط الجيش بصرف النظر عن رتبهم يعينون مباشرة من مراكش . وهذا النظام كان يمكن أن يدوم لو كانت طرق المواصلات أيسر وأسرع . وإنما كان

لا بد من الانتظار أكثر من ستة أشهر للحصول على حل أو قرار أو إجابة من البلاط المراكشي ، وكثيرا ما كانت الأحداث تحتاج إلى حل سريع . وبالتدريج أخذ الباشوات يتصرفون على مسئوليتهم ، إلا فى الأمور التى يطلبون فيها التصديق على تصرفات يوقنون مسبقا بنتائجها . وحتى هـــذه الشــكليات سرعان ما تخلصوا منها .

وكان بعض الموظفين يحاولون عن طريق مؤامراتهم فى البلاط إبطال القرارات التى يتخذها الباشوات ، وأدت هذه الصدامات إلى زيادة تدهور الوضع فيما بين كبار الموظفين . وقد وجد بين هؤلاء عدد من المرتدين والخوارج الذين يدينون بثرواتهم لوسائل مشبوهة . وانتهى هـذا الوضع بتقاسم السلطة بين الباشوات ، أحدهما يتولى قيادة القوات ، والآخر يحكم البلاد . وعندما دخل « الأمين » بدوره فى الصراع بين الباشوات وصلت الفوضى إلى أقصاها . كما أن جيش الاحتلال ، الذى لم تكن رواتب جنوده تدفع بانتظام بسبب هذه الفوضى ، قد استغل هذه الفوضى ليفرض لنفسه حق اختيار رؤسائه ، ومن ثم أصبحت سلطة السيادة المراكشية سلطة اسمية بحتة . ويضيف السعدى إلى ذلك أن المتاعب التى كان الوطن الأم مسرحا لها قد شجعت بدرجة كبيرة تحركات كل الساخطين .

وبالتدريج أصبح الباشا ينتخب من قبل الجنود ، ولــكنــه قبل ذلك كان قد اتخذ بالفعل مظهر سيد مستقل حقيقى . فقد كان له بلاط ومجلس وزراء . ولــكى يدعم وضعه هذا ، ولــكى يشبع رغبات المحيطين به ، كان عليه أن يعتصر السكان ، وأن يضاعف من غارات اقتناص الرقيق . وقد عقــد سكان السودان ، الذين كانوا مكبلين بالضرائب ، وكان عليهم أن يتحملوا كل أنواع المظالم التى يوقعها بهم الجيش المراكشي ، عقــدوا العزم على زعزعة النير القاسى الذين كانوا خاضعين له ، وذلك على الرغم من رهبتهم من المراكشيين ومن حسهم المتثاقل . وتعددت الثورات فى

كل مكان . بيد أنه على الرغم من أن عبد الرحمن السعدى لم يعش طويلا ليشهد تحرر بلاده ، فقد كان باستطاعته أن يتنبأ بالخلاص القريب .

وعلى ضوء المشاعر الوطنية الدافقة التى كانت تحفز السعدى ، كان لابد أن نتوقع منه التحيز فى أحكامه ، وعرض الأحداث بطريقة تفرط فى إدانة الأجانب الذين غزوا وطنه واستعبدوه . بيد أن السعدى حرص على ألا يكون كذلك . ولا شك أنه كان يكره المراكشيين ، ولكنه لم يدع تلك الكراهية تطغى عليه ، وآثر أن يسجل الحقائق كما رآها بنفسه ، أوكما سمعها من شهودها عيان جديرين بالثقة . والشكل البسيط والطبيعى للغاية الذى استخدمه فى عمله يستبعد فكرة أنه يفرض هذه الكراهية على القارىء ، بل إنه أورد فى كتابه كثيراً من الفقرات التى تمجدأعداءه .

ومع ذلك فإن الكتاب يزخر بأحداث بالغة الأهمية تروى لأول مرة تحدد المراحل الرئيسية للحياة القومية لجزء من أهالى السودان ، وتبين أن هؤلاء الذين ينكر عليهم الكثيرون أية بادرة فى مجال التقدم إنما كانت لهم حضارة خاصة بهم لم يفرضها عليهم شعب من عنصر آخر ، وأن زوال هذه الدولة التى كانت تتمتع برخاء نسبى إنما يرجع إلى حد كبير ، إن لم يكن فقط ، إلى الغزاة «الأجانب» والكتاب آخر الأمر جسر يربط بتاريخ البشرية مجموعة من الأمم كانت بعيدة عن مجرى هذا التاريخ .

هذا والكتاب حافل بسير العلماء ، ولكن النبذ التى وردت عنهم كانت لسوء الحظ جافة ورتيبة ، ولاتكاد تهدينا إلى مشاعر وأفكار الفئة المستنيرة من السكان فى ذلك العهد . وتتكون هذه النبذ من أسماء الشخصيات ، وأسماء أساتذتهم ، وقائمة الكتب التى درسوها ، وتاريخ وفاتهم ، والمكان الذى دفنوا فيه ، فى حين

عناوالكتاب مما يشير إلى الحياة الخاصة بهذه الشخصيات ، أو إلى طباعهم واتجاهاتهم، أو إلى الأحداث التي ارتبطوا بها .

والنص العربي كما ورد بالمخطوطات لم يكن به أي تقسيم من أي نوع ، ثم جاء المحقق المستشرق هودا فقسمه إلى ثمانية وثلاثين بابا ، بيد أنه ترك النص على حاله دون أي تغيير في إطاره العام ، بل إنه ترك الأبواب في النص العربي دون عناوين ، اكتفاء بكتابة أرقام الأبواب : الباب الأول ، الباب الثاني ، وهكذا إلى الباب الثامن والثلاثين. ولكنه وضع عناوين للأبواب في النص الفرنسي . وكانت هذه العناوين في الجزء الأكبر منها عبارة عن ترجمة لبدايات الأبواب كما وردت في النص العربي. وقد أورد هذه العناوين في فهرس النص العربي . كما صدر هودا النص الفرنسي بمقدمة عالية القيمة كانت عونا كبيرا لي في تناول الكتاب والتعرف على حياة مؤلفه .

وإلى جانب ذلك أضاف المحقق في ذيل صفحات النص الفرنسي كثيراً من الحواشي والتعليقات البالغة الأهمية ، تناول فيها شرح أصول بعض الأسماء ومعناها، وطريقة كتابتها ، مشيرا إلى أشكالها القديمة كلما وجدت، وفسر ماغمض من النص . بيد أن هذه الحواشي والتعليقات على أهميتها تقل كثيراً ، من حيث حجمها في المقام الأول ، عن مثيلاتها في ذيل صفحات النص الفرنسي من تاريخ الفتاش . وربما كان من مرجع ذلك أن تاريخ الفتاش قد صدر بعد تاريخ السودان بخمسة عشر عاما . ولعل هودا ، الذي اشترك مع المستشرق الفرنسي ديلافوس في تحقيق وترجمة تاريخ الفتاش ، قد اكتسب في هذه الفترة مزيدا من الخبرة والتجربة ، وأحس بأهمية ما أضافه إلى تاريخ السودان ، فكرس مع زميله جهدا أكبر لهذا الجانب من عملهما في تاريخ الفتاش . والحقيقة أن ماورد بذيل صفحات تاريخ الفتاش إنما هو ثروة علمية لاتقدر بثمن تجعل النص أيسر منالا للقارىء الملم بالفرنسية .

كذلك أضاف هوداس في نهاية النص الفرنسي فهرسا للاعلام مع أرقام الصفحات

التي وردت بها في الفرنسي . ولما كانت صفحات النص الفرنسي مزودة بأرقام الصفحات المقابلة لها في النص العربي ، فقد أصبح من الميسور تماما معرفة المواضع التي وردت بها هذه الأعلام في كل من النصين العربي والفرنسي على حد سواء .

ويقول هودا في مقدمته إنه كان في نيته أن يلحق بالنص الفرنسي أيضا جداول بأنساب الأساكي مزودة بتواريخ توليهم السلطة وانتهاء عهدهم بها سواء بالوفاة أو العزل أو غيرهما ، وكذلك قوائم للباشوات ، وبعض تفاصيل عن الموظفين السودانيين الذين ورد ذكرهم في تاريخ السودان . ولكن بدا له أنه من الأفضل الانتظار لحين انتهائه من تحقيق وترجمة تذكرة النسيان ، الذي يعد تكملة لـ تاريخ السودان ، وبخاصة أن تذكرة النسيان لم يتأخر صدوره كثيرا ، فقد صدر في عام ١٩٠١ ، أي بعد صدور تاريخ السودان بثلاث سنوات . وقد جاء تذكرة النسيان مزودا بالفعل بهذه القوائم . هذا ويبدأ تاريخ السودان بفقرات أوردها النص الفرنسي تحت عنوان « التسبيحة » .

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم الحمد لله المنفرد بالملك والبقاء والقدرة والثناء المحيط بعلمه ... » (ص ١ -)

وعلى الصفحة نفسها بداية فقرات أخرى وردت بالنص الفرنسي تحت عنوان « مقدمة » :

« فقد أدركنا أسلافنا المتقدمين أكثر ما يتوانسون به في مجالسهم ذكر الصحابة والصالحين رضى الله عنهم ورحمهم ثم ذكر أشياخ بلادهم وملوكها وسيرها وقصصهم وأبنائهم وأيامهم ووفياتهم .. حتى انقرض ذلك الجليل ومضى رحمة الله تعالى عليهم أما الجيل الثاني ما كان فيهم من له الاعتناء بذلك ..

« ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه وذهاب ديناره وفلوسه وأنه كبير الفوائد كثير الفرائد لما فيه معرفة المرء بأخبار وطنه وأسلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم فاستعنت بالله سبحانه فى كتب ماروبت من ذكر ملوك السودان أهل سغى (السنغى)(١٢) وقصصهم وإخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوا فيها وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية سلطان مدينة حمراء مراكشي فأقول وبالله تعالى أستعين وهو حسبي ونعم الوكيل » (ص ١ ، ٢) .

ثم يجىء الباب الأول ، وعنوانه « ذكر ملوك سغى » (وهذا العنوان هو بداية الباب الأول فى النص العربى) .

« أول من تملك فيها من الملوك زا الأيمن ثم زازاكى ثم زانكى ثم ... ثم زاكنكن هؤلاء أربعة عشر ملوكا ماتوا جميعاً فى جاهلية ... والذى أسلم منهم زاكسى يقال فى كلامهم مسلم دم معناه أسلم طوعا بلا إكراه رحمه الله تعالى وذلك فى سنة أربعمائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ثم زاكى داربى ثم ... ثم سن الأول على كلن ... ثم السلطان بعده وليه أخوه سلمن نار ... ثم سن على ثم سن بار اسمه بكرداع ثم بعده اسكيا الحاج محمد » (ص ٣ ، ٤) .

ويجىء الباب الثانى ، وعنوانه « ذكر أول سن وهو على كلن » :

« وأما سن الأول على كلن فكان من قصته أنه سكن فى الخدمة عند سلطان ملى (مالى) هو وأخوه سلمن نار ... فعلى كلن يغيب فى بعض الأحيان لطلب النفعة على سبيل العادة ثم يرجع وهو لبيب عاقل فطن كيس جدا وبقى يزيد فى النبية حتى

(١٢) العبارات الموجودة بين قوسين، وسط الفقرات المأخوذه عن تاريخ السودان من عندى ـ كاتب المقال .

قارب سغى وعرف طرقاتها فأضمر الخلاف والهروب إلى بلده ... ثم فطّن أخاه واطلعه على سره ... فخرجا وتوجها لسغى ... حتى وصلا بلدهما فكان متى كان سلطانا على أهل سغى وتسمى بسن وقطع حبل الملك عن أهله من سلطان ملى وبعد مامات تولى أخوه سلمن نارو لم يجاوز ملكهم سغى واحوازها فقط إلا الظالم الأكبر الخارجى سن على فزاد على جميع من مضى قبلهم فى القوة وكثرة الجند فعمل الغزوات وطوع البلاد وبلغ ذكره شرقا وغربا ... وهو آخر ملكهم إلا ابنه أبو بكر داع تولى بعد موته فمن قليل نزع الملك منه اسكيا الحاج محمد » (ص ٤ ، ٦) .

ويلى ذلك الباب الثالث ، وعنوانه « استيلاء كنكن موسى على مملكة سغى » :

« تنبيه » سلطان كنكن هو أول من ملك سغى من سلاطين ملى وهو صالح عادل لم يكن فيهم مثله فى الصلاح والعدل قد حج بيت الله الحرام وكان مشيه والله أعلم فى أوائل القرن الثامن عشر فى قوة عظيمة ... (ص ٧) .

أما الباب الرابع فعنوانه « ذكر مملكة ملى » :

« أما ملى فإقليم كبير واسع جداً فى المغرب الأقصى إلى جهة البحر المحيط وقيمغ (Qaiamagha) هو الذى بدأ السلطنة فى تلك الجهة ودار إمارته غانة وهى مدينة عظيمة فى أرض باغن قيل إن سلطنتهم كانت قبل البعثة (الهجرة) فتملك حينئذ اثنان وعشرون ملكا وعدد ماوكهم أربعة وأربعون ملكا وهم بيضان فى الأصل ولكن مانعلم من ينتمى إليه فى الأصل وخدامهم عكريون (من الونجارا) فلما انقرضت دولتهم خلفها فى السلطنة أهل ملى وهم سودان فى الأصل فوسعت سلطنتهم كثيراً جداً فملكوا إلى حد أرض جنى » (ص ٩) .

ويليه الباب الخامس ، وعنوانه « ذكر جنى ونبذة من أخبارها » (وهو بداية هذا الباب فى النص العربى) :

« ... وهى مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة جعل الله ذلك فى أرضها خلقا وجبلة وطبيعة أهلها التراحم والتعاطف والمساواة ولكن المنافسة على الدنيا كانت من أخلاقهم جدا ... وهى سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقى أرباب الملح من معدن تغاز (تغازة) وأرباب الذهب من معدن بيط (Bitou) وهى اسم إقليم بوكوكو Boukoukou الشهير بذهبه ، وكلا المعدنين المباركين ما كانت مثلهما فى الدنيا كلها ... (ص ١١ ، ١٢) .

ويجىء حديث السعدى عن جنى فى هذه الفقرة وغيرها عن حسد بالغ وذلك لأن شهرتها جاوزت شهرة تمبكتو التى كان السعدى ينزلها فى نفسه منزلة عالية ، ولأنها نافستها فى التجارة والثقافة .

وعنوان الباب السادس هو « ذكر العلماء والصالحين والقضاة الذين سكنوا مدينة جنى » :

« وقد ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة سكانا من العلماء الصالحين من غير أهله من قبائل شتى وبلاد شتى منهم مورمغ كنكى (Mourimagha - kankoi) أصله تاى (Taio) ... فرحل إلى كابر لأخذ العلم ثم رحل إلى جنى فى أواسط القرن التاسع ... » (ص ١٦) .

ويجىء الباب السابع ، وعنوانه « ذكر تنبكت ونشأتها » (وهو بداية الباب فى النص العربى) :

« فنشأت على أيدى توارق (الطوارق) مغشرن فى أواخر القرن الخامس من الهجرة ... ثم اختاروا موضع هذه البلدة الطيبة الطاهرة الزكية ذات بركة ونجمة وحركة التى هى مسقط رأسى ، وبغية نفسى ، ما دنستها عبادة الأوثان ، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان ، مأوى العلماء والعابدين ، ومألف الأولياء والزاهدين ، مدعوة تنبكت فى لغاتهم العجمية (معناها العقدة فى الخشبة أو فى عروق الجسم ،

وقد جاء بحاشية فى المخطوط A أنها ترد هنا بمعنى العجوز) . . . وكان التسوق فى بلد بير (Biro أى ولاتة ، أو إيوالاتن كما ذكرها ابن بطوطة) وإليه يرد الرفاق من الافاق وسكن فيه الاختيار من العلماء والصالحين وذوى الأموال من كل قبيلة ومن كل بلاد من أهل مصر ووجل (أوجلة Audjela جنوبى بنغازى) وفزان وغدامس وتوات ودرعة وتفلالة وفاس وبيط إلى غير ذلك ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلا قليلا حتى استكملوا فيه وزيادة من جميع قبائل الصنهاجة بأجناسها فكانت عمارة تنبكت خراب بيرُ » (ص ٢٠ ، ٢١) .

وعنوان الباب الثامن « تعريف التوارق » ، (وهو بداية هذا البــاب فى النص العربى) :

« ... هم السوفة ينتسبون إلى صنهاجة وصنهاجة يرفعون أنسابهم إلى حمير كما فى كتاب الحلل الوشية في ذكر أخبار المراكشية ... وهم ظواعن فى الصحراء رحالة لا يطمئن بهم منزل ليس لهم مدينة يأوون إليهــا ومراحلهم فى الصحراء مسيرة شهرين مابين بلاد السودان وبلاد الإسلام وهم على دين الإسلام وأتباع السنة وهم يجاهدون السودان وصنهاجة ...» (ص ٢٥) .

ثم تتتابع الأبواب بعد ذلك : الباب التاسع (ص ٢٧ وما بعدها) ، وعنوانه : « ذكر بعض العلماء والصالحين الذين سكنوا مدينة تنبكت » ؛ الباب العاشر (ص ٣٧ — ٥٦) ، وعنوانه « نبذة من كتاب الذيل لأحمد بابا » :

«وفى كتاب الذيل للعلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله قال أحمد بن عمر بن محمد اقيت بن عمر بن على بن يحي بن كدالة الصنهاجى التنبكتي جدى والدالوالد يعرف بالحاج أحمد أكبر الأخوة الثلاثة ...» (ص ٣٧) .

ثم الباب الحــادى عشر (ص ٥٦ — ٦٣) ، وعنوانه « ذكر ايمة المسجد الجامع ومسجد سنكرى » .

ويتناول الباب الثانى عشر (٦٤ — ٧١) « ذكر الظالم الأكبر سن على » ، ويبدأ بالعبارة التالية :

« أما الظالم الأكبر والفاجر الأشهر سن على برفع السين المهملة وكسر النون المشددة كذا وجدته مضبوطاً فى ذيل الديباج للعلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله تعالى فإنه كان ذا قوة عظيمة ومتنة جسيمة ظالماً فاسقاً متعدياً متسلطاً سفاكاً للدماء قتل من الخلق ما لا يحصيه إلا الله وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال ... » (ص ٦٤) .

ومن بعده الأبواب الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والعشرون (ص ٧١ — ١٣٦) ، وتتناول على الترتيب : « ذكر أمير المؤمنين اسكيا الحاج محمد بن أبى بكر » ، « ذكر اسكيا موسى واسكيا محمد بنكن » ، « ذكر اسكيا اسماعيل ابن اسكيا الحاج محمد » ، « ذكر اسحاق ابن اسكيا الحاج محمد » ، « ذكر اسكياداوود وغزواته » ، « ذكر اسكيا الحاج بن اسكيا داوود » ، « ذكر محمد بان ابن اسكيا داوود » ، « ذكر اسكيا اسحاق بن اسكيا داوود » .

وفى الباب الواحد والعشرين (ص ١٣٧ - ١٤٩) يتناول السعدى بداية أحداث الحملة المراكشية ، وعنوانه « ذكر مجىء الباشاجودر إلى بلاد السودان » .

وفى الباب الثانى والعشرين (١٤٩ - ١٦٢) ، وعنوانه « ذكر أسر الاسكيا محمد كاغ » ، يتناول إلى جانب تاريخ اسكيا محمد كاغ تاريخ اسكيا محمد نوح وفتنة جنى .

ويفرد السعدى الباب الثالث والعشرين (ص ١٦٤ — ١٦٧) وعنوانه « ذكر حروب الباشا محمود بن زرقون » ، لتاريخ حكام جنى ومهاجمة الطوارق

لتمبكتو ، أما الباب الرابع والعشرين (١٦٨ - ١٨١) فيتناول فيه المحاربة مع اسكيا نوح ووفاة الباشا محمود بن زرقون والحملة على ماسنة، وعنوانه « ذكر الباشا محمد طابع » . والباب الخامس والعشرين (١٨١ -١٨٢) عنوانه « ذكر الباشا عمار» ، ويتحدث إلى جانب ذلك عن محاربته لماسنة . وفى الباب السادس والعشرين (١٨٤ - ١٨٩) يؤرخ لسلاطين ماسنة ، وعنوانه « ذكر بلاد ماسنة » ، ثم يخصص الباب السابع والعشرين (١٨٩ - ٢٠١) « لذكر الباشا سليمن والباشا محمود لنك » .

وفى الباب الثامن والعشرين (ص ٢٠٢ - ٢٠٨) يتناول « ذكر آفات وعن فى مدينة مراكش » ، ويرد بهذا الباب لأول مرة ذكر كتاب الخبر الذى أشرنا إليه فيما سبق : « وقد تقدم أن دخول الفقهاء أولاد سيد محمود فى مدينة حمراء مراكش هو فتح أبواب البلاء لها وذكر فى الخبر أنهم أدركو فيها اسارى النصارى يستخدمون يدخلون ويخرجون ... (ص ٢٠٢)

ويقدم لنا السعدى فى الباب التاسع والعشرين ص (٢٠٩ - ٢١٠) « نبذة فى تاريخ الملوك السعدية » ، وفيه يتحدث عن « أمر مولانا زيدان سلطان مراكش مع السورى » . وفى الباب الثلاثين (ص ٢١٠ - ٢١٩) يتحدث السعدى عن مولدة ، وقد أوردت فيما سبق اقتباسا بهذا الصدد ، وعنوان هذا الباب « ذكر الوفيات والتواريخ لبعض الأجناد والفقهاء والإخوان من مجىء الباشا جودر إلى عام ١٠٢١ » (١٥٩١ - ١٦١٣ م).

وفى الباب الواحد والثلاثين (ص ٢٢٠ - ٢٣٠) يورد السعدى تحت عنوان « ذكر الباشوات من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٠٣٩ » (١٦١٣ - ١٦٢٩ م) نبذا عن الباشوات والقادة على بن عبد الله التلمسانى ، وأحمد بن يوسف الملجى ،

وحد بن يوسف الأجناسى ، وحم ابن على الدرعى ، ويوسف بن عمر القصرى ، وابراهيم بن عبد الكريم الجرارى ، وعلى بن عبد القادر .

وفى الباب الثانى والثلاثين (ص ٢٢٩ - ٢٣٢) يحدثنا السعدى عن رحلة الوساطة التى قام بها إلى ماسنة ، والتى أشرنا إليها فيما سبق ، وعنوانه « سياحة مؤلف الكتاب فى بلاد ماسنة » . وفى الباب الثالث والثلاثين (ص ٢٣٢ - ٢٣٧) يرد « ذكر الباشوات من عام ١٠٣٩ إلى عام ١٠٤٢ » (١٦٢٩ - ١٦٣١) ، ويحدثنا عن الباشا على بن عبد القادر وحروبه ضد كاع ووفاته .

وفى الباب الرابع والثلاثين (ص ٢٣٧ - ٢٤٧) يجىء « ذكر الوفيات والتواريخ من عام ١٠٢١ إلى عام ١٠٤٢ » (١٦١٢ - ١٦٣٢) . وفى الباب الخامس والثلاثين (ص ٢٤٧ - ٢٩٣) يجىء « ذكر الباشوات من عام ١٠٤٢ إلى ١٠٦٣ » (١٦٣٢ - ١٦٥٢ م) ، ويحدثنا السعدى عن الحملة على ماسنة . وفى الباب السادس والثلاثين (ص ٢٩٤ - ٣٠٣) يورد السعدى « ذكر الوفيات والتواريخ من عام ١٠٤٢ إلى عام ١٠٦٣ » (١٦٣٢ - ١٦٥٣ م) .

ونجد فى الباب السابع والثلاثين (ص ٣٠٣ - ٣١٤) « ذكر من تولى أمور البلاد من السودانيين من مجىء الباشا جودر إلى عام ١٠٦٣ » (١٥٩١ - ١٦٥٣م) . ويختتم السعدى تاريخ السودان بالباب الثامن والثلاثين (ص ٣١٥ - ٣٢٣) الذى أضافه فى عام ١٠٦٥ هـ (١٦٥٥م) بعد انقطاع قارب الثلاث سنوات ، وبذا تنتهى أحداث الكتاب عند تاريخ ١٦ جمادى الأولى ١٠٦٥ (١٢ مارس ١٦٥٥) ، كما أوضحنا فيما سبق ، وعنوان هذا الباب الأخير « تاريخ السودان من عام ١٠٦٣ إلى عام ١٠٦٥ » .

المراجع

١ — دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة العربية القديمة ، مادتا السعدى وسنناى .

٢ — تاريخ السودان ، وترجمته الفرنسية ، ومقدمة الترجمة الفرنسية .

٣ — محمود كعب ، تاريخ الفتاس فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس .

٤ — الحاج سعيد وآخر ، تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان .

٥ — ك . مادهوبانيكار ، The Serpent and the Crescent, A History of the Negro Empires of Western Africa ، دار آسيا للنشر ، بومباى ، كلكتا ، نيودلهى ، مدراس ، لندن ، نيويورك ، ١٩٦٣ .

٦ — الدكتور عبد الرحمن زكى ، المراجع العربية للتاريخ الإسلامى فى غرب أفريقيا ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مستخرج من المحاضرات العامة — الموسم الثقافى ٦٧ / ١٩٦٧ .

٧ — الدكتور عبد الرحمن زكى ، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية ، الألف كتاب ، رقم ٣٨٤ ، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ، ١٩٦١ .

٨ — الدكتور حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة فى أفريقية ، الجزء الأول ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ .

٩ ـــ ا. و بوڤل ، الممالك الإسلامية فى غرب أفريقيا وأثرها فى تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى The Golden) Trade of the Moors ، ترجمة الدكتور زاهر رياض ، مكتبه الأنجلو المصرية ، ١٩٦٨ .

١٠ ـــ ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، المطبعة الأزهرية بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨ م) .

١١ ـــ برهان الدين ابراهيم بن على بن محمد بن فرحون التعمرى ، الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ، وبهامشه نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، للعالم أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت عرف ببابا التنبكى ، الناشر عباس بن عبد السلام بن شقرون ، بالفحامين بمصر ، الطبعة الأولى ـــ سنة ١٣٥١ هـ .

تجارة الرقيق وآثرها على استعمار غرب أفريقية

بقلم الدكتور سعد زغلول عبد ربه
مدرس بمعهد الدراسات الإفريقية ـ جامعة القاهرة

وصل البرتغاليون إلى مصب نهر السنغال(١) والرأس الأخضر، وتوغلوا خلف صحراء غينيا، ولإثبات وصولهم إلى المنطقة التي لا تخضع لسيطرة للسلمين أسروا عدداً من زنوج المنطقة، وبعثوا بهم إلى البرتغال لتعلم الديانة المسيحية، وليكونوا رسلا لنشرها بعد عودتهم إلى بلادهم. ولما كان زنوج المنطقة يتميزون بقوتهم الجسمانية فقد رأى بعض التجار البرتغاليين إمكان الاستفادة بهم فى زراعة الأراضى البرتغالية بعد بيعهم رقيقاً. وبدءوا فى تنفيذ هدفهم. وبذلك ظهرت أولى النتائج التجارية لحملات الكشوف الجغرافية البرتغالية، وهى استغلال سكان المنطقة، وتحويلهم إلى رقيق يباع ويشترى لسد النقص فى الأيدى العاملة البرتغالية. وترتب على ذلك ازدياد الرحلات البحرية البرتغالية بهدف الحصول على الرقيق الزنجى، والاستفادة منه مادياً.

بدأت تجارة الرقيق بين غرب إفريقية والبرتغال فى سنة ١٤٤٢ عندما نقل أنتام جونز الفز Antam gonçalves أول شحنة منه إلى لشبونة، وكانت مكونة من عشرة أفراد. وكانت تلك الشحنة هى بداية تدفق مستمر من الرقيق الأفريقى إلى البرتغال استمر قرنين من الزمان. وارتفع ذلك العدد إلى ٢٣٥ فردا فى سنة ١٤٤٤، ثم ازداد باكتشاف الرأس الأخضر فى سنة ١٤٤٥. وكانت الوكالة البرتغالية فى أرجيوم هى المركز الرئيسى لتجارة الرقيق على ساحل غرب إفريقية، وكان مركز الثقل يتحرك جنوباً كلما وجدت الفرصة المناسبة. وبمرور

(١) وصل البرتغاليون إلى السنغال فى سنة ١٤٤٤.

الزمن أصبحت منطقة غامبيا مركزا لغارات الحصول على الرقيق ، وشملت في النهاية كل ساحل بنين . ومن المحتمل أن تجارة الرقيق فى منطقة غامبيا العليا بدأت فى سنة ١٤٨٦ عندما بنى البرتغاليون وكالة فى جاتو Gato . وقد وصل الآلاف من الرقيق إلى ساحل مملكة أنجولا ، وخاصة مدينة لواندا خلال القرن السادس عشر ، وأصبحت مستعمرة أنجولا من أهم مراكز تزويد البرازيل بالرقيق الأفريقى ، كما أصبحت جزيرة ساوتومى مركزا لتجارة الرقيق فى خليج غنيا . وكان الرقيق ينقل إلى جزيرة ساوتومى من بنين وغيرها من الأماكن الواقعة على الساحل بين بنين ورأس القديسة كاترين . وكان أغلب ذلك الرقيق يشحن إلى البرتغال أو إلى برنامبوكو Pernambaco فى البرازيل . ولهذا أسس البرتغاليون عددا من أسواق الرقيق حول سواحل خليج غنيا فى سنة ١٦٠٢ (٢)

وقد ارتفع سعر الرقيق الوارد من غرب أفريقية بعد أعوام قليلة من بدء التجارة ، فبعد أن كان من فى الإمكان فى سنة ١٤٥٥ شراء ثمانية عشر فردا من الرقيق فى نظير حصان واحد بالقرب السنغال ارتفع السعر وأصبحت قيمة الحصان الواحد تعادل نحو إثنى عشر فردا من الرقيق فى سنة ١٥٠٠ تقريباً . وأصبحت قيمة الحصان الواحد فى سنة ١٥٠٥ تعادل قيمة ستة أفراد من الرقيق فى دوالا Duala وفى نفس الوقت قلت تجارة الرقيق ، وهجرت على بعد أميال جنوبى الرأس الأخضر، وهذا يدل على أن تجارة الرقيق الأفريقى قل الطلب عليها فى أواخر القرن الخامس عشر . وقد ذكر المؤرخ البرتغالى كادامستو Cadamosto أن عدد الرقيق الذى

---

(2) Blake, J.W. : European Beginnings in West Africa pp. 276-277, goodell, W. : Slavery and anti Slavery, p. 4, Edward, J: History of West Indias, vol. II, p. 37.

وصل إلى البرتغال فى ذلك الوقت كان يتراوح بين سبعمائة وثمانمائة فرد فى العام . ودلت الأبحاث التى قام بها لوكشيو دى أزافيدو Lucio de Azavedo على أن التاج البرتغالى كان يجلب ٤٤٨ عبدا فى المدة ما بين سنتى ١٤٨٦ و ١٤٩٣ ، وأن متوسط عدد الرقيق المستورد فى المدة مابين سنتى ١٥١١ و ١٥١٣ بلغ ٥٠٠ عبد سنويا (١) ، وهذا يدل على انخفاض عدد الرقيق المصدر من غرب أفريقية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر .

وباكتشاف أمريكا ظهرت الحاجة الملحة للأيدى العاملة الرخيصة بعد أن ثبت أن مقدرة الهنود الأمريكيين غير كافية لمواجهة العمل المستمر المجهد فى المزارع والمناجم . وقد ذكر الأب أنطونيو فيرا A. Viera وهو من الطائفة اليسوعية أن أكثر من مليونين من هنود أمريكا قد لقوا حتفهم فى أواخر القرن السادس عشر فى أعمال السخرة على أيدى الأسبان لضعف أجسامهم ومعاملتهم بقسوة . وعارض اليسوعيون تشغيل هنود أمريكا فى أعمال السخرة ، وأيدهم فى ذلك جمعية يسوع التى كان يؤيدها فى ذلك الوقت ملك أسبانيا والبرتغال ، ومن ثم اتجه الأسبان نحو غرب إفريقية للحصول على الرقيق اللازم للعمل فى أمريكا لما يتمتع به زنوج إفريقية من قدرة على العمل فى المناطق الاستوائية المنخفضة بعد سماح فرديناند الخامس ملك أسبانيا فى سنة ١٥١١ بجلب الرقيق الأفريقى إلى المستعمرات الأسبانية . وتوقفت عمليات نقل الرقيق إلى المستعمرات الأسبانية فى عهد الكردينال زيمنز Ximenes ثم استأنفت نشاطها مرة أخرى فى سنة ١٥١٧ عندما منح شارل الخامس ملك ألمانيا والأراضى المنخفضة بعض نبلاء الفلاندر امتياز نقل ٤٠٠٠ فرد من الرقيق الأفريقى سنويا إلى هسبنيولا وجاميكا وكوبا وبورتوريكو لسد حاجة تلك المستعمرات من الأيدى العاملة (٢) . ولما كان الأسبان ممنوعين من

---

(1) Blake, J. W. : Op. cit' pp. 277 – 278.

(2) Goodell, W. : op. cit. pp. 4 – 5, Boxer, C. R. : Salvador de Sa and the Struggle . . . , p. 281.

الذهاب إلى غرب إفريقية للحصول على الرقيق بموجب المرسوم البابوى الصادر فى سنة ١٤٩٣ الذى منح البرتغاليون حق احتكار تجارة غرب إفريقية فقد اضطروا إلى طلبه من البرتغاليين . وكان الرقيق الإفريقى مطلوبا كذلك للعمل فى التعدين فى منطقة بوتوسى Potosi على مرتفعات بيرو(١) .

ونظرا للامكانيات الإقتصادية الكبيرة فى مجالات الزراعة والتعدين الموجودة فى العالم الجديد، وما تحتاج إليه تلك المجالات من أيدى عاملة غير متوفرة بين سكان البلاد الأصليين أو بين الوافدين من الأوربيين ، وكانت جزر الهند الغربية شبه خالية من السكان عندما استولى عليها الأسبان فقد أصبح رقيق غرب إفريقية السلعة الأولى المرغوب تصديرها إلى العالم الجديد . وتولى البرتغاليون وهم فى أوج عظمتهم البحرية عملية تزويد الأسبان بحاجتهم من الأيدى العاملة من رقيق غرب إفريقية الذى كان ينقل إلى لشبونة ومنها إلى العالم الجديد . وبذلك أحتلت لشبونة المركز الأول بين دول العالم المشتغلة بتجارة الرقيق قبل نقله مباشرة من إفريقية إلى العالم الجديد عبر الأطلنطى . وبظهور مزارع قصب السكر فى جزر الهند الغربية وما نتج عنهـا من أرباح كثيرة فى سنوات قليلة أصبح أمتلاك المستعمرات الهـدف الأول لـكل من حكومتى فرنسا وانجلترا . ولما كان العمل فى تلك المزارع يعتمد كلية على الرقيق الإفريقى فقد رأت الدولتان ضرورة اعتمادهما على نفسيهما فى تزويد مستعمراتهما بالرقيق الإفريقى بدلا من الاعتماد على الهولنديين الذين حلوا محل البرتغاليين فى مناطق ساحل إفريقية الغربى(٢).

(1) Burns, A. S. : History of Nigeria, P. 65.

(2) Kup, A.p. : AHistory of Sierra Leone, p. 37, Fitzgerald, W. : Africa, p. 83.

كان التجار البرتغاليون المشتغلون بتجارة الرقيق فى غرب إفريقية على إستعداد لفتح سوق جديدة ، واستغلال تجارة الرقيق فى أمريكا لقلة الحاجة إليه فى البرتغال وعلى هذا فقد بدأت تجارة الرقيق عبر الأطلنطى فى سنة ١٥٣٠ ، واشترك الأوربيون فى نقله لبيعه فى الأسواق الأمريكية للعمل فى المزارع الجديدة التى إنشئت هناك . وأصبحت تلك التجارة مغرية بعد سنة ١٦٥٠ لازدياد الحاجة إلى الأيدى العاملة .

وكان لتلك التجارة أثرها المدمر على الحياة العامة فى غرب إفريقية . وقد تم فى لشبونة فى سنة ١٥١٠ شراء أول مجموعة من الرقيق لتصديرها إلى جزر الهند الغربية، وبدأ نظام الحصول على تصاريح لتصدير الرقيق إلى جزر الهند الغربية فى سنة ١٥١٣ . وفرض التاج البرتغالى ضريبة على حمولة السفن الرخص لها بحمل الرقيق إلى البرتغال . وكان العائد من تجارة الرقيق يدخل خزانة التاج البرتغالى ويعتبر من أهم موارد البلاد. ونظرا لمحاولة بعض سكان جزيرة سانتياجو وبعض التجار الأوربيين المتاجرة فى الرقيق ، والحصول على الأرباح الناتجة لأنفسهم ، وبالتالى هبوط سعر الرقيق ، ونقص دخل التاج ، فقد أصدرت الحكومة البرتغالية فى ١٥ مارس سنة ١٥١٨ قراراً لتنظيم سعر بيع الرقيق ، ومنع وصول التجار الأوربيين إلى الأراضى الداخلية وراء ساحل غنيا للحصول عليه. وصدر عفو ملكى عن هؤلاء التجار بشرط تسليم نصف ما لديهم من الرقيق فورا(١) .

وقد ارتفع عدد الرقيق المصدر من غرب إفريقية بعد فتح الأسواق الأمريكية، وبلغ ما صدر منه سنويا إلى البرتغال وأسبانيا ٧٠٠ فرد فى المدة بين سنتى ١٥١٣ و ١٥١٦ . وبازدياد أهمية الرقيق لأمريكا فى منتصف القرن السادس عشر أصبح ينقل مباشرة من جزيرة ساوتومى إلى جزر الأنتيل . وللأهمية المتزايدة لتجارة الرقيق بالنسبة للحكومة البرتغالية فقد ضمنت عقد الامتياز الذى حصل عليه جوميس رجنال

---

(1) Blake, J. W. : op. cit. p. 278.

G. Regnal فسا يفرض عليه تصدير ٤٥٠٠ عبد سنويا إلى العالم الجديد لمدة تسع سنوات . وكان العدد الأكبر من الرقيق يأتى من الكنغو وأنجولا ، وهذا يبين لنا كيف أمتدت تجارة الرقيق وراء غنيا ، وأصبحت التجارة فيه من أهم أنواع التجارة فى غنيا . وأثبتت التجارة إمكان الاعتماد عليها كمصدر من مصادر الدخل أكثر من تجارة الذهب والفلفل الأسود ، وتمثل مصدرا من أعظم مصادر التاج البرتغالى لتستفيد منها مدة قرنين من الزمان(١) .

بدأ الإنجليز الاشتراك فعليا فى تجارة الرقيق الإفريقى فى سنة ١٥٦٢ فى عهد الملكة اليزابيث عندما كون جون هوكنز J. Hawkins فى لندن شركة للاتجار مع منطقة غرب إفريقية ، ونقل بعض سكان المنطقة إلى العالم الجديد . وساهمت الملكة فى تلك الشركة ، وجهزت بالاشتراك مع هاوكنز سفينة تجارية أتجهت إلى منطقة غرب إفريقية . وقد طلبت الملكة أن يتم نقل الإفريقيين إلى المستعمرات البريطانية فى أمريكا بناء على رغبتهم ، ووعد هوكنز بتنفيذ رغبة الملكة ، ولكنه نكث وعده بمجرد وصوله إلى ساحل غرب إفريقية ، وقرر تحويل الوطنين الذين يوقعهم سوء الحظ بين يديه إلى رقيق . وقبض هوكنز على ثلثمائة زنجى وحملهم معه إلى أمريكا . ولما علمت الملكة بنكث هوكنز لوعده أبدت أسفها لأنها لم تحط من قبل علما بالهدف من نقل الإفريقيين إلى أمريكا ، ولم يكن ذلك الأسف بسبب الحالة الجديدة التى أصبح فيها الإفريقيون بعد تحويلهم إلى رقيق ، ولم تكن حالة الرقيق تهمها فى شىء ، واستقبلت هوكنز عند عودته بترحاب ، بل واشتركت معه فى سنة ١٥٦٤ فى تجهيز حملة أخرى لجلب الرقيق من غرب إفريقية(٢) .

ويتوقع معاهدة الأزبانتو Asianto فى القرن السابع عشر حصل الفرنسيون

---

(1) Blake, J . W. : op. cit. P. 276.

(2) goodell, W. : op. cit. P. 6, Edward, J. : op. cit. vol. II, pp. 43 - 44, Kup, A.P. : op. cii· p. 40.

والإنجليز على امتياز تجارة الرقيق ، وأصبح من حق فرنسا الحصول على ١٣ ليرة(١) عن كل عبد ينقل إلى المستعمرات الفرنسية . وفى معاهدة أو ترخت سنة ١٧١٣ تعهدت الحكومة البريطانية بجلب ١٤٤٠٠٠ عبد إلى جزر الهند الغربية عن طريقها مباشرة أو بواسطة من تعهد إليه بذلك العمل من رعاياها فى خلال ثلاثين عاماً دولار عن كل فرد بحيث لا يزيد عدد من تفرض عليهم الضريبة عن أربعة آلاف شخص. ونصت المعاهدة على حق الوقعين على معاهدة الازيانتوفى نقل عدد أكبر من العدد الورد فى المعاهدة فى نظير الحصول على ضريبة قدرها بمعدل ٤٨٠٠ فرد سنويا ، وأن تحصل على ضريبة قدرها ٣٣ ١/٣ دولا عن كل فرد بحيث لايزيد عدد من تفرض عليهم الضريبة عن أربعة آلاف شخص ونصت المعاهدة على حق للوقعين على معاهدة الازيانتو فى نقل عدد أكبر من العدد المورد فى المعاهدة فى نظير الحصول على ضريبة قدرها ١٦ ٢/٣ دولارا للرأس . ونظرا للارباح الكبيرة التى كانت تدرها تجارة الرقيق فقد قرر فيليب الخامس ملك اسبانيا الاستيلاء على ١/٤ الرقيق المجلوب ، ودفع قيمته بأوراق نقدية ، كما احتفظت ملكة انجلترا لنفسها بربع آخر قسمته بين بعض خاصتها ، وتم توزيع الباقى على رعاياها . وأصبح ملوك اسبانيا وانجلترا من أكبر تجار الرقيق فى العالم (٢) . وشهد القرن السابع عشر تنافسا شديدا بين الشعوب الأوربية على تجارة الرقيق ، وبدأت تلك الشعوب فى تكوين الشركات لنقل الرقيق ، والتجارة مع العالم الجديد ، فتكونت فى سنة ١٦٢١ شركة جزر الهند الغربية الهولندية للاتجار بين إفريقية وأمريكا ، وكون الفرنسيون فى سنة ١٦٢٣ شركة السنغال ، وتم فى سنة ١٦٦٤ بناء على أوامر كولبير وزير مالية فرنسا إدماج شركة جزر الهند الغربية مع شركة جزر الهند الشرقية لتحقيق أكبر قدر من الأرباح . ولم تتوان انجلترا عن المساهمة فى ذلك المضمار فكونت فى سنة ١٦١٨ شركة المغامرين

١ — الليرة عملة ايطالية تساوى فرنكا فرنسيا

(2) Harris. J. H.: Slavery or Sacred Truth, pp. 10_11, Burns, A. S.: op· cit. p. 68.

التجارة مع غنيا وبنين ، واستمرت تلك الشركة تمارس نشاطها حتى سنة ١٦٦٠ (١) .

وقد أنشأت شركة المغامرين قلعة جيمس على جزيرة صغيرة فى نهر غامبيا ، وتألفت فى سنة ١٦٣١ شركة أخرى قامت بإنشاء ميناء كورمانتين على ساحل الذهب. ونشطت حركة إنشاء القلاع والموانى البريطانية على ساحل الذهب لتسهيل عملية نقل الرقيق إلى العالم الجديد عبر الأطلنطى . وباستيلاء الهولنديين على قلعة المينا من البرتغاليين فى سنة ١٦٣٧ أصبحوا منافسين خطرين للبرتغاليين فى تجارة الرقيق ، كما بدءوا فى منافسة الانجليز . وعلى الرغم من استيلاء الهولنديين على كافة موانى ساحل الذهب ، وبنائهم الموانى الجديدة اللازمة لخدمة تجارة الرقيق فان النفوذ البريطانى إزداد فى المنطقة زيادة كبيرة بعد امتلاك البريطانيين لكثير من المستعمرات فى العالم الجديد (٢) .

ونظرا للارباح الكثيرة الناتجة عن تجارة الرقيق فقد اتجه كثير من الأوربيين المغامرين إلى غرب إفريقية للاشتراك فى عملية جلبه. وحاولت الدول الأوربية إيجاد نقط ارتكاز لها على الساحل لحماية رعاياها من اعتداء الوطنيين أو الأوربيين المنافسين من الجنسيات الأخرى مما أدى إلى حدوث تغيير مستمر فى ملكية الموانى والمراكز التجارية فى المنطقة . واشترك فى تلك المنافسة البرتغاليون والفرنسيون والبريطانيون والهولنديون والألمان والدانمركيون وغيرهم من الجنسيات الأوروبية . وسادت

---

(1) Kup, A. P. : op. cit. pp. 37 – 38, Burns, A. S.: op. cit. p. 65, goodell, W : op. cit.p. 5.
(2) Oliver, R. & Fage, J. D : Ashort History of Africa, p. 120, Burns, A. S. : op cit. 65.

الفوضى المنطقة ، ولم يكن هناك أى قانون سوى قانون القوة التى يستطيع من يمتلكها التوغل فى الأراضى الداخلية والسيطرة على من هم أقل منه قوة (١) .

وبازدياد حاجة أوربا إلى منتجات العالم الجديد من السكر والقطن والدخان وغيرها إزدادت الحاجة فى العالم الجديد للأيدى العاملة الرخيصة فى وقت لم تكن قد ظهرت فيه الثورة الصناعية أو عرفت فيه فائدة استخدام الآلات . ولذلك ركز الاوربيون نشاطهم فى جلب رقيق غرب إفريقية عبر الأطلنطى. وبرز دور الهولنديين فى تلك التجارة ، وكادت تصبح المحتكر الوحيد لها مما أثار حقد الانجليز والفرنسيين الذين حاولوا من جانبهم الا يستأثر بها الهولنديون لأنفسهم ، وجاهدوا حتى انتقلت إليهم السيطرة عليها فى القرن الثامن عشر . واستطاعت بريطانيا بمفردها تصدير ٢١٣٠٠٠٠ فرد من رقيق غرب إفريقية إلى العالم الجديد فى المدة من سنة ١٦٨٠ إلى سنة ١٧٨٦ ، واستخدمت فى ذلك ١٩٢ سفينة كانت تنقل فى الرحلة الواحدة ٤٧١٤٦ عبدا . كما نقلت السفن البريطانية بعد توقيع معاهدة أوترخت أكثر من نصف عدد الرقيق المصدر من غرب إفريقية إذ نقلت ٣٨٠٠٠ عبداً فى سنة ١٧٧٠ من جملة عدد الرقيق المصدر والبالغ عدده ٧٤٠٠٠ فرد (٢) . ونشطت تجارة الرقيق عبر الأطلنطى التى عرفت باسم التجارة الثلاثة التى كانت تهدف أساسا إلى استغلال منطقة غرب إفريقية . وفى تلك التجارة كانت السفن الأوربية تتجه إلى سواحل غرب أفريقيا محملة بالبضائع الأوربية وتحصل فى مقابلها على الرقيق ، ثم تتجه إلى العالم الجديد حيث تبيع الرقيق ، وتشترى بثمنه المنتجات والسلع الأمريكية ، وتنقلها إلى الدول الأوربية فى رحلة العودة . وهكذا كانت أرباح تلك الدول تتضاعف ثلاث مرات من تلك التجارة ، وكانت تتعامل أساساً فى الرقيق ، وأستمرت من بداية القرن السادس عشر حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عندما ألغت الولايات المتحدة فى سنة ١٨٨٠ حالة الرق بها رسمياً بعد ظهور أثر الثورة الصناعية ودورها فى الإنتاج الواسع ، وما نتج عنه من قلة الاعتماد كثيرا على الايدى العاملة .

---

(1) Burns, A. S. : ibid. p. 65

(2) Burns, A. S. : ibid. p. 68, goodell, W. : op. cit. p. 9.

كان البرتغاليون يحصلون على الرقيق إما بالحرب أو بالجزية أو بالمبادلة ،ففي أيام السلم كان وكلاء تجار الرقيق يتجولون في المناطق الداخلية ، ويشترون الرقيق من الزعماء المحليين وينقلونه مقيداً بالسلاسل الحديدية إلى لواندا توطئة لشحنه إلى البرازيل . ولم تكن السلاسل تفك إلا بعد وصول الرقيق إلى الساحل حيث يتم ربطه بالحبال ، كان البرتغاليون يبعثون بطوابيرهم العسكرية المكونة من قوات زنوج الحرب وقليل من البرتغاليين إلى المناطق الداخلية ويستولون على الرقيق الذى جمعه الزعماء الإفريقيون الموالون للبرتغاليين وكانوا يحتفظون به في معسكرات بنيت في لواندا حتى يتم شحنه . وكان الحاكم البرتغالى يعتبر تاجر الجملة الوحيد ، ولم تكن مصالحه تعتمد في ذلك على رأسماله بل تعتمد أساســاً على التسهيلات والامتيازات التي يحصل عليها من الأوامر والقرارات التي تصدرها الإدارة البرتغالية التي يرأسها . كما كان هناك التجار الذين يحصلون على امتيازات جلب الرقيق إما لحسابهم أو لحساب الشركات التجارية . وكان هؤلاء التجار يعيشون على الساحل أو يتوغلون في المنطقة الداخلية . ويحصلون على الرقيق من الزعماء الوطنيين نظير بعض السلع اللازمة لهم مثل الأقمشة والأدوات المعدنية والأسلحة النارية والبارود والخمور ولم تكن فترة تجول هؤلاء التجار بالمنطقة الداخلية محدودة المدة ، وفي كثير من الأحيان كان هؤلاء التجار يقومون بغارات يستخدمون فيها الأسلحة النارية للحصول على الرقيق . وفي تلك الغارات كان يتم حرق قرى بأ كملها ليلا حتى يمكن إمساك الوطنيين الهاربين من لهيب النار المشتعلة . وكان لإدخال الأسلحة النارية والمشروبات الكحولية وتسليمها للزعماء الوطنيين أثرها على ازدياد غارات صيد الرقيق ، وكانت الإدارة الأوربية تشجع هؤلاء الزعماء للقيام بتلك العملية ، كما كان بعض الأوربيين يقومون بها بأنفسهم . وكان التاج البرتغالى يهب بعض المناطق المزدحمة بالسكان لبعض الجنود والموظفين الأوربيين نظير خدماتهم للدولة ، وكان من حق هؤلاء جمع الرقيق من اقطاعياتهم ، وتصديره إلى العالم

الجديد . كما فرضت الحكومة البرتغالية الضرائب المرتفعة على زعماء المناطق الخاضعة لها وفى حالة عجز هؤلاء الزعماء عن دفعها لم يكن لديها ما يمنع من حصولها عليها رقيقا (١) .

ولقد بلغت عملية صيد الرقيق وشحنه من البشاعة درجة كبيرة حتى أن هوراس مان H. Mann عضو المجلس النيابى الأمريكى وصفها فى ٣٠ يونيو سنة ١٨٤٨ بأن « الإنسان لا يحتاج إلى لسان فيصبح بليغا لذكر الأفعال التى تخجل الشياطين من عملها » وأن بريطانيا العظمى التى كانت تحتاج إلى ذهب مستعمراتها استخدمت القيود والأسلحة والمجازر للوصول إلى هدفها ، واتخذ من غرب إفريقية ميدانا للحصول على الأيدى العاملة الرخيصة ، وبيع ما تحصل عليه من رقيق فى مستعمراتها الأمريكية ، وأثارت البغضاء بين الوطنيين ، وشجعت قيام الحروب بين القبائل الوطنية ، وأمدت الزعماء بالأسلحة النارية والذخائر التى يمكنها الحصول على الرقيق ونقلوا الرجال والنساء الأقوياء إلى الساحل تاركين الشيوخ والعجزة والأطفال طعاما للطيور والحيوانات المفترسة . ولم تكن الرحلة من غرب إفريقية عبر الأطلنطى تقل بشاعة عن الرحلة من داخل القارة إلى الساحل فقد كان الرقيق يشحن ويكدس كما تكدس البضائع بجانب بعضه فى داخل السفن رديئة التهوية . ولم تكن كوة السفينة تفتح إلا بعد إبحار السفينة لإمداد الرقيق بالغذاء وإلقاء جثث الموتى منهم فى المحيط وبلغ من كثرة الجثث التى ألقيت أن الأسماك البحرية المتوحشة كانت تتابع السفن فى رحلتها ، وتسير فى خط سيرها . وكان الرقيق المشحون بالسفن يجبر على الرقص حتى ينسى البلاد التى جلب منها وكان عقاب من يمتنع منهم عن الرقص الجلد بالسياط (٢) .

1- Boxer, C.R. : op. cit.. pp. 284-385, Duffy, J. : Portugal in Africa, pp. 59 . 63.

2- goodell, W. : op. cit. p. ,q Harris, J. H. : op. cit pp 3-4, Burns,A.S. :op. cit. pp. 67-70.

ولاهمية الرقيق بالنسبة للبرتغاليين فقد أصدرو القوانين المنظمة لتجارته فى المستعمرات البرتغالية بما فى ذلك الشروط الواجب توافرها فى الرقيق المشترى من أنجولا ، وحددت سعرى البيع والشراء . وكان سعر شراء المذكور من رقيق الدرجة

بنس شلن جنيه شلن جنيه

الأولى يتراوح بين ٤ ٩ ١٥ و ١٠ ٢٢ ، بينما يتراوح سعر شراء

بنس شلن جنية بنس شلن جنيه

الإناث من نفس الدرجة بين ١٠ ٦ ١٤ و ١٠ ٦ ١٩ وتراوح

بنس شلن جنيه بنس شلن جنيه

سعر شراء الفرد من رقيق الدرجة الثانية مابين ٦ ١٢ ٥ و ٩ ٨ ٨

بنس شلن جنيه

وحددت تلك القوانين سعر بيع الفرد فى البرازيل مابين ٦ ٢ ٢٨

بنس شلن جنيه

و ٩ ٣ ٤٢ . وتخفض تلك الأسعار فى حالة فقد الأسنان أو الإصابع أو وجود أى تشوه . ولم يفت البرتغاليين اتخاذ بعض الإجراءات الدينية الشكلية قبل عملية الشحن فكانوا يرسلون الرقيق إلى أقرب كنيسة أو يجمعونه فى مكان مناسب ، ويتولى القسيس تعميدهم بالجملة . وكان القسيس يمر على طوابير الرقيق ، ويطلق على كل منهم إسما ويعطيه ورقة مسجل بها إسمه الجديد ، ويضع قليلا من الملح على لسان العبد ، ثم يرش الماء المقدس على الجميع ، ويخاطبهم قائلا أنتم جميعاً أبناء الرب ، وأنهم ذاهبون إلى أرض الأسبان أو أرض البرتغال لتعلم أشياء عن العقيدة المسيحية ، ويطلب منهم عدم التفكير فى المكان الذى أتوا منه ، والامتناع عن أكل لحوم الخيول والكلاب . وإذا لم يوجد بالمنطقة من يقوم بالطقوس الدينية كان من المحتم القيام بها ، وتعميد الرقيق عند وصولهم إلى البرازيل . ولم يكن يترتب على عملية

التعميد أية حقوق للرقيق بعد وصولهم إلى العالم الجديد . وكانت قوانين الكنيسة تمنع تعليمهم الديانة المسيحية أو التمتع بأية حقوق دينية (١) .

كانت عملية شراء وبيع الرقيق فى غرب أفريقية تخضع لموافقة الزعيم الأفريقى المحلى الذى كان يفرض الضرائب على تلك التجارة . وفى بعض المناطق مثل ساحل العبيد كان من الضرورى حصول الوكيل التجارى على تصريح لكل سفينة ترسو بالمنطقة نظير أجر محدد حتى يمكن شحنها بالرقيق ، كما كان على تلك السفن شراء رقيق الزعيم الإفريقى بالسعر الذى يحدده لهم ثم استكمال حمولتها من الرقيق للملوك التجار الآخرين وفى نفس الوقت فرض الزعيم ضريبة على كل فرد من الرقيق المباع . وحتى فى الأماكن التى لم تخضع لسلطة الزعماء الافريقيين كان التجار الاوربيون مرغمين على تقديم الهدايا للزعماء المحليين وإلا استحال عليهم الحصول على حاجتهم من الرقيق (٢)

ولم تكن هناك عملة عامة تستخدم فى غرب إفريقية لدفع ثمن الرقيق والبضائع الأوربية . وفى بعض الأماكن على ساحل وندوورد كانت قيمة الرقيق والبضائع تقدر بالنسبة لقضبان الحديد ، وعلى ساحل العاج بالنسبة لقطع الملابس ، وفى منطقة ساحل الذهب بالنسبة لتراب الذهب ، أما فى المنطقة الواقعة بين أكراوكيتا Keta فكانت تقدر بالأصداف ، كما كانت تقدر بالنسبة لقضبان الحديد والنحاس على ساحل العبيد . وعلى هذا فقد اختلفت أثمان الرقيق والبضائع الأوربية باختلاف مناطق غرب إفريقية . وكان الحديد والنحاس من أهم تلك الأثمان نظراً لأن

---

1 - Boxer, C. R.: op. cit. p. 285, Harris, J. W.: op. cit. pp. 3-4, goodell, W.: op. cit. p. 7.

2 _ Fage, J. D.: An Introductionto the History of West Africa, p. 269

الإفريقيين كانوا يستخدمون هذين المدنيين فى صنع الأدوات والآلات اللازمة لاستخدامها اليومية و الحرب . وكانت تلك القضبان تستورد من أوربا فى أحجام قياسية خاصة . وكان قضيب الحديد يساوى أربعة قضبان من النحاس على ساحل العبيد، كما كانت الأقمشة تستورد بأطوال قياسية. وتعتبر تلك الأصناف باستثناء الاصداف هى كل المواد الاستهلاكية من البضائع الأوربية فى المنطقة ، وتختلف قيمتها باختلاف الحاجة إليها ، وترتب على ذلك وجود مساومة فى تجارة الرقيق ، وحدوث عمليات تجارية معقدة تتم بين الطرفين. فكانت قيمة الرقيق وسلع المبادلة تقيم بما يقابلها من قضبان الحديد أو النحاس ، وهذا يستدعى أن يوضع فى الأعتبار مدى ندرة أو وفرة كل سلعة على حده فى ذلك الوقت فى مكان التبادل التجارى . وكانت الشركات التجارية الأوربية الموجوده فى المنطقة تحاول تثبيت الأسعار بالاحتفاظ بكميات مناسبة من الأصناف المطلوبة ، ولكنها فى كثير من الأحيان لم تكن تستطيع ذلك لحضور منافسين جدد أو لتغير الطلب على نوع معين من البضائع مما يؤدى إلى إنخفاض أسعار البضائع الأوربية وارتفاع أسعار الرقيق (١).

وبمجرد الاتفاق على سعر بيع الرقيق والبضائع البديلة يكشف طبيب السفينة على الرقيق المعروض للبيع ، ويستبعد من بينهم الشيوخ والعجزة وعدداً كبيراً من النساء ، حيث لم يكن الأوربيون يشترون من النساء والفتيات إلا ما يقدر بثلث عدد الرقيق المشترى، ويرجع ذلك إلى أثر الحمل على مقدرة المرأة على العمل بالمزارع الأمريكية ، وقصر مدة عملها إذا قورنت بقوة الرجال ومدة عملهم . وكان التجار يفضلون الرقيق من الرجال الذين يتراوح سنهم ما بين عشر سنوات وخمسة وثلاثين عاماً . أما السن المفضل

Fage J, D, : op. cit. pp, 269 — 270

للنساء فكان حتى سن خمسة وعشرين عاماً . وكان الرقيق المنتخب يوشم بعلامة المشترى ثم يشحن فى السفن أو يوضع فى القلاع والوكالات حتى يتم شحنه (١) .

ونظراً لتعقد عمليات تجارة الرقيق ، واختلاف العرض والطلب فمن الصعب إعطاء سعر ثابت للفرد من الرقيق فى غرب إفريقية ، وكان السعر فى أوائل القرن الثامن عشر يعادل ثلاثة جنيهات إنجليزية للشاب البالغ القادر على العمل ، وارتفع ذلك السعر فى أواخر القرن التاسع عشر وأصبح يعادل خمسة وعشرين جنيها . ولما كان ثمن الرقيق يدفع بضائع أوربية على سواحل غرب إفريقية فإن السعر الفعلى للفرد من الرقيق يقل عن ذلك كثيراً . وبذلك كانت أرباح التجار الأوربيين من تلك التجارة كبيرة جداً . وقد اختلفت البضائع التى يجلبها التجار الأوربيون باختلاف الزمان والمكان وجنسية التاجر . وكان أكثر تلك البضائع رواجا وطلبا المنسوجات الصوفية والكتانية المصنوعة فى أوروبا ، والمنسوجات القطنية المصنوعة فى الهند ، والحرير المصنوع فى آسيا وأوربا ، وجميع أنواع الأسلحة النارية والبارود والرصاص ، والكثير من الأدوات الحديدية وخاصة القاطعة منها ، وقضبان الحديد والنحاس الأصفر والأحمر والمشروبات الروحية (٢) .

ولا توجد معلومات أكيدة عن عدد الرقيق الذى تم تصديره من منطقة غرب إفريقية عبر الأطلنطى إلى القارة الأمريكية . وقد اختلفت الكتاب الذين تعرضوا لمشكلة الرقيق فى تقدير عدده ، فقدر هاريس عدد من وصل منهم إلى أمريكا بتسعة ملايين فرد على أربعة قرون ونصف ، منها مليون فرد فى القرن السادس عشر ، ومليونان فى القرن السابع عشر ، وثلاثة ملايين فى كل من القرنين الثامن عشر

1 – Burns, A.S.: op. cit. p. 69, Fage,J. D. : op. cit. p. 290.
2 – Fage, J. D : ibid. pp. 271.

والتاسع عشر (١) . وذكر بوكستون فى مجال دفاعه عن الرقيق أن كل ثلاثة أفراد وصلوا أحياء إلى أمريكا يقابلهم سبعة أفراد فقدوا حياتهم أثناء الطريق من داخل إفريقية إلى الساحل وأثناء نقلهم عبر الاطلنطى ، وبمعادلة بسيطة بناء على تقدير كل من هاريس وبوكستون يتبين أن عدد الرقيق الذين فقدتهم منطقة غرب إفريقية بلغ حوالى (٢١) مليون من الأنفس . ويقدر البعض الأخر ذلك الفقد بمائة مليون نفس(٢) .

وقد نشر مجلس اللوردات البريطانى وثيقة أثبت فيها أن عـدد الرقيق الذى تم تصديره من منطقة غرب إفريقية فى سنة ١٧٩١ بلغ ١٥٧٤٩ فرداً ، وكانت نسبـة الوفيات ٨,٧ ٪ من جملة عـدد الرقيق . كما بلغت نسبة الوفيات ١٧ ٪ من جملة عدد الرقيق المصدر فى سنه ١٧٩٢ والبالغ عدده ٣١٥٥٤ فرداً ، وأن نسبة الوفيات أصبحت حوالى ١٠ ٪ بعد سنة ١٨١٠(٣). كما ذكر توماس الدرد Thomas Eldred وهو أحد تجار الرقيق البريطانيين أمام لجنة تحقيق برلمانية بريطانية أنه نقل ٥٠٠ عبد عبر الأطلنطى فى ثلاث رحلات توفى منهم ١٢٠ فرداً أثناء النقل ، أى أن نسبة الوفيات بلغت حوالى ٢٥ ٪ وذلك بسبب سوء الأحوال الصحية وعدم وجود تهوية كافية داخل سفن نقل الرقيق ، وحاول التنصل من المسئولية بالادعاء أنه كان يغسل الرقيق بالخل يوميا حتى لا تنتشر بينهم الأمراض . وعلى هذا يمكن على أساس المعلومات والأدلة المتاحة تقدير عدد الرقيق المصدر من بدء التجارة فى القرن السادس عشر إلى توقفها فى أواخر القرن التاسع عشر مابين خمسة عشر وخمسة وعشرين مليونا . وهـذا العدد يمثل الأعـداد التى وصلت إلى أمريكا وبالتالى فإن العدد الذى تم تصديره من

1 - Fage, J. D': op. cit. pp. 210 - 271.

2 - Harris' J, P.: op. cit. p. 11.

3 - Fage, J. D.: op. cit. p. 271, Burns, A. S.: op. cit. p. .67.

4 - Herbert, S. K.: the trade inAfrican Slaves to Ri de janeiro, (1795 - 1811), p. 534.

الرقيق من على ساحل غرب إفريقية يرتفع كثيراً عن ذلك العـدد لطول الرحلة إلى أمريكا ، وإصابة الرقيق بالأمراض على ظهر السفن ، وما يترتب على ذلك من وفيات(١) .

وكان التجار الأوربيون يحصلون على الرقيق من المنطقة الممتدة من السنغال فى الشمال حتى أنجولا فى الجنوب . وباستثناء الرقيق المجلوب من أنجولا وجزيرة ساوتومى الذى كان البرتغاليون يصدرونه إلى البرازيل فإن تجارة الرقيق من المنطقة الواقعة جنوبى الكاميرون أصبحت مهمة فى القرن الثامن عشر ، وأصبح ثلث عدد الرقيق المنقول إلى أمريكا فى القرن التاسع عشر يرد من المنطقة الواقعة بين السنغال والكاميرون. وكانت تجارة الرقيق فى المنطقة الواقعة شمال نهر غامبيا تافهة ،وأصبحت أقل من ألف فرد فى نهاية القرن التاسع عشر بينما بلغ عدد الرقيق المصدر سنوياً من ساحل وندوورد Windward بين غامبيا وجزيرة شربو Sherbo حوالى ثلاث آلاف فرد ، ومن ساحل العاج وساحل الحبوب ما بين أربعة وخمسة آلاف ومن ساحل الذهب حوالى عشرة آلاف ، ومن ساحل العبيد حوالى تسعة آلاف ، ومن لاجوس وبنين حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة فرد ، ومن سواحل خليج غنيا الممتدة حتى الكاميرون حوالى ثمانية عشر ألف فرد . وكان عدد أفراد الرقيق المصدر من ساحل الذهب كبيراً فى الفترة مابين سنتى ١٦٤٠ و ١٨٢٠ ، كما ارتفع العدد المصدر من ساحل العبيد فى المدة ما بين سنتى ١٦٨٠ و ١٨٦٠ . وازداد نشاط تجارة الرقيق على سواحل خليج غنيا عندما بدأت الدولة الأوربية التدخل من قواعدها التى أنشأتها على ساحل الذهب والعبيد لوقف تجارة الرقيق(٢) .

يتبين من النظرة الأولى للارقام السابق ذكرها عن تجارة الرقيق فى غرب

(1) Fage, J.D. : op. cit. pp. 271 - 272, Harris, J. H. : op. cit. p. 4.

(2) Fage, J. D. : op. cit. pp. 272 . 273.

إفريقية ومن الوسائل والأساليب التعسفية التي اتبعها الأوروبيون في القبض على الوطنيين مدى الخراب والدمار الذي حل بالمنطقة نتيجة استرقاق أهلها وبيعهم للعمل في العالم الجديد ليكونوا دعامة من دعائم اقتصاد أمريكا ، ذلك الاقتصاد الذي أعتمد عليه الأوربيون إعتماداً كبيراً مما جعلهم يتقدمون تقدماً كبيراً في المجالين الزراعي والصناعي ، وحققوا من وراء تجارة الرقيق أرباحاً كبيرة .

وقد ترتب على استرقاق الإفريقيين ونقلهم إلى العالم الجديد نقص كبير في عدد السكان ، ولم يكن الفقد السكاني يقتصر فقط على الرقيق المصدر إلى أمريكا بل تعداه إلى التأثير على السكان الباقيين في المنطقة نتيجة الحروب التي كانت تحدث بين القبائل بعضها وبعض ، وبين خاطفي الرقيق والسكان المحليين للحصول على الرقيق ، وما يتبع ذلك من خسائر في الأرواح والممتلكات ، وكذلك وفاة عدد كبير من الشيوخ والعجزة والنساء الذين لم يستطيعوا مواصلة السير من داخل البلاد إلى الساحل حيث يتم شحنهم إلى أمريكا ، ووفاة أعداد أخرى من الرقيق في القلاع والوكالات في الفترة التي تسبق شحنهم ، كما أن عدداً آخر من الزنوج كانوا يفضلون القفز من على ظهور السفن إلى الماء للانتحار على الوصول إلى أمريكا والبقاء في العبودية ، مما دعى ربابنة السفن إلى منع الرقيق من الخروج إلى سطح السفن أثناء وجودها في الميناء وترتب على ذلك وجود ظروف صحية غير مناسبة أدت إلى إصابتهم بالأمراض ووفاتهم .

ونظراً لطول الرحلة عبر الأطلنطي والتي كانت تستغرق في ذلك الوقت مابين خمسة وثلاثين يوما وشهرين وصغر حجم السفن وتحميلها أكثر من طاقتها فقد ارتفعت نسبة الوفيات بين الرقيق المصدر إلى أمريكا . وعلى هذا يمكن القول وبدون مبالغة أن كل فرد من الرقيق الأفريقي وصل إلى الأراضي الأمريكية يقابله فرد آخر فقد حياته أثناء عمليات تجارة الرقيق ، وبالتالي يمكن تقدير عدد الذين

فقدتهم منطقة غرب إفريقية فى الفترة التى كانت تتم فيها تجارة الرقيق ما بين ثلاثين وأربعين مليونا من الأنفس(١) .

وقد ترتب على إمداد الأوربيين للوطنيين بالأسلحة النارية والخمور حدوث فوضى وحروب بين الإفريقيين الذين استغلوا وجود تلك الأسلحة بين أيديهم لتصفية الخلافات والنزاعات القبلية أو القيام بعمليات النهب والسلب . ولم يكتف الأوربيون بذلك بل تدخلوا فى تلك الخلافات مشجعين جانبا على آخر لتوسيع هوة الخلاف ، وبالتالى شن الحروب وحرق القرى الوطنية لأتفه الأسباب . وكان هدفهم من ذلك القبض على أكبر عدد من الوطنيين واسترقاقهم ، ونقلهم بعد ذلك إلى العالم الجديد للعمل فى مزارعه . وقد أدى وجود الأسلحة النارية فى أيدى الوطنيين إلى حدوث عملية تدمير سكانى من الداخل والقضاء على بعض المجتمعات الأفريقية(٢) .

ولما كانت تجارة الرقيق تعتمد أساساً على الشبان والرجال والنساء الصالحين للعمل فى المزارع الأمريكية ، وتترك وراءها الشيوخ والعجزة فإن هذا العمل يكون له أثر تدميرى على النمو السكانى والحياة العامة ، ويؤثر على عدد السكان وعلى الإنتاج. وأدت تجارة الرقيق إلى نقص عدد السكان بصفة عامة فى المنطقة وإخلاء بعض المناطق من سكانها كما حدث فى بعض مناطق أنجولا مما أدى إلى تأخير التقدم العام و التنمية الإقتصادية فى غرب إفريقية، وإلى إهمال الأعمال الزراعية التى كان يقوم بها القادرون من الرجال والنساء، كما أن حصول الافريقيين على المصنوعات الأوربية أدى إلى استغنائهم عن صنع حاجتهم بأنفسهم، وبذلك تدهورت أو انتهت صناعة الأدوات الحديدية النحاسية والفخارية

---

(1) Fage, J.D.: op. cit. p. 273, Boxes, C.R. op. cit. p.286.
(2) .Obafami, A. : Peoplés Republic, pp. 6 . 7.

والملابس التى كانوا يصنعونها بأنفسهم ، وفى نظير الحصول عليهـــا دفعوا ثمنها رقيقاً(١) .

وبالإضافة إلى النتائج التجريبية لتجارة الرقيق المترتبة على فقد الأيدى العاملة النشطة التى يمكن استغلالها فى عمل إنتاجى والقضاء على المنتجات الموجودة بالمنطقة مثل المحاصيل الزراعية والماشية وتدمير المدن والقرى فإن التهديد المستمر بالحروب وغارات صيد الرقيق قد أوجد حالة شك دائم بين السكان فيما يتعلق بالحياة الآمنة المطمئنة ، وبالتالى عدم إنتاج ما يزيد عن حاجة الاستهلاك من المواد الغذائية أو بناء المنازل والقرى حتى لايدمر تجار وخاطفى الرقيق ما تم بناءه وبذلك أصبح سكان المنطقة يعيشون ليومهم ولا يفكرون فى غدهم ، وهذا النوع من التفكير يؤثر فى المجتمع ويجعله يتوقف عن التفكير فى التقدم أو التحسين نتيجة الخوف وعدم التأكد من المستقبل. كما ترتب على حالة القلق وعدم الاطمئنان وجود حالة عدم أستقرار سكانى ، وبالتالى هروب من يستطيع الهرب إلى مناطق أخرى يرى توفر الأمن والحماية فيها . ولم تكن حركة الهروب حركة فردية بل أتخذت شكلا جماعيا فكانت قبائل بأكلها تنتقل من مناطق إقامتها إلى المناطق البعيدة أو المرتفعة خوفاً من غارات صائدى الرقيق، وبذلك أصبح هدف السكان الأول هو الدفاع عن أنفسهم ضد المغيرين وليس الاستقرار وإنشاء المدن(٢) .

قامت تجارة الرقيق وازدهرت على أساس الاستغلال المباشر للايدى العاملة الأفريقية ، وبتغير الظروف السياسية والإقتصادية فى أوربا نادى بعض الأفراد والجماعات بالغاء تجارة الرقيق وكانت الاستجابة لتلك الفكرة تؤدى إلى هبوط

---

(1) Fage, J. D. : op. cit. pp. 274-275, Oliver, R. & Fage, J. D. : op. cit. pp. 121—122.

(2) Fage, J. D. : od. cit. p 275.

وتدهور الإقتصاد الأوربي ، وللافاة ذلك كان لا بد من استغلال مصادر الثروة الأخرى بأفريقية استغلالا مباشراً . وهذا الاستغلال لا يمكن أن يتم إلا بوجوب سيطرة استعمارية فعالة تضمن استمرار ذلك الاستغلال وتدعمه وتكيفه حسب الظروف السائدة ، وبالتالى ظهرت فكرة امتلاك المستعمرات بالمنطقة لاستغلالها كمورد أساسى للمواد الخام والسلع الغذائية وتصريف المصنوعات الأوربية . ولهذا اتخذت الدول الأوربية من تنفيذ فكرة محاربة الرقيق تكأة لها ففرضت نفوذها وسيطرتها على المنطقة . وبانتهاء تجارة الرقيق أدعت تلك الدول أنها سوف تبقى لرفع المستوى المعيشى للافريقيين وإدخال الحضارة والمدنية بالبلاد .

المراجع

أولا – مراجع منشورة :

1–Blake, J.W.: European Beginnings on west Africa, London, 1957.

2–Boxer, C.R.: Slavador de Sa and the Struggle for Brazil and Angola, London, 1952.

3–Burns, A.S.: History of Nigeria, London, 1965.

4–Duffy J.: Portugal in Africa, London, 1962

5–Edward, J.: History of West Indies, N.Y. 1920.

6–Fage, J.D.: An Introduction to the History of West Africa, London, 1955.

7–Fitzgerald, W.: Africa, London, 1934.

8–Goodall, W.: Slavery and Anti Slavery, 1852.

9–Harris, J. H.: Slavery or Sacred Truth ? London, 1926.

10–Harrison, C.: West Africa, London, 1957.

11–Newbury, C. W.: The Western Slave Coast and its Rulers, London, 1961.

12–Kup, A.P.: A History of Sierraleone, London, 1961.

13–Obafemi, A.: People's Republic, London, 1968.

14—Oliver, R. & Fage J. D. : A. Short History of Africa, London, 1962.

15—Wydham, H. A. : The Atlantic and Slavery, Oxford, 1963.

ثانياً — دوريات :

I—Herbert, S.K : The Trade in African Slaves to Rio de Janeiro, (Journal of African History vol, X No, 4, London, 1969,)

الادعاءات الايرانية فى الخليج العربى

أصول المشكلة وتطورها التاريخى *

للدكتور جمال زكريا قاسم
أستاذ مساعد بكلية الآداب ــ جامعة عين شمس

أثار احتلال إيران لجزر الخليج الثلاث وهى جزيرة بوموسى وطنب الكبرى والصغرى فى ٣٠ نوفمبر ١٩٧١ رد فعل عنيف لدى الرأى العام العربى ، ظهر ذلك واضحا فى المظاهرات الكثيرة التى اجتاحت منطقة الخليج، وهاجم فيها المتظاهرون بعض المؤسسات الإيرانية . وفى الدول العربية تفاوتت أصداء الاحتجاج لعل أشدها كان قرار مجلس الثورة الليبى بتأميم المصالح البريطانية البترولية فى ليبيا ، ثم قرار الحكومة العراقية بقطع العلاقات الدبلوماسية مع إنجلترا التى اعتبرت متواطئة مع إيران(١) .

كما أصدرت كثير من الحكومات العربية بيانات احتجاج طالبت فيها بانسحاب القوات الإيرانية من جزر الخليج الثلاث . ولما كان احتلال إيران لهذه الجزر

---

* قدمت هذه الدراسة إلى المؤتمر الدولى للتاريخ الذى انعقد فى بغداد فى الفترة من ٢٥ إلى ٣٠ مارس ١٩٧٣ .

(١) أكد احتلال إيران لجزر الخليج الثلاث بما لايقبل الشك وجود تواطؤ بريطانى إيرانى . ويقرر كثير من المعلقين السياسيين أن بريطانيا بهذا التواطؤ لم تحترم التزاماتها إزاء إمارتى رأس الخيمة والشارقة ، التى تتبعهما هذه الجزر ، خاصة وأن المعاهدات البريطانية ، مع هاتين الإمارتين ، لم تكن قد ألغيت بعد من الناحية الرسمية . ولمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى :
Anthony, John Duke, The union of the Arab Amirates, Middle East Journal, summer 1972 pp. 271 ff.

حدث قبل يومين اثنين من إعلان قيام دولة إتحاد الإمارات العربية فى الخليج فقد أدى ذلك إلى اثارة مشاعر الحزن والاستياء التى كادت تطغى على الاحتفال بهذا المولود الجديد ، كما أدى أيضاً إلى إثارة مزيد من الشكوك فى حقيقة النوايا الإيرانية التى ظهرت فى السنوات الأخيرة وعلى وجه التحديد فى عام ١٩٧٠ أقرب إلى الإقرار بوجهة النظر العربية والاعتراف بالأمر الواقع فيما يختص بعروبة البحرين التى تخلت إيران عن ادعاءاتها التقليدية فيها مما مهد لاستقلال هـذه الإمارة(١) ، حتى لقد ظهرت عـدة تـكهنات فى أن يكون تخلى إيران بهـذه الصورة المفاجئة عن ادعاءاتها القديمة ليس إلا مراوغة من جانبها للتخلص من المعوقات التى كانت تضعها حكومة البحرين وغيرها من إمارات الخليج بالنسبة لتعاملها مع إيران ، وبالتالى تستطيع بطريقة (مشروعة) أن تزيد من تعميق نفوذها الاقتصادى حتى تحين لها فرصة جديدة لمواصلة أطماعها فى المنطقة تعاونها

---

(١) ليس من شك فى أن إصرار شعب البحرين كان العامل الأول الذى أدى إلى هذه النتيجة ولـكن يمكن أن نضيف إلى ذلك الضغط الذى مارسته الولايات المتحدة الأمريكية على الحـكومة الإيرانية لتفسح المجال لخططاتها المستقبلة والتى من أبرزها اتخاذ البحرين كقاعدة بحرية للأسطول الأمريكى فى منطقة الخليج، وتأكيداً لذلك وقعت بين البحرين والولايات المتحدة الأمريكية فى ٢٣ ديسمبر ١٩٧١ اتفاقية نصت على تسليم قاعدة الجفير البحرية إلى الأسطول الأمريكى لمدة ثلاثين عاماً، يضاف إلى ذلك التغلغل الاقتصادى الأمريكى الذى تشهده البحرين ـــ وغيرها من إمارات الخليج ـــ فى الوقت الحاضر بما فى ذلك تأسيس البنوك المالية بالإضافة إلى المصالح البترولية وغير البترولية .

راجع بصدد ذلك : المخططات الأنجلو أمريكية فى الخليج العربى ــ وزارة الإعلام العراقية ١٩٧٢، وكذلك صلاح العقاد : معالم التغيير فى دول الخليج العربى ص ١٤٣ وما بعدها .

فى ذلك بعض المخططات الامبريالية وبصفة خاصة الولايات المتحدة الأمريـكية .
وليس من شك فى أن الأمور متروكة هنا لمدى الدعم العربى ، بالإضافة إلى حيوية الوائيق والارتباطات الدولية فى تأمين البحرين وغيرها من احتمال تجدد الأطماع الايرانية مما يدفعنا إلى التأكيد هنا بأن حصـول الإمارات العربية على استقلالها السياسى لا يعنى تخلصها من السيطرة الاستعمارية التى قـد تظهر فى شـكل تسلط إقتصادى أو استعمار جديد ، هذا بالاضافة إلى المحاولات الايرانية التى بقيت — ولا تزال — تؤكد وجودها فى بعض مناطق الخليـج . ومما يزيد المشـكلة تعقيدا أن إيران ليست وحدها وإنما تساندها شركات النفط الانجليزية والأمريكية العاملة فى المنطقة . ولذا يتحتم على السياسة العربية أن تعالج التطلعات الإيرانية فى الخليج باعتبارها قضية عربية — فى الوقت الذى لا يصرفها ذلك عن المعركة المصـــيرية الـكبرى — خاصة وأن إيران حاولت استغلال فرصة إنشغال القوى العربية بالصراع العربى الاسرائيلى بعد نـكسة ١٩٦٧ فى إحراز مكاسب لها يساعدها على ذلك بعد المنطقة ، بالاضافة إلى الفراغ الذى كان متوقعاً حدوثه عند انسحاب القوات البريطانية من الخليـج فى عام ١٩٧٠ فضلا عن التفـكك الذى ظهر واضحاً فى الوحدات السياسية — قبل قيام دولة اتحاد الإمارات العربية — بالإضافة إلى الخلافات الإقليمية القائمة بين السعودية وأبو ظبى حول واحة البوريمى أو بين قطر وأبوظبى حول خور العديد وبين البحرين وقطر حول ملـكية الزبارة .

ومما يستلفت النظر أن عمليات التسلل الإيرانى لا زالت قائمة فى كثير من مناطق الخليج كما أن هناك إذاعة إيرانية ناطقة باللغة العربية — وهى إذاعة الأهواز — مخصصة لمنطقة الخليج ، كما تقوم البنوك الإيرانية ومن أشهرها بنك ملى إيران وبنك الصادرات الإيرانى بنشاطات ملحوظة فى تمويل التجار الإيرانيين بصورة تمكنهم من منافسة التجار العرب ، وإلى عهد قريب كان النشاط الإيرانى مركزا على منطقة الساحل العمانى بما

فى ذلك من تفاعل ثقافى واقتصادى، بالإضافة إلى تقديم الخدمات الصحية والاجتماعية التى كانت تفتقر إليها هذه المنطقة، كما استقر كثير من الإيرانيين فى دبى آملين الوصول إلى مستوى أفضل من العيش من ذلك الذى يتمتعون به فى بلادهم كما أخذوا يحلون محل العرب الذين بدأت هجراتهم الواضحة إلى حقول النفط فى الكويت والسعودية وغيرها. كما ظهرت فى الكويت والبحرين جاليات إيرانية كبيرة العدد لها وزنها الاقتصادى (١). ومما يذكر أن إيران كانت إلى عهد قريب تعامل الوطنيين فى كثير من إمارات الخليج باعتبارهم رعايا تابعين لها وذلك بإرغام الراغبين فى الذهاب إلى العتبات الشيعية المقدسة فى إيران على حمل وثائق سفر إيرانية من القنصلية الإيرانية فى البصرة حيث لم يكن لإيران تمثيل سياسى أو قنصلى فى الخليج. كما كانت السلطات الإيرانية إلى عهد قريب أيضاً لا تعترف بطوابع البريد الصادرة فى البحرين وتعتبر الطوابع البحرانية اللاصقة على الرسائل الصادرة من البحرين إلى إيران كأنها لم تكن، وإن كان يلاحظ أن الحكومة الإيرانية أخذت موقفاً أقل تشددا مع إمارات الخليج الأخرى خاصة إمارات الساحل العمانى التى وضح أنها كانت تسعى إلى صداقة حكامها (٢) وفى الوقت الذى زحف فيه تيار القومية العربية على الخليج العربى، نتيجة للانقلاب العنيف الذى ترتب على استغلال النفط، وما تبعه من تدفق العمال العرب على المنطقة، بالاضافة إلى ماترتب على النكبة الفلسطينية فى عام ١٩٤٨ من تدفق آلاف من اللاجئين الفلسطينيين بدت الأطماع الإيرانية فى تمسك إيران بتسمية الخليج بالفارسى على أمل أن إصرارها على هذه التسمية يكسبها حقوقاً شرعية فضلا عن أن ذلك يرضى أحلامها التوسعية بأن

---

(١) Hay, Rupert : The Persian gulf States p. I22 Washington, 1959.

(٢) Ibid, p. I49.

يصبح الخليج بحـــيرة وسط امبراطورية فارسية . ومن الطبيعى أن ذلك كان دافعاً إلى إثارة المشاعر العربية وبالتالى تأكيـــد الدوائر العربية ــ الرسمية وغير الرسمية ــ على عروبة الخليج . كما أن الباحثين العرب وبعضاً من الباحثين الأجانب أخذوا يتخلون عن التسمية الفارسية للخليج، من ذلك الباحث الإنجليزى رودريك أوين Owen الذى تحدث طويلا عن غرابة تسمية الخليج بالخليج الفارسى مؤكدا أنه من المستحيل أن يفكر قادم على الكويت أو قطر أو البحرين فى عمان غـــير عربية وأن كل شيء فى رمال هذه الأقاليم وفى مياه خليجها الخضراء، فضـــلا عن القومية العربية النامية ، كل ذلك يؤكد تماماً عروبة هـذه المنطقة ، كذلك أكد الكاتب الفرنسى جان جاك بيريبى على عروبة الخليج وإن سمـى كتابه الذى صدر فى عام ١٩٥٩ بالخليج الفارسى اتباعاً للتسمية التى كانت شائعة عند صدور كتابه هذا (١) .

الادعاءات الإيرانية القديمة فى الخليج :

ويسترعى الدارس لمنطقة الخليج العربى قـدم الادعاءات الإيرانية كما يجد أيضاً العديد من الاعتداءات الايرانية التى تعرضت لهـا المنطقة فى المـــاضى أو الحاضر .

وعلى الرغم من أن الغموض يكتنف تاريخ الخليج العربى فى العصور القديمة إلا أنه

---

(١) CF. Roderickowen, The golden Buble, Arabian gulf Documentary pp. 13—16 London 1961 see. Also Jan Jack Bereby, Le golfe Persique, Paris 1959
وكذلك سيد نوفل : الأوضاع السياسية فى إمارات الخليج وجنوب الجزيرة العربية ص ص ١١٦ــ١١٧ .

من المعروف أن الفرس نجحوا فى بعض الفترات خاصة فى القرن السادس ق . م
فى السيطرة على بعض القواعـــد الرئيسية الواقعة على الساحل الغربى للخليج فى
عمان والبحرين، ومع ذلك فان السيطرة الفارسية لم تستمر بصورة مباشرة إذ كانت
تترك فى أحيان كثير للقبائل المحلية أو الحكام المحليين فضلا عن أن القبائل العربية
استطاعت فى كثير من فترات التاريخ القديم أن تظهر إلى مجال السيادة والتفوق
فى الشواطىء الغربية بل والسواحل الشرقية التى تطل عليها ايران ذاتها . وتحدثنا
بعض الروايات بصدد ذلك عن هجرة كبيرة قامت من الجزيرة العربية ومن
اليمن على وجه التحديد تزعمها مالك بن فهم وهو أحد رؤساء الأزد (عرب الجنوب)
متجهة إلى عمان حيث دار صراع بين العرب والفرس انتهى بانتصار العرب وطرد
الفرس من عمان (١) أما من بقى منهم فقد تعايش سلمياً مع الهجرات العربية التى
أخذت تتدفق على المنطقة واستمر أمرهم قائماً حتى اجبروا على الرحيل نهائياً فى
البواكير الأولى من صدر الإسلام . وقد أعقب ذلك الانتصار الذى أحرزه العرب
هجرة اليمنيين بشكل كبير إلى عمان ويقال أنها هى التسمية التى سموا بها ذلك
الأقليم نسبة إلى أن منازلهم كانت على واد بمأرب يقال له عمان فشبهوها به فى
حين كان الفرس يطلقون عليها مزونا .(٢)

ويختلف المؤرخون على تحديد هجره مالك بن فهم الذى نجح فى أن يكون أول
حاكم عربى على عمان بعضهم ذكر أنها كانت فى القرن السابع ق . م بينما يرى البعض

---

(١) Perceval, Essai sur L'Histoire des Arabes vol. 1 p. 202.

(٢) حميد الدين السالمى . تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان جـ ١ ص ٥ انظر أيضاً
كشف الغمة لأحد علماء الاباضية ص ٣٢ .

الآخر أنها كانت في القرن الرابع قبل الميلاد . حقيقة أن العرب كانوا قد وصلوا إلى عمان قبل هذه الهجرة الكبيرة ولكنهم لم يستطيعوا أن يكسبوا البلاد الملامح والسمات التي يحاولونها، وإنما ظل الفرس يعتبرون عمان جزءاً من إمبراطوريتهم إلى أن كان دخول مالك بن فهم بمن معه وبمن أتى بعده من العرب فاستطاعوا أن يقضوا على كل أثر فارسي وإعطاء البلاد صبغتها وملامحها العربية . وتذكر وثائق بومباي بصدد ذلك أن مالك بن فهم هو أول عربي دخل عمان قبل الميلاد بأربعة قرون(١) وقد نزل مع قومه في بهلى ثم في جعلان من مدن عمان الداخلية ، وهناك استطاع التغلب على الجيش الفارسي ثم قام بتحصين الرستاق ، وقد أثارت انتصاراته أحلام العرب فأخذوا يتوافدون على عمان من اليمن حتى أصبحوا غالبية السكان وتعاقب ملوك من نسله ولم يتمكن الفرس من استعادة سيطرتهم إلى أن صارت عمان إلى آل الجلندى ، في زمن الأسرة الساسانية ، التي عقدت هدنة معهم نصت على أن يحتفظ الفرس بحامية لهم في عمان قدرها أربعة آلاف جندي مع عامل فارسي فنزل هؤلاء الشواطيء وبقي آل الجلندى في الداخل(٢) . ويتضح لدينا من ذلك أنه على الرغم من المد العربي الظاهر على سواحل الخليج والذي ازداد انسيابا منذ القرن الثاني ق . م نظراً للقحط الشديد الذي ألم بالداخل إلا أن هذا المد العربي لم يلبث أن تراجع حينما قامت الأمبراطورية الساسانية حول السنوات الأولى من القرن الثالث

---

(١) Bombay government, selection from the Records of Bombay govt., 1856 CF. Extracts from Brief Notes containing Historical & other information connected with the province of oman, Muscat and adjoining countries. R.A. Taylor pp. 1 — 40.

(٢) السباعي وناجي عساف : عمان . . تاريخ . . يتكلم ص ص ٩٥ / ٩٨ دمشق ١٩٦٣ .

الميلادى، وإن لم يلبث أن عاد إلى استئناف مجراه الطبيعى بعد انحلال الامبراطورية الساسانية .

أما عن جزر البحرين — وهى المركز الرئيس الثانى على الساحل الغربى من الخليج — فيوجد اختلاف فى الرأى عن أصل المستوطنين الأول فيها . ويؤكد كثير من الكتاب الايرانيين أن السكان الأصليين فرس، ولكنهم بعد إقامة طويلة استطاعوا أن يستحوذوا على لهجة السكان الذين يقطنون السواحل القريبة منهم، فى حين تؤكد المصادر العربية القديمة أن سكان البحرين عرب ينحدرون أصلا من قبيلة ثمود العربية الذين طردهم سبأ بن حمير من اليمن فى حوالى الاف الثانية ق . م فاتجهوا إلى جزيرة أوال وهو الإسم القديم للبحرين(١) وما أوال إلا إسم لصنم كانت تعبده قبيلة بكر ابن وائل (٢) والجدير بالذكر أن الجغرافيين العرب كانوا يطلقون إسم البحرين على الشاطىء الممتد من كاظمة شمالا إلى عمان جنوباً . وذكر ياقوت الحموى بصدد ذلك أن البحرين إسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان (٣) . كما قرر القلقشندى أن عمان والبحرين كانتا مقاطعة واحدة فى عهد الدولة العباسية وأن عمان قاعدة البحرين بمفهومها الجغرافى الواسع (٤) .

الخليج العربى فى العصر الإسلامى :

يتضح لدينا مما سبق عرضه أن السيادة الفارسية على الخليج العربى فى عصر ما قبل الإسلام كانت سيادة غير واضحة كما أنه لم يتحقق لها صفة الاستمرار فضلا عن

---

(١) السويدى : سبائك الذهب ص ٦ انظر أيضاً :
Bombay gevt, op; cit. pp. 27 – 29.

(٢) محمود بهجت سنان : البحرين درة الخليج العربى ص ١٣ — ١٤ — ٢١ بغداد ١٩٦٣ .

(٣) ياقوت الحموى . معجم البلدان جـ ٢ ص ٧٢ / ٧٣ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ص ٥٤ / ٥٥ .

أن الغموض يكتنفها فى نواح كثيرة ، ومن ناحية أخرى أن العرب والفرس تبادلوا السيادة على سواحل الخليج فى كثير من فترات التاريخ القديم ولكن الأمر الذى لاشك فيه أنه فى خلال العصر الإسلامى،الذى سنتفق على تحديده من القرن السابع الميلادى حتى أواخر القرن الخامس عشر، تحددت بشكل لا يمكن انكاره الشخصية العربية والإسلامية للخليج والحقيقة أن العرب استطاعوا منذ بداية العصر الإسلامى تأكيد الشخصية العربية للخليج ساعدهم على ذلك الهجرات العربية الكبيرة التى اندفعت من الجزيرة العربية إلى سواحل الخليج الغربيــة والشرقية هـذا فضلا عن المعارك الحربية الكثيرة التى خاضها العرب ضد الفرس ويمكن أن نشير بصـدد ذلك إلى معركة ذات السلاسل (٦٣٤م) التى دارت قرب موقع الكويت الحالية فى منطقة كاظمة التى هى الآن من أعمال الكويت . وكانت هذه المعركة بين القائد الفارسى هرمز والقائد العربى خالد بن الوليد ، وكان انتصار العرب فى هذه المعركة سبباً لاخضاعهم العراق وفتحهم لبلاد فارس . كما بنى العرب — بعد انتصارهم فى معركة القادسية — مواضع حربية فى سهول عربستان ، كل موضع يسمى خوز ولذلك أطلق الفرس على هذه المنطقة إسم خوزستان أى بلاد القلاع والحصون،وعلى الرغم من أن كثيراً من المصنفين العرب احتفظوا بالتسميه الفارسية للخليج أو كما كان يطلق عليه اسم خليج العجم فى كثير من المصنفات العربية فى العصر الإسلامى، فلا يعنى ذلك تأكيد الشخصية الفارسية أو الاعجمية للخليج بدليـل أن كثيراً من أولئك المصنفين أنفسهم من أكد أنه ليس فى الخليج شىء فارسى إلا إسمه، وإنما من المرجح أن تكون التسمية الفارسية للخليج هى التسمية التى شاعت استمراراً للتسمية الإغريقية للخليج وترجع هذه التسمية إلى حملة الاسكندر الأكبر إلى الهند الذى كان له فضل الكشف الأول عن شواطىء الخليج ففى اثناء عودته من الهند وجه قائده البحرى نياركوس Nearchus إلى استطلاع شواطىء الخليج (٣٢٤ م) فتم له اكتشاف

الساحل الشرقي ولو قدر لقواد الإسكندر اكتشاف سواحل الخليج الغربية قبل اكتشافهم لسواحله الشرقية لتغيرت التسمية بطبيعة الحال(١). ولكن لا يعنى هذا أن كل المصنفين العرب قد اقروا هذه التسمية إذ أن التتبع المصنفات العربية الإسلامية يلاحظ وجود تسميات عربية للخليج من ذلك ما ذكره ياقوت الحموى وغيره من أصحاب التأليف العربية الإسلامية من خليج البصرة ومكانه خليج عمان .

وطيلة القرون السبعة التى سبق أن حددنا بها العصر الإسلامى، وهو العصر الذهبي للملاحة العربية فى الخليج العربي والمحيط الهندى والبحار الشرقية عموما ، ظل الخليج يستقبل افواجا لا تكاد تنقطع من الهجرات القادمة إليه عن طريق البحر أو عبر الصحراء وعلى الرغم مما ترتب على ذلك من وجود عناصر متعددة إلا أن العنصر العربي كان له التفوق دائما كما ظلت الثقافة ولغة التعامل والتجارة هى اللغة العربية(٢) وكان مما أعان على تفوق النفوذ العربى فى الخليج طيلة العصر الاسلامى تركيز الملاحين العرب على الخليج واستخدامه طريقا للوساطة التجارية بين أوربا والشرق على خلاف الفرس الذين اقتصروا فى وساطتهم التجارية على طرق القوافل البرية عبر فارس وآسيا الصغرى باعتبارهم شعبا يسكن المناطق الداخلية (٣) .

استمر الخليج محتفظاً بسماته ومقوماته العربية طيلة العصر الاسلامى وهو العصر الذى شهد تفوقا فى القوى الملاحية والتجارية العربية ليس فى الخليج العربى

---

(١) عبد الحميد زايد : الخليج العربى عبر التاريخ القديم ، بحث منشور فى « جامعة الكويت والمجتمع » ص ١٢٧ وما بعدها ١٩٦٦ / ١٩٦٧ .

(٢) جمال زكريا قاسم : الملاحة العربية فى الخليج العربى فى عصر التوسع الاستعمارى الأول (دراسة تحت النشر)، انظر أيضا ويرت لاندن: عمان منذ ١٨٥٦ مسيرا ومصيرا .

(٣) لوريمر : دليل الخليج – القسم التاريخى ج١ص٣ .

فحسب وإنما فى بحار الشرق بصفة عامة(١) إلى أن أخذت هذه القوى تصاب بالتمزق العنيف الذى حدث نتيجة الزحف الاستعمارى على بحار الشرق والذى استهله البرتغاليون فى أعقاب نهضتهم الملاحية والاستكشافية الكبرى والتى ترتب عليها أحكام سيطرتهم على المنافذ العربية التى كانت تمر منها تجارة الشرق إلى أوربا فى البحر الأحمر والخليج العربى وبالإضافة إلى ذلك كان للاسلوب الاحتكارى العنيف الذى طبقه البرتغاليون فى سيطرتهم على بحار الشرق وأساليبهم القاسية بما تضمنته من حرق السفن وإغراقها وتعذيب بحارتها أثر كبير فى حرمان القوى العربية والإسلامية من ازدهارها الملاحى السابق (٢) خاصة وأن السيطرة البرتغالية استمرت قائمة فى الخليج منذ بداية القرن السادس عشر الميلادى حتى منتصف القرن السابع عشر أى ما يقرب من قرن ونصف قرن من الزمان . وقد ترتب على عنف السيطرة البرتغالية إنكماش واضح فى موجة المد العربى (٣) فى الوقت الذى استفاد فيه الفرس من معاودة التطلع الى الخليج بحكم الصداقة والتحالف اللذان ربطا بينهم وبين البرتغاليين خاصة فى المراحل الأولى من عمليات التقدم البرتغالى ، ولكن الصداقة الفارسية البرتغالية لم تستمر طويلا وذلك بنجاح الانجليز فى مصادقة شاه فارس والوقيعة

---

(١) راجع فى ذلك فضلو حورانى، الملاحة العربية فى المحيط الهندى، وكذلك آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٤٢٩ / ٤٤٣ .

(٢) زين الدين : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين ـ نشر دافيد لويز ص ٤٥

David Lopes : Historia des Portugueses No Malabar Lispon 1898

(٣) انظر مقدمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم لكتاب الخليج العربى ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ للدكتور جمال زكريا قاسم .

بينه وبين البرتغاليين ثم فى مساعدتهم له على طردهم من كثير من موانى الخليج وجزره ، ففى عام ١٦٢٤ حدث هجوم انجليزى فارسى مشترك على هرمز التى كانت واحدة من أهم وأقوى المعاقل البرتغالية عند المدخل الجنوبى للخليج (١) . ولم تبد سلطات شركة الهند الشرقية البريطانية فى سورات — والتى كانت مسئولة بحكم ارتباطها التجار بالخليج عن السياسة البريطانية فى المنطقة منذ بداية القرن السابع عشر الميلادى — أية معارضة للتغلغل الفارسى فى الخليج جنوبا وغربا، ويعنى ذلك أن السياسة البريطانية هى التى مكنت لفارس تأكيد سيطرتها على سواحل الخليج خلفا للسيطرة البرتغالية، وكان يدفعها الى ذلك دوافع كثيرة منهـا أنه لم تقم فى منطقة الخليج فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر تنظيمات عربية قوية تستلفت نظر السياسة البريطانية وبالتالى تدفعها إلى الدخول فى علاقات سياسية واقتصادية معها بالإضافة إلى أن الوقت لم يكن قد حان بعد لـكى تدخل بريطانيا فى علاقات سياسية أو استراتيجية مع المنطقة بصورة مباشرة إذ أن ذلك قد تأخر إلى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، والأهم من ذلك أن شركة الهند الشرقية البريطانية كانت تمارس احتـكارات اقتصادية فى فارس وخاصة فى مقاطعاتها الجنوبية (٢) وبالتالى كان الإنجليز حريصين على تأكيد السيادة الفارسية فى الخليج على اعتبار

---

(١) Foster, England's Quest in Eastern trade p. 79, London 1933

(٢) Cf. Saldanha, Esst India Companies Connexion with the Persian Gulf 1600-1800, selection From Bombay State papers, see Report on theCommerce of Arabia & Persia by Samuel Manisty & Harford Jones, 1790.

ماسيحققونه نتيجة لذلك من فوائد اقتصادية ، وبالفعل فإن الصداقة الفارسية الإنجليزية ساعدت الإنجليز إلى حد كبير على القضاء على منافسة الهولنديين الذين حاولوا أن يدلوا بدلوهم فى المنافسات التجارية أو الاستعمارية التى احتدمت فى الخليج ، والتى ظهرت واضحة منذ بداية النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى(١) .

وبينما اتجهت فارس ــ باعتمادها على المساعدة الإنجليزية ــ إلى إحلال سيادتها على أنقاض السيطرة البرتغالية فى السواحل الشرقية للخليج ، ركز البرتغاليون عملياتهم العسكرية على السواحل الغربية ، كما اعتمدوا اعتماداً كبيراً على قلعتهم الحصينة فى مسقط التى أنشأها البوكرك بعد احتلاله لمسقط فى عام ١٥٠٧ .

ويستفاد من الروايات المتوافرة لدينا أن سقوط هرمز فى أيدى الفرس فى عام ١٦٢٤ كان له أثر كبير فى إعلان عرب عمان استقلالهم عن مملكة هرمز حيث بايع العمانيون إماماً لهم من أسرة اليعاربة وهو الإمام ناصر بن مرشد فى عام ١٦٢٤ الذى كان عليه أن يتصدى للبرتغاليين الذين ركزوا سيطرتهم على سواحل عمان واعتمدوا على قلعتهم المنيعة فى ميناء مسقط، ومن هنا كان تحرير مسقط هو الهدف الأساسى الذى اتجه إليه العمانيون . وقد بذل الإمام ناصر بن مرشد وخلفاؤه من بعده جهوداً ضخمة فى بناء قوة بحرية كبيرة إدراكا منهم أن الحرب بينهم وبين البرتغاليين هى حرب بحرية فى الدرجة الأولى، وبعد مناوشات كثيرة قاموا بها تمكنوا فى النهاية من تدبير هجوم كاسح على مسقط استسلم على أثره البرتغاليون ١٦٥٨ ورضخوا لمدة شروط من بينها هدم قلاعهم فى مسقط وصور وقريات . والاعتراف بحرية التجارة لمختلف الأجناس فى الخليج العربى والمحيط الهندى ، وهكذا كان

---

(١) Wendel Philips Oman ... A History p. 91 London 1967.

وكذلك لوريمر : دليل الخليج ، القسم الثانى ج ١ ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧ .

القوى العربية دورها الهام فى كسر الاحتكار البرتغالى والمناداة بحرية البحار(١) .
والأمر الذى لاشك فيه أن انهيار السيطرة البرتغاليه فى الخليج كان له أثر كبير فى النشاط البحرى العربى الذى سنلاحظه بشكل واضح منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر .

وبينما كانت فارس تتطلع إلى وراثة النفوذ الاستعمارى البرتغالى فى الخليج ؛ تجد نفسها على العكس من ذلك تتعرض لمتاعب بالغة من قبل العمانيين إلى درجة دفعت بها للاستعانة بالقوى الاستعمارية الزاحفة على الخليج، بعد انحلال النفوذ البرتغالى، بهدف القضاء على الزعامة العربية على مياه الخليج ، وثمة مايؤكد لنا أن الحكومة الفارسية تقدمت فى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر إلى كل من شركة الهند الشرقية البريطانية ، وشركة الهند الشرقية الهولندية طالبة معونتهما فى الهجوم على مسقط .
ولم تتحمس شركة الهند الشرقية البريطانية فى ذلك الوقت للعرض الفارسى إذ لم يكن لديها الرغبة فى التدخل العسكرى أو السياسى فى شئون الخليج لما يتطلب منها ذلك من مواصلة إرسال الجنود أو السفن التى كانت أحوج ما تكون إليهما لتوطيد مركزها فى شبه القارة الهندية(٢) وإن كانت شركة الهند الشرقية البريطانية حريصة فى الوقت نفسه على أن تقف حائلا دون أن يستفيد الهولنديون من الموقف لما قد يؤدى إليه ذلك من تفوقهم على الانجليز فى فارس والخليج العربى .

وعندما لم تجد فارس استجابة لعروضها أرسل الشاه وفادة رسمية إلى ملك

---

(١) عن الصراع العمانى البرتغالى يمكن الرجوع إلى :

Miles, countries & tribes of the Peasiau Gulf vol 2, London, 1919.

(٢) Bombay Govt, op. cit. p. 168.

فرنسا لويس الرابع عشر ، وقد أسفرت هذه الوفادة عن توقيع معاهدة تحالف وصداقة بين فرنسا وفارس في عام ١٧٠٨ ، وكانت هذه المعاهدة تنص في بعض موادها على أن يقوم الفرنسيون بإرسال أسطول إلى الخليج لمساعدة فارس على احتلال مسقط(١)، ولكن مما يستلفت النظر أن هذه المعاهدة ظلت دون تنفيذ ، ولذلك فإن كثيراً من المصادر الأوروبية تركز على الجهود الكبيرة التي بذلها شاه الفرس لكي يحث فرنسا على تنفيذ هذه المعاهدة ، من ذلك ما ذكره ماسون Masson في كتابه عن التجارة الفرنسية في الليفانت(٢) أنه في عام ١٧١٤ أرسل الشاه مبعوثاً خاصاً إلى الملك لويس الرابع عشر لكي يطلعه على مدى الصعوبات التي تتعرض لها فارس في الخليج ، وبالتالي لكي يقنعه بتجديد معاهدة ١٧٠٨ أو وضعها موضع التنفيذ ، ويضيف فلاسون Flasson في كتابه عن تاريخ الدبلوماسية الفرنسية ، بأن المباحثات الفارسية الفرنسية انتهت بموافقة الحكومة الفارسية على أن تمنح مسقط بجميع تحصيناتها إلى الحكومة الفرنسية نظير هذه المساعدة التي كانت تعلق عليها فارس أهمية كبيرة في القضاء على قوة عرب عمان ، وتفوقهم في الخليج العربي(٣) ، ولكن فيما يبدو لنا أن الحكومة الفرنسية لم تكن متحمسة لمحالفة فارس بل لعلها اتجهت اتجاهاً مضاداً استهدفت به تقوية مركزها في مسقط لكي

---

(١) Farroughy' Abbas, Bahrein Islands p· p· 65-66 New York.

(٢) Masson, Histoire dê Commerce Francaise dans le levant au 18 siecles. p. 525.

(٣) Flasson, Histoire de la Diplomatique Francaise Livre II Cf. Davrille, le golfe pérsique, route de L'Inde et de la chine (Extrait de la Revue de Question diplomatique et coloniales, Paris 1905).

تستغلها فى الصراع الذى كان ناشباً بينها وبين الانجليز(١) .

يتضح لدينا اذن أن فارس لم يكن بمقدورها أن تواجه السيادة العربية فى الخليج التى ظهرت منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر، ويكفى أن نشير بصدد ذلك إلى أن النشاط الملاحى العربى لم يقتصر على الخليج العربى فحسب وإنما وصل هـــذا النشــاط إلى سواحل شرق أفريقيا وسواحل الهند ذاتها(٢) . ومن ناحية أخرى أخذت فارس تتعرض لمرحلة من التدهور العنيف بسبب تفاقم مشكلاتها الداخلية التى أسفرت عن إشاعة الفوضى فى كثير من مقاطعاتها بل وتعرض بعضها لعمليات غزو مفاجئة، ففى عام ١٧٢٢ قامت الحرب الفارسية الأفغانية وتمكن الأفغانيون من احتلال مقاطعة أصفهان وارغموا الشاه الضعيف على التنازل عن عرشه(٣) . ومن ناحية أخرى انتهزت روسيا تلك الاضطرابات الداخلية والاخطار الخارجية التى تعرضت لها فارس فبادرت باحتلال بعض مقاطعاتها الشمالية، ولعل ذلك كان من أهم الأسباب التى دفعت بفارس إلى سحب قواتها من الخليج لكى تواجه المشكلات الداخلية والخارجية التى المت بها .

وينبغى أن نركز هنا على أن انهيار السيطرة البرتغالية من الخليج أفسحت المجال للقوى العربية لكى تؤكد لنفسها زعامة الخليج، فالمتتبع لتاريخ الخليج العربى فى القرن الثامن عشر يجد أن أهم ما يميز ذلك القرن عودة موجات المد العربى لاستئناف نشاطها نتيجة للظروف التى أشرنا إليها . وقد اندفعت موجات المد العربى من داخل الجزيرة العربية صوب سواحل الخليج، ولم تقتصر على مجرد كونها هجرات تقليدية

---

(١) عن العلاقات الإنجليزية الفرنسية بمسقط يمكن الرجوع إلى :
Auzoux, France et Mascate P· 67.
(٢) Guillain, op. cit. Tome II p. 518.
(٣) لوريمر : مصدر سبق ذكره ج ١ ص ١٣٠ .

وإنما اتخذت اتجاها جديداً وأعنى بذلك أن شعور العرب بسيادتهم البحرية وقوتهم الفعلية دفع بهم إلى إيجاد تشكيلات سياسية مستقرة على الساحل الغربى من الخليج ، ففى خلال السنوات الأولى من القرن الثامن عشر ، وعلى وجه التحديد فى عام ١٧١٦ ظهرت تجمعات العتوب فى الكويت ، ثم امتدت هذه التجمعات أو فروع منها بعد ذلك إلى كل من قطر والزبارة ١٧٦٦ والبحرين ١٧٨٣(١) . وفى السواحل الشمالية الشرقية من الخليج عند سهول عربستان ظهرت أحلاف قبلية من بنى كعب وبنى تميم وبنى طرف وغيرها مما حدا بفارس ، تحت حكم الصفويين ، أن تطلق على المناطق التى استقرت فيها هذه القبائل اسم عربستان ومعناها بلاد العرب وهذا اعتراف ضمنى من فارس بعروبة هذه المنطقة ، بينما أطلق عليها العرب اسم الاحواز بمعنى الحيازة والتملك (٢) ، وقد قويت الأحلاف العربية القبلية بصفة خاصة على أثر مقتل نادر شاه وما ترتب على ذلك من فوضى تعرضت لها الأقاليم الفارسية .

وفى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر تأسست لمارة المحمرة على يد شيخ من قبيلة بوكاسب ، من بنى كعب الذى عد أسطولهم واحداً من الأحلاف القوية التى قامت فى الخليج إلى جانب قوة القواسم (٣) فى ساحل عمان ، وتمكن بنو كعب وجيرانهم من

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن هذه التجمعات يمكن الرجوع إلى وثائق بومباى وكذلك الدكتور أحمد مصطفى أبو حاكمه — تاريخ الكويت — القسم الأول من الجزء الأول — إصدار لجنة تاريخ الكويت .

(٢) على نعمة الحلو : الأحواز إمارة كعب العربية فى المحمرة بغداد ١٩٦٩ .

(٣) تذكر بعض المصادر الفارسية نسبة القواسم إلى فارس ، والحقيقة أن القواسم عرب خلص يرجعون بنسبهم إلى نجد ويعرفون ببنى ناصر أو بنى الغافرى ، وكانت سيادتهم تمتد من رأس موساندوم إلى الشارقة فى الشمال . ولمزيد من التفصيلات يمكن الرجوع إلى البحث الذى وضعه المستر واردن Warden فى وثائق حكومة بومباى عن قبيلة القواسم .

العتوب أن يكونوا سادة فى القسم الشمالى من الخليج كما كان القواسم واليعاربة ثم البوسعيديون سادة فى القسم الجنوبى، فأصبح الخليج منطقة نفوذ عربية، يضاف إلى ذلك أن القواسم لم يقتصروا على الساحل العمانى وإنما اندفعوا فى فترات مختلفة من القرن الثامن عشر إلى السواحل الشرقية للخليج ، وحكموا إلى جانب مسقط الكثير من جزر وموانى ومقاطعات هذه السواحل. وكان من حسن الطالع أن يشهد الرحالة الدنيماركى كارستن نيبور Neibuhr – وهو واحد من طليعة الرواد الأوربيين الذين توغلوا فى الجزيرة العربية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر – هذه التجمعات العربية التى أشرنا إليها ، كما شهد بنفسه مدى النفوذ الذى وصل إليه عرب الخليج وسيادتهم على سواحله جميعها، مما دفع به إلى التأكيد بأن العرب هم الذين يمتلكون جميع السواحل؛ بما فى ذلك سواحله الشرقية، وأن ملوك فارس لم يتمكنوا من منازعة العرب هذه السيادة ، وأنهم متحملون على مضض بقاء السواحل الشرقية ملكا للعرب(١) .

انهيار النشاط العربى فى الخليج والاحتلال الفارسى لمسقط :

وفى خلال السنوات الأولى من القرن الثامن عشر كان النشاط الملاحى العربى موجها ضد السفن والتجارة الفارسية، كما نجح اليعاربة فى عمان فى السيطرة على بعض

---

(١) كارستن نيبور ، رحالة دانيماركى . كانت له رحلات فى الخليج العربى والجزيرة العربية١٧٦٤/١٧٦٥، ويعد أول من فتح الجزيرة العربية لعمليات الارتياد الأوربى ، وقد ترك مؤلفين هامين هما وصف بلاد العرب طبع فى كوبنهاجن عام ١٧٧٢ ثم مختصر لهذا الكتاب باسم رحلة إلى بلاد العرب . وقد طبع فى عام ١٧٧٤ وتوجد ترجمة فرنسية للكتاب الأول باسم
Description de L'Arabie
وترجمة إنجليزية للكتاب الثانى باسم Travels through Arabia.

الجزر الواقعة على مقربة من بندر عباس، وليس من شك فى أن عرب عمان اغتنموا فرصة الاضطرابات الداخلية التى وقعت فى فارس ، بالإضافة إلى ما سبق أن أشرنا إليه من غزو أفغانى لبعض مقاطعاتها ليؤكدوا لأنفسهم السيطرة والنفوذ ولكن ذلك كان لفترة مؤقتة تغيرت فيها الأوضاع السياسية فى كل من فارس وعمان . ففارس استطاعت أن تتخلص من مشاكلها الداخلية والخارجية بظهور شخصية قيادية هامة فى التاريخ الفارسى وهى شخصية نادر شاه ١٧٢٧ - ١٧٤٧ فى الوقت الذى شاعت فيه الفوضى فى عمان نتيجة الثورات الداخلية والحروب الأهلية التى قامت بين المتنافسين حول منصب الإمامة مما سيتيح الفرصة لنادر شاه لتأكيد النفوذ الفارسى فى الخليج بل سيصل الأمر إلى أبعد من ذلك حينما ينجح فى السيطرة على مسقط ذاتها ، كذلك نجح نادر شاه فى السيطرة على جزر البحرين . ومما يذكر أن البحرين خضعت لفارس منذ أن قام الفرس بطرد القوات البرتغالية منها فى عام ١٦٠٢، ولكن الحكم الفارسى كان مجرد سيادة إسمية، أما السلطة الفعلية فقد كانت تقوم بها القبائل العربية المحلية . وقد حاولت عمان فى عام ١٧١٧ السيطرة على البحرين ولكن احتلالها لم يدم إلا لفترة بسيطة عادت الجزر بعدها إلى حكامها المحليين . وفى عام ١٧٣٣ أصدر نادر شاه أوامره إلى حاكم بوشهر الشيخ ناصر بالنزول إلى البحرين وتمكن من بسط السيادة الفارسية عليها، وكان مما ساعد على ذلك الانقسامات الداخلية التى تعرض لها عرب الحولة الذين استقروا فى البحرين منذ السنوات الأولى من القرن الثامن عشر .

وفى عمان حينما وجد الإمام سيف بن سلطان الثانى نفسه مواجها بأكثر من منافس فى الإمامة اتخذ لنفسه مجموعة من الجنود المرتزقة من عناصر البلوش - وسوف يكون ذلك تقليداً متبعاً فيما بعد للقوة العسكرية فى عمان - ولكنه سرعان ما انهزم

معهم فالتجأ إلى طلب المعونة من فارس(١) . وكان نادر شاه كما سبق أن أشرنا قائداً طموحاً اختط سياسة بحرية استهدف من ورائها ضمان سيطرة فارس على مياه الخليج(٢)، ومن أجل ذلك أرسل كثيراً من الحملات العسكرية، وعلى الرغم من نجاحه في كثير من هذه الحملات إلا أنه اضطر إلى الإقرار بالأمر الواقع والاعتراف بسيطرة القبائل العربية على سواحل الخليج(٣)، كذلك حاول أن يبسط السيادة الفارسية على منطقة شط العرب وكان ذلك في خلال نزاعه مع الدولة العثمانية ، وليس من شك في أن فارس استطاعت في خلال العشرين سنة من حكمه ١٧٢٧ – ١٧٤٧ أن تؤمن ممتلكاتها وتجارتها وتضع حداً للتفوق العربي الذي كان يضطرها في مناسبات كثيرة إلى طلب المساعدات الأجنبية . وكان واضحاً أن الغرض من قبول نادر شاه التدخل في شئون عمان الداخلية هو ضم عمان إلى فارس ولذا لم يكن نادر شاه في حاجة إلى إغراء قوى من إمام عمان للاستجابة له لأنه كان يسيطر في ذلك الوقت على البحرين وبعض المناطق الواقعة على الساحل العمانى، ولقد أدرك نادر شاه أن سيطرته على مسقط سوف تحقق له السيادة والتفوق الذى كان ينشده على سـواحل الخليج العربى وخليج عمان(٤) .

وفى عام ١٧٣٧ قامت حملة فارسية قوامها خمسة آلاف جندى من ميناء بندر عباس وتحت قيادة لطيف خان حيث أنزلت قواتها فى منطقة خورفكان ومما يذكر

---

(١) جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية لقضية عمان – بحث منشور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد ١٢ عام ١٩٦٤ – ١٩٦٥ .

(٢) Lockhart, Nadirshah, p. 182.

(٣) Ibid.

(٤) عن النشاط الفارسى على سواحل الخليج فى عهد نادر شاه يمكن الرجوع إلى وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية – تقارير الوكالات .
Cf. Gombroon Diary end – 13th Feb. 1739.

أن شركة الهند الشرقية الهولندية قدمت بعض السفن للحملة الفارسية ، ثم تقدم لطيف خان إلى رأس الخيمة حيث تقابل مع قوات الإمام سيف وتعاونت القوات الفارسية والعمانية فى إلحاق الهزيمة بيعرب بن حمير الذى كان على الرغم من قرابته لسيف إلا أنه كان متزعماً الثورة ضده(١) . واستطاع الفرس وأتباع الإمام احتلال مدن الجوف وعبرى ثم تقدمت القوات إلى مسقط، ولكن لم يلبث أن وقع الخلاف بين سيف وأعوانه الفرس عندما اتضح له أن هدف الفرس هو السيطرة وليس المعاونة خاصة بعد أن أخذ لطيف خان يتصرف فى البلاد تصرف صاحب الأمر مما أدى إلى إضعاف التحالف القائم بينهما وانتهى الأمر بتراجع لطيف خان إلى جلفار ليكون على مقربة من الأسطول الفارسى . على أن نادر شاه كان قد بيت العزم على احتلال عمان فعندما علم بذلك التراجع بادر بإرسال تقى خان لمعاونة لطيف خان وتمكن القائدان فى يناير ١٧٣٨ من تحقيق السيطرة الفارسية على سواحل عمان ، كما تقدما صوب مسقط ناجحين فى احتلالها فيما عدا قلاعها التى بقيت صامدة رغم طول الحصار(٢) . وعندما أدرك الإمام سيف أن الأمر قد أوشك أن يخرج من يديه سارع إلى الاتفاق مع منافسه بلعرب على أن يعملا على تخليص بلادهما من الفرس وعاونتهما الظروف فى ذلك حينما دب النزاع بين تقى خان ولطيف خان وكان هذا خير فرصة انتهزها ثوار عمان فقاموا بالانقضاض على الحاميات الفارسية التى لقيت فى كل من بهلى وبركة أكبر كارثة يمكن أن تحل بجيش أجنبى(٣) ،وفى أثناء ذلك استطاع أحمد بن سعيد ١٧٤١ — ١٧٨٣ والى اليعاربة على صحار أن يصل إلى إمامة عمان وتزعم حركة التحرير العربية التى لم يقتصر فيها العمانيون على طرد القوات الفارسية من بلادهم

---

(١) Cuillain, Documents sur L'Histoire, Geographie et le commerce de L'Afrique Orientale, Tome I: p. 529· Paris 1856·

(٢) Lockhart, op. cit. p. 183.

(٣) Huart, Hestoire des Arabes Tome II p. 269.

فحسب بل أن الموجة التحررية اندفعت إلى سواحل الخليج العربى حتى وصلت إلى البحرين ، وصادف فى ذلك الوقت تأزم الأمور فى المملكة الفارسية حينما دبت الثورة فى بعض مقاطعاتها الأمر الذى دفعها إلى سرعة سحب قواتها من الخليج لتعالج بها مشكلاتها الداخلية ، وكان لهذه الأحـــداث أثرها فى انهيار السيادة الفارسية على الخليج العربى(١) .

نستخلص مما ذكرناه آنفاً أن فارس استطاعت أن تحقق سيادتها على الساحل الشرقى من الخليج العربى وخليج عمان بعد انهيار النفوذ البرتغالى فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، وفى خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر سيطرت لفترة مؤقتة على مسقط والبحرين ثم أخذت تطالب بهذه المناطق فيما بعد باعتبارها مقاطعات متكاملة معها (٢) ورغم نجاح فارس فى احراز سيادتها على بعض مناطق الخليج فى فترات مختلفة من التاريخ الا أن هذه السيادة كانت شكلية كما أنها لم تمتد إلى أية منطقة من الساحل الغربى فى العصر الحديث إلا لفترة قصيرة جداً من عهد نادر شاه بينما أمتد نفوذ القبائل العربية إلى الساحل الشرقى برمته قروناً عديدة إذ أن الثابت أن مناطق كثيرة من الساحل الشرقى ــ الذى تطل عليه إيران ــ كانت خاضعة لأسر عربية حاكمة سنشير إليها فيما بعد .

<u>اغتيال نادر شاه وضياع السيادة الفارسية من الخليج :</u>

افسح اغتيال نادر شاه فى عام ١٧٤٧ الفرصة لمعاودة نشاط القوى العربية بل ووصول المد العربى إلى السواحل الشرقية من الخليج العربى (٣) ويبدو أن ازدهار القوى العربية فى الساحل الغربى للخليج أدت إلى انتعاش مقابل للقوى العربية المحلية

---

١ Lockhart, op. cit. p. 184 .

(٢) Hay, the persian Gulf states .17.

(٣) عبد الفتاح ابراهيم : على طريق الهند ص ٤ ــ ٥

على طول السواحل الشرقية إذ تميز الساحل الشرقى بظهور أسر عربية محلية ، ويمكن تحديد ثلاث قبائل عربية كانت ترسم الخريطة السياسية للجزء الجنوبى من بلاد فارس فى العقد السابع من القرن الثامن عشر، وهؤلاء هم عرب بوشهر وحاكمهم آنذاك الشيخ نصر آل مذكور وهم من عرب الطاريش العمانيين،وهى قبيلة سنية، وفى خلال حكم نارد شاه قام زعيم هذه الأسرة بالتحول إلى المذهب الشيعى على أمل أن يمينه نارد شاه قائدا للاسطول الذى اعده وجعل من بوشهر قاعدة له وكان هذا فيما هو واضح عملا انتهازياً أكسبه سخط بقية العرب فى بوشهر بل كل العرب المشتغلين بالملاحة فى منطقة الخليج . ثم هناك أيضاً عرب بندر ريج النازلون إلى الشمال من بوشهر وهم ينتمون إلى عرب زعاب من الساحل العمانى،وكانوا يحكمون بالإضافة إلى ذلك جزيرة خرج ، كذلك ظهرت قبائل عربية أخرى فى ميناء لنجة وجزيرة صيرى القريبة منه . ثم هناك عرب بنو كعب ومركزهم الدورق وبالاضافة إلى تلك القوى القبلية الثلاث كان هناك عرب الحوله النازلون على الجزء الجنوبى من الساحل الشرقى من الخليج ، والمنتشرون كذلك فى جزائر قسم وقيس وهرمز وغيرها من الجزر الصغيرة المنتشرة فى جنوب الخليج بيد أن هؤلاء لم يلعبوا دورا يذكر فى الحوادث التى وقعت فى أواخر القرن الثامن عشر وإنما الذى أخذ دورهم هم جماعة القواسم القاطنون فى الساحل العمانى (١) .

والثابت لدينا محاولة حكام عمان تقوية صلاتهم مع هذه القبائل العربية ولدينا بصدد ذلك حلف عقده الإمام احمد بن سعيد ١٧٤٤ / ١٧٨٣ مع قبائل بنى كعب العربية إلى جانب حلف آخر عقده مع قبائل بنى معن القاطنة على مقربة من بندر عباس ، ومما لا شك فيه أن ظهور تلك الاحلاف المديدة بزعامة عمان كان لها أثر

---

(١) أحمد مصطفى أبو حاكمه : تاريخ الكويت ــ الجزء الأول ــ القسم الأول ص ١٤٤ / ١٤٥ .

كبير فى إضعاف محاولات كريم خان الزندى ١٧٥٦/١٧٧٧ فى استعادة السيطرة الفارسية على سواحل الخليج العربى(١).

وكان من الطبيعى أن يترتب على الانتعاش الذى عاشته القوى العربية فى سواحل الخليج نزاعاً مباشر بين عمان — التى ظهرت متزعمة للتحالف العربى — وبين كريم خان الزندى خاصة بعد أن توطدت سلطته فى شيراز واستطاع أن يعيد الاستقرار بعد فترة من الفوضى دامت عشر سنوات بعد اغتيال نادر شاه. وقد ظهر النزاع بين كريم خان وإمام عمان فى بادىء الأمر على حوادث محلية ثم لم يلبث أن تطور الخلاف الى إدعاء كريم خان بالسيادة الفارسية على مسقط استنادا إلى خضوعها تحت قبضة نادر شاه فى الفترة من ١٧٣٨ — ١٧٤٤ ، وإلى استمرار دفع حكامها الجزية السنوية لفارس حتى بعد جلاء القوات الفارسية عنها بعد اغتيال نادر شاه فى عام ١٧٤٧ . وعلى ذلك فقد طلب كريم خان من إمام عمان ضرورة دفع الضرائب السنوية المتأخرة على عمان ولكن إمام عمان رفض أن يذعن لمطالب كريم خان وجاء فى الرد الذى بعث به اليه فى عام ١٧٦٩ بأن الضرائب التى كانت تدفعها حكومة مسقط إلى فارس على عهد نادر شاه لم يكن الدافع اليها هو أحقية فارس لتلك الضرائب قدر ما كانت سياسة انتهجتها لكى تتخلص من متاعب نادر شاه، ولكن الأمر هنا يختلف قدر الاختلاف بين رجلين فالأول كان فاتح فارس كلها، والثانى لا يعدو أن يكون وكيلا على اقليمين أو ثلاثة من أقاليمها (٢) .

---

(١) لوريمر : دليل الخليج — القسم التاريخى ج ١ ص ١٧٨ / ١٧٩ .

(٢) Bombay government, Selection From the records Vol X X IV Bombay I856, cF Historical Sketch of the Rise & progress of the Government of Muscat P. I70.

وكان من الطبيعي أن يترتب على ذلك التحدى قيام بعض المناوشات بين فارس وعمان إذ تمكن الفرس من الاستيلاء على بعض القطع العمانية مما أدى إلى ذهاب أسطول مسقط في عام ١٧٧٠ إلى بوشهر لطلب ترضية كافية، كما تزعمت عمان حلفا قاسميا انضم إليه شيخ هرمز وأصاب جزءا من السواحل الشرقية للخليج ببعض الأضرار. وكان كريم خان وقد شغلته المنازعات الداخلية في فارس قد ترك تصريف الشئون البحرية للشيخ نصر حاكم بوشهر الذي منحه سلطة مواصلة الحرب أو عقد الصلح مع عمان. ومن ناحية أخرى فإن كريم خان انشغل في شئون عمان وصراعه معها بالصراع الذي قام بينه وبين الدولة العثمانية في عام ١٧٧٥. وقد قام كريم خان بالفعل بفرض حصار قوى على البصرة وكان قد مهد لذلك بالسيطرة على منطقة شط العرب كما دمر الدورق عاصمة إقليم بنى كعب واضطرت القبيلة إلى إظهار تأييدها لكريم خان في حملته على البصرة في عام ١٧٧٦ بعد أن عقد كريم خان تحالفا معها والنتيجة السياسية لهذا التحالف — كما يقرر أحد الباحثين — تكمن في أن فارس اعترفت اعترافا فعليا بتلك القوى العربية وسيادتها على المنطقة فمن الطبيعي أنه من المستحيل الدخول في تحالف مع طرف آخر إذا لم يكن ذلك الطرف معترفا بوجوده كقوة سياسية (١).

وفي خلال الحصار الذي فرضه كريم خان على البصره انتهز إمام عمان تلك الفرصة فأسرع بإعداد حملة بحرية قادها بنفسه لفك الحصار وتطهير منطقة شط العرب من التغلغل الفارسي (٢). وقد هاجمت قواته التي كانت تزيد على عشرة آلاف جندي

---

(١) مصطفى عبد القادر النجار: التاريخ السياسي لإمارة عربستان ص ٤٩

(٢) Bombay Govt., op. cit. CF. The Rise & Progress of the government of Muscat. p. 172.

واثنى عشر سفينة حربية المواقع الفارسية فى نفس الوقت الذى كانت فيه مدافع سفنه تضرب أسوار المدينة وقد أشاد السلطان العثمانى مصطفى الثالث بهذه المعاونة التى قدمها العمانيون فأصدر فرمانا يقضى بدفع مساعدة مالية سنوية إلى إمام عمان وقد استمرت هذه المساعدة حتى بداية عهد سعيد بن سلطان(١) .

وفيما يبدو أن كريم خان كان يتحين الظروف اللائمة للسيطرة على عمان فحين سقطت البصرة فى يد الفرس فى عام ١٧٧٦ طلب إعداد تقرير عن إمكانية الزحف منها إلى عمان ولكن هذه الخطة لم تنفذ ، وبوفاة كريم خان فى عام ١٧٧٩ أخذت فارس تتراجع عن الصدارة والقوة بين بلدان الخليج وبعد سنوات قليلة أضحت من أكثر هذه البلدان ضعفا وأسوأها نظاما إذ قامت المنازعات بين ورثة كريم خان لارتقاء العرش وفى خلال ثمانية عشر عاما من وفاة كريم خان تولى الحكم سبعة من أفراد أسرته فقدوا كل نفوذهم الخارجى بل والداخلى أيضاً حتى أن أقاليم كثيرة من المقاطعات الإيرانية ذاتها خرجت عن سلطانهم واستمر الوضع على ذلك حتى قيام أسرة قاجار بالاضطلاع بمسئوليات الحكم فى فارس منذ عام ١٧٩٧ .(٢).

وليس من شك فى أن فترة التدهور التى عاشتها فارس ١٧٧٩/١٧٩٧ أفسحت المجال لعمان لتأكيد نفوذها على السواحل الشرقية من الخليج بل وقيام حكم عربى على أجزاء كبيرة من هذا الساحل بما فى ذلك جزره وموانئه(٣) كما انفسح المجال أيضا للقوى

---

(١) محمود على الداود : التطور السياسى لقضية عمان ص ٢٩

(٢) لوريمر : دليل الخليج — القسم التاريخى ج ١ ص ٢٣٢ ومابعدها .

(٣) Curzon, Persia& The Persian Question VoL II p. 423 .

العربية الأخرى بما فى ذلك القواسم فى الساحل العمانى وبنو كعب وغيرهم لاستعادة نفوذهم السابق كما أن فترة الفوضى هذه كانت على درجة كبيرة من الأهمية أيضاً لأنها ساعدت فرعا من العتوب ـ وهم آل خليفة ـ السيطرة على الزبارة ومن ثم الوثوب على البحرين لتخليصها من السيطرة الفارسية فى عام ١٧٨٣ حيث تم وضع أساس حكم عربى مستقر فى تلك الجزر .

ويمكننا أن نعالج فترة اضمحلال النفوذ الفارسى فى السنوات التى أعقبت اغتيال كريم خان حتى وصول أسرة قاجار إلى الحكم ثم استمرار إنحلال النفوذ الفارسى طيلة القرن التاسع عشر فى عدة نقاط هامة كل واحدة منها تؤكد لنا بما لا يقبل جدال قوة النفوذ العربى الذى ظهر على غاية مايكون من التفوق ليس على سواحل الخليج الغربية فحسب وإنما على سواحله الشرقية أيضا وبالتالى أصبح الخليج بحيرة عربية تماما إلى إلى أن أخذ يتعرض للزحف الاستعمارى البريطانى منذ السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، وطيلة سنوات القرن التاسع عشر وما بعدها ، ولم تعد العلاقات الفارسية العربية تمارس إلا من خلال بريطانيا . وفى أحيان كثيرة مهدت السيطرة البريطانية لفارس تأكيد سيطرتها على بعض أجزاء من الساحل الشرقى وإن كانت قد عارضتها فى مناطق أخرى على الساحل الغربى من الخليج لاسيا البحرين كما سيتضح لدينا من مناقشة النقاط التى أشرنا إليها على الوجه التالى : ـ

أولا : إنهيار نفوذ بنى كعب :

سبق أن أشرنا إلى أن بنى كعب يرجعون بأصولهم إلى نجد ولكنهم توجهوا فى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر على حد قول نيبور إلى أقصى بقعة تقع شمال الخليج العربى وبلغت قوتهم شأوا عظيما فى منتصف القرن الثامن عشر ولما كانت الرقعة التى ينزل فيها بنو كعب موضع تنازع العثمانيين والفرس فقد كان على شيوخ بنى كعب أن يراوغوا الطرفين للاحتفاظ باستقلالهم ، وبلغت قوتهم إلى الدرجة التى أقلقت

الدولة العثمانية وأخافت فارس(١) ولما عجزت الدولتان عن إحراز أى نصر ضدهم اتفقتا فيما بينهما على تصفية خلافات الحدود وكان ذلك فى اتفاقية أرضروم الثانيـة فى عام ١٨٤٧(٢) . حيث جاء فى المادة الثانية من هذه الإتفاقية التى اشتركت كل من إنجلترا وروسيا فى توقيعها على أن تعترف الحكومة العثمانية بصورة رسمية بسيادة الحكومة الفارسية التامة على مدينة المحمرة ومينائها وجزيرة خضر (عبدان) بالإضافة إلى الأراضى الواقعة على الضفة الشرقية من شط العرب وعلى الرغم من أن هذه المذكرة الإيضاحية لهذه المـادة حددت المناطق المعترف بتبعيتها لفارس إلا أن الحـكومة الفارسية أضافت إلى سيطرتها مناطق أخرى لم تحددها الاتفاقية(٣) .

وعلى أى حال فإن قبول شيوخ عربستان الولاء لفارس لم يحدث بشكل رسمى إلا بعد توقيع معاهدة أرضروم وكان ذلك أمرا ضروريا بعد أن تخلت عنهم الدولة العثمانية وإن كان من المؤكد لدينا أن هذا الولاء كان من الناحية الشكلية البحتة . فإن مايلاحظ على ماجاء فى المادة الثانية من معاهدة أرضروم أن هذه المادة قررت مصير شعب عربستان رغم إرادته ومن ناحية أخرى أن قبيلة بنى كعب لم تتنازل عن سيادتها على المناطق التى استقرت فيها لفارس فقبيلة بنى كعب لاتمت لفارس بأية صلة بشرية ولا يتعـدى الأمر أكثر من اتفاقهما فى اعتناق المذهب الشيعى . والجـدير بالذكر أن الادعاءات الإيرانية على عربستان قد ركزت بشكل واضح على هـــذا

---

(١) شفيق الرشيدات . عربستان ، الجزء العربى المغتصب ص٦٢ .

(٢) الداود : الخليج العربى والعلاقات الدولية ١٨٩٠ – ١٩١٤ ص٤٢/٤٣ وعن مساندة بريطانيا لفارس فى منطقة شط العرب على حساب الدولة العثمانية ،

(٣) يمكن الرجوع فى ذلك إلى وثائق الحرب العالمية الأولى :

Gooch & Temperley , British Documents on the Origins of the war VoL X Part II CF. Mallet to Hackki Pasha 26 / 2 /1913 Doc No 60 pp . 90 – 91 .

التشابه المذهبي إلا أنه بطبيعة الحال لايصلح لكي يكون إدعاءا قوياً وفيما يبدو مع ذلك أن النزعة المذهبية كان لها تأثير كبير عند عقد معاهدة أرضروم التي نصت على إلحاق المناطق الشيعية في عربستان إلى فارس في حين ضمت السليمانية وما جاورها - وهي مناطق سنية - الدولة العثمانية(١).

وفي خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين استطاعت بريطانيا أن توطد نفوذها في إمارة عربستان بل أنها منحت شيوخها وعودا كثيرة بالحماية وتحقيق الاستقلال وظهر ذلك واضحا في التعهدات البريطانية التي قدمت إلى الشيخ خزعل خان ١٨٩٧ - ١٩٢٥ قبيل الحرب العالمية الأولى وفي خلالها(٢) ولكن بريطانيا كان من السهل عليها أن تتجاهل هذه التعهدات في أعقاب الحرب العالمية الأولى حينما اتجهت السياسة الإيرانية في عهد محمد رضا بهلوي اتجاها قوميا عنيفا تمثل في انتزاع منطقة عربستان وفصلها عن الوطن العربي والقبض على شيخها وإنهاء الحكم العربي فيها ١٩٢٥ ومضت عمليات (التفريس) القسري تأخذ دورها في تشريد القبائل العربية وفي التعليم وفي قمع الانتفاضات العربية في عربستان والتي كانت تتزعمها بعض الأحزاب السياسية ، بالإضافة إلى جبهة تحرير عربستان التي أعدم كثير من زعمائها واضطرارها إلى التحول إلى العراق في محاولة لاستئناف نشاطها .

ثانيا : قيام وسقوط الحكم العربي في السواحل الجنوبية الشرقية للخليج

لم تقتصر الهجرات العربية - التي نزحت من الجزيرة العربية في أوائل القرن

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن تحليل الأسس المختلفة التي كانت تستند عليها إيران في إدعاءاتها على عربستان انظر : مصطفى عبد القادر ، التاريخ السياسي لعربستان ص ٧٢ وما بعدها .

(٢) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ١٨٤٠ - ١٩١٤ ص ٤٠٦

الثامن عشر — على الاستقرار على السواحل الغربية للخليج فحسب وإنما عبرت قبائل عربية كثيرة مياه الخليج واستقرت على سواحله الشرقية أيضا حيث مارست هناك حكما ذاتيا وإن كانت قد اعترفت فى بعض الأحيان بالسيادة الفارسية عليها . على أن السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر تحدد لنا تطورا هاما بالنسبة القبائل العربية القاطنة على السواحل الشرقية الجنوبية والذى تمثل فى ظهور حكم عربى مستقر وقد نشأ هذا الحكم العربى المستقر نتيجة عاملين أساسيين : —

العامل الأول : ارتباط بعض جزر وموانى السواحل الجنوبية الشرقية بالحكم العربى فى عمان .

والعامل الثانى : ظهور أسرات عربية مستقلة حكمت بعض جزر وموانى الساحل الشرقى .

وكان مما أفسح المجال لظهور حكم عربى مستقر حالة الانهيار التى أخذت تعانى منها فارس منذ أواخر القرن الثامن عشر . فقد نجح العمانيون فى السيطرة على ميناء بندر عباس بملحقاته جوادر وشهبار ، وكان ذلك على عهد سلطان بن أحمد ١٧٩٣ — ١٨٠٤ ، التى كانت حروبه وفتوحاته فى السواحل الجنوبية الشرقية من الخليج من أهم الأعمال التى قام بها فعقب وصوله إلى الحكم مباشرة قام بالاستيلاء على جوادر سنة ١٧٩٣ وعين فيها حاكما من قبله نجح بأوامر منه فى السيطرة على شهبار . وفى العام التالى ١٧٩٤ قاد سلطان بن أحمد بنفسه حملة بحرية على بنى معن فى جزيرتى قشم وهرمز ، وهى قبائل عربية كانت تحكم هذه المناطق بفرمان من الشاه(١) ، ولذلك ترتب على نجاح سلطان بن أحمد فى حملته البحرية هذه تحول الضرائب التى كانت تدفع إيجاراً لميناء بندر عباس وما جاوره بما فى ذلك ميناء ميناب وجزر قشم وهرمز وهانجام من شيوخ بنى معن إلى حاكم مسقط ، ولم يكن

(١) Curzon, op. çit. VoL II p. 423.

هذا الايجار السنوى يزيد على أربعة آلاف روبية قبلت حكومة مسقط أن تدفعها إلى فارس بمثابة إيجار لهذه المناطق التى أعلنت سيطرتها عليها . والحقيقة أن فارس لم تكن لتسلم بطبيعة الحال بانتقال السيادة على هذه المناطق الهامة من أسرة عربية صغيرة كبنى معن إلى دولة عربية كبيرة كسلطنة مسقط، ولذلك حاولت فارس بمساعدة شيخ بوشهر أن ترد الهجوم العمانى، ولكن شيخ بوشهر فشل فى مهمته عام ١٧٩٦ وأرغمت فارس فى العام التالى ١٧٩٧ على أن تعترف رسمياً بالإدارة العربية التى قامت فى ميناء بندر عباس بملحقاته الواقعة على ساحل مكران ، وكذلك على جزر قشم وهرمز وغيرها من الجزر والموانىء التى نجحت حكومة مسقط فى انتزاعها من قبائل بنى معن ، أو بالأحرى انتزاعها من السيادة الفارسية(١). ولم يكن الإيجار الذى قبلت حكومة مسقط دفعه إلى فارس إلا بمثابة ترضية للحكومة الفارسية إذ كانت سلطنة مسقط فى حقيقة الأمر تتصرف فى هذه المناطق التى آلت إليها من حيث تنظيم إدارتها وتجارتها تصرف صاحب الأمر، ويمكن أن نؤكد ذلك استنادا على المعاهدة التى وقعها سلطان بن أحمد مع شركة الهند الشرقية البريطانية(٢)، وهى أولى المعاهدات التى عقدتها بريطانيا فى منطقة الخليج العربى عام ١٧٩٨، إذ نصت المادة السابعة من هذه المعاهدة على أن يسمح سلطان مسقط للانجليز بإبقاء حامية عسكرية وإنشاء وكالة تجارية فى بندر عباس، ومن الثابت لدينا أن السلطان منح تلك الامتيازات للانجليز دون أن يرجع فى ذلك إلى الحكومة الفارسية مما يؤكد أن السلطنة العربية فى مسقط أخذت تتصرف فى هذه المناطق التى آلت إليها تصرف المالك المستقل (٣) .

---

(١) Sykes (Percy), History of Persia Vol II p. 456

(٢) Aitchison, Collection of Treaties, Engagements & Sands relating, to India & Neighbouring Countries, Vol XII pp. 207-208 Calcuta, 1892.

(٣) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا ص٧٦

وإذا كان أقصى توسع حققه العرب فى السواحل الشرقية والغربية للخليج بدا واضحا فى نهاية القرن الثامن عشر، إلا أن التفوق العربى لم يلبث أن تعرض منــــذ ذلك الوقت وفى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر للتغلغل البريطانى. وكان الإنجليز فى تغلغلهم فى الخليج حريصين تماماً على موازنة القوى العربية والفارسية تحقيقاً لصالحهم الاستعمارية، وسوف يظهر ذلك واضحا فى موقفهم من الإدارة العربية على السواحل الشرقية الجنوبية للخليج فى القرن التاسع عشر؛ وبالتالى من العلاقات العمانية الفارسية على مدى سنوات القرن التاسع عشر ، فلقد حاولت فارس عقب وفاة سلطان بن أحمد فى عام ١٨٠٤ أن تجرد سلطنة مسقط من توابعها وذلك بتشجيعها شيوخ بنى معين على استعادة بندر عباس وميناب ولـكن بدر بن سيف الذى كان قائما بالوصاية على الحـكم فى عمان انتهز فرصة قيام الحـكومة البريطانية بإرسال حملة ١٨٠٥ لضرب معاقل القواسم لـكى يشترك فى هذه الحملة التى كان يقودها الـكابتن سيتون Seton(١) وقد نجح بدر فى توجيه هذه الحملة إلى الساحل الشرقى للخليج بهدف استعادة ميناء بندر عباس من شيوخ بنى معين ، كما نجح بدر بن سيف فى تخليص ميناب من الحصار الذى كان قد فرضه الفرس على هـــذا الميناء حتى أن الـكابتن سيتون كتب تقريرا إلى حكومته يقول فيه «إن السيد بدر كان يرى استعادة توابع عمان فى الساحل الشرقى من الخليج عملا أ كثر أهمية من مكافحة القرصنة ومقدما عليها وأنه لو لم يكن هو نفسه موجودا لقام بدر بأعمال عدائية أكثر عنفا » ومما يذكر أن السيد بدر اعترافا منه بعون الـكابتن سيتون وأملا منه فى أن يستطيع التوفيق بين المصالح البريطانية والعمانية على السواحل الشرقية من الخليج

---

(١) عن الحملات البريطانية التى وجهت ضد القواسم يمكن الرجوع فى ذلك إلى وثائق بومباى

CF Historical Skétch of the Joasme Tribe of Arabs 1847 – 1853 p. 299 FP.

قد سمح للانجليز بإقامة وكالة في بندر عباس ولـكن الحكومة البريطانية ارتأت تأجيل تنفيذ ذلك بالنظر إلى ضرورة الحصول على موافقة من الحكومة الفارسية وهذا فيما يبدو لنا يتناقض تناقضا كبيرا مع موقفها عند عقد معاهدتها مع مسقط في عام ١٧٩٨ خاصة بعد أن زال الخطر الفرنسي الذي كان يتهددها برحيل الحملة الفرنسية عن مصر في عام ١٨٠١ . والجدير بالذكر أن الحكومة البريطانية أخذت تقف إلى جانب فارس في خلال المنازعات التي قامت بين فارس وعمان حول حقوق السيادة على بندر عباس وتوابعها . ففي عام ١٨٢٣ حاولت فارس أن تجرد مسقط من سيطرتها على هذه المناطق وعلى الرغم من أن سلطان مسقط نجح في الاحتفاظ بتبعية هذه المناطق إلا أنه اضطر إلى الموافقة في الوقت نفسه على أن يرفع قيمـــة الإيجار السنوى ، وفي عام ١٨٢٦ حاول سلطان مسقط منتهزا فرصة غياب شيخ بوشهر في رحلة الحج ، وكان يعهد إليه بالإشراف على الجزر والموانى الخاضعـة للادارة العمانية، تدبير هجوم على بوشهر، وكاد يسيطر على الموقف لولا تدخل المقيم البريطاني الذي أقنعه بعدم تدمير الميناء مراعاة للصداقة القائمة بينه وبين الحكومة البريطانية بسبب وجود القيمية البريطانية فيه .

وعلى أثر نقل سلطان مسقط عاصمته إلى زنجبار وإقامته الدائمة فيها بعد عام ١٨٤٠ ترتب على ذلك تفكك واضح تعرضت له الأقاليم العمانية وكان من الطبيعى أن تنتهز الحكومة الفارسية فرصة تمزق الأوضاع الداخلية في عمان لتخليص المناطق التي كانت تتبعها على السواحل الشرقية(١) . ففي عام ١٨٥٤ قامت الحكومة الفارسية بطرد سيف بن نبهان الذى كان ممثلا لسلطان مسقط في بندر عباس، وقد أسرع سلطان مسقط بمغادرة زنجبار لمعالجة الأخطار التي أخذت تتعرض لها ممتلكاته على سواحل الخليج حيث وجه حملة كبيرة إلى بندر عباس جعل قيادتها لابنه ثوينى

---

(١) Hurat, Histoire des Arabes Tome II P. 277.

واستطاعت الحملة أن تسترد الأقاليم الضائعة التى سيطرت عليها فارس — ميناب وبندر عباس — ولـكن ثوينى لم يستطع مع ذلك الصمود فى وجه الفرس الذين أخذوا يتزايدون فى عددهم تزايدا مستمرا فاضطر إلى التراجع إلى سفنه بعد أن فقد عدداً كبيراً من جيشه . وحينما حاول سلطان مسقط أن يستعين بحلفاء من قبائل الساحل العمانى لنجدة قواته اصطدم بمعارضة شديدة من السلطات الإنجليزية فى الخليج حينما بادر المقيم البريطانى بإصدار أوامره بمنع القيام بأعمال بحرية عسكرية تنفيذاً لشروط الهدنة البحرية الدائمة فى عام ١٨٥٣ ، كما فشل سلطان مسقط على المستوى السياسى أن يستعين بالإنجليز ضد فارس بعد أن ظهر واضحا أن الحـكومة البريطانية على الرغم من صداقتها له إلا أنها تخلت عنه مراعاة لفارس التى كانت تتودد إليها فى ذلك الوقت ضد روسيا فى خلال حرب القرم ١٨٥٤ — ١٨٥٦(١) . وقد انتهت هذه الأزمة بتوقيع اتفاقية بين فارس ومسقط ـ بواسطة بريطانيا ـ فى ١٧ نوفمبر ١٨٥٦، ولم تكن شروط الاتفاقية فى مصلحة مسقط بطبيعة الحال، فقد نصت على تجديد امتياز إيجار بندر عباس وملحقاته ، بالإضافة إلى أقاليم شمايل وميناب وجزيرتى قشم وهرمز، ولـكنها نصت من ناحية أخرى على تدعيم السيادة الفارسية على هذه الأقاليم بصورة لم تـكن تعرف من قبل ، كما رفعت الاتفاقية قيمة الإيجار السنوى الذى كان لا يتجاوز أربعة آلاف روبية إلى أربعة عشر ألف تومان إلى جانب ترضيات أخرى بلغ مقدارها ألفى تومان . ومن المواد المقيدة التى نصت عليها الاتفاقية أيضا والتى يظهر منها تدعيم السيادة الفارسية هى عدم تصرف سلطـــان

---

(١) عن هذه الاتفاقية والاتفاقيات الأخرى التى عقدت بين الحـكومة الفارسية وسلطنة مسقط يمكن الرجوع إلى هرتزلت فى مجموعة معاهداته .

Treaties between Great Britain and Persia and between Persia & Foreign Powers PP. 112 – 115 see also Hurewitz Diplomacy in the Near & Middle East Vol I. P 157.

مسقط فى المناطق التى يديرها وإذا لم توافق الحكومة الفارسية على ممثل السلطان فى هذه المناطق فعليه سحبه على الفور ، وبطبيعة الحال كانت هذه الشروط فى جملتها تعنى ضياع السيطرة العمانية من هذه المقاطعات إذ أصبح ممثل حاكم مسقط لايعدو وأن يكون تابعا من توابع الفرس هذا بالإضافة إلى أن هذه الاتفاقية اقتصرت على السيد سعيد سلطان مسقط وأبنائه فقط ، وأن التعاقد القائم بين سلطان مسقط والحكومة الفارسية ينتهى تلقائيا بعد مرور عشرين عاما أو فى حالة قيام انقلاب فى حكومة عمان بحيث يؤدى إلى وصول حاكم لا يكون من بين أبناء السيد سعيد .

وقد علق لوريمر Lorimer على هذه الاتفاقية بقوله « أنها نقلت وضع السيد سعيد فى بندر عباس من حالة المالك الذى يملك إلى حالة من يلتقى العناء فى استمراره فيها وفى هذا إنتقاص لقدره ولا شك »(١) .

وعلى الرغم من هذه الشروط التى كما يبدو واضحا منها أنها قللت من سلطة حكام مسقط فى ممارستهم للحكم والإدارة على الموانى الواقعة على السواحل الشرقية من الخليج فقد أعجب كثير من الرحالة الذين زاروا تلك الموانى بالإدارة العربية ووصفوها بأنها إدارة ناجحة وتفوق إلى درجة كبيرة الإدارة الفارسية السيئة وما اتصفت به من مظالم وإجحاف . وقد ذكر وليام بالجراف Palgarve الذى قام برحلاته فى الجزيرة العربية وسواحل الخليج فى عام ١٨٦٢/١٨٦٣ أن هذه الموانى نجحت تحت الإدارة العربية واستطاعت أن تجتذب إليها الكثير من المستوطنين والتجار من مختلف العناصر والأجناس بفضل سياسة التسامح والحرية الإقتصادية التى سار عليها الحكام العرب لهذه الموانى إذ انتعشت التجارة مع الهند انتعاشاً

---

(١) لوريمر — دليل الخليج — القسم التاريخى ج ٢ ص ٧١٤ وكذلك الجزء الخامس — تاريخ الساحل الإيرانى والجزر ص ٢٧٩٥ — ٢٧٩٦ .

كبيراً وازدهرت التجارة بصفة عامة بعد إعلان كل من ميناء بندر عباس ولنجه بأنهما موانيء حرة(١).

وقد ظلت إتفاقية ١٨٥٦ سارية المفعول حتى عام ١٨٦٦ حينما قامت الحكومة الفارسية بتحويل إمتياز بندر عباس وتوابعها من حكومة مسقط إلى أحد شيوخ العرب القاطنين في بندر عباس ، وقد أقدمت على ذلك حينما تولى سالم بن ثويني حكومة مسقط بعد اغتصابه السلطة من أبيه ثويني ، وإن كان يلاحظ أن تحويل الإمتياز كان على أساس تبعية بندر عباس للحكومة الفارسية وليس على أساس تبعية الميناء لسلطان مسقط ، وفي الوقت نفسه ارتفعت قيمة الإيجار السنوى مرة أخرى من ستة عشر ألف تومان إلى عشرين ألفاً . وعندما تأخر الشيخ العربي عن دفع الإيجار المستحق انتهزت الحكومة الفارسية هذه الفرصة لطرده بالقوة وإستبداله بملتزم فارسي مما كان دافعاً لسلطان مسقط سالم بن ثويني بتهديد السواحل الشرقية للخليج في أبريل ١٨٦٨ ، ولكن السلطات البريطانية رفضت السماح له بمواصلة عملياته العسكرية، واستطاع الكولونيل بلي المقيم السياسي في الخليج أن يتوسط في عقد اتفاقية جديدة نصت على أن يجدد امتياز بندر عباس لمدة ثمان سنوات لمصلحة السيد سالم وأبنائه من بعده مقابل ثلاثين ألف تومان مع سريان بقية الشروط التي كانت محددة في اتفاقية نوفمبر ١٨٥٦ التي سبق أن أشرنا إليها (٢) . على أنه حدث بعد مضى فترة قصيرة من توقيع الاتفاقية الجديدة أن

---

(١) Palgrave, Narrative of a year's Journey through Central & Eastérn Arabia VoL II P · 288 FF see also Personal Narrative P . 392 .

(٢) Curzon , op . cit . P · 424 VoL II see also Hertslet , op. cit . P . 115 FF.

أطيح بالسيد سالم من حكومة مسقط على أثر انبعاث الإمامة الإباضية فى عهـــد الإمـــام عزان بن قيس ١٨٦٨ — ١٨٧١ ولما كان نظام الإمامة يخالف نظام السلطنة فقد اعتبر وجود الإمامة بمثابة إنقلاب فى حكومة مسقط وبالتالى أصبحت الإتفاقية ملغاة تلقائياً(١) ،وفشل الإمام المنتخب فى أن يستعيد سيطرته على الموانى العربية على الساحل الشرقى من الخليج وكان فشله هـذا دافعاً لإتخاذ الخطوة النهائية من جانب السلطات الفارسية لطرد للمثل العمانى والسيطرة على ميناء بندر عباس بملحقاته(٢) .

والجدير بالذكر أن الحكومة البريطانية لم تظهر تحمساً لإستبقاء هذه التوابع تحت سلطة مسقط باستثناء مقاطعة جوادور التى أصرت على استبقاء تبعيتها لحكومة مسقط وكان ذلك لمصلحتها فى مد الخطوط البرقيـــة من كراتشى إلى جوادور ، وبالتالى فقد عارضت الإدعاءات الفارسية التى استندت إلى حد كبير فى حقوق سيادتها على توسعات نادر شاه فى مقاطعات جوادور وشهبار ومكران وبلوخستان وغيرها (٣) ولم تكتف فارس بالافتيات على ملكية مسقط لهذه المناطق وإنما

---

(١) Sykes, op. cit. VoL II p. 423 – 424.
see also Hurewitz, op. cit Vol. I 159
and coupland, East Africa & Its Invaders P · 552

(٢) Sykes, op. cit. Vol II PP · 423 – 424
see also Hurewitz, op cit Vol I 159
and Coupland, East Africa & Its Invaders p. 552

(٣) Asiatic Quarterly Review Vol V January – April 1888 p. 413

ولمزيد من التفصيلات عن الخطوط البرقية على الساحل الشرقى للخليج يمكن الرجوع إلى .
Goldsmid, Telegraph & Travel PP. 235 – 236

سيصل بها الأمر فيما بعد إلى إثارة إدعاءات على سلطنة مسقط ذاتها مع ملاحظة أن هذه الإدعاءات لم تظهر إلا في فترة متأخرة في العشرينات من القرن الحالي ، ووضح النشاط الفارسي في محاولة الحكومة الفارسية أن تعقد معاهدة مع مسقط بينما عارضت الحكومة البريطانية في ذلك مما أدى إلى احتجاج الحكومة الفارسية وإعلانها عدم الاعتراف بجميع المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع إمارات الخليج باعتبارها جزءاً من الإمبراطورية الفارسية(١) . كما ظهر النشاط الفارسي في مسقط بإصرار السلطات الفارسية على تطبيق نظام الجبر — وهو وثيقة سفر فارسية — على مسقط باعتبارها مقاطعة فارسية ، كما حاولت إرسال بعض قطع من أسطولها إلى ميناء مسقط دون إعلان مسبق ولكنها آثرت أن توقف نشاطها إزاء الموقف المتشدد الذي وقفته بريطانيا(٢) . وكانت الحكومة الفارسية ترتكز في إدعاءاتها على مسقط على سبق احتلالها لها في عهد نادر شاه في خلال الفترة من ١٧٣٨ — ١٧٤٤ ويبدو أن الحكومة البريطانية كانت تدرك تماماً أن الإدعاء الفارسي على مسقط إدعاء واهن ،وأن اتجاه الحكومة الفارسية للاحتجاج لدى عصبة الأمم بمناسبة مناقشة الإدعاءات الفارسية على البحرين سيؤدي إلى أثر عكسي بل ربما يساعد على تقوية النفوذ البريطاني في الخليج باعتباره ضرورياً لحماية حقوق الشعوب الضعيفة ،حتى أن حكومة الهند اقترحت لدى وزارة الخارجية

---

(١) R / 15 / 3 / 19 / 27 Persian Navy Activities Political Agency Muscat to Biscoe 26 th Narth, 1931

(٢) Ibid, cf Persian Navy Activities & vistis to Arab ports

Resident, Bushire to Agent, Muscat 7 th March, 1932 .

البريطانية أن تأخذ بزمام المبادرة وذلك بتحريضها سلطان مسقط على أن يعهد إليها إثارة شكواه لدى عصبة الأمم(١) .

ثالثاً : الادعاءات الإيرانية على الساحل العمانى وجزره :

لعل الازدهار الملاحى الذى عاشته القبائل العربية القاطنة على الساحل العمانى والتفوق الذى أحرزته فى فترات كثيرة من القرن الثامن عشر قد وقف حائلا دون ظهور تعديات فارسية على المنطقة وإنما على العكس من ذلك استطاعت القبائل العربية القاطنة على هذا الساحل أن تسيطر على كثير من الجزر والموانى الواقعة على السواحل الشرقية المقابلة لها .

وكانت قبيلة القواسم من أبرز القبائل العربيـــة القاطنة على الساحل العمانى، وينبغى هنا أن ندحض ما ذهب إليه البعض من إرجاع القواسم إلى أصول فارسية بهدف إيجاد أصول تاريخية أو بشرية لمطالبة فارس بالسيطرة على الساحل العمانى فحقيقة الأمر أن القواسم قبائل عربية جاءت إلى الخليج من العراق بعد هجرتهم الأولى من أواسط الجزيرة العربية كما يستدل على ذلك من كتب ومعاجم الأنساب المعروفة، وكان زعيم القواسم هو الشيخ قاسم الذى نصب خيمته فى نقطة تقطع على الساحل مقابل جلفار فكانت تراها جميع السفن المارة فى الخليج فأطلق البحارة على هذا المكان إسم رأس الخيمة، وبعد ذلك نشأت مدينة عربية حملت ذلك الإسم . وقد وصل القواسم الى ذروة قوتهم فى خلال الاضطرابات والقلاقل التى أعقبت اغتيال نادرشاه فى عام ١٧٤٧ إذ كان اضطراب الأمن فى بلاد فارس سببا فى استمانة بعض القادة الفرس الطامعين فى الحكم بالقبائل العربية

---

(١) F.O. 371, 13019 I.O. to F.O. 20th November, 1929

لمقاومة الملوك المتعاقبين بسرعة على عرش فارس(١) . ففي عام ١٧٥٠ عبر قسم من القواسم الخليج لمساعدة ملاعلى شاه الحاكم الفارسى فى هرمز وبندر عباس وفى مقابل ذلك فرض القواسم سيادتهم على لنجه المقابلة لقشم حيث نشأ حكم عربى استمر قائماً حتى طردت الحكومة الفارسية محمد بن خليفة وهو آخر شيخ عربى حكم لنجه فى عام ١٨٨٧(٢) ، ومن المؤكد أن شيوخ القواسم فى الساحل العمانى كانوا يقفون إلى جانب أقربائهم الشيوخ العرب المحليين فى لنجه وفى غيرها من الموانى فى المشاكل التى كانت تقوم بينهم وبين السلطات الفارسية فى الخليج وعلى أثر طرد الحكومة الفارسية للشيخ محمد بن خليفة من لنجه لجأ إلى رأس الخيمة حيث كاد ينجح فى إيجاد تحالف بين شيوخ الساحل العمانى لإعادة الهجوم على لنجه ، وقد بادرت السلطات الفارسية بابعاد الشيخ زايد حاكم أبى ظبى عن بقية شيوخ الساحل ، كما بادرت الحكومة البريطانية بتوجيه انذار إلى الشيوخ بالإمتناع عن القيام بأية أعمال هجومية على لنجه .

على أنه قد ترتب على انتهاء الحكم العربى فى لنجه ١٨٨٧ سيطرة الجمارك الفارسية على الميناء مما أدى إلى تدهور ملحوظ فى التجارة وبادر التجار العرب بتحويل نشاطهم إلى جزيرة بوموسى(٣) التى أعدت لكى تكون بمثابة سوق حرة

---

(١) Bombay government, Selection from the Records Vol XXIV
cF. Historical Sketch of the Joasmee Tribe of Arabs 1747 – 1853 .

(٢) F. O. 371, 13010 Status of the Islands of Tamb, Little Tamb, Bu Musa & Sirri B . 807

(٣) تبعد جزيرة بوموسى عن ساحل الشارقة بحوالى ٢٥ ميلا وتبعد عن الساحل الشرقى المقابل له حوالى ٤٣ ميلا وإلى الشمال الغربى من بوموسى بحوالى أربعة وعشرين ميلا تقع جزيرة طنب الصغرى تليها طنب الكبرى وتمتاز جزيرة بوموسى=

وبالتالى لـكى تـكون بعيدة عن تعسف الأنظمة الجمركية الفارسية وكان يحـكم جزيرة بوموسى حكام من القواسم الذين كانوا يحكمون فى لنجه وبعد طرد الشيخ العربى من لنجه أصبح من حق شيخ الشارقة أن يستولى على جزيرة بوموسى . وخوفا من أن يؤدى تحول التجارة إلى بوموسى بالحـكومة الفارسية أن تعلن ضم الجزيرة إليها قام شيخ الشارقة ـ برضاء تام من الحـكومة البريطانية بل وتشجيع منها — فى عام ١٩٠٣ برفع علمه على كل من بوموسى وطنب وفى العام التالى ردت السلطات الفارسية على هذا الإجراء بخفض أعلام الشارقة وعينت فى كل جزيرة موظفاً جمركياً تابعاً لها . وعلى الرغم مما يبدو من هذه الأعمال أنها كانت من تصرف السلطات الجمركية الفارسية إلا أنه تأكد لديه فيما بعد أنها كانت بإيحاء من وزير الخارجية الفارسية بل كان من المعتقـــد أن الحكومة الروسية هى التى قامت بتحريض الحكومة الفارسية على القيام بذلك التصرف لأن روسيا كانت تخشى — بعد زيارة اللورد كيرزون Curzon — نائب الملك فى الهند لمنطقة الخليج (١) أن تقدم بريطانيا على إنشاء قاعدة بحرية لها فى مدخل الخليج ، وعلى أثر احتجاج الحكومة البريطانية لدى الحكومة الفارسية خفضت الأعلام الفارسية فى عام ١٩٠٤(٢) بعد أن أكدت الحكومة الفارسية بأنها سترجىء إلى حين مناقشة الوضع الفعلى لهاتين الجزيرتين بينها وبين الحكومة البريطانية بوجود أى حقوق لها فى هاتين الجزيرتين فى حين تمسكت بريطانيا —

= بمياهها العميقة الصالحة لرسو السفن وتوافر معدن أوكسيد الحـــديد ، كما تمتاز الجزيرة بموقعها الاستراتيجى الهام للتحكم فى رقبة الخليج من جهة مضيق هرمز.

(١) جمال زكريا قاسـم : الخليج العربى ١٨٤٠ — ١٩١٤ ص ١٤٣ وما بعدها .

(٢) F . O . 371 , 13010 status , of Islands . of Tamb , Little Tamb, Abu Musa & Sirri B . 307 .

حتى عهد قريب — بتبعية بوموسى لشيخ الشارقة ، ففى عام ١٩٠٨ حذرت الحكومة البريطانية شركة الونكهاوس Wonkhause الألمانية بأن جزيرة بوموسى تابعة للشارقة(١) .

ومما يؤكد تبعية جزيرة بوموسى للشارقة أنه بعد أن احتلت بريطانيا الساحل العمانى فى عام ١٨١٩ وقع شيخ الشارقة المعاهدة العامة مع بريطانيا فى عام ١٨٢٠.

وتؤكد جميع الوثائق البريطانية أن جزيرة بوموسى كانت جزءا من دولة القواسم العربية ولم يسبق لإيران أو أية دولة أخرى أن حكمتها وقد أعلنت الحكومة البريطانية رسمياً رأيها هذا فى عام ١٩٧٢ على لسان وليم لوس ممثل وزير الخارجية البريطانية فى منطقة الخليج حيث قال أن الحكومة البريطانية لم تنتصب بوموسى من إيران وتسلمها الشارقة وقت دخولها منطقة الخليج وأنه حسب الوثائق التى لدى الحكومة البريطانية فإن الجزيرة عربية . كذلك تؤكد الوثائق البريطانية خضوع جزيرة طنب لشيوخ الساحل العمانى وذلك استناداً على المكاتبات الرسمية التى أكدت فيها الحكومة البريطانية هذه التبعية والتى تبودلت فى هذا الشأن بين السير برسى كوكس المقيم البريطانى فى الخليج والشيخ صقر بن خالد حاكم الشارقة فى عام ١٩١٢ بمناسبة إنشاء منارة للبواخر البريطانية فى جزيرة طنب(٢) فى حين كانت ترتكز الإدعاءات الفارسية على هذه الجزر بأن شيوخ

---

(١) أنظر لوى بحرى : الأطماع الإيرانية فى جزيرة بوموسى بغداد ١٩٧٢ .

(٢) Treaties & Engagements in Force between the British Govt . & the Trucial chiefs of the Arab Coast Calcutta 1906 cF . Percy Cox to sheikh Saggar Bin Khalid & From chief of Shargah to percy cox Nos 8,9,10 , October 1912 .

القواسم فى لنجه الذين كانوا يحكمون فى طنب وبوموسى — قبل طردهم من الساحل الشرقى فى عام ١٨٨٧ كانوا رعية فارسية ، وواضح فى ذلك أن الإدعاءات الفارسية تتجاهل الحكم العربى الذى قام فى هـــذه الجزر منذ عام ١٧٤٧ (١) حتى قيام الحكومة الإيرانية بالعدوان على طنب الكبرى والصغرى فى عام ١٩٧٢ بالإضافة إلى سيطرتها على بوموسى وهى فترة بلغت أكثر من مائتى وعشرين عاماً . ومن المفيد أن نشير هنا إلى توسط المبعوث البريطانى وليم لوس فى توقيع إتفاقية بين الحكومة الإيرانية وشيخ الشارقة بالنسبة لجزيرة بوموسى فى عام ١٩٧٢ . وأكد بيان حكومة الشارقة الخاص بهذه الإتفاقية أنها لا تمس سيادة شيخ الشارقة على جزيرة بوموسى رغم وجود الاحتلال الإيرانى فيها ! وأن يقتسم الدخل المتحصل عليه من استغلال الموارد الطبيعية مناصفة بين الطرفين وإلى حين إتمام عمليات الإستغلال تلتزم الحكومة الإيرانية بدفع ١½ مليون جنيه مساعدة سنوية للشارقة لمدة تسع سنوات كحد أقصى، وقد صرح الشيخ خالد حاكم الشارقة وهو الذى اغتيل فى المحاولة الانقلابية التى حدثت فى الشارقة فى فبراير ١٩٧٢، بأنه اضطر إلى توقيع هذه الاتفاقية فى الوقت الذى رفض فيه شيخ رأس الخيمة التوقيع على إتفاقية مشابهة وبالتالى تعرضت جزيرتى طنب الكبرى والصغرى لعـــدوان إيرانى مسلح .

---

(١) F. O. 371, 18901, memo. Persian claim to Tamb & Bu Musa, 1934

ولمزيد من التفاصيل عن المباحثات الانجليزية الفارسية الخاصة بهذه الجزر انظر :

Memorandum of certain Aspects of the situation in the Persian Gulf between His Majesty's Govt. in the U. K. & the Persian Govt., 1931.

ولم يقتصر احتلال إيران لجزر طنب الكبرى والصغرى وبوموسى وإنما ينبغى أن نشير هنا إلى أنه سبق لإيران فى السنوات الأخيرة أن احتلت الكثير من الموانى والجزر العربية من ذلك جزيرة هنجام التى قامت باحتلالها عام ١٩٥٠ وكان يقوم بالحكم فيها شيوخ من بنى ياس كذلك تم لإيران احتلال جزيرة صيرى التابعة لأبوظبى فى عام ١٩٦٤ كذلك أقدمت إيران فى عام ١٩٦٨ على انتزاع ثلاث جزر كويتية هى عربى وفارسى وحارق وذلك بمقتضى مباحثات الجرف القارى التى دارت بين السعودية وإيران والكويت، وكانت هذه الجزر تستخدمها القوارب الكويتية المشتغلة بالغوص واللؤلؤ بل كان العلم الكويتى مرفوعا على هذه الجزر منذ عام ١٩٣٧(١) .

تطور الادعاءات الإيرانية على البحرين :

لم تمارس فارس سيادتها على البحرين إلا فى خلال الفترة من جلاء القوات البرتغالية عن هذه الجزر فى عام ١٦٠٢ حتى عام ١٧٨٣ حينما استقر آل خليفة فى حكومة البحرين ووضعوا بذلك أساس حكم عربى مستقر فى هذه الجزر وحتى فى خلال سيادة فارس على البحرين فى السنوات المشار إليها كانت القبائل العربية هى التى تتولى مسئولية الحكم المباشر . وترجع سيطرة آل خليفة على البحرين وانتزاعها من السيادة الفارسية إلى فترة الفوضى التى أعقبت اغتيال كريم خان الزندى وفقدان فارس نفوذها على سواحل الخليج العربى(٢) ، وتبع استقرار آل خليفة فى حكومة البحرين ارتباطهم بمعاهدة مع بريطانيا فى عام ١٨٢٠ واشتراكهم فى توقيع معاهدات الهدنة البحرية التى وقعها كثيرون من شيوخ وحكام إمارات الخليج العربى

---

(١) F.O. 371, 20773 Status of Islands in Persian Gulf, 1937 Farsi, Harqus & Arabi

(٢) محمود بهجت سنان : البحرين درة الخليج العربى ص ١٢٥/١٢٦ راجع كتابنا الخليج العربى ١٨٤٠ — ١٩١٤ — المقدمة ، البحرين .

على أن فارس لم تلبث أن عادت لمطالبتها بالبحرين منذ عام ١٨٢٢ ومن الطبيعى أن تصطدم بالحكومة البريطانية التى بدأت فى فرض نفوذها على إمارات الخليج منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر. ومما يسترعى الانتباه أن الباحثات بشأن البحرين انصرت خلال القرن التاسع عشر وحتى النصف الأول من القرن الحالى على أنها مباحثات فارسية بريطانية وبالتالى انصرفت عناية كثير من الباحثين إلى دراسة هذا الموضوع باعتباره نزاعا فارسيا بريطانيا(١) وربما يرجع ذلك فى تقديرنا إلى عدم نضوج الوعى العربى فى هذه الفترة فضلا عن سيطرة بريطانيا على مقدرات الخليج.

وقد بدأت الإدعاءات الفارسية فى البحرين بالإستناد على معاهدة تم توقيعها بين المقيم البريطانى فى الخليج الكابتن بروس Bruce وأمير شيراز فى ٣٠ أغسطس ١٨٢٢، وقد حددت هذه المعاهدة فيما يتعلق بالبحرين وصفها بأنها كانت دائما تابعة للحكومة الفارسية، وأن شيوخ آل خليفة متمردون على سلطة هذه الحكومة وفيما يبدو لدينا أن الكابتن بروس قبل هذه الشروط باعتقاد مؤداه أن عودة البحرين إلى سلطة الحكومة الفارسية سيؤدى إلى تحقيق الهدوء على الجانب العربى للخليج ووضع حد للأعمال البحرية الإنتقامية التى كان يقوم بها المناوئون للسلطة العتوب(٢). على أن حكومة بومباى لم توافق بروس على هذه الآراء

---

(١) يمكن أن نشير هنا إلى أنه من أبرز الدراسات الخاصة بذلك هى دراسات

Feredoun Adamyiat, Bahrein Islands, Alegal and Diplomatic study of the British Iranian controversy

وكذلك كتاب عباس فاروقى Bahrein Islands

(٢) عن ذلك يمكن الرجوع إلى دراستنا عن رحمة بن جابر الجلاهمة حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٦٤/١٩٦٥.

وأبلغت الحكومة الفارسية بأنها لن تصادق على هذه المعاهدة ، وبادرت بسحب الكابتن بروس من منصبه مؤكدة اعترافها بسيادة المتوب(١) كما أن شاه فارس بدوره لم يقر هذه الاتفاقية التي وقعها أمير شيراز دون علم منه .

وعند وصول القوات المصرية إلى سواحل الخليج في عهد محمد على عام ١٨٣٨ وصف الشيخ نفسه بأنه رعية فارسية وبناء على اقتراح منه أرسل حاكم شيراز مبعوثا ليقيم في البحرين وإن كان وجوده لم يمنع من توقيع معاهدة بين خورشيد باشا باعتباره نائباً عن محمد على وبين شيخ البحرين في عام ١٨٣٩ ، وبإنسحاب القوات المصرية من الخليج العربي في عام ١٨٤٠ حاولت الحكومة الفارسية توطيد نفوذها في البحرين ، ولكن اللورد ابردين وزير الخارجية البريطانية أعلن بأن حكومته ستقابل التدخل الفارسي بالقوة حتى ولو أدى الأمر إلى تصادم بينها وبين فارس ، وأنه ينبغي على الحكومة الفارسية أن توضح ماتدعيه من حقوق بالوسائل الدبلوماسية بدلا من استخدام القوة العسكرية لإثبات ذلك(٢) . ولدينا مذكرتان مؤرختان في ٤ فبراير و ١٥ مارس ١٨٤٥ بعثت بهما الحكومة الفارسية إلى السفارة البريطانية في طهران، ارتكزت المذكرة الأولى على معاهدة شيراز في عام ١٨٢٢ وردت الحكومة البريطانية على هذه المذكرة بأنها عقدت معاهدة مع شيخ البحرين في عام ١٨٢٠ وهى منذ ذلك التاريخ أصبح لها علاقة بالبحرين وأنها اتخذت من هذه المعاهدة أساساً لمقاومة مشروعات سلطان مسقط ومحمد على ، كما أوضحت المذكرة عدم أهمية معاهدة شيراز في استناد فارس عليها(٣) .

---

(١) F . O . 371 , 15279 Persian claim to Bahrein Islands Foreign secretary to govt : of India . Sept .

(٢) Adamyiat, Bahrein, Astudy of Anglo – Iranian Controversy P . 131 .

(٣) F . O . 78 , 388 Henell to the Secret Dept . of the Bombay government , 30th August , 1839.

أما المذكرة الثانية فقد وقعها حاجى ميرزا رئيس وزراء فارس وكان على قدر كبير من الحماسة إذ أنه لم يطالب بالبحرين فحسب وإنما طالب بجميع إمارات الخليج العربي وذكر بصـــدد ذلك « إن الشعور السائد لدى جميع الحكومات الفارسية المتعاقبة بأن الخليج الفارسي من بداية شط العرب إلى مسقط بجميع جزره وموانيه دون استثناء ينتمى لفارس وكما هى حقيقة واضحة أن الخليج يسمى خليج فارس كما هو ثابت فى جميع المصادر الجغرافية وكتب الرحالة » وأكد ميرزا فى مذكرته أن الحكومة البريطانية اعترفت بملكية فارس للبحرين على أثر احتلال القوات المصرية للاحساء والقطيف فى عام ١٨٣٩ حينما أكد القنصل البريطانى فى الإسكندرية لمحمد على بأن البحرين لا تكون جزءاً من الجزيرة العربية وإنها بذلك تابعة لفارس ولذا لن تسمح الحكومة البريطانية لمحمد على بان يمد سيطرته عليها(١). وقد أجابت الحكومة البريطانية على ذلك بأنها عارضت محمد على فى ضم البحرين وانكرت ما ادعته فارس من وقوفها ضد محمد على إذ أنه كان فى ذلك الوقت ثمة احتمال فى تحالف يزمع محمد على عقده مع شاه فارس ضد الإنجليز(٢). وبينما استمرت المجادلات النظرية على هذا النحو اتجهت الحكومة الفارسية اتجاهاً آخر فى عام ١٨٦٠ إذ انتهزت فرصة التهديدات التى تعرضت لها البحرين من قبل السعوديين بالإضافة إلى الضغوط البريطانية على شيوخها لكى ترسل بعثة إلى البحرين برئاسة ميرزا مهدى خان الذى أكد الشيخ محمد بن خليفة حماية الحكومة

---

(١) وثائق عابدين (القلعة حالياً) محافظ الحجاز ١٢٥٥ محفظة رقم ٢٦٧ - وثيقة رقم ١٣٩ أصلية و٦ حمراء من خورشيد إلى الباشمعاون الخديوى ١٣ أكتوبر سنة ١٨٣٩ .

(٢) Adamyiat, op. cit pp. 134-136, F. O. 371, 15279, Persian Claim to Bahrein Islands, Foreign secretary to gort of India, 1931.

الفارسية له . وترتب على ذلك أن أصدر شيخ البحرين من جانبه إعلانين الأول موجهاً إلى الشاه ، والثانى لحاكم شيراز فى ١٢ و١٩ ابريل عام ١٨٦٠ على التوالى . ويتضمن هذان الإعلانان خضوع شيخ البحرين للحكومة الفارسية، أو كما صرح فى أحدهما بأنه يقوم على حكم البحرين بفضل الشاه، وأن البحرين كانت بل وستكون دائماً جزءاً من فارس، وأنه يتعهد بدفع جزية سنوية إلى الخزانة الفارسية. وبطبيعة الحال أن الكتاب الفرس يعلقون أهمية بالغة على هذه البعثة مؤكدين أنها أثبتت بما لا يقبل جدلا أحقية فارس فى ملكيتها للبحرين ،ولكن الدراسة الفاحصة تثبت أن إعلان شيخ البحرين الولاء لفارس فى ذلك الوقت لم يكن ناشئاً عن اعتراف صريح بالسيادة بقدر ما كان نتيجة ظروف طارئة تعرضت لهـا البحرين فضلا عن أن ترحيب شيخ البحرين بالبعثة الفارسية كان فيما نعتقد نكاية فى الحكومة البريطانية التى تخلت عن حمايته ضد أعدائه ومن بينهم فيصل بن تركى أمير نجد . ومما يؤكد ذلك أن فارس لم تستطع أن تحتفظ بهذا الولاء طويلا حينما بادرت بريطانيا بتوقيع معاهـدة ١٨٦١ مع شيخ البحرين والتى ظهر منها تراجعه الواضح عن قبول الولاء الفارسى .

وتميزت السنوات التالية بتدخل بريطانيا الواضح فى شئون البحرين، وكان من أبرز ذلك تدخلها فى الاضطرابات التى نشبت بين قطر والبحرين حـول ملكية الزبارة والتى تطورت إلى حرب بين البلدين انتهت بفصل قطر عن البحرين فى عام ١٨٦٨ وبادرت بريطانيا على أثر ذلك بتوقيع معاهدة أخرى مع شيخ البحرين مما كان مبعثا لاحتجاج شديد اللهجة من قبل الحكومة الفارسية التى بادر سفيرها فى لندن محسن خان بتقديم مذكرة إلى اللورد كلارندون Clarendon وزير الخارجية البريطانية اعترض فيها على التدخل البريطانى فى شئون البحرين وإجبار شيخها على عقد معاهدة مع بريطانيا باعتبار ذلك منافيا لتبعية شيخ البحرين لفارس

تلك التبعية التى أكدها بإعلان الولاء الذى سبق أن أشرنا إليه والذى أرفقه محسن خان فى مذكرته الإحتجاجية إلى وزير الخارجية البريطانية ، وقـد أجاب اللورد كلارندون على المذكرة الفارسيـة فى ٢٩ ابريل ١٨٦٩ بتصريح شهير علقت عليه الحكومة الفارسية أهمية كبيرة واتخذت منه دلالة على اعتراف بريطانيا بمطالبها على البحرين ، ولذا فقد يكون من المفيد هنا الإشارة إليه ما ذهب إليه كلارندون فى رده على المذكرة الفارسية .

أولا : أجاب كلارندون على اعتراض فارس باحقية بريطانيا فى عقد اتفاقيات مع شيوخ البحرين بقوله :

« أود أن أؤكد لكم أن الحكومة البريطانية ترتبط بشيوخ البحرين بمعاهدات فقط من أجل منع القرصنة وتجارة الرقيق والمحافظة على أمن الخليج وأن الحكومة البريطانية يسرها أن تعفى من القيام بهذه الواجبات فيما لو استطاعت الحكومة الفارسية أن تأخذ هذه المهمة على عاتقها » .

ثانيا : أعلن كلارندون بأن الحكومة البريطانية توالى الاحتجاج الفارسى فى الوقت الحاضر أهمية خاصة بعد أن تجاهلته فى الماضى(١) .

ومع ذلك فإن مذكرة كلارندون على الرغم من تأكيـدها بأنها ستولى الاحتجاج الفارسى أهمية خاصة إلا أن المذكرة من ناحية أخرى لم تؤكد صراحة عدالة الادعاءات الفارسية (٢) وفى اعتقادنا أن السبب الذى دفع كلارندون إلى الإدلاء بتلك الآراء كان محاولة منه لتخفيف الآثار المترتبة على تدخل بريطانيا فى البحرين

---

(١) F. O, 248 / 251/ Lord Clarendon's Formula to British Posistion on the Bahrein Islands cf. Clarendon to Mohsin khan 29 April 1869.

(٢) مجيد خدورى ـــ البحرين وإيران ، من منشورات صوت البحرين المدد ص ٢٩ / ٣٠ .

أو محاولة لاستمالة فارس من ناحية أخرى ومع ذلك فإن اهتمام بريطانيا بالاحتجاج الفارسى لا يمكن اعتباره تسليما بصحة الادعاءات الفارسية من الوجهة الشرعية خاصة أن كلارندون حينما أولى فارس بمهمة العناية بحراسة الخليج والمحافظة على الأمن كان بشرط ألا يتعارض ذلك مع المعاهدات التى عقدتها بريطانيا مع شيخ البحرين وغيرهم من شيوخ الإمارات الأخرى ، وبالإضافة إلى ذلك فإن كلارندون لم يكن مخلصا فيما وعد به الحكومة الفارسية وقد ظهر ذلك واضحاً فى معارضته لها فى ممارسة نفوذها على البحرين بحجة ما قد يؤدى إليه ذلك من الإخلال بأمن الخليج .

والجدير بالذكر أن المجادلات الفارسية الإنجليزية بشأن البحرين قد توقفت بعد تصريح كلارندون إذ انصرفت الحكومة البريطانية لمواجهة خطر آخر كان يتمثل فى تقدم الأتراك العثمانيون إلى الاحساء وقطر والبحرين كما أن توطيد علاقة بريطانيا بشيوخ البحرين عقب توقيع معاهدة ١٨٨٠ كان من شأنه فشل البعثة الفارسية الثالثة التى أرسلت إلى البحرين فى عام ١٨٨٦ (١) .

ولم تظهر إدعاءات جديدة من قبـــل فارس على البحرين فى خلال سنوات الحرب العالمية الأولى بسبب ظروف الحرب والأوضاع العسكرية التى فرضت على الخليج واتخاذ البحرين مركز تجميع للقوات البريطانية ، ولـكن لم تلبث الادعاءات الفارسية أن ظهرت من جديد فى أعقاب الحرب وتمثلت فى حملات الصحافة الفارسية ومطالبتها الحكومة والمجلس النيابى فى بهارستان بضرورة المحافظة على المصالح الفارسية فى البحرين حتى أن المجلس النيابى بدأ يناقش بالفعل مسألة تعيين ممثل للبحرين (٢) .

---

(١) Farroughy, Bahrein Islands p. 90 ..

(٢) B. 415 Memo: Question of issue of persian passports or Traveling passess Ilm - o - Khabar to Subjects of Bahrein .

وتؤكد الوثائق التي لدينا اتجاه بعض الفرس لزيارة البحرين والاتصال بالعناصر الفارسية وكذلك بالشيعة الذين هم من أصول فارسية . وفيما يبدو أن الحكومة الفارسية كانت متأثرة إلى حد كبير بالدعاية الشيوعية التي أخذت تستغل الوضع للتنديد بالإمبريالية البريطانية، ففي عام ١٩٢٣ أصدرت الحكومة الفارسية تعليماتها إلى قنصليتها في النجف باعتبار البحارنة الذين يزورون الأماكن المقدسة فرسا وبالتالي ينبغي تسجيلهم في القنصلية الفارسية بالنجف قبل ذهابهم إلى العتبات الفارسية المقدسة وتطلق الوثائق البريطانية على هذا التحرك من قبل الحكومة الفارسية اسم حادثة النجف(١) ورداً على ذلك بادرت الحكومة البريطانية بإعلان حمايتها على البحرين في عام ١٩٢٣ كما أصدر الشيخ حمد بن خليفة حاكم البحرين إعلانا يتضمن اعتراضه على تسجيل رعاياه في القنصليات الفارسية باعتبار ذلك خرقا لحقوقه الشرعية كحاكم، وأكد عدم إعترافه بذلك ومعاقبة كل بحراني يسجل نفسه في القنصليات الفارسية في العراق بالطرد من البحرين ومصادرة ممتلكاته (٢) .

وفي عام ١٩٢٧ اتخذت الحكومة الفارسية من معاهدة جدة التي وقعتها بريطانيا مع عبد العزيز بن سعود في ذلك العام موجبا لاعتراضات شديدة إذ اعتبرت أن ماجاء في نص المادة السادسة من المعاهدة المذكورة بمثابة إنكار لسيادتها على البحرين (٣) .

---

(١) F . O . 371 , 17825 cf Historical Memo. on Bahrein , 1934

(٢) F . O . 371 , 18942 British Agent , Bahrein to Resident 9 - 9 - 1923.

(٣) جاء في نص هذه المادة أن يتعهد الأمير عبد العزيز بن سعود بعدم المداخلة في الإمارات التي تربطها بريطانيا معاهدات خاصة ، وقد ذكرت البحرين كواحدة من هذه الإمارات .

الادعاءات الفارسية أمام عصبة الأمم :

ولم يقتصر الأمر على مجرد تبادل المذكرات بين الحكومتين البريطانية والفارسية كما كان يحدث ذلك من قبل وإنما آثرت الحكومة الفارسية أن ترفع المشكلة إلى عصبة الأمم . وقد ارتكزت الحكومة الفارسية على الادعاءات التالية :

أولا : أنها كانت تمتلك البحرين فى عصور التاريخ المختلفة وأكدت بصفة خاصة على الفترة التى أعقبت طرد البرتغاليين من البحرين حتى وصول آل خليفة إلى الحكم .

ثانياً : أنه لم يحدث لشيوخ البحرين أن كانت لهم أية صفة استقلالية وأن مثلهم كمثل الخانات المحليين فى بعض المقاطعات الإيرانية الذين يتوارثون الحكم، وعلى الرغم من أنهم كانوا فى بعض الأحيان يتمردون على الحكومة المركزية إلا أنهم كانوا يعودون دوما إلى الولاء لها .

ثالثاً : أن الحكومة البريطانية نفسها قد اعترفت بتبعية البحرين لفارس بمقتضى معاهدة شيراز عام ١٨٢٢ .

رابعاً : أن المراسلات المتبادلة بين اللورد كلارندون وممثل الحكومة الفارسية لدى بلاط سان جيمس ١٨٦٩ فيها اعتراف ضمنى بأحقية فارس فى امتلاك البحرين .

خامساً : أن الإتفاقيات المعقودة بين بريطانيا وشيوخ البحرين ليست شرعية إذ لم يحدث للحكومة الفارسية أن تنازلت عن سيادتها لأية دولة أخرى كما أنها لا تعترف بشيوخ البحرين باعتبارهم حكاما مستقلين يجوز لهم عقد هذه الاتفاقيات .

سادساً : أن شيخ البحرين تعهد فى عام ١٨٦١ بالولاء لفارس وأن كثيراً من شيوخ البحرين تمسكوا بهذا الولاء فى عـــدة مناسبات وكانوا يدفعون الجزية السنوية .

سابعاً : قللت الحكومة الفارسية من أهمية الناحية البشرية والجغرافية من ذلك

أن معظم سكان البحرين يتكلمون اللغة العربية وأنها منفصلة عن فارس ببحر واسع إذ ذكرت أن هـذه المسائل يمكن أن توضع موضع الاعتبار حينما تريد دولة أن تبرر مطالبها لضم أقاليم جـديدة إليها وليست المطالبة بإعادة أقاليم كانت أساساً تابعة لها .

ثامناً : تستند الحكومة الفارسية على المادة العاشرة من ميثاق عصبة الأمم بعدم شرعية الاعتداء على السيادة الإقليمية لدولة ما (١) .

وقد رد السير أوستن تشمبرلين وزير الخارجية البريطانية على هذه الإدعاءات بمذكرة هامة بعث بها إلى السفير الفارسى فى لندن وإلى عصبة الأمم إرتكز فيها على النقاط التالية(٢) :

أولا : إن تاريخ البحرين كان غامضا فى العصور القديمة ومع ذلك فإن هذا الغموض لا يعنى سيطرة الفرس على البحرين فى خـلال النزوات العربية والمغولية والتتارية وفوضى العصور الوسطى ، وفى الفترة من القرن الحادى عشر إلى القرن السادس عشر كان سكان البحرين يخضعون لشيوخ محليين وقد ذكر الإدريسى الجغرافى العربى فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى أن البحرين كان يحكمها شيخ مستقل مما يؤكد أنه قبل الغزو البرتغالى لم تكن البحرين خاضعة لفارس . وحتى الفترة من ١٦٠٢ إلى ١٧٨٣ التى تدعى فارس سيطرتها على البحرين لم تكن هذه السيطرة تمارس بشكل مطلق إذ استمرت البحرين فى أيدى رؤسائها القبليين خصوصا من عرب الحولة كما أن أئمة عمان هاجموا البحرين فى سنوات ١٧١٧ و ١٧٢٠ ولم

---

(١) Cf. League of Nations Official Journal No g 658 M 219 Vol Vif, 1927.

(٢) cf. Sir A. chamberlain's Note of Feb. 1929. to the Persian Minister in London F. O. 371, 17825.

تعد لفارس إلا فى عام ١٧٣٧ على عهد نادر شاه ، وبعد اغتيال نادر شاه ١٧٤٧ وقعت البحرين فى أيدى رؤساء عديدين من شيوخ بنى طاهر وبنى ماهر وشيوخ بوشهر والمسيليين وغيرهم .

ثانياً : أنه فى خلال ما يقرب من قرن ونصف من حكم آل خليفة ١٧٨٣-١٩٢٧ لم تمارس فارس سيادتها على البحرين وإنما مارس شيوخ آل خليفة استقلالهم تماما .

ثالثاً : أن تصريح كلارندون لم يشتمل على أدنى اعتراف بسيادة فارس على البحرين كما فهمت ذلك الحكومة الفارسية .

رابعاً : أن ما تستند عليه المذكرة الفارسية بالمادة العاشرة من ميثاق عصبة الأمم من أن — القاطعة التى تنتمى لدولة مستقلة لا يجوز شرعا سلخها عنها طالما أن حق الملكية لم ينتقل من هذه الدولة إلى دولة أخرى — استناداً غير صحيح إذ أن التاريخ يحتوى على أمثلة عديدة توضح أن بعض القاطعات نالت إعترافا باستقلالها من قبل دول أخرى قبل أن يصدر هذا الاعتراف من الدولة الأصلية مثال ذلك أن إسبانيا لم تعترف باستقلال البرتغال عنها إلا فى عام ١٦٦٨ مع أنها قد انفصلت عنها بالفعل فى عام ١٦٤٠ واعترفت باستقلالها دول أخرى ، كذلك اعترفت كثير من الدول باستقلال الأراضى المنخفضة قبل أن تعترف إسبانيا بذلك فى عام ١٦٤٨ .

وكانت لمواجهة بريطانيا للادعاءات الفارسية أثر فى عدم وصول عصبة الأمم إلى قرار بشأن البحرين ، كما أن بريطانيا استطاعت أن تقوى مركزها أمام عصبة الأمم(١) وقد بدأت الحكومة الفارسية تأخذ دوراً إيجابياً فى البحرين بعد فشلها

---

(١) F . O . 371 , 15353 Memo. on certain Aspects of the Situation in the persian gulf between his Majesty's, Govt. in the U%K . & The Persian Govt, 1931 .

فى المجال النظرى من ذلك محاولتها إثارة شيعة البحرين ضد الحكومة البريطانية وأسرة آل خليفة ومحاولة الحصول على شهادة من شيعة البحرين تقضى بتبعية البحرين لفارس . وينبغى أن نشير هنا إلى أن الحكومة الفارسية كانت تركز على شيعة البحرين باعتبارهم فرسا ولكن الشيعة ، كما هو معروف ، أتباع مذهب إسلامى يوجدون فى البحرين كما يوجدون فى غيرها فضلا عن أن شيعة البحرين من العرب ويختلفون عن الفرس فى المنصر واللغة ، كما حاولت فارس أيضا إثارة الفتن الطائفية بين السنة والشيعة وإن كان يلاحظ أن ذيوع فكرة القومية العربية أدت فى السنوات الأخيرة إلى وجود تماسك بين الشيعة والسنة فى البحرين كما أكد ذلك تقرير لجنة تقصى الحقائق التابعة للأمم المتحدة فى عام ١٩٧٠ فقد زار علماء الشيعة والسنة معا للبعوث الدولى وأعربوا جميعاً عن موافقتهم على الاستقلال مما أكد عدم تعلق الشيعة بإيران خلافاً لما كان راسخاً فى الأذهان(١) .

وقد وضح استغلال الحكومة الفارسية للخلافات المذهبية فى عام ١٩٢٨ ففى تقرير من الوكيل البريطانى فى البحرين إلى المقيم البريطانى فى الخليج أوضح فيه شدة الدعاية الفارسية فى البحرين معتقداً أن يكون الاتحاد السوفيتى ضلع فى إثارة هذه الدعاية ضد بريطانيا فى البحرين(٢) واستناداً على ذلك اتخذت الحكومة البريطانية عدة إجراءات للحد من الهجرة الفارسية إلى البحرين من ذلك عدم الاعتراف بالخبر وأنه من الضرورى حصول الإيرانيين الذين يريدون السفر إلى البحرين على تأشيرات سفر معتمدة من أحد القناصل الإنجليز فى إيران وقد

---

(١) صلاح العقاد : معالم التغيير فى دول الخليج العربى ص ٧٠ .

(٢) Major Barrett political Agent Bahrein to the Political Resident in the persian Gulf F. O. 371, 12998 .

احتجت الحكومة الفارسية على ذلك باعتباره يشكل تحدياً للحقوق الإيرانية فى البحرين (١)، كما أخذت حكومة البحرين تتخذ إجراءات أخرى كتحريم رفع العلم الإيرانى على المدارس الإيرانية وضرورة تسجيل الرعايا الإيرانيين أنفسهم فى الوكالة البريطانية فى البحرين باعتبارهم أجانب عن البلاد(٢).

وقد شكل النفط وامتيازاته عاملا آخر من عوامل الاحتجاجات الإيرانية إذ أكدت الحكومة الإيرانية عدم اعترافها بامتياز النفط الذى منح لشركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا باعتباره قد منح دون موافقة الحكومة الإيرانية ولذا فإنها تعتبره لا قيمة له Null & void، كما أنها تحتفظ لنفسها بالربح أو بالتعويض فى حالة الخسارة . كما احتجت الحكومة الإيرانية ضد فصل مجموعة من العمال الإيرانيين من شركة النفط وتوالت الاحتجاجات الإيرانية حتى أعلنت الحكومة الإيرانية عام ١٩٥١ أن قوانين تأميم النفط تسرى على البحرين(٣).

وتحوى الوثائق البريطانية أمثلة لصور عديدة من وسائل الضغط التى كانت تتخذها الحكومة الإيرانية ضد البحارنة الذين يذهبون لزيارة العتبات المقدسة فى إيران من ذلك إرغامهم على تسجيل أنفسهم باعتبارهم رعايا فرسا وتطبيق التجنيد الإجبارى عليهم كما أقدمت على مصادرة السفن البحرينية وإجبارها على التسجيل

---

(١) Question of issue of persiau Passports to Subjects of Bahren 1910 - 1928.

(٢) F. O. 371, 13719 clive to chamberlain 29 - I 1929.

(٣) F. O. 371/17825 B. Kazemi, Minisler of foreign aFF airi Tehran to U. S. Minisler 22/5/1932

فى الموانى الإيرانية (١) وإزاء ذلك أصدرت حكمة البحرين فى فبراير ١٩٣٧ قوانين الجنسية والملكية وتقضى هذه القوانين بإسقاط الجنسية البحرينية عن الأشخاص الذين قبلوا جنسيات أخرى كما حرم على الإيرانيين ملكية الممتلكات غير المنقولة . وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت وراء اصدار تلك القوانين إلا أنه من الملاحظ أنها كانت تتساهل بعد ذلك فى تنفيذ هذه التشريعات إحباطاً لفكرة القومية العربية بعد انتشارها فى البحرين ، وتغلغلها فى إمارات الخليج الأخرى ، كما أخذت الحكومة البريطانية تعمل على إذابة العنصر العربى عن طريق فتح البحرين لهجرات من الساحل الإيرانى ، ولتشجيع النفوذ الفارسى الثقافى والاقتصادى حتى بدا أن إيران وبريطانيا يتعاونان فى هدف واحد كرد فعل للاتجاه العربى .

وكانت ظروف الحرب العالمية الثانية لها أثر فى توقف الادعاءات الإيرانية باستثناء احتجاج واحد قدمته الحكومة الايرانية ضد إيطاليا فى عام ١٩٤٠ نتيجة تعرض البحرين لقصف المدفعية الإيطالية إذ كانت إيران لا تزال محايدة حتى ذلك التاريخ (٣) وبعد الحرب العالمية الثانية عادت الاحتجاجات الإيرانية من جديد ومع ذلك فلم تتحمس الحكومة الايرانية لعرض ادعاءاتها على الأمم المتحدة أو محكمة العدل الدولية لإعتقادها بقوة النفوذ الإنجليزى فى هاتين الهيئتين . والجدير

---

(١) Note on Results of Pesian attiiude Towards Bahrein, British Consul, Bushire 1940

(٢) Bahrein Nationality & Property laws, 1936, F. O. 371/20782.

(٣) Humaidan' Ail, Les Princes de L'or Noire P. 49 see also British Consul Bushire to Resident, Bahrein 23/10/1940 R/15/1/l9/44

بالذكر أن الدعوة لضم البحرين إلى إيران اتخذت بعد الحرب العالمية الثانية طابعاً قومياً عبر عنه الشاعر الايرانى سردار نشأت الله خان (١)، كما وضعت الخرائط الجغرافية التى تؤكد تبعية البحرين لإيران(٢).

وقد اتخذت ايران من بعض حوادث فردية كان يقوم بها بعض البحارنة ممن تحركهم الميول الايرانية بعدة مطالب خاصة بايجاد ممثلين من البحارنة فى المجلس النيابى وقبول بحارنة المدراسة فى الجامعات الايرانية وإدخال برامج إذاعية خاصة بشأن البحرين ولكن ذلك لا يوضح فى البحرين إلا إتجاها فرديا، وعلى العكس من ذلك ظهرت القومية العربية واضحة فى البحرين خلال الحرب الفلسطينية ١٩٤٨ ومساعدة اللاجئين الفلسطينيين ثم ازدادت وضوحاً خلال وقوع العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ وفى أعقابها ولم تجد ايران إلا أن تعلن فى عام ١٩٥٧ اعتبار البحرين جزءاً من الأقاليم الايرانية باسم الاقليم الرابع عشر ويذكر بيريى بصدد ذلك أن إيران التى رأت عاصفة العروبة تجتاح أقطار العرب حاولت أن تسبق الحوادث فأعلنت ضمها جزر البحرين إلى ممتلكاتها خوفا من أن يطالب العرب — ولا سيما العراق — بالمحمرة وغيرها من المناطق العربية الداخلة تحت حكم الشاه.

على أن التحول فى السياسة الايرانية بدا واضحاً منـــذ عام ١٩٦٩ بالنسبة للبحرين حينما أعلن الشاه قبوله لحق تقرير المصير فى البحرين وفيما يبدو أن الدافع وراء ذلك أن الحكومة الايرانية وجدت أنه من الأفضل ترك السلطة بيد آل خليفة تدعيما للانظمة الحاكمة فى المنطقة أو من المحتمل كما يرى البعض أن تكون بريطانيا قد اتفقت مع ايران على أن تترك لها فرصة احتلال الجزر الثلاثة

---

(١) Extract From Surushi Newspaper 28, 1, 1946 R/15/1/44

(٢) persian Claim on Bahrein, Residen cy, Bushire to His Majesty's Ambassador 8th june, 1947'

بوموسى وطنب الكبرى والصغرى فى مقابل التخلى عن المطالبة بالبحرين . وفى عام ١٩٧٠ عرضت مشكلة البحرين على الأمم المتحدة التى استقر رأيها على تكوين لجنة لتقصى الحقائق وقد أوضحت اللجنة فى تقريرها مطالبة سكان البحرين بتحقيق الاستقلال الذى تم إعلانه بالفعل فى ١٣ أغسطس ١٩٧١ ولعل وصول البحرين إلى تحقيق استقلالها جعلها أقل إلحاحا فى الانضمام إلى اتحاد الإمارات العربية إذا كان ذلك الانضمام لا يهيىء لها ما تستحقه من مركز قيادى فى الدولة الاتحادية .

وأخيرا نود أن نختتم هذه الدراسة بالتأكيد هنا أن السنوات الأخيرة شهدت ظهور عدة دول مستقلة فى الخليج العربى ، ولكن وجود دول مستقلة ناشئة فى الخليج لا يعنى تخلص المنطقة من رواسب الاستعمار القديم أو مؤثرات الاستعمار الجديد؛ بالاضافة إلى احتمال تجدد الأطماع الايرانية ، والأمر يتطلب إذن ايجاد المناخ الصالح لتدعيم استقلال دول الخليج العربى بتكاتف الدول العربية فيما بينها لسد أى ثغرة قد ينفذ منها الاستعمار وهـــذا لن يتأتى إلا بالتعاون المثمر فى جميع المجالات السياسية والفنيه والاقتصادية بين الدول العربية والدول الناشئة فى الخليج العربى .

القاهرة العثمانية بوصفها مدينة

« شئون البلديات ومشكلات المرافق »

تأليف : أندريه ريمون

ترجمة : زهير الشايب

على الرغم من أن سقوط العهد المملوكي عام ١٥١٧ قد أصاب القاهرة بالتدهور وجعل مكانتها تهبط من عاصمة لدولة إلى مجرد عاصمة لإقليم إلا أن نشاطها التجاري ومكانتها الثقافية ظلا بمثابة تعويض لها — ولو جزئياً — عن اضمحلال مكانتها السياسية ، فقد كانت — بشعبها البالغ عدده من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ ألف نسمة — المدينة الثانية في الإمبراطورية العثمانية في عصر كانت فيه استانبول — بسكانها السبعمائة أو الثمانمائة ألف — بلا جدال هي المدينة الأولى في كل من أوربا والشرق الأدنى .

أندريه ريمون Andre Raymond مؤرخ فرنسي ، وأستاذ التاريخ بجامعة بوردو . حصل على الدكتوراه من كيمبردج وله مؤلفات عديدة عن بلدان شمال أفريقيا . وجه اهتمامه أخيراً لدراسة القاهرة العثمانية ، ونشرت له من قبل دراسات عديدة عنها ترجمت إلى العربية ونشرت جميعها بمجلتي الطليعة والمجلة . وهـــذه الدراسة هي البحث الذي قدمه إلى مؤتمر ألفية القاهرة الذي عقد في أبريل ١٩٦٩ . يشغل حاليا منصب مدير المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق وقد انتهى من مؤلف كبير عن « تجار القاهرة وحرفييها في القرن الثامن عشر » تقدم به لنيل درجة الدكتوراه من السوربون .

وبلا شك ، فقد كانت حالة القاهرة التى وجدها عليها الفرنسيون أثناء حملة بونابرت — بسبب الركود الاقتصادى والاضطرابات السياسية التى عرفتها المدينة فى القرن الثامن عشر — أبعد ماتكون عن حال باريس التى كانت فى تلك الفترة فى قمة إزدهارها بالرغم من أن المدينتين كانتا ـ ماتزالان ـ متكافئتين فى القرن السابق. وقد كتب Jouvin de Rochefort حوالى عام ١٦٥٠ يقول : « إن إطلاق إسم « الكبرى » على القاهرة لم يأت اعتباطاً ، إذا نحن أخذنا فى الاعتبار ليس فقط امتداد أسوارها القديمة ، بل أيضاً عدد منازلها وسكانها » كما كان يعتبرها « أكثر اتساعاً من باريس نفسها إذا راعينا مايتخللها — وهذا صحيح — من مناطق خلاء واسعة فى امتدادها هذا » ويختم كلامه مؤكدا أن تعداد سكان القاهرة يفوق تعداد باريس(١) .

وعلى هذا ، فإدارة شئون مدينة بمثل هـــذه الأهمية ، وضمان سير أجهزة البلديات بها على وجه طيب ، كانت تواجه حكام مصر بمشاكل لم يكن باستطاعتهم إهمالها كلية فى ظروف كانت تشغلهم فيها بوضوح مشكلات المحافظة على النظام داخل الإطار نفسه للحكومة الإقليمية .

أولا : الإدارة الحضرية (إدارات المرافق)

سوف نلمس أن أبرز سمات القاهرة العثمانية على الإطلاق — إذا نظرنا إليها من زاوية إدارتها التمدنية — هى الغيبة شبه التامة للمؤسسات النوعية سواء منها مايمثل المنظمات الجماعية للشعب أو تلك التى تنشئها السلطات الحاكمة .

لكن ذلك ليس على الإطلاق ممـا يثير الدهشة ، إذ يجب ألا ننسى أن القاهرة فى زمن المماليك كانت — كذلك — خالية تماماً من أية تنظيمات لشئون البلديات ، وحتى نهاية العصور الوسطى لم تكن مسئولية الشئون العامة تدخل فى اختصاص أية

إدارة حكومية أو أية تنظيمات أهلية . وهكذا ، فإن أمراء المماليك الحاكمين حين كانوا يتصدون لأمور من هذا القبيل ، إنما كانوا يفعلون ذلك لمجرد اهتمامهم الخاص ، أو لشعور منهم بالواجب أو رغبة فى اكتساب مسحة من الشرعية فى عيون العلماء والأهالى .

ومن جهة أخرى ، فإن عاصمة الإمبراطورية نفسها فى العصر العثمانى لم تكن بأحسن حالا من القاهرة ، ويمكن أن نلمس هناك بالمثل غيبة أية تنظيمات حقيقية للشئون البلدية والمرافق العامة وكذا تضارب الاختصاصات بين الحكومة المركزية وإداراتها.

إن هذه الظاهرة تمثل شيئا مستمراً فى تاريخ المدن الإسلامية فى الشرق الأدنى فليس الأمر إذن قاصراً على القاهرة وحدها .

١ — منظمات البلديات :

كانت التنظيمات المهنية (الطوائف) وكذا منظمات الأحياء (الحارات) تشكل بنيات حضرية هامة ، لكنها مع ذلك لم تكن تشكل درجات حقيقية فى سلم التنظيم الإدارى كما أنها لم تكن أنظمة حضرية أصيلة .

(أ) الطوائف المهنية :

كانت الطائفة المهنية عنصراً أساسيا فى الحياة المدنية ، فقد كانت تمثل — بالنسبة للسلطات — إطارا يمكنها من الإشراف على قرابة معظم الشعب العامل بالمدينة من صناع وتجار . وهذه الحقيقة بالغة الوضوح بحيث لاتستحق الوقوف عندها كثيراً فعندما يتوسط شيوخ الطوائف المهنية فى المشاجرات التى تنشب بين أبناء طوائفهم ، وعندما ينظمون المنافسة ويعاقبون المسيئين على ما يرتكبون من أخطاء فإنهم بذلك يسهمون فى إدارة المدينة وفى حفظ النظام . وكانت الغرامات التى تجمع — نتيجة لوساطة الشيوخ هذه — تشكل مصادر مالية لايمكن أن تنكر أهميتها سلطات

القاهرة . وكان على الحكام أن يلجأوا لهذه الطوائف ولشيوخها عند حاجاتهم لإنجاز بعض أعمال البناء أو النظافة أو عندما يحتاجون لتأمين خدمات معينة لم يكن ثمة جهاز متخصص قد أنشيء من أجلها كمكافحة الحرائق على سبيل المثال .

وبصفة عامة ، فقد كانت الطوائف رابطة إدارية ، من تلك الروابط القليلة التى أتيح لها أن تقوم بين السلطات وبين الرعية . وقد ظلت تلعب هذا الدور الهام إلى أن نجحت السلطات المصرية عند حوالى نهاية القرن التاسع عشر فى أن تنشيء جهازاً إداريا قادراً على الحلول محل هذه الطوائف ، ومع ذلك فكلما كانت الحكومة تجد نفسها عاجزة عن خلق جهاز جديد للقيام بوظيفة ما ، فقد كانت تجد نفسها ملزمة باللجوء إلى نفس الوحدات التقليدية ، السياسية والاجتماعية والاقتصادية لتكون لها بمثابة الصلة بينها وبين تلك الأعمال الإدارية التى كان يتعين عليها القيام بها . . وهكذا واصل الشيوخ ممارسة وظائفهم بتبليغ أوامر الحكومة إلى أعضاء طوائفهم .

ومع ذلك فإن الدور الذى كانت تلعبه الطوائف الحرفية فى جهاز الإدارة العامة « كجهاز توصيل » تلجأ إليه السلطات ، لم يكن يخص بطريقة نوعيـــة القاهرة كمجتمع حضرى ، بل إن هذا الدور قد مضى لأبعد من ذلك ، إذا نحن نظرنا الطوائف من ناحية المظهر الجغرافى ، فحيث أن معظم الحرف فى القاهرة كانت تتمركز فى قطاع محدد من المدينة فقد كانت للطوائف المهنية فى الغالب قاعدة جغرافية بالغة التحديد تستمد إسمها أحياناً من إسم تلك الطائفة وإن كان الأمر ليس على الدوام صحيحاً فى هذه النقطة ، فبينما نجـد طائفة « لعمال حى باب الشعرية » وأخرى « لتجار حى الغورية » ، نجـــد الأمر واضحا بالنسبة لطائفة « بياعى النحاس بالقاهرة » إذ كان كل النحاسين فى الواقع متجمعين فى سوق يحمل نفس الإسم

وفى ضواحيه القريبة، كذلك الأمر بالنسبة «لصناع الخيام بالقاهرة» فكل الخيامية بالقاهرة كانت محلاتهم تقع بالقرب من باب زويلة (٦) وكما كان الأفراد الذين يمارسون مهنة ما يتجمعون فى حى واحد ، هو غالباً شارع معين ، وكما كان لنشاطهم ملمح سائد وخاص أحياناً ، فإنه من الممكن الافتراض أن الطائفة المهنية التى ينتمون إليها كانت تمارس داخل هذا القطاع عملا إدارياً « محلياً » بالإضافة إلى اختصاصاتها المادية فى المسائل الحرفية « كالأجور والأثمان . . » ويوحى بهذا المعنى أحد النصوص ، وإن كان متأخرا نوعا إذ يعود إلى زمن الاحتلال الفرنسى . فقد حدث بعد بضعة أيام من نهاية ثورة القاهرة الأولى أن توجه شيخ وتجار حى النورية (وهو أكبر سوق الأقمشة بالقاهرة) إلى بونابرت وقدموا تعهداً كتابياً بأنهم سوف يحفظون من الآن فصاعداً كل شوارع الحى من أى اضطراب أو شغب ، وبأنهم سوف يبذلون كل عنايتهم لردع كل من يسىء إلى الأمن ، ووعدوا أيضاً بأن يلقوا القبض على أبناء الحى الذين يرتكبون ما يخل بالنظام وبأن يرشدوا السلطات إلى الغرباء الذين قد يقيمون بالحى كما أعلنوا أنهم مسئولون شخصياً عن أى اضطرابات قد ينشأ فى منطقتهم (٧) . وواضح أن الأمر هنا أمر سلطة قضائية محلية أخذت على عاتقها طائفة ما القيام بها فى منطقة نشاطها الاقتصادى .

ومع ذلك فإن هذا النص شديد التفرد ، كما أنه صدر فى ظروف غير عادية لدرجة شاذة حتى أننا لا نستطيع معها أن نعتبره سوى دليل على ما كان يمكن للطوائف المهنية أن تلعبه من دور فى الإدارة المحلية .

(ب) الأحيــــاء :

كانت الخلية الأساسية للحياة المدنية فى القاهرة تتمثل فى الأحياء بأكثر مما كانت تتمثل فى الطوائف ، التى ظلت اهتماماتها مهنية على وجه الخصوص والتى

كانت منطقة نشاطها لا تغطى إلا جزءاً من حياة المدينة . وكان يشار إلى الأحياء عادة باسم الحارات (حارة) ، وإن كنا نصادف أحيانا أسماء أخرى مثـــل « خط » و « درب » .

وقد وصف نيبيور Niebuhr أحياء القاهرة بأنها « تتـكون من عدد كبير من الشوارع الصغيرة ، ليس لها جميعاً إلا منفذ واحد ، تتصل عن طريقه بأحد شوارع المدينة الرئيسية » . فالحى إذن وحدة مغلقة ، تترابط فيما بينهـا عن طريق شبكة متدرجة من الطرق العامة ، وأزقة تصب فى حوارى (عطفات — عطفة) وتؤدى بدورها إلى الشارع الرئيسى للحى (درب) . وهو الذى يسمى الحى عادة باسمه ، ويتصل فى النهاية بالشارع الـكبير (شارع) غالباً عن طريق بوابة . وفى العادة لم يكن ثمة دكاكين فى الحارة ، وإن وجدت أحياناً ، فإنهـا تـكون بالقرب من البوابة . ويقول نيبيور Niebuhr « إن الأحياء تستخدم فى العادة كمقر لسكنى الصناع وغيرهم من السكان الفقراء الذين يعملون ، ليس داخل بيوتهم ، ولـكن فى حوانيت صغيرة فى « السوق » أو على طول الشوارع التجارية » (٨) .

وكانت كل من هذه الوحدات المنفصلة تضم عادة جماعة متجانـة نسبياً من الناس ، كعمال يمارسون نفس المهنـــة ، أو أناس تنتمى أصولهم لبلدة واحدة أو يدينون بنفس الدين (٩) .

ويميل رحالة القرن السابع عشر إلى المبالغة فى عدد حوارى القاهرة فيذكر Thevenot رقم ٢٣٫٠٠٠ ثم لا يلبث أن يضيف أن هذا يبدو له رقما مبالغا فيه (١٠) . ولسنا نستطيع أن نعتمد على تقدير معقول لعدد الحارات إلا عن طريق كتاب وصف مصر Description de l'Egypte كما أمكن عن طريق

الخريطة التي عملت للقاهرة في هذا الكتاب تحديد أماكن الحارات بدقة . وحسبما يذكر Jomard ، فقد كان يوجد بالقاهرة ٥٣ حيا نجد منها ٥٢ بالفعل في قائمة وصف مصر . ويتفق هذا العدد — على وجه التقريب — مع العدد الذي يمكن استخلاصه من قائمة مشايخ الحارات التي تضمها وثائق أرشيف الحملة الفرنسية وهو ٥٨ شيخا وهو رقم يمكن تنزيله إلى ٥٥ فقط إذا وضعنا في اعتبارنا أن ثلاثة من هذه الأحياء كانت منقسمة . ومع ذلك يبقى هذا الرقم أقل من الرقم الحقيقي إذ أننا — أثناء بحثنا في وثائق القاهرة — اكتشفنا ، مع أننا لا ندعي أنه بحث تام وشامل — وجود ١٦ حارة لم يرد ذكرها في قائمة كتاب وصف مصر . ومن جهة أخرى فإن قائمة أرشيف الحملة الفرنسية شديدة الاختلاف مع القائمة التي يوردها كتاب وصف مصر ، ولهذا فإن رقم الـ ٦٣ الذي انتهينا إليه هو بدوره رقم غير دقيق، والرقم الحقيقي لعدد الأحياء يقترب بلاشك من المائة مما يجعل متوسط عدد سكان كل حي ما بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ نسمة .

وليس من نافلة القول أن نقدم قائمة بهذه الحارات ، ذلك أن تحديد أماكنها على الخريطة قد يؤدي لنتائج هامة .

الأحياء التي ورد ذكرها في كتاب وصف مصر :

النصارى ـ الداودية ـ الصايدة ـ المدابغ ـ الزرائب ـ العبيد ـ الأسقف النصارى ـ الحنفي ـ عابدين ـ النصارى ـ السقايين ـ السيد ـ الزباتين ـ صفية ـ الحمام ـ غيط العدة ـ المغاربة ـ باب الفدر ـ اليهود ـ الصقالبة ـ القرائين ـ زويلة ـ الشعراوي ـ الفرنساوية ـ الأفرنج ـ النصارى ـ الخضرى ـ السكفاروة النصارى ـ القوالة ـ النصارى ـ الساكت ـ قنطرة الدكة ـ الغريب ـ الدراسة ـ الفرن ـ الوساعة ـ الدويدارى ـ الأزهر ـ الوايلى ـ الجميدية ـ القليوبية ـ

البوز ـ العطوف ـ الصنانية ـ الحطابة ـ الحربكية ـ زرع النوى ـ الرخبة ـ الروم الزرنبة .

أحياء ورد ذكرها فى وثائق أرشيف القاهرة :

الجمالية ـ درب الأحمر ـ عرب اليسار ـ القبانة ـ البقلى ـ درب المحروقى ـ كوم الشيخ سلامة ـ الحبالة ـ درب السكرى ـ درب مصطفى بك ـ الحسينية .

وكانت الحارات الثلاث والستون التى سبق ذكرها موزعة كما يلى : ٣٢ بالقاهرة بحدودها الفاطمية و ١٩ بالمنطقة الجنوبية و ٢٠ فى المنطقة الواقعة إلى الغرب ووراء الخليج وأكثر من واحدة بقرية الحسينية . ويتفق هذا تقريباً مع توزيع السكان الذين كانوا موزعين بلا شك بطريقة مماثلة بين مناطق القاهرة الثلاث بينما كانت النشاطات الاقتصادية مركزة بالقاهرة (الفاطمية) .

ويتفق هذا مع الملاحظة التى أبداها الرحالة وهى أن الحارة كانت مخصصة للسكنى والدليل على صحة هـذه الملاحظة أن عدد الحارات فى المناطق التى يتركز فيها النشاط التجارى الكبير (كالقصبة بين باب الفتوح وباب زويلة وامتدادها حتى طولون ، وكذا منطقة خان الخليلى فى باب الشعرية) كان قليلا . كما أن خريطة الأسواق حيث كانت تتركز الطوائف المهنية أساساً تبدو وكأنها الصورة السلبية لخريط الحارات . كما أن معظم الحارات التى أمكن تحديدها على الخريطة كانت تقع عنـــد تخوم المدينة ، فى تلك المناطق التى استقرت فيها الأحياء الشعبية ، بينما يندر ان نجد فى مقابل ذلك حارة واحدة بالقرب من « الأحياء الراقية » للمدينة : ضـواحى بركة الأزبكية وبركة الفيل ، وشواطىء الخليج ، وتمثل الأحياء الأفرنجية والمسيحية شذوذاً عن القاعدة ، تفسره الملامح الخاصة لهذه الحارات وتلك الرفاهية النسبية

لسكانها . كان يسكن هذه الأحياء ـــ الشعبية ـــ إذن كما لاحظ نييبور Niebuhr العناصر الفقيرة من الشعب من صغار الحرفيين وتجار التجزئة و« بورجوازية » للشايخ والتجار الذين كانوا يقيمون فى غالب الأحيان بجوار مناطق الأســـواق وحول الأزهر .

وفى العادة كان لـكل حارة باب (بوابة) يوجد عند مدخل الشارع المؤدى إليها ، وقد ظل بعضها باقيا حتى الآن مثل بوابة حارة البيضة التى أنشئت عام ١٦٧٣ هى والسبيل والوكالة المجاورين لها ، وهى عبارة عن قوس من البناء يعلوه صف من الفتحات ويغلقه مصراع (ضرفة) كبيرة من الخشب المقوى بعوارض حديدية وكان يحرس هذه الأبواب بوابون (بواب، خفير) كان يصفهم الرحالة الأوربيون بسبب تخشبهم الأسطورى بأنهم يبدون وكأنهم مقيدو القدمين كأى حصـان جامح بواسطة قيد مفتاحه بيد سكان الحارة حتى يكونوا مطمئنين من حراســـته لحارتهم (١٥) .

وفى العادة كان ثمة نقط للحراســة من بعض رجال الانـكشارية تـكمل نظام حراسة الأحياء وهــذه الأبواب ـــ التى كان من السهل إغـلاقها بأقفـال خشبية (ضبة) ـــ لم تسكن فى الحقيقة مخصصة للقيام بأى دور دفاعى أوقات الحرب وإنما فقط لتأكيد الأمن الليلى بمنع تجول اللصــوص الطارئين ، فما أن كان يحل الليل حتى كانت تغلق أبواب الحارات ، فـكان على أولئك الذين يرغبون فى التنقل فى تلك الســاعة أن يحملوا الفوانيس . ولم تـكن البوابات تفتح إلا لأبناء الحارة نفسها ولزوارهم المعروفين منهم مقابل جعل متواضع للبواب . وكان هذا النظام يمكن السلطات من مراقبة تحركات الأشخاص الذين ترتاب فيهم ، فمثلا ، ما أن شاع الخبر عام ١٧٢٩ بأن بعض العسكر الهاربين قد دخلوا درب المحروقى عن طريق القفز

وفى ضواحيه القريبة، كذلك الأمر بالنسبة «لصناع الخيام بالقاهرة» فكل الخيامية بالقاهرة كانت محلاتهم تقع بالقرب من باب زويلة (٦) وكما كان الأفراد الذين يمارسون مهنة ما يتجمعون فى حى واحد، هو غالباً شارع معين، وكما كان لنشاطهم ملمح سائد وخاص أحياناً، فإنه من الممكن الافتراض أن الطائفة المهنية التى ينتمون إليها كانت تمارس داخل هذا القطاع عملا إدارياً «محلياً» بالإضافة إلى اختصاصاتها المادية فى المسائل الحرفية «كالأجور والأثمان..» ويوحى بهذا المعنى أحد النصوص، وإن كان متأخرا نوعا إذ يعود إلى زمن الاحتلال الفرنسى. فقد حدث بعد بضعة أيام من نهاية ثورة القاهرة الأولى أن توجه شيخ وتجار حى الغورية (وهو أكبر سوق الأقمشة بالقاهرة) إلى بونابرت وقدموا تعهداً كتابياً بأنهم سوف يحفظون من الآن فصاعداً كل شوارع الحى من أى اضطراب أو شغب، وبأنهم سوف يبذلون كل عنايتهم لردع كل من يسىء إلى الأمن، ووعدوا أيضاً بأن يلقوا القبض على أبناء الحى الذين يرتكبون ما يخل بالنظام وبأن يرشدوا السلطات إلى الغرباء الذين قد يقيمون بالحى كما أعلنوا أنهم مسئولون شخصياً عن أى اضطرابات قد ينشأ فى منطقتهم (٧). وواضح أن الأمر هنا أمر سلطة قضائية محلية أخذت على عاتقها طائفة ما القيام بها فى منطقة نشاطها الاقتصادى.

ومع ذلك فإن هذا النص شديد التفرد، كما أنه صدر فى ظروف غير عادية لدرجة شاذة حتى أننا لا نستطيع معها أن نعتبره سوى دليل على ما كان يمكن للطوائف المهنية أن تلعبه من دور فى الإدارة المحلية.

(ب) الأحيــاء:

كانت الخلية الأساسية للحياة المدنية فى القاهرة تتمثل فى الأحياء بأكثر مما كانت تتمثل فى الطوائف، التى ظلت اهتماماتها مهنية على وجه الخصوص والتى

أيضا فعندما شيد الأمير يوسف لنفسه قصراً بالقرب من بركة الفيل عام ١٧٧٧ وشق هناك شارعا واسعا للمرور، إحتاط لنفسه بأن أنشأ للقصر بابا سرياحصينا(٢١). وإذا كان الفرنسيون قد عملوا أثناء احتلالهم لمصر على إزالة أبواب الشوارع والحارات فى القاهرة، فإنهم كانوا يفعلون ذلك لأسباب استراتيجية، فقد كان وجود وسائل الدفاع الداخلى هذه يشكل أخطاراً جسيمة بالنسبة لحفظ النظام، وذلك ما يؤكده بوضوح تلاحق الثورات بالقاهرة(٢٢).

والآن، لنا أن نتساءل. إلى أى حد إذن كانت تلك الخلايا البشرية الأساسية للحياة فى القاهرة تشكل أقساما إدارية؟ لقد كانت الحارات تخضع لسلطة شيوخ الحارات، وكان يعاون كلا منهم نقيب أو أكثر كما توضح وثائق الأرشيف. وهذه البنية تطابق نفس بنية الطوائف الحرفية، ويمكن أن نفترض أن الحارة كانت بنية موازية لبنية الطائفة، إحداهما تقوم على الحرفة والأخرى تقوم على مقر السكن وهما متكاملتان كما يبين ذلك بجلاء توزيع الحارات على خريطة القاهرة. لم يكن إذن ثمة إنفصال بين النظامين بل لقد كان هناك تكامل بينهما. فكان من الممكن أن يكون شيخ الحارة - أحيانا - هو نفسه شيخ الطائفة المسيطرة فى الحى، تلك مثلا هى حال حجاج محمد شيخ البرادعية الذى كان فى نفس الوقت - عام ١٧٧٧ - شيخا لحارة الدراسة، وحال حجاج موسى عام ١٧٩٨ حين كان شيخا لطائفة النجارين وشيخا لحارة الحبالة فى نفس الوقت(٢٣).

وليس لدينا من المعلومات ما يجعلنا نعرف على وجه الدقة طبيعة الدور الذى كان يقوم به مشايخ الحارات. لقد دعوا - أثناء الاحتلال الفرنسى - إلى المساهمة الفعالة فى حفظ النظام، تلك هى المهمة التى أوكلها إليهم نابليون عام ١٧٩٩ حين غادر القاهرة للقيام بحملته على سوريا، وهذا ما يتفق مع الالتزامات التى نفذها المشايخ

منذ قيامهم بإحصاء النفوس فى ٣١ أكتوبر ١٧٩٨. ومنذ ذلك الحين أصبحوا بمثابة ضامنين للأهالى من أبناء أحيائهم ومسئولين عن أى اضطراب قد ينشأ فيها. وعندما فكر الفرنسيون فى عمل إحصاء للمولودين والمتوفين أوكلوا هذه المهمة إلى مشايخ الحارات، تعاونهم فى ذلك القابلات والمحدين (٢٤). هذا عن دورهم وقت الحملة الفرنسية، لكن المعلومات التى لدينا عن القرنين السابع عشر والثامن عشر لا تسمح لنا إلا ببعض الافتراضات عن وظيفة شيوخ الحارات. ويمكن الافتراض أن دورهم كان يماثل — بلا شك — التزامات رجل الشرطة من حفظ النظام ومراقبة العناصر المشبوهة أو « الغريبة »، وبحكم اتصالهم المباشر بالأهالى فقد كانوا فى مكان يسمح لهم أن يلعبوا دوراً إدارياً. وهكذا فقد كانوا يدعون للاشتراك فى تصفية تركات « الخاضعين لإدارتهم » وفى مقابل ذلك كانوا يحصلون على عوايد (أو خدمة) تعادل ٢ أو ٣٪ من مجموع التركة. وعموما فإن مشايخ الحارات كانوا واسطة اتصال بين السلطة والرعايا وهو نفس الدور الذى كان يلعبه شيوخ الطوائف الحرفية كما سبق أن ذكرنا. ويجب أن ننظر إليهم فى هذا الخصوص — بلا شك كأعيان وممثلين لأحيائهم أكثر من اعتبارهم مجرد أناس قائمين « بدور إدارى ».

لكن هذه البنيات لم تحدد ولم ينتظمها سلم إدارى إلا فى القرن التاسع عشر، فعلى سبيل المثال لم يرد ذكر لشيخ مشايخ الحارات إلا فى عام ١٨٠٣، فى مؤلفات الجبرتى.

وكانت هذه الأحياء فى النهاية — كمقر مزدحم بالسكان — تعبر عن نفسها بمظاهرات دينية وجماعية، ولا يمكن اعتبارها بحال أقساما إدارية بالمعنى الصحيح للكلمة، وسوف يكون من العبث فى هذا المجال أن نتحدث عن شكل ولو ضئيل لإدارة ذاتية حضرية (لها اهتمام بالمرافق والبلديات) على نحو ما. لقد ظلت القاهرة بوصفها مدينة تدار من أعلا، على يد السلطات الحاكمة.

٢ — إدارة (حكومة) المدينة :

لم يكن بالقاهرة العثمانية ما يمكن أن نعتبره إدارة ذات صبغة حضرية إلا الوالى . أما المسئوليات التى تتصل بالمجالين الأساسيين للمدينة : مجال حفظ النظام ومجال المرافق فقد كانت موزعة بين سلطات « أهلية » ما كانت لتهتم بالقاهرة على وجه الخصوص إلا لكونها مقرا للحكومة ، ولأن مشكلات التنظيمات المختلفة بها كانت ذات أهمية خاصة .

ا — الباشا :

كانت السلطة التى فى حوزة الفرق العسكرية تخسف بجانبها سلطة ممثلى الباب العالى، ومع ذلك فقد ظلت فى حوزة الباشوات وسائل عمل كافية ، كفيلة بأن تمكنهم من أن يقوموا بدور مؤثر عندما يضطرب الأمن ويختل النظام بالقاهرة . ومهما كانت محدودية تأثير تلك السلطات ، إلا أنهم ظلوا — من وجهة النظر هذه — هم السلطة العليا التى على بقية « القوى » أن تعتمد عليها حتى ولو كانوا فى واقع الأمر يستخفون بها . وهذا ما كان يبدو بوضوح متزايد بدءاً من القرن السابع عشر . وحيث أن المحافظة على النظام كانت تشغل هؤلاء الباشوات بالدرجة الأولى ، فقد كانوا كثيراً ما يتدخلون لحل الصعوبات التى تهدد باضطراب النظام ، كما حدث على سبيل المثال أثناء أزمات الأسعار وندرة المواد الغذائية التى أدت لكثير من الحركات الشعبية . ففى عام ١٦٧٨ عندما بلغ ثمن أردب القمح ١٨٠ نصف (فضة) مما زاد السخط ، أمر عبد الرحمن باشا بأن يباع الأردب بـ ١٣٠ فقط ومع ذلك انفجر العصيان وأشعلت الحرائق فى الدكاكين ومخازن الحبوب فى الرميلة ، وعندئذ أرسل الباشا الزعيم لإعادة الهدوء ، لكن ذلك لم يؤد إلا إلى سقوط ١٣ قتيلا . والأمثلة على مثل هذا التدخل كثيرة .

أما فيما يخص القاهرة نفسها كمدينة، فقد أولى الباشوات اهتماما بشئون المرافق أكبر من اهتمام الأهالى أنفسهم بهذه الشئون إذ يبدو أن مثل هذه الأمور فى ذلك الوقت لم تكن تشغل بالهم. وعلى سبيل المثال، فقد أمر محمد باشا (١٦٠٧ — ١٦١١) بإزالة نتوءات الأرض من كل شوارع القاهرة حيث كان تراكم الأتربة والقاذورات قد أدى إلى مشاكل حقة. كما أمر مقصود باشا (١٦٤٢ — ١٦٤٣) بحفر الخليج الحاكمى والخليج الناصرى اللذين تهددها تراكم الطمى، وبعد ذلك بعدة أعطى محمد باشا — آخر — (١٦٥٢—١٦٥٦) أوامره إلى نظار المساجد بالقاهرة بتبييض هذه المبانى مماجعل الناس يطلقون عليه اسم «أبى النور محمد» كما ارتبط اسم حسين باشا (١٦٧٤ — ١٦٧٥) بترميم العيون التى تهدمت من الكوبرى القريب من الجيزة، وأخيراً فإن محمد باشا — ثالث — (١٦٩٩ — ١٧٠٤) هو الذى أمر بهدم الدكاكين والسقوف من الأسواق كى يوسع الشوارع وهو الذى أمر كذلك بحفر أرض الشوارع وتسويتها. ولم يفتر حماس الباشوات فى مجال البلديات إلا فى القرن الثامن عشر وانتهى الأمر بانطفاء هذا الحماس نهائيا (٢٧).

ب — أغوات الإنكشارية:

منذ بداية الاحتلال العثمانى لمصر — عهد السلطان سليم إلى أوجاق الأنكشارية بمهمة حراسة المدينة والقلعة. وإلى تلك المهمة يعود سبب تسميتهم «مستحفظان» (أى الحراس) تلك التسمية التى أصبح يشار بها إليهم فى مصر عادة، فى الوقت الذى كان يطلق عليهم فيه أسم يانيشاريا أو ينكيشاريا (وبالتركية: ينيشرى) ونتيجة لهذه المهام الموكولة إليهم. كان على الانكشارية أن يقووا من نفوذهم وسلطتهم لحد أصبحوا معه — عند حوالى نهاية القرن السابع عشر — العنصر العسكرى والسياسى المسيطر فى مصر. وكان لقائدهم أغا مستحفظان الصدارة على قواد بقية الأوجاقات.

بل كان هو بالفعل قائد جيش مصر وكان من مهامه على وجه الخصوص أن يقوم بدور الشرطة فى القاهرة وضواحيها (٢٨).

وفيما بعد انتقلت السلطة الحقيقية فى أوجاق الإنكشارية إلى يد كتخدا (ملازم) الأوجاق. وإن ظل الأغا يحتفظ بسلطات البوليس التى سبق أن تولاها. وعند مجىء الحملة الفرنسية كان الانكيشاريون كما يذكر مارسيل Marcel يقومون بمهمة الحفاظ على الأمن العام. وكان اغاهم يقوم بمهام عسكرية وإدارية وكان يقوم على وجه الخصوص بدور الشرطة فى المدينة فى كل الشئون التى لاتخضع لسلطة المحتسب الذى لم تكن اختصاصاته لتتعدى القيام بدور الشرطة فى شئون التجارة. أما اختصاصات الأغا فقد امتدت لتشمل الأشقياء من كل نوع واللصوص، والعاهرات والذين يبيعون الخمور سراً أو يقومون بما يعكر صفو الأمن (٢٩) وبصفة عامة فقد كان أغا الإنكشارية يمارس دور شرطة النهار بينما كان الوالى يقوم بدور الشرطة الليلية.

وقد أدت تلك السلطات التى حازها الأغوات فى مجال الأمن، والتى كانت تزيد كثيراً وقت الأزمات، حين كانت الحكومة وقتها تعطيهم نوعاً من التفويض العام بالسلطة، أدت إلى أن يتدخل هؤلاء المسئولون الكبار فى شئون بلديات ومرافق القاهرة. ويمكن أن يوضح لنا ذلك تلك العلاقات التى كانت قائمة بين الأوجاق والطوائف الحرفية بالإضافة إلى سيطرة الأوجاق على عدد من هذه الطوائف منافسا بذلك المحتسب. فعندما أوكل إلى على أغا عام ١٧٠٣ — بتكليف من السلطات العليا — حل المصاعب الناجمة عن الأزمة النقدية وندرة المواد الغذائية انتهز هو تلك السلطات المطلقة التى خولت له ليوجه اهتمامه إلى مشاكل «المرور» فى شوارع المدينة فأمر بإزالة الأتربة التى تراكمت والتى بلغت طوال ذراعين فى بعض الجهات كما أمر بإزالة «مصاطب الدكاكين» التى تعوق الطريق. وعندما حصل عام ١٧١١ على

نفس التفويض مرة أخرى وبسبب أزمة « سياسية » هذه المرة فقد عمل هذا الأغا نفسه على تنظيف الشوارع وغسل المنشئات العامة (مآذن المساجد — الأسبلة — المدارس . . .) كما توجه إلى المناطق التى دارت بها المعارك التى تسببت فى هدم الكثير من المبانى . وأمر بإزالة الأنقاض وإعادة بناء ما تهدم . وكان للرعب الذى توحى به شخصيته القوية أثره مما جعل اوامره مطاعة على الفور . ولكن عند قرب نهاية القرن . ومع اضمحلال نفوذ الانكشارية ، كان من الواضح أن هذا النوع من التدخل قد أصبح نادرا ، وقد لاحظ الجبرتى وهو يشير إلى المبانى التى شيدت بالقرب من بولاق — فى فترة على بك — وإلى الاهمال الشديد من جانب الأهالى الذين كانوا يلقون بالفضلات فى النيل مما كان يهدد بتغيير مجراه أن آخر حاكم شغل نفسه بهذه المسائل هو الرحمن باشا أغا مستحفظان وأن أحدا بعده لم يلق بالا على الإطلاق لهذه الأمور لدرجة أن الطرق التى كانت تؤدى إلى بولاق ، انتهى بها الأمر أن سدت تماما بسبب ماتكدس فيها من فضلات . ومع ذلك فإننا نعود لنرى سالم أغا عام ١٧٨٦ يأمر بإعادة فتح بوابة جامع السلطان حسن المطلة على سوق السلاح . وهى البوابة التى ظلت مغلقة منذ أحداث ١٧٣٦ مما كان يضطر المصلين أن يذهبوا عن طريق الرميلة كما أمر بهدم الدكاكين والمبانى الطفيلية التى كانت قد قامت هناك (٣٠) .

ح — الوالى .

كانت وظيفة والى القاهرة — والذى كان يسمى أيضا زعيم (وبالتركية صوباشى) أقل مرتبة من الأغا ، ومع ذلك فإن السلطة التى كان يحوزها كانت لها مسحة حضرية (أى ذات صلة بشئون المرافق والبلديات) محصورة داخل القاهرة وكان الوالى يعين — فى الواقع — من قبل الأغا الذى يعهد إليه بمهمة الحرص على كافة الشئون البوليسية فى داخل القاهرة . أما بالنسبة لبولاق ومصر القديمة فقد كانت هذه الشئون من اختصاص « زعيمين » آخرين وكانت مهمة الزعيم على وجه الخصوص ،

التأكد من أن حراسة مختلف الأحياء مؤمنة جيداً ، وأن النظام يسود المدينة .
وكان الوالى يقوم بجولات ليلية تعيد إلى الأذهان جولات سلفة فى العصر المملوكى « والى الطوف » الذى كانت اختصاصاته تماثل نفس اختصاصات الوالى التركى .
وكان من سلطة الوالى أن يعاقب المخالفين بالغرامات أو بعقوبات أشد ، لكن لم يكن من حقه مطلقا أن يصدر حكما بالإعدام . وكان يصحبه فى فى جولاته النهارية والليلية عدد من الجنود . وكان مخولا أن يحصل بعض العوائد من الأفراد الداخلين فى مجال سلطته ومن بين هؤلاء الفتيات اللاتى يحترفن البغاء .

وكانت اختصاصات الوالى العادية تشمل على وجه الخصوص تنظيف ترعة القاهرة ومكافحة الحرائق . وعند حدوث كارثة، كان الوالى يتوجه إلى مكان الحادث مع ممثلى عدد من طوائف مهنية معينة ، وبالذات « السقائين والهدادين » . وفى هذا المجال أيضاً كان الوالى يقوم بنفس اختصاصات سلفه « والى الطوف » الذى يشير إليه المقريزى مصحوبا « بالسقايين والنجارين والقصارين والهدادين » الذين عليهم الدور فى الخدمة لمكافحة الحرائق الليلية بالمدينة ولإطفاء النار .

د — المحتسب

كانت وظيفة المحتسب أيضاً تتصل بشئون البلديات والمرافق، ولكن اختصاصات المحتسب اقتصرت فى الفترة العثمانية على مجال الاقتصاد . وكان يخضع لرقابته عدد معين من الطوائف الحرفية المتصلة بالغذاء . وكان المحتسب يراقب الأوزان والمقاييس والأسعار فى الأسواق الرئيسية حيث تباع المواد الغذائية وكان يقوم بجولاته فى المدينة فى شكل موكب مهيب لفت على الدوام أنظار الرحالة وكان يصحبه فى موكبه كثيرون من بينهم على وجه الخصوص حاملو الموازين، وكان يوقع العقوبات الجسدية على المخالفين . ومع ذلك فإن مكانة المحتسب فى السلم الإدارى كانت بالغة التواضع وكذا

الدخول التى يحصل عليها من وظيفته تلك وقد أدى به فيا مضى إشرافه على أصحاب الحوانيت إلى الاهتمام بمشاكل البلديات كنظافة الشوارع وتأمين حرية المرور داخل الأسواق ، ولكن اختصاصاته تلك فى العهد العثمانى أصبحت مجرد ذكريات بجهد أحد المحتسبين النشطين! — وهو مصطفى كاشف كرد — أن يبعث فيها الحياة فى عهد محمد على — لقد أراد أن يجبر الأهالى على كنس الأسواق ورشها بصفة دائمة وأمر بإضاءة الفوانيس على أبواب البيوت وبتعليق فانوس على باب واحد من كل ثلاثة دكاكين وقد أثارت هذه الأوامر وغيرها معارضات قوية لحد اضطر معه الباشا أن يلزم موظفه النشيط بالتزام الأمر السائد وبأن يقتصر على القيام فقط بنفس اختصاصات سابقيه .(٩)

وعندما نأخذ فى اعتبارنا ضعف هذا الإطار الحضرى وعدم كفايته ، فسوف نرى أن تلك الامتيازات — أو الأوضاع الخاصة — التى حصلت عليها بعض طوائف الشعب تعد — على نحو ما — كسباً للسلطات الحاكمة التى تخلصت بهذه الطريقة من أعباء كثيرة من المهام الإدارية التى كان عليها أن تقوم بها . لقد كان « الذميون » يخضعون لإشراف رؤسائهم الدينيين . كما كانت الجاليات « الأجنبية » كالمغاربة والأتراك والسوريين على سبيل المثال يخضعون بالمثل لمشايخ اختيروا بين بينهم ، وكان الزعماء الدينيون وشيوخ الجاليات هؤلاء يلعبون — بين السلطة وتلك الأقليات — نفس الدور الذى كان يلعبه شيوخ الطوائف الحرفية وشيوخ الحارات ؛ أى دور ضباط الاتصال بين السلطة والتنظيمات الحرفية والجغرافية القائمة ، وكان هذا « الانفصال » عن ولاية السلطة الشرعية يمثل — إلى حد ما — نوعا من الضمان لايستهان به فى أوقات كانت الأمور فيها مضطربة لحد اضطرت معه جماعات أخرى أن تحاول الحصول لنفسها على امتياز مماثل ، فلهذا السبب ، حاول رجال الأزهر أن يحصلوا على اعتراف بحق الأزهر — تلك « الكاتدرائية الإسلامية » — فى معاملة

خاصة . ففي عام ١٧٧٧ – وعقب حوادث وقعت بين بعض الأمراء وبعض الطلبة المغاربة الذين كانوا مدعومين من الازهر – طلب المشايخ أن يصبح محظوراً على الأغا والوالي والمحتسب منذ ذلك الوقت أن يمروا في حي الأزهر مما حقق للشيوخ والطلاب امتيازا حقيقياً أمام السلطات التي كانت تقوم بدور البوليس والإدارة بالقاهرة . ولكن هذا الامتياز لم يحظ بالاحترام إلا لمدة أيام (٣٣) ، ودائما مانرى الأزهر يواصل محاولاته الحصول على إعفاء – ولو جزئي على الأقل – من النظام العام حتى أن إدارة الحي – في بداية القرن التاسع عشر – (الحسبة والأحكام بخط الأزهر) أصبحت من اختصاص ممثلين خاصين هما في ذلك الوقت كما يذكر الجبرتي السيد أحمد الذي يقال له جندي المطبخ وابن أخيه . (٢٤) وهكذا بدا أن المدينة كانت تتحلل إلى خلايا تتمتع كل منها باستقلال ذاتي .

ثانياً : الوظائف الحضرية (المتصلة بالمرافق والبلديات)

عندما نضع في اعتبارنا هذا العدد الضئيل من الأجهزة المتصلة بشئون البلديات – والتي تستحق بالفعل هذا الوصف – فسوف يبدو لأول وهلة أن الفوضى كانت تعم حياة المدينة . ومع ذلك فإن شئون البلديات كانت تؤمن عادة بفعل ميكانيزمات ذاتية وشبه تلقائية في غيبة تلك الإدارات المتخصصة .

١ – النظام العام

لم يكن تدخل الباشا وأغوات الإنكشارية في شئون النظام العام أمراً طبيعياً معتادا ، بل كان يحدث عادة فقط وقت الأزمات ، كحدوث فتنة داخل الجيش أو تنازع بين القوى أو عند حوادث العصيان الشعبية . وكانت شئون البوليس العادية تدخل في اختصاص الأغا وكان يقوم بها نيابة عن الوالي ورجاله .

وكان والى الشرطة يقود جنود الانكشارية المتمركزين بالقاهرة للمحافظة على النظام . وكان يصحبه عدد منهم فى جولاته . أما الباقون فكانوا موزعين على نقط صغيرة تنتشر فى كل أنحاء المدينة . وكانت هذه النقط تحمل اسم قلق ويقودها صف ضباط برتبة بلوكباشى — وكان جندى الانكشارية الذى يخدم بها — وكان ذلك يتم بالدور فيما بينهم — يسمى نوباتجى . وكانت هذه النقط مكلفة على وجه الخصوص بضمان وتأكيد الأمن فى أحياء المدينة (٣٥) .

وكان مركز بوليس القاهرة يوجد فى قلب المدينة بجوار باب زويلة مباشرة . وهناك كان مقر سكنى الوالى بالقرب من سوق القوافين وهو سوق كبير مغطى بناه رضوان بك اتجار الأحذية أمام باب زويلة . ويذكر كتاب وصف مصر أن فى هذه المنطقة كان يوجد بيت الوالى وبوابة الوالى حيث كان يقوم بحراسته الجنود فى شارع صغير يؤدى إلى قصبة رضوان على الشمال عند المجىء من باب زويلة. وربما كان وجود الوالى قريباً من هناك هو الذى يفسر لنا كيف أن باب زويلة ظل المكان الذى كانت تنفذ فيه أحكام الإعدام حيث كانت تعلق رءوس المشنوقين حسب تقليد — والحق يقال — بالغ القدم . وهناك علقت رأس آخر سلاطين المماليك طومان باى بعد مدة قصيرة من هزيمة مصر على يد العثمانيين . وفوق السور الحديدى لسبيل فرج بن برقوق، وفى عهد العثمانيين قضى كثير من المحكوم عليهم بالإعدام هناك آخر لحظات عمرهم سواء كانوا من كبار الشخصيات أمثال أحمد باشا « الخائن » بعد فشل تمرده ضد السلطان عام ١٥٢٤ وإبراهيم باشا الذى ذهب ضحية تمرد العسكر عام ١٦٠٤ وعلقت رأس كل منهما على باب زويلة —أو سواء كانوا مجرد أمراء أو عسكر لاقوا حتفهم نتيجة انقسامات ونزاعات داخلية، أو مجرد أناس أدينوا من قبل « القانون العام » كتلك السيدة التى قبض عليها عام ١٨٠٢ لأنها سرقت ملابس من أحد الحمامات ، وقد شنقت هى الأخرى عند باب زويلة

(٣٦) . وبلاشك فإن وجود الوالى فى هـــذه المنطقة — والذى خلف أثره على طبوغرافية الحى عن طريقة حمام يسمى الوالى على سبيل المثال — يفسر لنا تلك التسمية : « باب المتولى » التى أطلقت على باب زويلة إذ كان يطلق على قائد الشرطة أحيانا اسم متولى الشرطة وهى التسمية التى نعثر على مثلها فى دمشق (٣٧) . ويبدو أن الفكرة التى تقول إن أصل هذه التسمية تعود إلى سبب دينى هو تقديس أحد الأولياء (والى أو متولى القطب) كان يقيم هناك — يبدو أن هذه الفكرة لم تظهر إلا فى القرن التاسع عشر كما أن (الـكركول) الذى أشار إلى وجوده على باشا مبارك بجوار مسجد الطلائع عند بداية قصبة رضوان تجاه باب زويلة كان هو بلاشك أحد البصمات التى تركتها إقامة الوالى على هذا الحى (٣٩) .

وعلى العموم ، فإذا نحن نحينا جانباً فترات الاضطرابات السياسية التى أصبحت أكثر تكرارا فى القرن الثامن عشر . فإنه يمكن القول أن النظام كان يبدو مستتبا بطريقة مرضية لمدة تقرب من الثلاثة قرون من السيطرة العثمانية ، ومهما كانت أخطاء هذه الشرطة التى تتهم أحيانا بالرشوة والقسوة ، فإنها كانت فعالة لحد كاف ، كما أن الاحتياطات المضاعفة التى أتبعت لمنع نشاط اللصوص — وخاصة أثناء الليل — (كإغلاق الحارات وجولات الوالى) قد هيئات لسكان القاهرة أمناً نسبياً . ولا يذكر مؤرخو هـــذه الفترة — وهم الذين يميلون إلى سرد الحكايات الطريفة من هذا النوع — إلا بعض حوادث تعد قليلة إذا ما قورنت بأحداث عام ١٦٤٢ حين وقعت المدينة خلالها فريسة لعصابات اللصوص (المناسر) الذين عاثوا فى مختلف الأحياء دون رادع يذكر . وعندما أمسكهم الناس تركهم الوالى يهربون مقابل رشوة . لقد كان الأمر بشعاً لحد شاذ فقد نهب ٤٨ دكانا فى طولون مما تسبب فى خسائر كبيرة ، وعندئذ ذهب التجار المغاربة يشكون للباشا مهددين برفع شكاواهم إلى

السلطان إذا لم يعزل الوالى ، فمين الباشا والياجديداً قام بتعقب اللصوص والقى القبض على عدد منهم وعاد الأمن إلى القاهرة ، لكن ابن أبى السرور الذى أفرد لهذا الحادث صفحات عدة يحدثنا بعد ذلك عن الأمن التام الذى كان يسود القاهرة أثناء الليل « كثرة الأمن بها بالليل » كاحدى ميزاتها ، فقد كانت شدة الولاة وقسوتهم تجعل بقاء اللصوص مستحيلا ، وكان بامكان الناس أن يذهبوا أثناء الليل إلى أعمالهم فى الأسواق والشوارع (٤٠) .

٢ ـ التنظيم (إدارة الطـرق)

ظل انشغال الحكام بالأمور التى تمس تنظيم الطرق لايتجاوز حداً متواضعا ، كتنظيف الشوارع أو إزالة الأنقاض التى تهدد بسدها . كما كان هذا الاهتمام بالغ التقطع لحد لم يكن لهذه المشاكل معه أن تصل إلى حلول مرضيـة ، واستوجب الأمر أن يقوم السكان القريبون من شواطىء النيل بصب الماء وكنس الشوارع ورشها مما يحول دون أن تسبب الأتربة فى مضايقة الناس . وعندما حمل الشعب السلاح عام ١٧٩٨ عند مجىء الفرنسيين وأسرع الناس إلى المتاريس التى أقيمت فى بولاق ، وعندما لم يعد بالقاهرة سوى النساء والأطفال والعجزة أصبحت الشوارع قذرة إذ لم يعد ثمة من يكنسها أو يرشها . كما أن فى تكرار النداءات من جانب السلطات ـ فى الأوقات العادية ـ بالتزام النظام حتى يمكن تأمين « الكنس والرش » ما يجعلنا نفترض أنه حتى فى هذه الأوقات العادية كثيراً ما كان الناس يهملون هذا الأمر ومع ذلك فمما لاشك فيه ، أنه يمكن القول بأن الحال فى الأسواق الكبرى التى يصفها الرحالة دائما بأنها نظيفة ومعتنى بها كانت غير الحال فى الشوارع الصغيرة والمتعرجة فى الأحياء السكنية التى كان تنظيفها بالغ الصعوبة . ومن هنا كانت تلك الانطباعات المتعارضة ـ ظاهريا ـ لأولئك الرحالة فعلى سبيل المثال وصف كليبر Kleber عام ١٧٩٨ شـارع « سوق القواقين جنـوب باب زويلة » بأنه

« واسع ، نظيف ، جيد التنظيم ، ومغطى جيداً .. » ومقابل ذلك نجد أن القاهرة فى رأى دوجيرو Doguereau ليست سوى « لوحة منفرة ، قبيحة لحد مرعب ، وتنقصها النظافة .. « ٤٢ » وحول هذا المعنى نفسه كتب الشيخ حسن الحجازى « المتوفى عام ١١٣١ هـ - ١٨ - ١٧١٩ م » هذه الأبيات وهى إن كانت تميل للمبالغة بعض الشئ إلا أنها مع ذلك ذات دلالة :

حارات أولاد العرب	سيما صوت من السكرب
بولا وغائطـا كـذا	ترب غبار سو أدب
وضجـة وأهلهــا	شبه عفاريت الترب

وقد كان ضيق غالبية الشوارع يجعل من الصعب إخلاؤها من الأنقاض والقاذورات التى تتراكم فيها من كل نوع ، بالإضافه إلى الأتربة التى تعد واحدا من جروح القاهرة التى لاتندمل ، وقد كان ذلك كله يؤدى إلى ارتفاع بطىء ولكنه مزعج لمستوى أرض الشوراع . ولعلاج الأمر . كان لا بد من « تطهير » الشواع . تطهير بمعنى الكلمة — على فترات منتظمة . وهذا ما كان يقوم به بين حين وآخر بعض الحكام الذين كانت تشغلهم على وجه الخصوص مسائل الصالح العام . وحين أمر محمد باشا (١٦٠٧ — ١٦١١) — كما سبق أن رأينا — بإزالة الأرض التى تكدست أرفق قراره بتبرير بادى الغرابة ، فقد أدعى — حسبما قال — أنه أراد أن يزيل الأرض التى وطئتها أقدام العصاة الذين رد إليهم صوابهم . وليس أقل من هذا دلالة أن يخصص الشيخ عبد الله الدنوشارى أبياتا عدة لهذا الإجراء الذى يتصل ببساطة بالشئون الصحية . وبعد ذلك بحوالى قرن (١٧٠٣ — ١٧٠٤) امر محمد باشا — آخر — بإزالة الأرض التى تكدست فى الشوارع حتى تبين أساسات الجدران وتمت إزالة مالايقل عن ذراع من أرض الشوارع لكن مستوى الأرض كان يرتفع من جديد فى فترات التوقف ، وبعد ذلك علينا أن ننتظر حتى عام ١٨١٨

لكى نرى محتسباً نشيطاً لدرجة غير عادية من موظفى محمد على يلزم القاهريين بأن يزيلوا من الشوارع الأكوام التى تهدد بمنع المرور منها (٤٤) وبرغم مبادرات السلطات هذه، فقد ظلت القاهرة عرضة للردم تحت الأنقاض كما يوضح ذلك منشآت العهد العثمانى التى تبدو واجهاتها كما لو كانت مدفونة تحت الأرض والتى تختفى أبوابها أحيانا حتى النصف بحيث لم يكن من السهل الوصول إليها إلا بواسطة سلم (٤٥) وقد سبق أن ذكرنا أن بعض الباشوات والأغوات وخصوصاً محمد باشا السلحدار «أبو النور» وعلى باشا وعلى أغا قد ذهبوا إلى حد الأمر بغسل واجهات المنشآت العامة فى القاهرة وهو أمر يتجاوز بوضوح ولحد بعيد كل الاهتمامات الحضرية المعتادة بين حكام القاهرة.

وكان الخليج الذى يخترق القاهرة من منتصفها والذى كان يستخدام كمجارى حائلة العام وكمصدر للمياه أيام الفيضان — كان هذا الخليج رغم كونه أكثر حيوية لحياة المدينة باقى للأسف فريسة الإهمال لقد كان من اختصاص الوالى العناية بالخليج على وجه الخصوص، تلك العناية التى كان يسهم فيها الأهالى القاطنون بالقرب من شواطئه، فكما يذكر قنصل فرنسا Damirat عام ١٧٤٦ «وكانت مصاريف إزالة الطين من الخليج تقع خصوصا على عاتق كل بيت يحيط بالخليج وحسب حصة معينة» ومع ذلك فلا يبدو أن العمل كان يتم بانتظام، ففى حوالى عام ١٦٤٣ أمر مقصود باشا بإعادة حفر الخليجين حيث أزيل من كل منهما ذراع ونصف من الطمى أى مايقرب من المتر، لكن تكدس الأوحال بلغ فى عام ١٨٠٨ — وبسبب إهمال المسئولين — حدا توقف معه وصول الماء فى «عز» موسم الفيضان مع كل النتائج التى يمكن افتراضها من جراء ذلك عن الحالة الصحية للمدينة وإمداداتها بالمياه (٤٦).

وكانت إضاءة الشوارع تتم حسب تقليد بالغ القدم، رغم أنها كانت تتوقف أحيانا دون شك. وكانت القناديل (قنديل) حسبما يذكر ابن أبى السرور تضاء

منذ منتصف القرن السابع عشر في الأسواق والشوارع . وفي الواقع فإن إيفليا جلبي يذكر طائفة تسمى « القندلجية » تضم مائتي فرد ، وكان عملهم على وجه الخصوص تزيين الدكاكين بالفوانيس أثناء ليالي المولد وليالي رمضان وكانت الإضاءة في الأوقات العادية بلا شك أكثر اقتصاداً ، وتورد حسابات الأمـــة الفرنسية Nation Ftamçaise سعر الزيت المستخدم لإضاءة قنديل الحي وقنديل بيت القنصلية . وكانت الإضاءة تقوى أثناء الأزمات ، وقبيل مجيء بونابرت كان اللصوص قد ظهروا في الضواحي وامتنع الناس عن الخروج في الليل ، عندئذ أصدر الوالي والأغا أوامرهما إلى الناس بفتح الأسواق والمقاهي بالليل وبتعليق وإضاءة الفوانيس أمام البيوت والدكاكين لطمأنة الناس ولتفادي المفاجئات . وبعد دخول الفرنسيين القاهرة بقليل أمروا بالمثل بإضاءة الفوانيس بالليل في الشوارع والأسواق بواقع فانوس لكل بيت وفانوس لكل ثلاثة حوانيت (٤٧) . ولنفس دواعي الأمن ، وكان على الناس الذين يتجولون ليلا أن يصطحبوا رجالا يحملون مشاعل ، والمشعل في العادة عبارة عن عمود خشبي مزود بقرص أسطواني من الحديد توضع به قطع من الخشب المشتعل (٤٨) . وكان حاملوا المشاعل (المشعلي ــ المشملجي وكذلك الضوئي) يشكلون طائفة لا تحظى بالاحترام ، يقوم أعضاؤها عادة بأعمال لا تحظى هي الأخرى بالاحترام : نزاحين ، ومرشدين للبوليس وجلادين . (٤٩)

٣ ــ الخدمات العامة :

لم تكن ثمة « خدمات عامة » بالقاهرة ، وكان جلب المياه والنقل الداخلي وشئون الصحة موكلة إلى مهنيين متخصصين ظل نشاطهم بعيداً عن أي تدخل من جانب السلطات . وفي هذا المجال سوف لا نتحدث بالتفصيل عن مشكلة جلب المياه إلى سكان القاهرة (٥٠) :

وكانت القاهرة تعتمد كلية على النيل الذى كان يجرى على بعد كيلو متر من الحد الغربى للمدينة ، بينما كان الخليج المصرى لا يجلب المياه إلا لمدة الثلاثة أشهر التى تعقب الفيضان ، وكانت الآبار لا تعطى إلا مياهاً ملحة ، ولهـذا كان الناس يتزودون بالمياه الصالحة للاستهلاك وللاستعمالات المنزلية بواسطة تلك الحدوات والروحات التى لا تنقطع لحاملى المياه (السقايين) . وكان السقاءون يكافأون من قبل عملائهم . وكانت تقسيمات طائفتهم تقوم على أسس منطقيه بالفعل ، فكان يوجد فى نهاية القرن الثامن عشر حسب قائمة Vincennes ثمانى طوائف للسقايين . ويبدو أن هذا التقسيم يعود إلى أسباب « تقنية » و « طبوغرافية » . كانت المياه إذن تأتى من النهر الذى كانت توجد على طوله للوردات (موردة) التى يعبء من عندها السقاءون ، لذا فقد كان من الطبيعى أن تنشأ متدرجة تلك الطوائف الأربع « لحاملى المياه على ظهور الحمير » بالقرب من المداخل الغربيـة للمدينة ، فنجد أولا طائفة « حاملى المياه على ظهور الحمير » لحى باب البحر ، ثم طائفـة لحى باب اللوق ثم ثالثة فى حارة السقايين والرابعة فى قناطر السباع . وعند منتصف الحد الغربى للمدينة ، فى ذلك الحى الذى كان يحاذى عن بعد اتجاه النيل - حى باب اللوق - كانت توجد « طائفة لحاملى المياه على ظهور الجمال » .

وابتداء من هذه النقط المختلفة ، كان « سقاءو القطاعى » يحملون القرب ويسيرون على أقدامهم يوزعون المياه فى أحياء القاهرة . ولم يكن ثمة سوى طائفة واحدة تضم « باعة المياه بالقطاعى فى الشوارع » ولم يكن نشاطها يغطى القاهرة فى مجموعها فقط بل كان يغطى أيضاً بولاق ومصر القديمة . ومن الواضح أن هؤلاء الباعة لم تـكن لهم دكاكين ، كما أن توزعهم الجغرافى بين قطاعات المدينة المختلفة كان مرتبطاً بتوزيع الأسبلة (سبيل) حيث كان يتزود الـكثيرون منهم بمياهها : فمن بين ٢٢٦ سبيلا بينها كتاب وصف مصر كان ٨٠ منها (٣٤½ ٪) موجودين

بالقاهرة (الفاطمية) وفي قرية الحسينية وكان ٩٥ منها (٤٢٪) في الحي الجنوبي و ٥١ (٢٢٫٦٪) في الحي الغربي فيما وراء الخليج ، وهو توزيع يتفق بلا شك وإلى حد ما مع توزيع السكان . وكذلك فإن الطائفة الوحيدة لحاملي مياه السبيل كان مقرها حي باب زويلة . وفي مقابل ذلك فنحن نجهل في أي منطقة من المدينة كان مقر طائفة حاملي المياه المالحة التي كانت تستخدم في بعض الاحتياجات المنزلية .

إن هذا التقسيم المنطقي لطوائف السقايين لا يدين بشيء — بلا شك — لسلطات القاهرة التي قلما كان يشغلها أمر السقايين ، إلا عند التفكير في استغلالهم ، وليس ثمة ما يدل على ذلك من أن التعليمات الصارمة والمفصلة في دفاتر الحسبة في القرون الوسطى والتي تؤكد على ضرورة نظافة المياه . . . قلما كانت توضع موضع التطبيق . وعلى كل ، فإنه لم يكن يبدو أن « للوظفين » المختصين — و « المحتسب » على وجه الخصوص — يهتمون بممارسة أية رقابة في هذا المجال ، بل على العكس من ذلك ، فقد كانوا يلجأون إلى السقايين فقط عند الحاجة إلى خدماتهم للاسهام في إطفاء الحرائق ، فمنذ حدوث الكارثة ، كان الوالي يستدعي عدداً كافياً من السقايين والمدادين ، وكانت هذه الإجراءات الارتجالية تكفي في العادة لإيقاف انتشار الحرائق . وعند الأزمات ، لم يكن المتنازعون يترددون في الاستيلاء عنوة على دواب سقايين وتسخيرها مع ما في ذلك من تعريض تموين القاهرة بالمياه للخطر . وليس ثمة ما يوضح إهمال حكام مصر أثناء الحكم العثماني أكثر من تلك العناية البالغة الضآلة التي أولوها قرب نهاية حكمهم للمجرى الذي كان يجلب المياه من مصر القديمة إلى القلعة . وعندما قرر محمد علي عام ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨ — ١٨٠٩ م) أن يعيد بناء هذا المجرى الهندسي الذي كان قد تحول إلى أنقاض ، كان هذا المجرى قد انقطع عن جلب المياه منذ أكثر من عشرين عاماً مع ما في ذلك من متاعب جمة لسكان القلعة والأحياء المجاورة (٥١) .

أما التنقل فى داخل القاهرة وفيما بينها وبين ضواحيها : بولاق ومصر القديمة فكان يتم بواسطة ركائب تستأجر لهذا الغرض . وبفضل هذا العدد الكبير من الركائب « الجاهزة » على الدوام وبسبب اعتدال أسعار المشاوير نسبيا ، كان سكان القاهرة يستطيعون التنقل بسهولة بالرغم من اتساع المدينة ، وكانت الحمير هى أكثر هذه الركائب انتشارا وكانت مميزاتها : السرعة والقوة ، موضع امتداح الرحالين الذين أدهشتهم بالمثل كثرة عددها الذى وصل لما لايقل عن ٣٠٫٠٠٠ حسب تقدير شابرول Chabrol وهو تقدير لايبدو مبالغا فيه (٥٢) ويشير دوجرو Doguereau بسرور فى يومياته إلى تلك النزهات التى تتم على ظهور الحمير التى كانت تمثل لجنود الحملة الفرنسية مباهج حقيقية « كنا نذهب ، وكل منا فوق ركوبته ، نوزع البريد فى كل شوارع المدينة التى لاتسبب شمسها أى أذى .. إن هذه الدواب لممتازة فى مصر ، وهى تجرى قفزا وبنشاط لايصدق ، فى كل شارع نمر به يقابلك بعضها ، يجرى خلفها الحمار وهى تقطع المسافة الطويلة فى وقت قصير» (٥٣) وكان مكان المكاريون (الحمارون) تلك المكابات للتى تفنن الرحالة فى التلاعب بنطقها (موكارى . Moucari مولكر Moulcre وأحيانا موشيرون Moucheron والأخيرة تعنى البعوضة أو الذبابة الصغيرة) ـ كانوا يتقاضون أجورهم حسب طول المشوار ومدته فكانوا يتقاضون من ٨ إلى ١٠ بارة للذهاب من طرف المدينة إلى طرفها الآخر ومن ٣٠ ـ ٤٠ بارة إذا شاء العميل الاحتفاظ بالركوبة نهاراً كاملا حسبما يذكر شابرول Chabral (٥٤) . وكانت مكانتهم الاجتماعية ضئيلة . وقد ضمهم Nicolas إلى صفوف الباعة (المتسببين) والشيالين والحرفيين والومسات عندما كان يعدد أبناء (الناس الدون أو الناس الأدنياء) . (٥٥) ويروى الجبرتى الكثير من الحكايات الطريفة التى تشهد على السلوك المشين الذى كان معتادا منهم وعن أسهامهم فى الخروج على التقاليد . وكان الرحالة الأوربيون ـــ الذين لم تفتهم طبيعة الدور الذى كان

يلعبه هؤلاء فى معاقل الحريم. يطلقون عليهم اسم « ترجمان فينوس Truchement de Vénus » (رسل الغرام).

ولم تكن الطوائف التى ينتظم فيها الحمارون تقل عن أربع طوائف ، ثلاثة « لنقل النساء والرجال » ورابعة لنقل الأشياء والأمتعة ، لكن الجمالية وعلى وجه الخصوص « الشواغرية » كانوا هم المتخصصين فى نقل الأمتعة والبضائع وكانوا يشكلون طائفة واحدة هى طائفة الجمالية لنقل الأمتعة . ولم يكن يستخدم البغال والخيول إلا الخاصة فكانت الخيول وقفاً على استخدام المماليك أما المشايخ والتجار فكانوا يستخدمون البغال ، ولم يكن من حق الأوربيين وأبناء الأقليات اليهودية والمسيحية أن يستخدموا سوى الحمير .

وكانت الحيوانات التى تؤجر تقف جاهزة فى « محطات » بمعنى الكلمة ، تقع فى جوانب الشوارع الرئيسية والأسواق « ويستطيع المرء أن يجدها على جانبى معظم الشوارع حيث يمكنه أن يمتطى واحدة منها دون أن يكلف نفسه مشقة الحديث مع أى شخص وأن يذهب إلى حيث يشاء يتبعه أحد الأولاد الواقفين هناك لهذا الغرض» (٥٦) . وكانت أهم هذه المحطات « مواقف الحمارة » و « موقف الجمال » تقع فى الواقع بالقرب من مداخل المدينة كما يقتضى الأمر ذلك . وكانت توجد عدة وكالات للحمير — « وكالة الحمير » ، حيث كانت تبيت الحمير — بالقرب من الأبواب الشمالية للمدينة وهى نقط يمر بها الجزء الرئيسى من حركة المرور بين بولاق والمدينة ويحدد كتاب وصف مصر خمسا من هذه النقط بالقرب من باب النصرية وباب الفتوح وباب الشعرية ، وكان يوجد حول باب اللوق ثلاثة أسواق للحمير كانت وثيقة الصلة بطائفة « الحمارين لنقل الرجال والسيدات » والتى كان مركزها فى درب الحجر وكذلك كانت توجد بالقرب من باب اللوق « محطة » هامة للجمال نشأت هناك بسبب وقوع المنطقة على مشارف بولاق ، بسبب مرور التجارة من

هناك مواصلة طريقها إلى باب الخرق وباب زويلة . وكان « مبرك النوق » هذا يقع بالقرب من « رحبة التين » وسوق الغلال « رقعة القمح » وهى التى كانت أهم أسواق القش والحبوب .

وفى القرن الثامن عشر كان يوجد بنفس هذا الحى « خط منزل النوق » و « درب المناخ » . وكان فى تجمع دواب الحمل هناك ما يثير إغراء السلطات عندما كانت تحتاج إلى وسائل للنقل ، وقد حاول ابراهيم بك أمير الحج على سبيل المثال عام ١٧٨٦ مرتين أن يستولى — عند اقتراب موسم الحج — على جمال المناخ دون جدوى (٥٧) وكان يوجد « مناخ الجمال » بالقرب من قناطر السباع وآخر فى الرميلة التى كانت أهم مركز لتخزين الحبوب فى القاهرة وكانت بأحيائها طائفة لشيالى الحبوب كما كان بها بالإضافة للمناخ « وكالة للحمير » وكان موقف الحمارة فى درب الأحمر يتاخم حى الأسواق بالقرب من مدخل القاهرة (الفاطمية) شأنه فى ذلك شأن كل محطات الركوب التى ذكرناها . وأخيراً فإننا نجد فى نفس قلب القاهرة (الفاطمية) محطات يستخدمها المسافرون . ويذكر كتاب وصف مصر وكالتين للحمير كانت إحداهما تقع فى نفس مكان « خان الحمير » الذى كانت تبيت فيه فى القرن ١٩ ركوبات أولئك الذين لهم عمل بالسوق كما يذكر رونيه Rhoné

أما المشاكل الصحية ، فيبدو أنها قلما كانت تشغل بال السلطات العثمانية . لذا فلم تكن الصحة العامة فى المدينة فى حالة مرضية . وإذا كان قد وجد فى زمن المماليك — على نحو ما — نظام للمجارى التى تتجمع لتصب فى الخليج — فإن هذه المجارى كانت قد انسدت كلية على وجه التقريب فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، دون أن يشغل أحد باله بعلاج الأمر . وهذا هو السبب فى أن شوارع القاهرة

كانت تغرق بالمياه التى تنحدر إليها من المرتفعات الواقعة شرق المدينة لتتحول فورا إلى برك وأوحال وقد ذكر جومار Jomard أن شوارع القاهرة فى يناير ١٧٩٩ وبعد مطر طويل « كانت مليئة بالأوحال الكثيفة وقد بلغت الأوحال هذا الحد لأن الشوارع ليست مرصوفة ، وكانت الدهشة تستولى على المرء وهو يرى قطعة من الأرض جافة ومتربة وهى تتحول فى لمح البصر إلى أرض موحلة رخوة وغيرة متماسكة »(٥٩) .

أما الخليج الذى كان يستخدم كترعة تصب منها المياه أثناء فيضان النيل ، أى من أغسطس إلى أكتوبر ، فكان يصبح بقية العام مجرد مستنقع شبه جاف ، تفوح منه رائحة كريهة وتتجمع فيه كل قاذورات مدينة وتتكدس حتى يجرفها فيضان العام التالى ، وكذلك كانت هناك بعض البرك التى تتحول فى بعض الفصول إلى بحيرات حقيقية ، وكان ثمة أماكن فسيحة وخالية ، كانت تزرع أحيانا أو تستخدم كمكان تتجمع فيه الفضلات التى تتحول إلى أسمدة عضوية مثال ذلك البرك التى كانت تتجمع فيها الدماء من السلخانات وللمدابغ المجاورة . وكانت البرك ذات المياه الراكدة والتى تجلب البعوض تمتلىء بالذباب فى فصل الصيف . وثمة مصدر آخر للعدوى والأوبئة ، تلك هى تلال الأنقاض التى نشأت على وجه الخصوص على الحافة الشرقية للمدينة والتى انتهى بها الأمر بأن أصبحت جبالا حقيقية كريهة الرائحة وعندما كانت تهب من جهتها الرياح فى أوقات الجفاف كانت المدينة تغطى بدوامات حقيقية من الأتربة الضارة ، ففى ٧ مايو عام ١٦٩٤ — على سبيل المثال — هبت زوبعة بالغة العنف لحد غير عادى ، غطت القاهرة بموجات من الأتربة جعلت السماء مظلمة مما جعل الناس يعتقدون — وكانوا يؤدون صلاة الجمعة — أن نهاية الدنيا قد حلت(٦٠) .

وبالرغم من أن المقابر الكبرى كانت تمتد إلى شرق المدينة وجنوبها ، فقد كان يوجد البعض منها وراء الخليج ، وقد أدى اتساع المدينة فى هذا الاتجاه إلى إدخالها — أى إدخال هذه المقابر — داخل إطار المدينة نفسها ، مثال ذلك مقابر (ترب) الجامع الأحمر ، والرويعى والأزبكية والقاصد وقد خلق هذا الوضع بالطبع مشاكل صحية على جانب كبير من الخطورة بالرغم من أن هذه المقابر كانت أقل استعمالا من المقابر الأخرى ولم يكن الناس يستعملونها إلا عندما لايستطيعون — بسبب اضطراب الأمن — أن يتوجهوا إلى المقابر التى تقع خارج حدود المدينة وهذا هو ماحدث مثلا أثناء « ثورة » ١٧١١ عندما اضطر السكان بسبب إقامة بدو أولاد حبيب فى باب النصر إلى دفن موتاهم فى المقابر المجاورة لبركة الأزبكية(٦١) ومنذ بدء احتلالهم لمصر ، منع الفرنسيون الذين اهتموا بمكافحة انتشار الأوبئة — منعوا دفن الموتى هناك وإن كانوا قد لاقوا فى سبيل ذلك مقاومة حادة من الأهالى ، ولم يقدر لهذه المقابر أن تزال نهائيا إلا فى القرن التاسع عشر(٦٢) .

وإذا أخذنا فى الاعتبار كل هذه الظروف ، بالإضافة إلى جهل سكان القاهرة لأبسط القواعد الصحية وأكثرها بدائية،فلن يدهشنا أن نعرف أن القاهرة قد تعرضت للعديد من الأوبئة المهلكة التى حدثت فى الغالب بعد فترات المجاعات والغلاء . ففى أثناء « الوباء العظيم » عام ١٦٩٢ بلغ عدد الموتى حدا وصل معه ثمن الكفن إلى ٢٠ بل إلى ٢٥ كيسا ، وقد قدر قنصل فرنسا عدد ضحايا وباء الطاعون عام ١٧١٨ بما بين خمسة آلاف وستة آلاف يوميا فى أشد أوقات الوباء ، كما قدر العدد الإجمالى للضحايا بحوالى ٣٠٠ر٠٠٠ (ثلاثمائة ألف) ، أما عدد ضحايا وباء ١٧٦٣ فقد بلغ خمسة آلاف يوميا كان من بينهم عدد كبير من الأمراء والتجار كانت تركاتهم سببا فى إثراء الكثيرين (٦٣) وبعد مدة طويلة نسبيا خلت فيها القاهرة من الأوبئة عاد الوباء يظهر من جديد أثناء سنوات الاضطرابات فى نهاية القرن

وبالذات في عامي ١٧٨٥ — ١٧٨٦ حين وصل رقم الموتى حسب تقدير فولني Volney إلى ١٫٥٠٠ يوميا وكذلك في عام ١٧٩١ حين بلغ عدد حالات الوفاة مابين ١٫٥٠٠ يوميا و ٢٫٠٠٠ يوميا (٦٤) .

وكان بالقاهرة أثناء العصر المملوكي مؤسسات علاجية عظيمة بالنسبة لعصرها مثل مارستان قلاوون (٨٤ — ١٢٨٥ هـ) ومارستان المؤيد (١٨ — ١٤٣٠ هـ) الذي كان هو الآخر عظيما وإن كان قد تحول إلى أنقاض في العصر العثماني . وقد كان مارستان قلاوون — وربما كان هو الوحيد من بين هذه المؤسسات العلاجية التي قدر لها أن تبقى بالقاهرة ، عندما زاره ديزجينت Des genettes وبصحبته الشيخ عبد الله الشرقاوي عام ١٧٩٨ — كان في حالة تدهور تام ، ففي هذا المبنى الواسع الذي يضم ثماني غرف كبيرة يمكنها ان تضم ما يقرب من مائة مريض ، لم يكن ثمة — ذلك الوقت — سوى ٢٧ مريضا وأربعة مخبولين و ٢٥ سريراً خشبياً و ٥٠ سريراً حجرياً ، هي كل أثاث المبنى وقت الزيارة . ولم يكن نزلاء المارستان يلقون أية رعاية وكان يكتفي بتقديد الطعام لهم . وكان قسم الأمراض العقلية يتكون من فناءين صغيرين واحد للنساء وآخر للرجال وبكل فناء ثمانية عشرة كشكا ، ومع ذلك فإنه إذا كان هذا البناء الرائع قد أصابه التدهور التام بسبب إهمال الأتراك والمماليك — حسب تعبير جومار Jomard — فإنه يعد أحسن حظا من غيره فقد بقي منه على الأقل شيء بينما لم ير الفرنسيون من المارستان القديم (المؤيد) سوى أطلال وخرائب أهملت من زمن بعيد (٦٥) » وفيما عدا مارستان قلاوون ، لم يكن بالقاهرة سوى بعض التكايا (تكية) يعود تاريخ إنشاء معظمها إلى العهد العثماني ، لكنها كانت مجرد صوامع للدراويش وليست مستشفيات حقيقية . ويتفق هذا التدهور في مجال المؤسسات العلاجية — مع تدهور الطب العربي في مصر الذي اقتصرت

ممارسته فى الغالب - فى القرن الثامن عشر - على الأجانب وأبناء الأقليات المسيحية واليهودية .

ثالثا : التحضر والبنية الحضرية

إن عدم وجود إدارة مسئولية ، نوعية ومتخصصة ، عن شئون ومشاكل البلديات والمرافق ، بالإضافة إلى تلك العناية الضئيلة التى كان يوليها الحكام لهذه الأمور ، لم يؤد إلا إلى نوع من التمزق الحضرى . ودراسة شئون القاهرة أثناء فترة الحكم العثمانى يكشف لنـــا فى الواقع عن ملامح لهذه الفوضى ، تبعث على القلق .

١ - فوضى المرافق :

ازدادت خطورة هذا الإهمال الإدارى بسبب تصرفات بعض الخاصة الذين كانت فكرة الصالح العام غريبة عليهم تماماً . ولم تكن السلطات لتهتم - ولا كانت بقادرة على التصدى لتلك الاعتداءات التى شوهت شبكة المرافق بالتدريج ، فلم تـكن تتدخل إلا عندما تحتم ضرورة ذلك ، حين يصبح الوضع بحيث لايمكن التساهل فيه .

والأمثلة عديدة على تلك المخالفات التى ارتكبها أناس أساءوا استخدام سلطتهم للاستيلاء على « الملكية العامة » ، فعلى سبيل المثال ، قرر الأمـــير يوسف بك (المتوفى عام ١٧٧٧) - رغبة منه فى تجميل البيت الذى كان قد شيده فى بركة الفيل - أن يوسع درب الحمام فاشترى المنازل التى كانت تعوقه أو استولى عليها عنوة ، وشق شارعاً وأقام بوابة كبيرة ، ورغبة منه فى إنشاء ميدان نسبح أمام بيته فقـد أنتوى أن يهدم مسجد خير بك حديد الذى كان يحول دون تنفيذ هذه الرغبة ليشيده فى مكان آخر ، لـكنه عـــدل عن ذلك فى النهاية استجابة للنصيحة التى أبداها له حسن الجبرتى حين استشاره هو فى هذا الأمر ، ومع ذلك - فربما كان الأمير قد

ساهم ـ بإجراءاته تلك وعلى نحو ما ـ فى تحسين حال الطرق (التنظيم)، بينما فعل الشيخ احمد النفراوى (المتوفى عام ١٧٩٢) العكس من ذلك حين استولى ـ وكان وقتها ذا نفوذ كبير استمده من تقدير على بك الكبير له ـ على قطعة أرض تدخل فى نطاق الطريق العام ليشيد عليها بيته فى الجيزة ـ ولكن ما أن مات راعيه حتى زالت خطورته ولحق به العار وهدم منزله . وعندما ابتنى شيخ آخر ـ هو الشيخ حسن بن سالم الهوارى شيخ الصعايدة بالأزهر المتوفى عام ١٧٩٥ ـ لنفسه منزلا فى سوق القشاشين بالقرب من الجامع فإنه اعتدى على الملكيات المجاورة ولم يتردد فى هدم مدرسة السنانية كى يتخذ من انقاضها موادلبناء بيته(٦٦)، وعندما بحث حسن باشا عن « حوض » ليجعل منه نافورة فإنه رنا إلى الحوض الموجود تحت تل الكبش والذى كان يسمى « الحوض المرصود » وأمر بإحضاره ولم يعدل عن ذلك إلا لأن وزن الحوض كان من الثقل بحيث استحال نقله (٦٧) .

ومن الواضح أن حوادث الاعتداءات على الملكيات العامة هذه لم تتوقف فى أية فترة، ففى عام ١٨٠٠ اقترح المهندس لوبير Lepére هدم كل البيوت الموجودة فوق قنطرة الموسكى على يد فرقة الحرس» ، بل لقد كان من المتاد أن يقوم سكان المدينة بفتح ثغرات إضافية فى الأسوار نفسها لا ستعمالهم الشخصى، وقد كتب مينو فى ٢٥ يوليو ١٨٠٠ إلى بليار Belliard قائد القاهرة يطلب إليه أن يتأكد من إغلاق هذه الفتحات ويؤكد عليه أن « أحدا من سكان القاهرة لا يجوز أن يكون له باب خاص به فى السور وتحت تصرفه » (٦٨). إن إنشاء المنازل والحوانيت فى ظهر المنشئات العامة كان أمراً شائعاً بالقاهرة، وعندما تقرر عام ١٧٨٦ مثلا إعادة فتح باب مسجد السلطان حسن الذى ظل مغلقاً منذ أحداث عام ١١٤٩ هـ(٣٦-١٧٣٧) استوجب الأمر هدم الحوانيت التى كانت قد بنيت هناك عند سفح الباب وكذا « البناية » الصغيرة والواطئة التى نشأت أمامه (٦٩) ومع ذلك فقد ظلت قائمة حول

هذا المسجد الفخم تلك « المنازل الضيقة » الصغيرة والشديدة الانخفاض والتى كان يظن « أنها مخصصة للحيوانات الدنسة » كما وصفها جومار . وقد حدث نفس الشيء بالنسبة لأغلب مساجد القاهرة الأخرى بل وبالنسبة لأسوار المدينة التى قرر الفرنسيون أن يخلصوها عام ١٨٠٠ من كل المبانى الطفيلية التى تعوق الدفاع عنها (٧٠) .

ومما كان يعوق حركة المرور فى الشوارع التجارية بالقاهر تلك « المصاطب » الحجرية والطينية التى كانت مبنية أمام المحلات والتى كان أصحاب هذه المحلات يجلسون عليها عادة ليصرفوا شئونهم مع عملائهم ، فقد كان عرض المصطبة يبلغ المتر بل المتر ونصف أحيانا ، لذا فان الممر الباقى من الشارع كان بالغ الضيق ، عندما كان الناس يضطرون أوقات الأزمات أن يقضوا الليل بالشوارع فإنهم كانوا يستخدمونها كأسرة للنوم ، وكان بإمكانهم أن يستخدموها أيضاً كمتاريس ، لذا قرر الفرنسيون عام ١٨٠٠ إزالتها من معظم الأسواق بحجة توسيع الشوارع بينما كان القصد الحقيقى من وراء ذلك هو منع استخدامها فى حالات التمرد ، ولكن الوقت لم يسعفهم لتعميم هذا الإجراء الذى سبب الضيق البالغ للتجار ، إذا كان عليهم - نتيجة لهذا - كما يذكر الجبرتى أن يظلوا داخل الدكاكين « مثل الفيران فى الشقوق » . وفى الواقع فإن هذه المصاطب التى طالما أثارت سخط الحكام المهتمين بشئون المرافق لم تتم إزالتها نهائياً إلا على يد محمد على (٧١) .

وفى مثل هذه الظروف ، فلن يكون من المدهش أن نجد شوارع القاهرة تتميز بضيقها الشديد وبعدم انتظام تخطيطها ، فيما عدا بعض الطرق الرئيسية الواسعة والمستقيمة نسبياً . ويلاحظ جومار أن اتساع شوارع القاهرة كان يبلغ من ٥ إلى ١٥ قدماً ويصل أحياناً إلى ٢ أو ٢½ من الأقدام فقط ، ويؤكد دوجرو Doguereau أن بعضا من هذه الشوارع كانت لا تتسع لمرور رجلين متقابلين . وعندما طلب محمد على مشورة العلماء عن العرض الذى يجب أن يكون عليه

الشارع الجديد الذى أراد أن يشقه تجاه الموسكى أفتوا بأنه ينبغى أن يكون بعرض يسمح بمرور جملين محملين وهــذا مايقدم صورة واضحة عن بساطة « المفاهيم الحضرية » فى هذه الفترة . وحيث أن منازل القاهرة كانت مرتفعة لحدما وتتكون فى العادة من ثلاثة أو أربعة طوابق وحيث أن الشرفات ذات المشربيات كانت توشك أن تتلامس ، فلم تــكن ثمة حاجة لتغطية الشوارع بالسقوف (سقيفة) التى كانت تقام عادة لحماية الأسواق الكبرى من وهج الشمس (٧٢) ومن جهة أخرى فإن شوارع القاهرة ــ التى كانت تبنى بلاخطة وتتعرض لاعتداءات الخاصة كانت متعرجة لحد كبير . إن المحاور الرئيسية للخطة المبدئية قد التهمها ذلك التوالد السرطانى للابنية الطفيلية . كما أن الخطوط المتعرجة للشوارع تفضح ما تعرضت له تلك الشوارع الصغيرة من انتهابات ، وقد نشأ كثير من الأزقة نتيجة لذلك حين كانت تسد الشوارع نتيجة لأعمال من هذا النوع « فالزقاق هو النقطة التى يسد عندها الشارع » كما يذكر وصف مصر . وعندما نتأمل خرطة القاهرة كما يقدمها وصف مصر فسنلاحظ أننا لو قمنا بتوصيل تلك الشرائح الصغيرة من الشوارع لظهر الخط الأصلى لهذه الشوارع والذى قطعته مثل هذه البنايات إلى تلك الشرائح التى توضحها الخريطة . ويذكر تيفنو Thevenot أنه « ليس هناك بالقاهرة شوارع بالمعنى للفهــوم ، وإنما هناك فقط مجموعة من الحوارى التى تشكل دوائر ومنعطفات مما يوضح جيــداً أن كل شوارع القاهرة قد بنيت بدون أى تخطيط للمدينة فــكل واحد كان يختار على هواه رقعة الأرض التى سيبنى فوقها دون أن يعنيه ماإن كان بذلك يسد الشارع أم لا » (٧٣) .

وهكذا كانت حركة المرور فى شوارع القاهرة وبالذات فى أحياء الأسواق « وهى أكثر حركة وازدحاما » بالغة الصعوبة كما يذكر أمبير Ampere عام ١٨٤٠

فلا شئ يبدو أكثر حركة وزحاما من شوارع القاهرة ، ولك أن تتصور ثلاثين ألفا من الناس يجرون أو يخبون فى حميرهم فى شوارع ضيقة ومتعرجة . إنك ماأن تدخل هذه الدوامة حتى تصم أذنيك صرخات الحمارين والمارة ، ويكون عليك أن تأخذ حذرك من أن تدوس بقدميك أولئك السيدات والأطفال الجالسين فى هدوء تام وسط كل هذه الضجة كما عليك أن تأخذ حذرك من أن تعرض جزءا من ملابسك أوحتى من جسمك لما قد يصطدم به فى أية لحظة وكم يكون الغريب الذى يجد نفسه فى شوارع القاهرة لأول مرة ضحية لقلق مستمر » (٧٤) وما أن كانت تحدث ظروف غير عادية لحدما حتى يتضح عدم كفاية هذه الشبكة من الشوارع . ففى أثناء «الثورات » المديدة التى عرفتها القاهرة أيام العثمانين كان ضيق هذه الشوارع يحول دون نقل المدافع إلى مسرح العمليات . وفى عام ١٨١٤، عندما قرر الباشا أن يمر موكب كبير لحد غير عادى احتفالا بزواج ابنته ، استوجب الأمر أن يرسل جنودا من الشرطة قبل يومين من الاحتفال ، ويهدم القايبس ليتأكدوا من أمكان مرور العربات فى الطرق التى ينتظر ان يمر بها الموكب ولكى يزيلوا كل مايمكن ان يعيق حركة المرور (٧٥).

٢ — إنجازات حضرية :

عرفت القاهرة أيام الحكم العثمانى نشاطاً معمارياً مشرفاً ، وأن كان أى من تلك الإنشاءات التى تمت فى تلك الفترة لايمكن له أن يقارن بالطبع بتلك البنايات الرائعة التى خلفها العهد المملوكى سواء فيما يتصل برحابة الأفق المعمارى أو فيما يختص بروعة التنفيذ . لكن كثرة المنشآت — حتى على هذا المستوى المتواضع — تشهد بأن روح البناء فى هذا المجال لم تختف مطلقا مع الهزيمة ، بل إن الكثير من هذه المنشآت يكشف عن وعى واضح بالحاجات الحضرية . ونحن إذا كنا سنعتبر عملية تشييد الحمامات — وهى عملية يتضح فيها الاهتمام بالصالح العام — مجرد شئ ثانوى

بالقياس إلى مانرغب فيه من الحصول على منجزات حضرية أكثر جدوى ، فان تضاعف عدد الأسبلة (سبيل) يشهد بلا شك على تلك الرغبة فى العمل لصالح الجماعة وعلى الرغبة فى سد احتياجات اجتماعية مساوية للرغبة فى الحصول على مجد شخصى.

إن تلك السبل فى قاهرة اليوم ـ وبعضها لا يزال على روعته بينما تدهورت حالة البعض تنهض فى كل مكان شاهدة على تلك القرون الثلاثة من الحكم العثمانى ، كما أن الشئون الحضرية واحتياجاتها لم تكن غائبة تماما فى « الميزانية المعمارية » هذه : كاصلاح مشروع ترعة القلعة على يد على باشا (١٦٦٩) وحسن باشا عام (١٦٨٩) وعبدى باشا عام ١٧١٦ ومحمد باشا ١٧٢٢ وكترميم الجسر المسمى « القنطرة الجديدة » الواقع على الخليج على يد على كتخدا قبل ١٧٣٦ وكذلك إنشاء عبدالرحمن كتخدا (المتوفى عام ١٧٧٦) لجسرين على الخليج هما بلا شك قنطرة الموسكى والقنطرة الجديدة.

ولكن هذه المشروعات وثيقة الصلة بالصالح العام لاتمثل إلا أقل الأشياء إذا نحن أخذنا فى اعتبارنا أن النصوص التاريخية والآثار تضع أيدينا على مايقرب من ٤٠٠ بناء أو ترميم للمنشئات العامة فيما بين ١٥١٧ و ١٧٩٨ .

ولكن من جهة أخرى ، فان تلك المنشئات فى الفترة العثمانية بالقاهرة كانت — على وجه التقريب — مشروعات متفرقة ومنعزلة لانرى فيها إلا لماما دلالة على اهتمام بشئون التحضر أى على الرغبة فى التنظيم الحضرى بطريقة منطقية أو حتى على الأقل بطريقة معقولة . لكن ثمة حالة — مع ذلك — تستحق وقفة خاصة تلك هى حال عبد الرحمن كتخدا الذى يعتبر أكبر « بناء » فى القاهرة العثمانية . إن عدد المنشئات والترميمات التى تنسب إليه يقارب الأربعين ولو أننا حاولنا أن نوضح هذه الأعمال المعمارية على خريطة فسيدو كما لو أن الأمير قد غمر القاهرة بمنشئات بالغة التنوع دون أن يحاول رغم ذلك أن ينشىء وحدة متكاملة من البنايات ، بل وحتى

دون أن يركز جهوده المعارية المرموقة فى حى بذاته، الشيء الذى كان يمكن أن يؤدى إلى تغيير طراز هذا الحى .

إننا رغم ذلك لانعرف إلا القليل النادر من المشروعات ذات الصلة بشئون المرافق والبلديات . ويعود الفضل فى إنشاء أهم المشروعات من هذا النوع إلى الأمير المشهور رضوان بك الذى سيطر على الحياة السياسية فى مصر لمدة ربع قرن أى حتى وفاته عام ١٦٥٦ وإن كنا للأسف لانعرف عن هذا المشروع الذى تدلنا عليه مابقيت منه من بنايات إلا القليل . لقد بنى رضوان بك عام ١٦٥٠ كل الحى الواقع خارج باب زويلة — ربما لأنه كان قد شيد هناك قصراً لم تنل نوائب الدهر كلية من عظمته . وعند طرف القصر مباشرة أقام رضوان بك سوقا كاملة — « قصبة رضوان » — وهى الآن واحدة من أجمل الأسواق المغطاة المخصصة لإيواء صناع وتجار الأحذية « القوافين » وكانت القصبة بمثابة وقف تخصص دخوله للأمور الدينية والخيرية . أما من حيث الغرض منها فقد كانت قبل كل شيء واحدة من المنشئات الحكومية ومع ذلك فان كونها رسمية لم يمنع مطلقا من الاهتمام بالتفاصيل ، بل لقد وصلت فى مجموعها إلى درجة من العظمة الحقيقية . وكان الحى جميعه يحمل بصمات رضوان بك الذى أنشأ هناك أيضا زاويتين (زاوية) وسبيلا كان مقره شارع القربية(٧٧) .

وإذا كانت معلوماتنا عن هذا المشروع ضئيلة ، فان مانعرفه عن الظروف التى أنجز فيها الأمير ابراهيم أغا — فى نفس الوقت تقريبا — مشروعا له صلة بشئون البلديات ومن نفس النوع فى حى المحجر . إن مانعرفه عن هذا أقل بكثير . وربما كانت النواة هنا أيضا — أى نواة تجديد الحى بأكمله — هى وجود بيت لهذا الأمير ابراهيم أغا مستحفظان الذى قام بترميم المسجد المجاور « مسجد آق سنقر » على نمط تركى وخاصة باستخدام الربعات الخزفية على نطاق واسع حتى اشتهر باسم « الجامع الأزرق » وبنى هناك مقبرة له

وكل الشواهد تدل على أن الربع الذى شيد أمام المسجد كان جزءاً من مجمع كان يضم كذلك العمارة السكنية الكبيرة التى كانت تقوم أبعد من ذلك قليلا جهة الشمال لكن هذه العمارة التى أنشئت عام ١٦٥١ على يد ابراهيم أغا كما تدل على ذلك الكتابة التى وجدت عليها قد اختفت للأسف منذ وقت قريب ، ولم يعد يبقى الآن من هذا المجمع الذى كان – إن نحن حكمنا عليه بما تبقى من واجهة الربع – بالغ الروعة سوى بعض الأنقاض . إن الرغبة فى هذه «العملية العقارية» التى عادت بالخير على هذا الحى كان الهدف منها ولا ريب هو الحصول على دخول مادية مضمونة لجامع آق سنقر عن طريق إيرادات الوقف . لكن المنشئات التى أقامها محمد باشا فى ضواحى القلعة لاتعتبر مجهودات حضرية حقيقية . لكننا نذكرها هنا بسبب عددها من جهة ومن جهة أخرى بسبب الاهتمام غير العادى لحد ما والذى أبداه هذا الحاكم تجاه هذه الأمور كما سبق أن لمسنا ، فمن بين ما أنشأه : جامع وحمام فى قراميدان ، وتكية للفقراء على نظام الخاوتية مزودة بمطبخ وبيت لاستقبال الفقراء ومدرسة للاطفال ومصاطب كبيرة الحجم لتخزين الملابس الخاصة بالاحتفالات ، ولإقامة احتفالات المحمل ، كما رمم حديقة الغورى وقاعة الغورى(٧٨) :

٣ – تحضر تلقائى :

إذا أهملنا التفاصيل وأخذنا الأمور فى مجموعها ، فسوف نرى أن القاهرة العثمانية لم تكن مطلقا نهبا للفوضى فقد كان للظواهر الاقتصادية والاجتماعية أثرها التنظيمى على بنية القاهرة كنوع من « التنظيم الطبيعى » يؤدى إلى أن تصلح المدينة نفسها بنفسها . وإذا كانت ما اكتشفناه من أمثلة يدل على قلة الجهود التى اهتمت بالشئون الحضرية ، فقد كان يحدث مع ذلك أن يجلب التطور الاقتصادى لحى ما إلى هذا الحى تجديداً تلقائيا . وكمثال لتغير من هذا النوع نقول أن إزدهار حى الجمالية الواقع جنوب باب النصر عند نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر

يعود ولا ريب إلى ازدياد واتساع النشاط الاقتصادى للتجار السوريين بالقاهرة وإلى تجارة البن والتوابل الرائجة . وقد كان هذا الازدهار أحد الملامح البارزة فى التاريخ الحضرى للمدينة أثناء الحكم العثمانى . فقد أدى إنشاء ذلك العدد من المنشآت إلى تغيير مضطرد فى بنية الحى . ومن بين هذه المنشآت على سبيل المثال : وكالة وسبيل أوداباشى ، سبيل وكتاب أوداباشى ، بوابة حارة المبيضة التى يرتبط إنشاؤها على الأرجح بتغيير فى نظام السكنى ، وكالة « ذو الفقار » كتخدا من طائفة المستحفظان والتى جملتها ترميمات باسكال كوست Pascal Coste تحتفظ بكامل روعتها ويعود ذلك كله إلى عام ١٦٧٣ أما فى عام ١٦٩٤ فقد أنشىء : وكالة وسبيل عباس أغا ، وانشئت فى تاريخ مقارب وكالة بازرعة وو كالة الكخيا التى ورد ذكرها فى كتاب وصف مصر والتى يمكن أن تعود إليها اليوم روعتها السابقة بقليل من الجهد ، وأنشىء فى عام ١٧٢٧ سبيل ، ووكالة الصابون ، وفى عام ١٧٤٤ أنشىء سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا وفى حوالى ١٧٤٥ أنشئت وكالة ومسقى وزاوية محسن رضوان .

وعندما تملى الحياة الاقتصادية ضرورة ذلك التقارب الجغرافى بين النشاطات المتكاملة أو المترابطة فإنها بذلك تؤدى إلى خلق تجمعات مترابطة البنية تقدم القاهرة عليها الكثير من الأمثلة ذات الدلالة ، ففى فترة كان باب زويلة فيها يمثل حد المدينة كان يوجد فى الجنوب الشرقى لهذا الباب سوق هامة للأغنام (سوق الغنم) تجاوره عدة سلخانات وعند الجنوب الغربى على نفس المسافة بين باب زويلة وبركة الفيل والخليج كانت توجد المدابغ . وعندما كانت هذه النشاطات « الأم » تغير مكانها بعد ذلك بسبب نمو المدينة فى هذا الاتجاه ، وكانت الحرف « التابعة » التى نشأت فى هذه المناطق لارتباطها بوجود النشاطات السابقة تظل فى مكانها مثال ذلك تجار وصناع الجلود (القوانين) فى قصبة رضوان وصناع البرادع فى سوق السروجية

وتجار وصناع القرب الجلدية فى القربية . أما توطن بعض الحرف — جغرافياً — بجوار القلعة مقر الحكومة وموطن سكنى عدد هام من العسكريين والأوجاقات فيمكن تفسيره بأسباب اجتماعية أكثر منها اقتصادية ، إذ كانت هـذه الحرف تشبع احتياجات الطبقة الحاكمة : كصنع وبيع الأسلحة فى ســوق السلاح وصنع وبيع البارود فى البارودية بالقرب من الرميلة . وسـوق الخيل فى نفس ميدان الرميلة وصنع وبيع لوازم السفر (صناع وتجــار الخيام فى الخيامية ، وصناع البرادع فى البرادعية فى الرميلة وصناع المهاميز فى الركبية) .

إن البنية العامة للمدينة تبدو كما لو كانت تسير وفق تنظيم منطق هيأته تفاصيل الحياة نفسها دون تدخل من جانب السلطات . ففى أحياء الوسط الواقعة بطول قصبة رضوان مخترقة القاهرة (الفاطمية) من الشمال إلى الجنوب كانت تتجمع أغلب صناعات الترف وأهم وأكبر الأنشطة التجارية والنقدية وحركة التوابل والبن ، وكانت تجارة المنسوجات تشغل قلب المدينة نفسها بين الحمزاوى والجامع الأزهر وخان الخليلى والصاغة ، وفى قلب المدينة (الفاطمية) كانت توجد ثلاثة أرباع عدد الوكالات (وكالة) التى ورد ذكرها فى قائمة وصف مصر ، وكذلك على وجه التقريب كل الخانات (خان) ، وفيما عــدا بعض صناعات « الترف » وبعض الصناعات ذات الماضى العريق فى هذه المنطقة كالأشياء النحاسية التى كانت تحتل مكانة هامة فى الخريطة الاقتصادية للمدينة — فيما عدا هذا كانت كل النشاطات الحرفية مبعدة خارج القاهرة (الفاطمية) ، أما تلك النشاطات « الصناعية » التى يمكنها أن تسبب الضيق للسكان فقد بعدت بوضوح إلى تخوم المدينة مثال ذلك . مصانع الزيوت والفحامات والجيارات والجباسات وإن أية دراسة مقارنة تقارن بين قاهرة المقريزى وقاهرة الجبرتى سوف تبين بوضوح كيف أن تدهور حرف معينة يترجم جغرافياً بتباعدها المستمر عن مركز التكدس الاقتصادى ، ومن جهة أخرى فإن

أية دراسة عن التبدلات التي تمت في قلب القاهرة (الفاطمية) منذ نشأتها سوف تكشف بوضوح عن التغيرات الأساسية في الأهمية النسبية لمختلف الحرف .

ويرتبط توزيع الأحياء السكنية بتفاوت اجتماعي صارم ، فأبناء «البورجوازية» من شيوخ وتجار ميسورين كانوا يفضلون سكنى القاهرة (الفاطمية) على مشارف الأحياء التجارية وبجوار الجامع الأزهر . وكذلك بركة الأزبكية التي كانت في ذلك الوقت مركزاً مفضلا للاصطياف شأنها في ذلك شأن شواطىء الخليج وكان أبناء الطبقة الحاكمة من ضباط الأوجاقات والبكوات قد بدأوا ينقلون ببطء مقر إقامتهم من حول القلعة إلى ضواحي بركة الفيل وفي النهاية إلى الأحياء الراقية فيما وراء الخليج مع تفضيل متزايد لضواحي بركة الأزبكية التي كانت في الطريق لكي تصبح حوالي ١٧٩٨ الحي الارستقراطي المفضل . وكانت الأحياء الشعبية تنتشر في المناطق المتاخمة غرب وجنوب وشرق وشمال المدينة أي في المناطق التي كانت فيها النشاطات التجارية المختلفة أقل تطوراً والتي كانت تستقر فيها تجارة الجملة للمنتجات الأولية المرتبطة بالريف والتي تحتاج لخلاء فسيح ، وكذا المهن أو الحرف التي تحول دون سكنى الميسورين .

وكما كان للبنية الحضرية للقاهرة طابع منطقي إذا نظرنا إليها في مجموعها فإن التغيرات التي سجلت داخل هذا التفاعل التلقائي الناتج من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ترتبط بنظام منطقي محدد بالرغم من أننا نجهل الظروف الصحيحة التي تحققت فيها هذه التغييرات ، كما أن صمت المصادر التاريخية عن هذا الموضوع علامة واضحة على قلة اهتمام الناس في تلك الأيام بالشئون الحضرية ، وأبلغ الدلالة على ذلك هو حال المدابغ التي نشأت أول الأمر في منطقة حواري تقع خارج القاهرة (الفاطمية) جنوب غرب باب رويلة وغير بعيد عن بركة الفيل ، وفي تاريخ لا نعرفه على وجه الدقة — والذي يمكن تحديده على وجه التقريب في حوالي منتصف القرن

السابع عشر — حتم نمو المدينة المتزايد نحو الجنوب مع الزيادة المضطردة فى عدد « الكبار » الذين بدأوا يتوطنون حول بركة الفيل — حتم ذلك كله انتقال الأعمال — وخاصة المقلقة للراحة منها — من هناك واتجهت حركة « الدباغين» تجاه الطرف الغربى للمدينة بالقرب من باب اللوق فى مكان يقدم فوائد متعددة : وجود السلخانات الكبيرة هناك ، وسهولة المواصلات مع بولاق مركز تجارة الجلود ، القرب من المياه حيث بركة السقايين وخليج المغربى والنيل . . . وقد تم هذا الانتقال بلا شك على شكل موجات هجرة من الدباغين وليس نتيجة لقرار نوعى من سلطات « البلديات » لكن المؤرخين يلزمون الصمت التام عن مثل هذا الانتقال الذى يشكل ولا ريب حدثاً هاماً فى التاريخ الحضرى للقاهرة .

وفى مقابل ذلك فإن انتقال صناع وتجار البارود (البارودية) قد تم نتيجة لأحداث مدوية سجلها المؤرخون ، ففى القرن السابع عشر كان (البارودية) يقيمون غير بعيد من باب زويلة وجامع المؤيد فى حى الباسطية وهى المنطقة التى كانت تقع على حدود المدينة لكنها الآن تقع فى القلب . ومن الواضح أن توطن مهنة كهذه — مع مالها من أخطار واضحة — فى منطقة مزدحمة أمر غير منطقى لحد بعيد . وفى عام ١٦٧١ شب حريق فى محلات سوق البارود تسبب فى خسائر فادحة وفى موت العديد من الضحايا كان من بينهم ابنة يوسف بك قائمقام ، وهنا أمر الباشا بنقل هذا السوق إلى المحمودية بجوار الرميلة وهو حى أقل ازدحاماً وقريب من القلعة ، ولكن ما أن أعيد بناء محلات الباسطية حتى عاد تجار البارود ليقيموا فيها مما أدى لراحة سكان الرميلة الذين لم تكن فى مجاورة أولئك التجار لهم ما يمكن أن يبعث على الطمأنينة . ولكن بعد ذلك بسنوات ، فى عام ١٧٠٣ وبعد حريق ثان فى البارودية تقرر نقل تجار وصناع البارود — نهائيا هذه المرة — إلى الرميلة ولكنا لانعرف أية سلطة على وجه التحديد هى التى اتخذت قرار الأبعاد هذه المرة .

خاتمة

إن ما يمكن أن نخرج به من دراسة للشاكل الحضرية — على وجه الخصوص — بالقاهرة العثمانية هو قلة الاهتمام الذى كا يوليه حكام المدينة ومديرى البلديات بها بصفة عامة إلا عندما يصل الأمر حداً يهدد باضطراب النظام . وفى الواقع ، فمن هذه الزاوية نفسها — فى غالب الأحيان وعن طريق القمع على الدوام — كان من الواضح أن السلطات العثمانية لاتمس شئون البلديات إلا عندما يتهدد القاهرة خطر ملموس تفجر نتيجة لإهمال طويل وليس بدافع الاهتمام الحقيقى والجاد بهذه الأمور .

إن هذا الخواء التام ، بالاضافة إلى الغيبة التامة لأى تنظيم « محسوس » للبلديات يفسران تلك الفوضى التى تتضح فى تفاصيل مدينة القاهرة وعلى وجه الخصوص فى تفتت شبكة الطرق والشوارع ، ومع نقص الاهتمام هذا أو بالأحرى فى هذا العجز البادى من السلطات السياسية فإن أى تنظيم شعبى لم يكن فى حال تمكنه من القيام بهذا لدور فى شئون البلديات ، لا الطوائف الحرفية التى كان نشاطها المهنى يخضع لحد ما لإشراف الحكام ولا الأحياء التى لم تكن لحياتها سمات الحياة العامة الحقة . لقد كانت الطوائف والأحياء (الحارات) تقوم فقط بدور الوسيط بين السلطة والرعية .

ومع ذلك ، فإذا نظرنا للأمور فى مجموعها ، فإن القاهرة تكشف عن نفسها كمدينة ذات بنية ملتحمة نسبيا . لقد فقدت بصفة عامة ذلك التنظيم الصارم الذى كانت عليه عند نشأتها ، لكن الأمثلة على تدخل متحرر وواع من هذا النوع من جانب السلطات كانت تقل شيئا فشيئا أثناء الحكم العثمانى ، ومع ذلك فثمة توازن معين فى شئون البلديات وكان يتحقق تدريجيا مع هذا بتأثير التفاعلات الذاتية للقوى المادية والبشرية التى كانت تمارس تلقائيا فعلها المؤثر فى هذا المجال . .

ـ العنوان الأصلى للمقال هو :

Problèmes urbains et urbanisme au Caire aux XVIIe et XVIIIe siècles.

وفى الترجمة استخدمنا كلمة القـــاهرة (الفاطمية) فى مقابل كلمة Qahira بينما ترجمت كلمة Le Caire بالقاهرة فقط أحيانا وبالمدينة فى أحيان أخرى .

وقدقدم هذا البحث الى ندوة الفية القاهرة (أبريل ١٩٦٩) .

١ ـ

Jouvin de Rochefort, Le voyageur d'Europe, Paris 1684, 31-33.

٢ ـ I.M. Lapidus, Muslim cities in the Later Middle Ages. Harvard, 1967, 78

٣ ـ R. Mantran, Istanbul, Paris, 1962, 123-177

٤ ـ انظر على سبيل المثـــال :

Gibb and Bowen, Islamic Society and the West, Oxford, 1951, I, 277-278.

وكـــذلك :

G. BAER, Egyptian Guilds, Jerusalem 1964, 77—126.

٥ ـ BAER, 77—78.

٦ ـ ترقيم الطوائف هنا هو نفس الترقيم الذى اتخذناه فى الدراسة التى نشرناها فى مجلة Arabica VI—2, 1957 تحت عنوان : قائمة بالطوائف الحرفية فى القاهرة عام ١٨٠١ :

Une liste des Corporations de métiers au Caire en 1801.

أما الارشادات الطبوغرافية المعطـــاة (مثـــلا : 276 H 6 :) فهى مأخوذة من شرح خريطة مدينة القاهرة ، كتاب وصف مصر .

Etat Moderne) (Paris, 1812 II — 2, 591—657.)

ومن خريطة القاهرة الواردة بكتاب وصف مصر .

٧ ـ

Archives de l'Expédition d'Egypte, chateau de Vincennes (Vincennes), B6, 10, 26 Octobre 1798.

٨ ـ عن أحيـاء القاهرة أنظر مقالنـا : أحيـاء القاهرة الشعبية والحركات الجماهيرية التى قامت فيها ـ مجـلة الطليعة القاهرة عـدد يوليو ١٩٦٨ وهى ترجمة لمقالنا :

Quartiers èt mouvements populaires au Caire au XVIII siècle

وقـد نشر فى :

Political and Social Change in Modern Egypt, Londres 1968, 104-116.

وانظر كذلك مقالنـا عن الأحيـاء الارستقراطية بالقاهرة فى القرن الثامن عشر ـ مجلة المجلة القاهرية ، مايو ١٩٦٩ .

٩ —

Niebuhr, voyage en Arabie, Amesterdam 1776, I, 88. Description, Etat Moderne II—2 Jomard, Description de la ville du Caire, 661 (Jomard). Sauvaire, Description de Damas, Paris 1894, 454, note 43. Pris d'Avennes, L'Art Arabe, Paris 1877, 80—81.

١٠ — Jomard, 580. Vincennes, B610, 31 Octobre, 1798.

١١ — Jomard, 580. Vincennes, B610, 31 Octobre, 1 798
Cautionnement des Cheikhs de quartier.

١٢ ـ كتبت أسماء الأحياء حسبما ورد بقائمة وصف مصر . أما وثائق الأرشيف المشـار اليها فهى وثائق المحكمة وهى مودعـة حاليا بمحكمة الأحوال الشخصية فى شبرا وكذلك وثائق القلعة .

٣ ـ انظر كما سبق أن ذكرنا مقالينا عن الأحياء الشعبية (الطليعـة يوليو ١٩٦٨) وعن الاحياء الأرستقراطية (المجلة مايو ١٩٦٩) .

١٥ ـ انظر على سبيل المثـال :

J. Coppin, Retation de voyages, Lyon 1686, 195 (1638), G. Bremond, Viaggi, Rome 1679, 44 (1644); Thevenot, Relation d'un voyage, Paris 1664, 230 (1657); Jouvin de Rochefort, 32 (vers 1670).

١٦ ـ احمد شلبى : كتاب أوضاح الاشارة . مخطوط بجامعة ييل :
Yale, Landberg No. 3, 218 a-b.

١٧ ـ على سبيل المثال الـ ١٠ بارات التى دفعت لبواب حارة درب الأحمر من تركة محمد العطار (وثائق المحكمة الشرعية ـ عسكرية سجل ٢٢١ ص ٣٤٤ سنة ١٧٩٢) .

١٨ ـ De La Croix, Ms. B.N. Paris, Mss français, Nouvelles acquisitions, 4989, 73—74.

وانظر كـذلك :
Jouvin de Rocheford, 32.

١٩ ـ انظر على سبيل المثال : الجبرتى . عجـائب الآثار أجزاء ٢ (ص ١٩٣) و ٣ (ص ص ٢٤٠ ، ٢٨٤ ، ٣٤٢) و ٤ (ص ص ٧٠ ، ٢٢٣) . طبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ .

٢٠ ـ الاسحاقى : كتاب أخبـار ، القاهرة ١٢٩٦ ، ٢٥٥ وابن أبى السرور ، كتاب الكواكب . مخطوط .
B.N. Paris, arabe 1852, 38b.

٢١ ـ الجبرتى جـ ٢ ، ص ١٧ ـ وأرشيف دار الوثائق القومية .

٢٢ ـ الجبرتى جـ ٣ ص ص ١٣ ، ١٨ ، ٢٩ .

٢٣ ـ أرشيف المحكمة الشرعية (عسكرية) سجل ٢٠١ ص ١٢٠ ، عام ١٧٧٧ وسجل ٢٢٨ ص ٩٩ سنة ١٧٩٨ .

٢٤ ـ الجبرتى جـ ٣ ص ص ٤٥ ، ١٤٢ ، وكذلك :
Vincennes B 610, 31 octobre 1798.

٢٥ ـ الجبرتى جـ ٣ ص ٢٤٠ .

٢٦ ـ كتاب تراجم ، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة .

٢٧ ـ كتاب نزهة الناظرين ، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة . ص ١٧٩ مختصر : مخطوط N.B. Paris . الجبرتى جـ ١ ص ٢٩ .

٢٨ ـ S.J. Shaw, the Financial Organization of Ottoman Egypt, Princeton 1962, 189—190.

٢٩ — J.J. Marcel, contes du cheykh el-Mohdy, Paris 1835, III, 388.

٣٠ — القينالى : مجموع لطيف ، مخطوط بفينا . الجبرتى جـ ١ ص ص ٤٦ ، ٣٨٣ ، وا جـ ٢ ص ١٠٧ .

٣١ — المقريزى : كتـــاب المواعظ ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ جـ ٢ ص ١٠٣ وكـــذلك :

Marcel; Contes... III, 384—345.

Lane; Modern Egyptians, London 1954, 122

Shaw; Financial ... 148

Shaw; Ottoman Egypt, Harvard, 1964, 92

٣٢ — الجبرتى جـ ٤ ، ٢٧٨ — ٢٨١ .

٣٣ — الجبرتى جـ ٣ ، ٨ — ٩ .

٣٤ — الجبرتى جـ ٤ ، ١٤٣ وكذلك :

A. Paton; A history of the Egyptian Revolution, London 1863, II, 324.

Shaw; Ottoman Egypt, 92

٣٦ — الاســـحاقى ، ٢٢٩ وابن أبى السرور ، ٢٨ والجـــبرتى جـ ٣ ص ٢١١ .

٣٧ — Sauvaire, 432

٣٨ — Lane 237; Robert Hay : Illustration of Cairo

خطوط London 1840; Description des Monuments du Caire, 1869, 30; G. Ebers, L'Egypte, Paris 1880, 357—358; Creswell, the Muslim Architecture of Egypt, Oxford 1952, I, 205.

٣٩ — على باشا مبارك : الخطط الجديدة ، بولاق ، ١٣٠٦ هـ ، ص٣٨ .

٤٠ — ابن أبى السرور .

٤١ ـ الجبرتى جـ ٣، ص ٧ .

٤٢ — Doguereau ; Journal de l'Expédition d'Egypte, Paris 1904, 71. Vincennes, Mémoires Historiques 539, Carnet de Kléber.

٤٣ ـ الجبرتى جـ ١ ص ٧٩ .

٤٤ ـ ابن أبى السرور . الجبرتى جـ ١ ص ٣٠ ، جـ ٤ ص ٢٩٠ .

٤٥ ـ ثمة أمثلة كثيرة نذكر منها منزل الست وسيلة ومنزل الشبشيرى وزاوية عبد الرحمن كتخدا وبيت على كتخدا وبيت الكاشف وقد أدى تراكم الأتربة أمام أبوابها وحتى بداية القوس التى يعلوها الى سدها تماما .

٤٦ ـ دار المحفوظات العمومية بالقاهرة محفظة ب ١ وثيقة رقم ٣٢٧، ٥ أكتوبر ١٧٤٦ . ابن أبى السرور ٧٩ ب الجبرتى جـ ٤ ص ٨١ .

٤٧ ـ ابن أبى السرور ص ١٦٩ أ . ايفليا جلبى . سياحة نامة ، جـ ١٠ ، استانبول ١٩٣٨ ص ٣٨٢ ، دار المحفوظات العمومية بالقاهرة محفظة ب ١ وثيقة ٣١٩ ، ٢٩ أبريل ١٧٢١ ، الجبرتى جـ ٣ ص ص ١٩٤٤ .

٤٨ — G. De Nerval : Voyage en Orient, Paris 1927, II, 158

٤٩ ـ انظر :

Paul Kahle ; The Arabic Shadow play in Egypt, Jras, 1940, 20—34.

٥٠ ـ انظر مقالنا : عن السقايين فى القاهرة . مجلة المجلة القاهرية ـ اكتوبر ١٩٦٦ عدد رقم ١١٨، ص ٣٦ ـ ٤٥ .

٥١ ـ الجبرتى جـ ٤ ، ص ص ٨٦ ، ١٦٦ .

٥٢ — Chabrol: Essai sur les moeurs (Description, Etat Moderne, II, 2))

٥٣ — Doguereau; Journal, 70.

وانظر كذلك : الجبرتى ج ٣ ص ٤٤ الذى يذكر فى هذا الخصوص بيتا بالغ الخبث لحسن العطار :

ان الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم فى مصرنا ، بين حمار وخمار

٥٤ — Chabrol, Essai., 425.

٥٥ — Nicolas Turc, Chronique d'Egypte, le Caire 1950 45/31.

Parsons, Travels in Asia and Africa, London 1808, 320

٥٧ — الجبرتى ج ٢ ص ٢١٣ .

٥ — Ph. Rhont, L'Egypte à petites Journées, Paris, 1910, 260

٥٩ — Jomard, Ville du Caire, 767

وانظر كذلك :

الجبرتى ج ٣ ص ص ١٠١ ، ١٣٧ ، ١٦٣ ، ٢١١ و ج ٤ ص ٢١٤ .

٦٠ — الجبرتى ج ١ ص ٢٥ .

٦١ — القينالى ص ٧٣ ب .

٦٢ — الجبرتى ج ٣ ص ٢١ ، على باشا مبارك ج ٣ ص ص ٦٥، ٧٩ .

٦٣ — دار المحفوظات العمومية بالقاهرة محفظة ب ١ وثيقة ٣١٨ فى ٢١ يولية ١٧١٨ .

٦٤ — Clerget, II, 22.

وكذلك : مخطوط اسماعيل الخشاب — المكتبة الوطنية باريس ١٨٥٨ ص ٢٤ .

٦٥ — La Jonquière, L'Expédition d'Egypte, Paris, III, 380-381. Jomard, 674—675.

٦٦ — الجبرتى ج ٢ ص ص ١٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦٣ .

٦٧ — الجبرتى ج ٢ ص ١٣٨ .

٦٨ — Vincennes, B6, 132, 26 Juillet, 28 novembre 1800

٦٩ — الجبرتى جـ ٢ ص ١٠٧ .

٧٠ — Jomard, 731. Vincennes, B6, 132, 6 août 1800

٧١ — الجبرتى جـ ٣ ص ص ٢٥ ، ٩٢ ، ١٦١ وكذلك :
Lane, Moderne Egyptians, 322 :

٧٢ — على مبارك جـ ٣ ص ٨٣ وكذلك
Jomard, 580. Doguereau, 71.

٧٣ — على مبارك جـ ٣ ص ٦٣ وكذلك :
Thevenot, voyages, II, 408

٧٤ — J.J. Ampère, voyage en Egypte, Paris, 1881, 136

٧٥ — الجبرتى جـ ٤ ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

٧٦ — كتاب التراجم ص ص ٦٧١ و ٧٩١ وكذلك :
Niebuhr, voyage I, 156

وكذلك : أحمد شلبى ص ٢٤٤ أ والجبرتى جـ ٢ ص ٧ .

٧٧ — عن رضوان بك انظر :
P.M. Holt, The Exalted lineage of Ridwân Bey (BSOAS, XXII—2, 1959, 221—230).

٧٨ — أحمد شلبى ص ٤٠ أ ؛ الجبرتى جـ ١ ص ٣٠ .

٧٩ — انظر مقالينا عن الأحياء الأرستقراطية وعن الأحياء الشعبية وقد سبق توضيح ذلك .

٨٠ — أحمد شلبى ٢٤ ب ، ٤١ أ .

الحزب الوطنى

أول حزب سياسى عربى فى فلسطين

بقلم : عادل حسن غنيم
ماجستير فى التاريخ الحديث

شهدت السنوات الأولى من الانتداب البريطانى على فلسطين صراعا داخليا عنيفاً بين اللجنة التنفيذية العربية ممثلة الحركة الوطنية العربية والتى كان يقودها آل الحسينى وبين آل النشاشيبى المعارضين ، فقد رفضت اللجنة التنفيذية المجلس التشريعى وقاطعت المجلس الاستشارى ورفضت اقتراح الوكالة العربية ، وهى ثلاث مؤسسات كان يأمل النشاشيبيون أن يمثلوا فيها تمثيلا قويا، وأن يتم عن طريقها تقليل الهيبة التى كان يتمتع بها الحسينيون الذين كانوا يشرفون على المجلس الإسلامى الأعلى ويسيطرون على قيادة اللجنة التنفيذية العربية .

واستفادة من عدم إنجاز اللجنة التنفيذية العربية لأية نتائج ملموسة ، كونت مجموعه النشاشيبى حزبا جديداً فى نوفمبر ١٩٢٣ أطلق عليه « الحزب الوطنى »(١) وهو أول الأحزاب السياسية التى تشكلت بعد فرض الانتداب البريطانى على البلاد .

وكان الشعب الفلسطينى قبل تأليف هذا الحزب كتلة واحدة ذات رأى واحد فضاقت حكومة الانتداب بهذه الوحدة فأوعزت بتأليف حزب جديد يضم المعتدلين

---

(1) Esco : Palestine A Study of Jewish, Arab and British Policies., Vol I,P 483.

من أهل البلاد(١) وكانت جريدة مرآة الشرق التي كان يصدرها بولس شحادة بالقدس — والتي أصبحت فيما بعد لسان هذا الحزب — قد دعت قبيل تشكيل الحزب إلى إنشاء حزب حر معتدل(٢) وقد عقد المؤتمر التمهيدي للحزب بمدينة القدس مساء ٩ نوفمبر ١٩٢٣ حيث انتخب سليمان الفاروقي رئيسا للمؤتمر(٣).

وقضية الحزب الوطني تستحق الدراسة، فقد كانت المؤتمرات والجمعيات الوطنية واللجان التنفيذية تقف موقف المعارضة من حكومة الانتداب،وأنشيء هذا الحزب ليكون معارضا لهذه القوى الوطنية . وإذا كان هذا الحزب يحمل اسم الحزب الوطني في مصر إلا أنه يختلف عنه تمام الاختلاف ، ذلك أن الحزب الوطني في مصر كان يقف من الاحتلال البريطاني نفس الموقف المعارض الذي وقفته المؤتمرات واللجان التنفيذية من الانتداب البريطاني في فلسطين ، وقد وجدت بريطانيا أن خطورة الموقف السياسي في فلسطين تستدعي إرسال أحد خبرائها لعلاج هذا الموقف فوقع الاختيار على سير جلبرت كلايتون (٤).

وقد لعب كلايتون دوراً هاما في تشكيل هذا الحزب ، فقد كان له خبرة كبيرة بالعرب ، فقد قضى زمنا في مصر ألم فيه باللغة العربية ، ثم ذهب إلى فلسطين ليشغل منصب السكرتير العام لحكومة الانتداب الذي كان بمثابة وزير الداخلية ، ليعالج نشاط الحركة الوطنية فيها بحنكته وخبرته ، وحدثت اتصالات بينه وبين بعض الشخصيات العربية البارزة ، حيث شجعهم على الظهور على المسرح بخطة إيجابية تقوم على أساس « خذ وطالب » ومناهم بما يمكن أن يصلوا إليه عن هذا الطريق

---

(١) فلسطين : العدد ٧٧٣ — ١٦ — ١٥ أيار ١٩٢٥ ص ١ .
(٢) فلسطين : العدد ٦١٧ — ٥٩ — ٢ تشرين الأول ١٩٢٣ ص ١ .
(٣) فلسطين : العدد ٦٢٩ — ٧١ — ١٣ تشرين الثاني ١٩٢٣ ص ٢ ، ٣
(٤) جلال يحيى : مشكلة فلسطين والاتجاهات الدولية ص ١١٤ ، ١١٥ .

من المركز والمكانة ، وأغراهم من جهة أخرى بأن هذا أنفع وأجدى للقضية العربية ، حيث يتيح للعرب أن ينالوا شيئا يمكن أن يكون أساسا لما يطالبون به فى المستقبل. وكان الذين اتصل بهم كلايتون ممن لم يرضوا عن مقاطعة المجلس التشريعى والمجلس الاستشارى ولكنهم لم يجرءوا على معارضة التيار الجارف، وممن كانوا من ناحية أخرى ناقمين من بروز منافسيهم فى الحركة الوطنية ، وممن كانت مصالحهم العائلية تدفعهم إلى الوقوف موقفا يضمن لهم المحافظة على هذه المصالح (١).

وقد تجلت علاقة هذا الحزب بالسلطة منذ نشأته ، فقد كانت السيارات المصفحة تروح وتجىء تحرس أماكن الاجتماعات الأولى للحزب الوطى ، ولم يكن من عادة الحكومة أن تفعل ذلك مع الهيئات الوطنية(٢).

وفى البداية فإن عارف الدجانى كان يأمل فى تحويل الحزب إلى أداة للتعاون بطريقة سافرة مع الحكومة والتعامل الاقتصادى مع الصهيونيين، لكنه فشل فى فرض هذا الاتجاه على الحزب ، فترك الحزب مع ابن أخيه صدقى الدجانى (٣).

وكان يقال فى ذلك الوقت أن للحزب الوطنى رئيسين: رئيس ظاهر هو الشيخ سليمان التاجى الفاروقى ورئيس مستتر هو راغب بك النشاشيبى رئيس بلدية القدس، أما الأسباب التى دفعت راغب بك إلى المساهمة فى تأليف هذا الحزب ، فيرجع معظمها إلى ممالئته للحكومة ورغبته فى الاحتفاظ بكرسى رئاسة بلدية القدس ومنازعة الأسرة الحسينية والحط من مقامها (٤).

---

١ — محمد عزه دروزه: حول الحركة العربية الحديثة — الجزء الثالث — ص ٤٢، ٤٣
٢ — فلسطين : العدد ٦٢٩ — ٧١ — ١٣ تشرين الثانى ١٩٢٣ ص ٣
٣ — Esco, op. cit. P 484.
٤ — فلسطين : العدد ٦٣٣ — ٧٥ = ٢٧ تشرين الثانى ١٩٢٣ ص ١

ولم يكن برنامج الحزب يختلف عن برنامج الحركة الوطنية فى شىء (١) فمن مبادىء الحزب الجديدعدم الاعتراف بتصريح بالفور ومقاومةورفض الدستورالذى وضعته الحكومة ، وسن دستور يطابق رغائب الأمة وعاداتها ، وتشكيل مجلس نيابى تكون له السلطة التامة فى كل القوانين التى تتطلبها حالة الأمة وتشكيل حكومة وطنية ، ولا ريب فى أن هذه هى مطالب الأمة ، وإنما نجد الاختلاف بين الحزب والحركة الوطنية فى نقطة واحدة وهى الرضاء بما يتسر ، فالحزب الوطنى كان يرى قبول ماتهب الحكومة من هذه المطالب ، فإذا كانت الحكومة تمنح الأمة مجلساً تشريعياً أو مجلسا استشاريا فلا ينبغى رفضه ،بل يجب قبوله والسعى مستقبلا لإدراك شىء آخر ، وكذا بالنسبة لباقى المطالب فمع أن مبادىء الحزب تتفق مع مطالب الأمة ، إلا أن الحزب يريد أن يحقق هذه المطالب شيئا فشيئا مادامت امكانيات تحقيقهادفعةواحدة غير ميسرة من وجهة نظره (٢) وتتضح هذ الحقيقة من ثنايا الكلمةالتى ألقاها بولس شحادة فى الجلسة التمهيدية للحزب الوطنى يوم ٩نوفمبر١٩٢٣ « أننا متفقون مع الذين يشتغلون للقضية على الغاية ولكننا مختلفون فى الطرق» (٣) وكان أعضاء الحزب يقولون أن حزبنا سيكون مثل حزب الاحرار الدستوريين فى مصر الذى انشق على حزب الأغلبية وهو الوفد المصرى فكانت نتيجة انشقاقه فوز مصر باكثر رغائبها الوطنية (٤) هكذا كان اعضاء الحزب يفكرون متناسين الاختلاف الكبير بين الموقف السياسى العام فى مصر وفلسطين .

---

١ — الجزيره : العدد ٢ — ٣ شباط ١٩٢٤ ص ٢ ،
اليرموك : العدد ٦٠ — ٣٠ نسيان ١٩٢٥ ص٥ .
٢ — فلسطين : العدد ٦١٧ — ٥٩ — ٢ تشرين الأول ١٩٢٣ ص ١ .
٣ — فلسطين : العدد ٦٢٩ — ٧١ — ١٣ تشرين الثانى ١٩٢٣ ص٣ .
٤ — فلسطين : العدد ٦١٦ — ٥٨ — ٢٨ أيلول ١٩٢٣ ص ١ .

ومن يراجع برنامج الحزب الذى نشرته مرآة الشرق والمقابلات العديدة التى سبقته وتبعته ، ومن يتدبر أقوال خطباء المؤتمر التمهيدى للحزب فلابد أن يرى أن هذا الحزب على قاعدتين :

الاولى : لنأخذ من الحكومة ماتعطينا ونطالب بالباقى

الثانية . أن القضية الفلسطينية لا تحل إلا فى فلسطين (١)

فبالنسبة للنقطة الأولى، فلاشك أنهم يقصدون أن الحكومة اعطتهم الدستور وعرضت عليهم المجلس التشريعى والمجلس الاستشارى ، فكان يجب أن يوافقوا على ذلك ويطالبوا بالباقى أما أن القضية لا تحل إلا فى فلسطين ، فليس القصد منه أن حل القضية متوقف على اتحاد الفلسطينيين وجهادهم فى داخل البلاد ، وانما معناه الا ترسل البلاد وفودا إلى أوربا ، ولا يرفع الفلسطينيون اصواتهم بالاحتجاج فى الخارج على أعمال الحكومة غير المشروعة ، وأن كل المشاكل تذلل بالتفاهم مع حكومة الانتداب .

وقد اشترك فى هذا الحزب رؤساء بلديات واعضاء لجان حكومية وأعضاء ومرشحون سابقون فى المجلس التشريعى والمجلس الاستشارى وبعض الوجهاء، واشترك فيه كذلك أفراد كانوا مندمجين فى الحركة الوطنية وبارزين فى مؤتمراتها ولجانها التنفيذية ، كما انضم إليه أيضا بعض ذوى النيات الحسنة الذين ظنوا فى الخطة الجديدة خيرا ونفعا (٢)

ومن يطالع أسماء الذين حضروا الاجتماع التمهيدى للحزب (٣) يلاحظ

---

١ — فلسطين : العدد ٦٣٠ - ٧٢ - ١٦ تشرين الثانى ١٩٢٣ ص٥ .
٢ — محمد عزه دروزه : المرجع السابق ص ٤٣ .
٣ — فلسطين : العدد ٦٢٩ - ٧١ - ١٣ تشرين الثانى ١٩٢٣ ص٢ .

للوهلة الأولى أن الحزب كان تجمعا عائليا أكثر منه حزبا بالمعنى المفهوم، فمن القدس كان عدد الحاضرين واحد وعشرون ، منهم ستة من أسرة النشاشيبي ، وخمسة من أسرة الدجاني ، وثلاثة من أسرة الخالدي ، وكان من نابلس وطولكرم يمثلان لعائلة واحدة ، ومن دير غسانه ستة يمثلون أربعة منهم من عائلة واحدة ، ومن قرية العنب أربعة يمثلون من عائلة واحدة ... وهكذا ، لكن هذا التجمع لم يكن مجرد تجمع عائلي ، وإنما كان تعبيراً عن طبقة أصحاب المصالح الحقيقية .

وكان يغلب على عدد من أعضاء الحزب حرصهم على المصلحة الشخصية ، وقد عبر موسى كاظم الحسيني قائد الحركة الوطنية عن هذا المعنى في رسالة منه إلى رئيس الحزب الوطني في ١٦ يناير ١٩٢٥ فقال :

«ان بين اتباعكم المنشقين على اللجنة والجمعيات من قاموا لمعارضتها مدفوعين وراء العواطف النفسية الخاصة ، فمن هؤلاء اطلب وأرجو أن يرجعوا إلى العقل فيحكموه ويتركوا العواطف الخاصة في خدمة المصلحة العامة ، فإذا كانت بينهم وبين أعضاء اللجنة وأتباعها أمور نفسية فعليكم وعليّ إزالتها بالتضحية من اوقاتنا وراحتنا» (١)

وكانت مدينة القدس مركز هذا الحزب كما كانت له فروع قليلة في حيفا ونابلس(٢) وعكا(٣) وطولكرم (٤) وغزة (٥) ولكن لم يكن للحزب أية شعبية بل أنصار قليلون في أماكن متفرقة .

وقد عبر الشعب العربي عن رأيه في هذا الحزب وفي أعضائه عندما ذهبت وفود فلسطين إلى عمان يوم ٢٠ يناير ١٩٢٤ لتحية الملك حسين ، فقد لقي وفد الحزب

---

١ ــ فلسطين : العدد ٧٤٧ ــ ٨٩ ــ ١٣ كانون الثاني، ١٩٢٥، ص١ .
٢ ــ محمد أسحق درويش : ذكريات ، ص٩ .
٣ ــ الجزيرة: العدد ٥٠ ــ ٢٨ تموز، ١٩٢٤، ص٣.
٤ ــ اليرموك : العدد ٣٥ ــ ٨ كانون الثاني، ١٩٢٥، ص٢ .
٥ ــ فلسطين : العدد ٧٥٥ ــ ٩٧ ــ ٢٠ شباط، ١٩٢٥ ، ص٢ .

الوطنى ، وفد حزب الزراع إهانة شديدة من شعب الأردن ، فقـد رشق الناس أعضاء الوفد بالحجارة بتأثير ما كان من دعاية ضد هـذا الحزب (١) وليس بتحريض من الشيخ عبد القادر المظفر كما تشير بعض المراجع الصهيونية (٢) وقـد اشترك فى التعبير عن هذا الموقف عدد كبير من العرب ، وكان الاعتداء على ممثلى هذا الحزب دون سائر الوفود حتى الوفد الصهيونى — دليلا على منزلة هذا الحزب عند الشعب (٣) وقد قامت على أثر ذلك مظاهرة اشترك فيها ألوف من العـرب سارت فى شوارع عمان تنادى بسقوط الخونة ، وقـد فشل رجال الأمن فى تفريق المتظاهرين ورفض أهالى عمان إيواء رجال الحزب فى بيوتهم فأرسلوا مخفورين إلى السلط . (٤)

وقد وجد رجال اللجنة التنفيذية العربية فى بداية الأمر صعوبة بالغة فى الاعتراف بالحزب الوطنى كحزب سياسى فى البلاد (٥) وكانت هذه الصعوبة أمراً طبيعياً لأن اللجنة التنفيذية كانت ترتكز أساساً على قوة الاتحاد فى البلاد ، والاعتراف فى هذه الحالة يضعف من تلك القوة ويقلل من إمكانياتها ، وقد حدا ذلك باللجنـة التنفيذية العربية إثر اجتماع لها فى منتصف نوفمبر ١٩٢٣ إلى تأليف وفد مهمتـه الطواف بالمدن والقرى لشرح أهداف الحزب الوطنى للجماهير . (٦)

ولـكن بمـرور الوقت أحس موسى كاظم الحسينى — الذى كان أحـرص ما يحرص عليه هو الحفاظ على الوحدة الوطنية واستمرارها — بضرورة توحيد

---

١ — محمد عزه دروزه : المرجع السابق ص ٤٤ .

٢ — The Secretary of State forethe Colonies. Palestine Royal commission Peport. P 484.

٣ — فلسطين : العدد ٦٥٤ — ٩٦ — ١٥ شباط ١٩٢٤ ص ٢ من بيان لحمد على الطاهر

٤ — فلسطين : العدد ٦٤٨ — ٩٠ — ٢٥ كانون الثانى ، ١٩٢٤ ، ص ١ .

٥ — الجزيرة . العدد ٢ — ٣ شباط ، ١٩٢٤ ، ص ٢ .

٦ — فلسطين : العدد ٦٣٣ — ٧٥ — ٢٧ تشرين الثانى ، ١٩٢٣ ، ص ٣ .

العمل بين اللجنة التنفيذية والحزب الوطني . فعندما ذهب وفـد فلسطين لمقابلة وزير المستعمرات يوم ٢١ أبريل ١٩٢٥ كان رئيس الحزب الوطني ضمن أعضاء الوفد ، بل إن موسى كاظم الحسيني بعد أن قدم أعضاء الوفد لوزير المستعمرات طلب أن يتـكلم رئيس الحزب الوطني نيابة عن أعضاء الوفد كله(١) وفي رسالة من موسى كاظم الحسيني إلى رئيس الحزب الوطني نلمس هذا الاتجاه الواضح « وإني أعود فأؤكد لسماحتكم رغبتي في العمل معكم يداً بيد لخير هذه الأمة التي لارجاء لي في هذه الأيام القليلة الباقية إلا أن أراها مكللة بنصر هذا الجهاد العنيف(٢) » .

وأود الآن أن أتحدث عن موقف الحزب الوطني من قضايا البلاد :

أولا : موقف الحزب من الانتداب : كان الحزب متعاوناً مع حكومة فلسطين في الوقت الذي كانت فيه القوى الوطنية تقف موقفاً موحداً من الانتداب وحكومته ويتضح ذلك من البلاغ الرسمي الذي أذاعته الحـكومة في أوائل فبراير عام ١٩٢٥ بمناسبة البيانات التي ألقاها المندوب السامي البريطاني أمام لجنة الانتدابات ، فقد جاء في البيان المذكور « فقـد بين فخامته انقسام الرأي بين قادة الرأي العام العرب ، وأنه تشكل حزب عربي جديد يعرف بالحزب الوطني على رأسه بعض قادة الرأي العام ومع أن هذا الحزب أظهر نفس المطالب التي تطالب بها اللجنة التنفيذية فيما يختص بالصهيونية ، إلا أنه أظهر رغبته في التعاون مع الحـكومة ، فـكانت نتيجة هـــذا الإنقسام في الرأي بين العرب أن اللجنة التنفيذية لم تتمكن من عقد مؤتمر لأكثر من

---

١ — فلسطين : العدد ٧٧٢–١٥–١ آيار ١٩٢٥ ، ص ٩ .

٢ — فلسطين : العدد ٧٤٧–٨٩–٢٣ كانون الثاني ١٩٢٥ ،ص ١ .

سنة على مايظن ، وأن الاحتجاج الذى أرسلته تلك اللجنـــة لعصبة الأمم المتحدة لايمكن أن يعتبر أنه يمثل أراء عرب فلسطين(١) .

ولا يجد المرء صعوبة فى تأكيد هذا الموقف المتخاذل من الحزب تجاه الانتداب ففى مقال لرئيس الحزب الوطنى الفلسطينى بعد زيارة بالفور الشهيرة لفلسطين عام ١٩٢٥ ومقاطعة الشعب الفلسطينى لها كتب يقول فى مقال بعنوان «بيننا وبين الحكومة» « أننا واثقون من بطشك ، ولكن الشعب لم يصنع مايؤهله لأن يعاقب عقاب القتل ويقاصص قصاص الضيم ، ويمثل بعقائده الوطنية ومشاعره القومية هذا التمثيل ، فلئن كنت (يقصد الحكومة البريطانية) تريدين أن تثبتى للعالم أنك قادرة علينا خليقة بحكمنا فإنا بذلك مؤمنون(٢) » . وفى بيان آخر لرئيس الحزب يخاطب فيه بريطانيا نلمس روح الضعف والاستخذاء التى سيطرت على هذا الحزب وجعلته مستعداً للتسليم بأى شىء للانتداب بشرط إلغاء تصريح بالفور « أهذا جزاء إيثارنا لك وتشوقنا إليك وحنيننا قبل قدومك إلينا . إن أهل فلسطين أضعف من أن يردوا لك أمراً ولكنهم والأسى ملء نفوسهم والآلام آخذة بقلوبهم ونفوسهم يقولون لك لو اخترت لهذا الضيف غير هذه الدار ، ولم تبلغ منك الاستهانة بهم أن تنزلى خصمهم فى دارهم رغم أنوفهم وأنت تتحديهم هذا التحدى وتستهينين بهم هذه الاستهانة ، وأنت الحكومة المذكورة برحابة الصدر وبعد النظر والمحبوبة من الجمهور الأعظم من المسلمين(٣) .

وقد عبر رئيس الحزب الوطنى عن شىء من هذا القبيل عندما تحدث باسم

---

١ — فلسطين : العدد ٧٥١ — ٩٣ — ٦ شباط ١٩٢٥ ، ص ٢ .

٢ — فلسطين : العدد ٧٦٥ — ٨ — ٣١ آذار ١٩٢٥ ، ص ١

٣ — فلسطين : العدد ٧٦٧ — ٦ — ٢٠ آذار ١٩٢٥ ، ص ١ .

الفلسطينيين فى أبريل ١٩٢٥ أمام المستر إيمــرى وزير المستعمرات إذ قال « إن الفلسطينيين قبل الحرب انتظروا ورغبوا فى أن تحــكمهم بريطانيا العظمى ، ولولا وجود الوطن القومى لما وقعت هذه الشادة » ولا اعتقد أن هذا الـكلام كان يعبر فعلا عن حقيقة مشاعر الشعب الفلسطينى الذى أيد ـ فى أكثر من مناسبة ـ رغبته فى التحرر من كل نفوذ أجنبى(١) .

وفى مقال لمرآة الشرق ـ صحيفة الحزب ـ عبرت الجريدة عن أسفها البالغ على عزم مدير المعارف البريطانى ترك البلاد« قد عم الأسف موظفى دائرة المعارف ورجال العلم من جميع الطوائف فى فلسطين لدى سماعهم بعــزم المستر همفرى بومن مدير معارف فلسطين على الاستقالة ، وقد سرنا جداً مابلغنا الآن من أن المستر بومن تمــكن من اتخاذ التدابير للبقاء فى فلسطين مرة أخرى » .(٢)

ثانيا : بالنسبة لموقف الحزب من الوحدة الوطنية : كان الحزب يدعى أن غرضه هو تنظيم صفوف الأمة ومناقشة الحــكومة فى القوانين التى تسنها والتفاهم معها ومقاومة فــكرة مقاطعة الضرائب(٣) ولــكن الحزب لم يفعل شيئا يذكر فى مجال تنظيم صفوف الأمة وحل القضية الفلسطينية داخليا ، كما أن الحزب كان له مواقف معادية تجاه أى تجمع وطنى ، فقد قرر الحزب فى عام ١٩٢٤ عدم الاشتراك فى المؤتمر السابع

---

١ ـــ فلسطين : العدد ٧٧٢-١٦-١ آيار ١٩٢٥ ، ص ١

٢ ـــ فلسطين : العدد ٢-٢٩ أكتوبر ١٩٢٤ ، ض ١ .

٣ ـــ فلسطين : العدد ٦٢٩ / ٧١ / ١٣ تشرين الثانى ١٩٢٣ ، ص ٣ ، خطاب للاستاذ سليمان الفاروقى فى الجلسة التمهيدية للحزب يوم ٩ نوفمبر ١٩٢٣

الذى كانت اللجنة التنفيذية قد ازمعت عقده فى ذلك العام(١) كما رفض الحزب فى نفس العام قبول الدعوة التى وجهها الزعيم التونسى عبد العزيز الثعالبى إلى كافة هيئات فلسطين فى محاولة لضم صفوف الأمة (٢) بل إن الحزب كان يحاول فى بعض الأحيان الوقوف فى معاداة اللجنة التنفيذية العربية والمجلس الإسلامى الأعلى حتى ولو أدى ذلك إلى الأضرار بمصالح البلاد : فقد حدث أن أرسل المجلس الإسلامى الأعلى إلى الهند فى عام ١٩٢٤ وفدا لجمع الإعانات لعمارة المسجد الأقصى ولكن الحزب الوطنى لم ير فى هذا السعى إلا أن الذى يقوم به هو المجلس الإسلامى الأعلى ، وذلك كاف فى نظر الحزب كى يقاومه ويعمل على إحباطه ، فقد أرسل الحزب كتبا إلى الهند يحض فيها المسلمين على عدم المجازفة بأموالهم وتبرعاتهم لأن الوفد لا يمثل الأمة ، كما أنه يتصرف بالأموال المجموعة تصرفا مشينا ، وبرغم نفى الحزب الوطنى إرسال هذه البرقيات إلى الهند ، إلا أن ما نشر فى الصحف عن هذا الموضوع أكد صحته ، فقد سلمت البرقيات فعلا إلى رئيس الوفد الذى قام بتعريف الهنود أن مرسلى هذه البرقيات هم من الذين يعادون الأمة ويعرقلون مساعيها(٣) .

ثالثا : بالنسبة لموقف الحزب من تصريح بالفور : كان الحزب يستنكر هذا التصريح فى كل بياناته (٤) وكان الحزب يدعو الفلسطينيين فى كثير من المناسبات إلى الحرص على أراضيهم وتجنب خداع السماسرة (٥) ولكن رغم ذلك فقد كان

---

١ — الجزيرة : العدد ٣٨ / ١٢ حزيران ١٩٢٤، ص٢.
٢ — الجزيرة : العدد ٤٥ / ٦ تموز ١٩٢٤ ، ص٤.
٣ — الجزيرة : الأعداد ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ نيسان ١٩٢٤، ص ٢ ، ٣.
٤ — فلسطين : العدد ٧٦٢ — ٥ — ١٧ آذار ١٩٢٥، ص٢ .
٥ — فلسطين : العدد ٧٦٣ — ٦ — ١٧ آذار ١٩٢٥ ، ص١.

لكثير من رجال الحزب صلات بالصهيونيين ، وقاموا بدور ما فى مجال السمسرة وبيع الأراضى(١) .

رابعا : بالنسبة لموقف الحزب من التطور الدستورى فى البلاد : كان الحزب أشد المنتقدين للجنة التنفيذية لمقاطعتها انتخابات المجلس التشريعى والمجلس الاستشارى والوكالة العربية ، إعتقادا منه أن تلك المقاطعة تضر بحقوق عرب فلسطين وتحرمهم من فرصة الاشتراك مع الحكومة فى سن القوانين أو الوقوف فى وجهها - على الأقل - عندما تضع تشريعا لا يتفق مع مصلحة البلاد ، وقد ملأت جريدة مرآة الشرق أعمدتها فى تلك الفترة بالحث على وجوب اتباع سياسة إيجابية مع الحكومة سيرا على قاعدة « خذ وطالب »(٢) .

وبالرغم من اتجاه الحزب إلى معاداة الحركة الوطنية ، فقد كان الحزب يشارك الأمة فى بعض المناسبات التى تعبر فيها عن مشاعرها مثل الإضراب العام يوم ذهاب بالفور إلى فلسطين عام ١٩٢٥ ومثل إرسال البرقيات إلى عصبة الأمم(٣) بل أن عددا من فروع الحزب كان يؤيد اللجنة التنفيذية فى بعض المناسبات « وإننا نخالف الحكومة فى كل عمل يصدر منها لتأييد وعد بالفور والهجرة الصهيونية ونستحسن ماجاء عن اللجنة التنفيذية فى المناقشة والرد على فخامة المندوب السامى فى بياناته أمام لجنة الانتدابات ، طالبين من اخواننا فى اللجنة وغيرها ألا يتسرعوا فى الحكم على من خالفهم بما يجرح عواطفهم ، فليس الوطن ملكا لأناس دون آخرين بل هو للعموم » (٤)

---

١ - محمد عزه دروزه : المرجع السابق ، ص٤٣ ، ٤٤ .
٢ - فلسطين : العدد ٩٠٩ - ٥٥ - ١٧ أيلول ١٩٢٦ ، ص ٤ .
٣ - فلسطين : العدد ٧٦٢ - ٥ - آذار ١٩٢٥ ص٢ .
٤ - فلسطين : العدد ٧٥٥ - ٩٧ - ٢٠ شباط ١٩٢٥ ص٢ ، بيان لفرع الحزب فى غزة .

فهل استطاع هذا الحزب أن يقدم للامة شيئاً إيجابيا أو يحقق بعض المكاسب المرحلية التي كان يدعو إليها وينتقد اللجنة التنفيذية من أجلها . لقد أذاع الحزب بياناً عن أعماله في ٩ يوليو ١٩٢٤ — أي بعد ثمانية أشهر من إنشائه — أشار فيه إلى أهم الانجازات التي حققها هي أنه استطاع أن يسائل اللجنة التنفيذية وقدم مذكرة للحكومة بشأن أحوال البلاد الاقتصادية وأنه جاد في مطالبة الحكومة بكثير من المشروعات الناقصة ، ولم يشر الحزب في بيانه إلى قضايا الانتداب والهجرة والتهويد والحكم النيابي ، وهي أهم القضايا التي بشر الحزب عند قيامه بتحقيقها عن طريق وسائله المرحلية الخاصة ، هذا في الوقت الذي كان الحزب فيه يبدي اهتماما كبيرا بالمسائل المادية والثانوية ويذيع البيانات المختلفة في هذا الشأن ، مثل مطالبة الحزب الحكومة أن ينهج رجال الشرطة منهجاً قانونيا ، ونلمس هذا الاهتمام بالامور المادية في التقارير السنوية التي كان الحزب يرسلها سنوياً إلى عصبة الأمم ، فقبيل كتابة تقرير الحزب عن عام ١٩٢٤ استوضح الحزب الحكومة في ثلاثة موضوعات سيتضمنها التقرير ، الأولى بشأن ضرب بعض الصبيان : والثانية بشأن تطويق بيت الحاج سليم حجازي ليلا : والثالثة بشأن مجيء مدير الأمن العام إلى مدينة الخليل وجمعه الوجهاء على أثر اطلاق النار على دار الحاكم وتكليفه الوجهاء بأن يظهروا المجرم أو يدفعوا خمسة آلاف جنيه .(١)

الحق أن تأليف الحزب الوطني في هذا الوقت بالذات وبعد أن فشل الانتداب في فرض المجلس التشريعي على البلاد قد الحق بالحركة الوطنية اضرار بالغة ، كما حقق للانتداب عديدا من المكاسب . فبالنسبة لما ألحقه تأليف الحزب بالحركة الوطنية من اضرار :

---

١ — فلسطين : العدد ٧٨٨ — ٣١ — ٢٦ حزيران ١٩٢٥ ، ص ٢ .

أولا : إحداث انقسام داخل القوى الوطنية . مع مايشتمل عليه ذلك من بلبلة فى الرأى العام . ونشوء أحزاب داخل المعسكر الواحد وصرف الجهود فى تبادل الاتهامات مع سائر القوى الوطنية .

ثانيا: لم تكن خطة الحزب خطة عملية توصل إلى نيل أى حق من حقوق البلاد، سواء على المدى القريب أو البعيد ، مادامت الهجرة الصهيونية تتزايد يوما بعد يوم ، وحتى إذا توصل الحزب إلى اعتراف من بريطانيا بانهاء الانتداب مثلا بعد ثلاثين سنة ، فلم يكن من المنتظر أن يتم الاستقلال فى الموعد المحدد مادامت البلاد مفتوحة على مصراعيها للصهيونيين الغرباء .

ثالثا : مايشتمل عليه أسلوب الحزب من معنى الوصول والتساهل مع الاجنبى والقبول بفتات الانتداب والرضا بقاعد صورية للحكم وتغليف ذلك كله بطابع السياسة الإيجابية والواقعية .(١)

رابعا : كانت دعوة الحزب إلى اقفال أبواب لندن فى وجه أهل فلسطين واعتبار مسألتها مسألة محلية بحته دعوة إلى عزل القضية الفلسطينية عن الهيئات الدولية والمجالس الرسمية وحصرها داخل حدود فلسطين .

وأما المكاسب التى تحققت للانتداب من إنشاء هذا الحزب فأهمها مايلى :

أولا : تأييد موقف المندوب السامى الذى كانت سياسته قد أخفقت حتى ذلك الوقت .

ثانيا : التشويش على الملك حسين ملك الحجاز وصرفه عن المطالبة بحقوق فلسطين فى المعاهدة التى كانت معروضة على بساط البحث فى ذلك الوقت . (٢)

وخلاصة القول أن هذا الحزب لم يستطع خلال سنوات وجوده أن يقدم للناس

---

١ ـ جلال يحى : المرجع السابق ، ص ١١٦ ، ١١٧ .
٢ ـ فلسطين : العدد ٦٢٠ ـ ٦٢ ـ ١٢ تشرين الأول ١٩٢٣، ص ١ .

شيئا ذا قيمة أو يجمعهم حول فكرة وطنية ، ولم يكن من المنتظر من أن يعمل غير ذلك .

على أن الحزب الوطنى لم يعمل كهيئة رسمية أكثر من سنوات معدودة ، فقد انكشف من اغراضه الناس ، كما أن البريطانيين لم يبروا عما منوا به رجاله من سياسة جديدة لانهم لم يكونوا يقصدون — فيما شجعوه عليه — إلا احداث الانقسام فى صفوف الأمة ، وقد حدث ذلك فعلا ، كما أن كلايتون لم يبق كثيرا فى فلسطين ، فكان ذلك مما دفع كثيرين من الذين أملوا خيرا من وراء وجود الحزب إلى التريث ، فبقى الحزب فى نطاقه الذى حصرته فيه الدعاية الوطنية ، وانسحب كثير من أعضائه ، ولم يلبث أن أخـذ بنيانه الرسمى يتداعى وشأنه يتضاءل . (١) واضطر بعض اعضائه إلى الهجرة إلى الاردن وغـيرها خجلا من مواطنيهم الذين كانوا ينظرون إليهم كعملاء (٢) .

وكان أمرا طبيعيا أن تنشر الصحف طوال أعوام ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ مضابط عليها مئات التوقيعات يتبرأ فيها الفلسطينيين من هذا الحزب ويعلنون ثقتهم التامة فى قيادة اللجنـــة التنفيذية العربية . (٣) وقد ساعد على نجاح الدعاية ضد هذا الحزب ما كان لكثير من رجاله من صلات بالحكومة والصهيونية ، وماقاموا به فى مجال السمسرة وبيع الأراضى . (٤)

---

١ — محمد عزه دروزه : المرجع السابق ، ص ٤٤ .
٢ — محمد اسحق درويش : المرجع السابق ، ص ٩ مكرر .
٣ — اليرموك : العدد ٤٣ — ٥ شباط ١٩٢٥ ، ص ٣ .
٤ — محمد عزة دروزه ، المرجع السابق ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

والحزب الوطني هو الذي تطور بعد سنوات من احتجابه إلى حزب الدفاع كما أصبحت مرآة الشرق هي جريدة الدفاع أيضا(١) .

ورغم توارى الحزب عن المسرح السياسى بعد سنوات قليلة من وجوده ، فإن الغاية التي توختها الإدارة البريطانية منه لم تحقق وفكرة المعارضة للوحدة الوطنية — وهى التي قام الحزب عليها — لم تختف ، فقد ظل رجال الحكومة متصلين برؤساء هذه المجموعة ، كما ظلوا متصلين برؤساء مجموعة الحزب الزراعى يحققون لهم بعض المطالب والمنافع الخاصة والعائلية ويتمسكون بهم فى المراكز الرسمية وشبه الرسمية ، ومع أن هؤلاء ظلوا مطبوعين بطابع الوصولية ، ومغموزين فى وطنيتهم وإخلاصهم ، فإن ماقاموا به من دسائس ودعايات قد ساعد كثيراً على تحقيق شىء غير قليل مما كان يهدف إليه الانتداب ، وعلى تسرب شىء من الوهن والفتور إلى الحركة الوطنية ونشاطها (٢).

وقد أدرك سليمان الفاروقى فى منتصف عام ١٩٢٦ خطورة الدور الذى قام به الحزب على كيان أمته وعدم جدوى سياسة الاعتدال ، وأيقن أن الحزب لن يستطع أن يقدم للبلاد شيئاً ذا قيمة وهو يقف منفرداً فى مواجهة القوى الوطنية، فقام يدعو إلى جمع الصفوف تمهيداً لعقد المؤتمر الفلسطينى السابع « وقد أحسنت الحكومة استغلال فرقتنا واستثمار انقسامنا على أنفسنا ، فضربت بعضنا ببعض وأشاحت لبعضنا بكاذبات المنى ، وأطمعت الآخرين بمعللات الأحلام ولذيذ الرؤى ، حتى يتناغصه للأولياء يشيحون بذكرنا ، وقرة عين للأعداء يتسلون بوضعنا ، وحتى علق اليأس تهجم على كبريات النفوس ، وأصبح الهلع يزيغ ثابتات الأبصار ، وحتى هنا على حكومتنا هواننا كبيراً ، فلم تأبه لنا ولم تحفل بنا ، ومانحن لوخرجنا من جلودنا قبل ثيابنا ، ولو تمزقت أجسادنا قبل أكبادنا بعلومين ، وهذا السكرتير العام يعلن لعصبة الأمم أننا راضون بهواننا مستنيمون إلى حكومتنا » ويدرك رئيس الحزب الوطنى بعد

١ — محمد اسحق درويش ، المرجع السابق ، ص ٩ مكرر .
٢ — محمد عزة دروزه : المرجع السابق ص ٤٤ ، ٤٥ .

ضياع الجهود الوطنية عدة سنوات — أهمية الوحدة الوطنية — « وإنى بمدرهين بإرادة كل فرد من هذه الأمة ، طيب النفس بالأضواء تحت أى لواء يسير فى خدمتها وراء القائد الذى تختاره منها » (١).

ولقد برهنت التطورات السياسية فى فلسطين فى عام ١٩٢٦ لرجال الحزب الوطنى أن الحكومة البريطانية لم تكن راغبة فى منح أهل فلسطين أية حقوق دستورية . فقد دارت فى منتصف يوليو عام ١٩٢٦ مفاوضات غير رسمية بين بعض رجالات فلسطين وبين المستر ماز وكيل السكرتير العام فى القدس بشأن مطالب الوطنيين ، وكان بولس شحادة واسطتها وعمر الصالح البرغوثى من رجالها وهما من أقطاب الحزب الوطنى (٢) كما اشترك معهما فى تلك المفاوضات رفيق التميمى ومحمد عزة دروزة ومعين الماضى ورشيد الحاج إبراهيم وهم من رجالات الحركة الوطنية فى فلسطين ، وقد عقد المتفاوضون أربع اجتماعات مع المستر ماز (٣) ، انتهت بخطاب من المستر ماز يوضح فيه رغبة الحكومة فى منح البلاد حق انتخاب مجالس البلدية وحرصها على أن تكون الاقتراحات المقدمة معبرة عن آراء هيئة عامة من أهالى البلاد (٤).

ولقد كانت اللجنة التنفيذية العربية على علم بأنباء تلك المفاوضات ، لكنها لم تشأ أن تعترض على إجرائها عن غير طريقها على أمل أن يصل هؤلاء المفاوضون إلى اتفاق مقبول ، كما أن اللجنة كانت تعانى فى تلك الفترة ضعفا فى نشاطها وفاعليتها .

---

١ — الشورى: العدد ٩٠ — ٣٠ يوليو ١٩٢٦ وص ٤ من رسالة لسليمان الفاروقى إلى الشورى .

٢ — فلسطين : العدد ٩٠٩ — ٥٥ — ١٧ أيلول ١٩٢٦، ص ٤ .

٣ — محمد عزة دروزة : المرجع السابق ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

٤ — محمد عزة دروزة : القضية الفلسطينية . الجزء الأول، ص ٢٧١ — ٢٨١ .

وأعتقد أن الإدارة البريطانية لم تكن جادة فى تلك المفاوضات ، وأن أحد أهدافها كان إبراز ممثلى الحزب الوطنى ودفعهم إلى المساهمة بدور إيجابى فى تحديد المواقف السياسية لعرب فلسطين ، على أمل أن يراعى تمثيل الحزب فى أية مفاوضات مقبلة .

ذلك هو الحزب الوطنى أول أحزاب الأقلية التى تكاونت فى فلسطين بعد فرض الانتداب البريطانى على البلاد ، والذى كان بداية لعدة أحزاب تكونت فى منتصف العشرينيات ، وكانت تعبيراً عن الاتجاه المتعاون مع الانتداب والمناوىء لقيادة الحركة الوطنية .

وثائق ونصوص

يقصد سوى تحقير الفلاح ، والحط من شأنه (١) ، وإزاء هذه النظرة السطحية للكتاب صدرت بعض طبعاته تحمل عناوين فكاهية (٢) ووسط هذه التفسيرات غير العلمية أسيء فهم هذا المصدر ، ولم تجسد الحقائق التاريخية والاقتصادية والاجتماعية التي تضمنها العناية الجديرة بها .

ولذا وجب إعادة النظر إلى هذا المصدر من مصادرنا التاريخية ، وتقويم ما فيه من حقائق وأفكار تقويما علميا ، وهذه الدراسة النصية التي نقدمها ، هدفها الأول التنبيه إلى أهمية هذا الكتاب ، وتصحيح بعض الأفكار الخاطئة التي شاعت عنه، ولذا فإنها اعتمدت أساساً على نصوص من الكتاب نفسه ، حتى لا ندع مجالا للاسراف غير العلمي في الحديث عن هذا المصدر .

---

(١) كتب عنه كل من ، محمد عبد الغني حسن في كتابه « الفلاح في الأدب العربي » العدد ١٢٨ المكتبة الثقافية ، ١٥ مارس سنة ١٩٦٥ ، وحسن محسب في كتابه « قضية الفلاح في القصة المصرية » العدد ٢٥٦ المكتبة الثقافية ، ١٥ يناير سنة ١٩٧١ ، عبد الجليل حسن، في مجلة الكاتب أغسطس ١٩٦٤ ، العدد ٤١ ، ومقالة جيد وفيه بعض الأنصاف للكتاب .

(٢) طبع الكتاب في مطبعة بولاق مرتين $\frac{١٢٧٤ هـ}{١٨٥٧ م}$ ، $\frac{١٣٠٨ هـ}{١٨٩٠ م}$ ، ثم طبع بالمطبعة السعدية $\frac{١٢٨٩ هـ}{١٨٧٢ م}$ وطبع بالمطبعة المحمودية بمصر بدون تاريخ تحت عنوان:

نكت وفكاهة وأدب المعروف بهز القحوف كما ورد في نهاية طبعة المطبعة السعدية « طبع هذا الكتاب المنظوم في سلك كتب الفاكهة بين الأصحاب » وصدر له تنقيح تحت اسم «قريتنا المصرية قبل الثورة» سنة ١٩٦٣ ، إعداد محمد قنديل البقلي وكتب عنه أحمد أمين في كتابه «قاموس العادات والتقاليد» وتوجد من هز القحوف نسخ عديدة بدار الكتب تحت أرقام ٢٧٦١ إلى ٢٧٦٤ ، ٤٣٣٥ ، ٣٠٨٦ ، ٥٠٨٤ أدب كما توجد منه نسخه مخطوطه بالمكتبة التيمورية (أدب ٧٨٣) وهذه النسخة مختلفة عن النسخ المطبوعة لأنها تبدأ بالجزء الثاني الخاص بشرح القصيدة ووجود الكتاب تحت فن أدب دليل على عدم التنبه لأهميته التاريخية .

والمنهج الذى اتبع فى هذه الدراسة هو :

أولا : التعريف بناظم القصيدة التى قام عليها الكتاب ، والظروف التى دفعته إلى الإعراب عما كان يدور بخلد أبناء طبقته ، نتيجة للمظالم التى أحاطت بهذه الطبقة .

ثانياً : التعريف بشارح القصيدة ، والظروف التى دعته إلى الأقدام على وضع شرحه هذا .

ثالثاً : دراسة الأفكار التى تضمنها نص القصيدة ، دراسة تاريخية .

رابعاً : دور الشارح فى إيضاح الحقائق التى ذكرها الناظم فى قصيدته، وتصويره للوضع الاقتصادى والاجتماعى للريف المصرى ، فى الفترة التى عاصرها

خامساً : وضع تقويم للكتاب كمصدر تاريخى ، اقتصادى ، اجتماعى وأهميته لدراسة هذه الفروع .

وعند معالجة النقطة الأولى من هذه الدراسة ، والخاصة بناظم القصيدة ، فإن ذلك يتطلب أولا ، معالجة الظروف التى دفعت به إلى عمله هذا والتى كانت سبباً فى تخليد اسمه مهما اختلف حول حقيقته .

ويجب أن نشير إلى أن القصيدة موضوع هذا الكتاب — كما يفهم من نصها لم توضع إلا بعد أن استقر نظام الالتزام فى العصر العثمانى ، وأصبح هو الأسلوب الأمثل الذى ارتضته الحكومة لإدارة الأرض ، وإحكام العلاقة بين الفلاحين والإدارة عن طريق الملتزمين كوسطاء بينها وبين أهل الريف ، إذ أن العثمانيين ، لم يتخذوا من هذا النظام — بصورته التى عرف بها منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر أسلوبا لإدارة الأرض ، التى أديرت منذ بداية الحكم العثمانى وإلى سنة ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م بنظام القاطعات ، أو ما كان يسمى بالأمانات لكل منها مفتش ليشرف ويحدد الضرائب على الأرض القابلة للزراعة ، وحمل كل من هؤلاء المفتشين لقب «أمين» أو «افندى» وكان قانون نامه مصر سنة ٩٣١هـ/١٥٢٤م قد أقر هذا النظام ، ولكن هذا النظام لم يكن فى حقيقة الأمر هو النظام الأمثل لإدارة الأرض لأنه حمل فى طياته عوامل فشله ، فعجز المفتشين المختصين ، وعدم أحكامهم الرقابة على

مناطق مقاطعاتهم ، واتباعهم أساليب غير مشروعة لزيادة متحصلاتهم وتعيينهم وكلاء لهم تعسفوا فى معاملتهم للفلاحين ، أثبتت هذه الأمور جميعها عدم إمكانية إدارة الأرض بهذا الاسلوب (١) .

وفى سنة ١٠٣٥هـ/ ١٦٤٣م اعاد مقصود باشا تنظيم المالية المصرية وانشأ ديوان الروزنامجة لأحكام الرقابة على أموال الخزانة ، وطور نظام الأمانات ، ولكن تطور الأحداث أثبت للادارة أنه لابد من بديل لنظام الأمانات يحكم قبضتها فى جباية الأموال الأميرية من الفلاحين ، فاهتدت إلى نظام الالتزام الذى يحمل أول دفتر منظم له بديوان الروزنامة سنة ١٠٦٩ هـ/١٦٥٨ م (٢) .

وإذا كان نظام الالتزام بما وضع له من قواعد وأسس محددة ومضبوطة ، أصبح وسيلة ناجحة لإدارة الأرض ، وضمن للادارة جباية الأموال المقررة بمختلف أنواعها ، إلا أن هذا النجاح كان لأمد غير طويل ، فسرعان ما أعلن هذا النظام إفلاسه وكثرت عمليات إسقاط الالتزامات (أى التنازل عنها) بصورة مزعجة ، فاضطرت الروزنامة إلى إنشاء سجلات خاصة بعمليات الإسقاط ، تسمى «سجلات إسقاط القرى » ويحمل السجل الأول منها تاريخ سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م(٣) ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت فئة التجار تدخل ميدان الالتزام وتضارب بالأرض ساعدها على ذلك رأس المال الضخم الذى توفر لدى فئة منها ، وخير مثال لذلك محمد الداده الشرايبى ،

---

١ ـ مجلة المجلة، العدد ١٥٨ فبراير سنة ١٩٧٠ « العلاقات بين القاهرة واستانبول أثناء الحكم العثمانى لمصر من القرن ١٦ حتى القرن ١٨ » بقلم روبير مونتران ترجمة ، زهير الشايب .

Stanford J. Shaw, The Financial and Administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517 – 1798. PP 19 – 26.

٢ ـ دار المحفوظات العمومية بالقلعة ، دفتر /١ التزام ، مخزن (١) تركى .

٣ ـ توجد هذه السجلات بأرشيف المحكمة الشرعية بالشهر العقارى وعددها ٤٩ سجلا ، من الحجم المتوسط .

وابنه قاسم من بعده ، الذى أسجل « سجلات إسقاط القرى » فى كل صفحة من صفحاتها شراءه التزامات عديدة من الامراء المماليك وبعض أفراد الأوجاقات ، وتماليكهم وبذلك أصبح نظام الالتزام مشكلة تهدد الإدارة ذاتها ، بالإضافة إلى إرهاقه كاهل أهل الريف ، وكان لابد من إيجاد نظام بديل له ، ولكن الأحداث التى مرت بها مصر منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر لم تمكن الإدارة — التى انتابها الضعف — من البحث عن نظام بديل ، وجاء ذلك على يد محمد على فى سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م بإحلاله نظام الإحتكار محل نظام الالتزام. وتجدر الإشارة إلى أن مشاركة عدد كبير من أدوات الإدارة كأعوان الملتزم مثل الشد ، الصراف أو المباشر ، الشاهد ، شيخ البلد ، الكاشف ، الخولى ، فى الإشراف على الأرض وجباية الأموال المقررة عليها أرهق الفلاح المصرى ، وزاد من أعبائه ، فلكل من هؤلاء الموظفين حقوق وعادات ، لابد للفلاح أن يؤديها فى مواعيدها المحددة . وإلا لحقه العذاب حتى أصبح لسانه يلهج دائما بعبارات « مال السلطان» و « عادات الكشاف » و « نزلة الصراف »و« المونة »و« الوجبة » وغير ذلك من العبارات التى تدل على الخوف الذى أصبح يسيطر عليه ، وسوء الحال الذى حل به ، والظلم الذى لحقه(*) .

(*) من الطريف أن نذكر مثالا واحداً ، للعادات التى كانت تقدمها القرى لأجهزة الإدارة ففى سجل الترابيع رقم ١٩٠٥ المحفوظ بدار المحفوظات الخاص بولاية الشرقية سجل المال الخصاص بكل عادة من العادات المقررة على قرية منية عامر كالآتى :
=

وكان لابد من صوت يعلو معبراً عن الظلم والحرمان اللذين حلا بطبقة الفلاحين وقد كان ، فعلا صوت الشاعر الشعبي المجهول ، الذي اشتهر باسم « أبو شادوف » ، تعبيراً عن كونه من أبناء هذه الطبقة ، لطول ملازمة الفلاح لهذه الآلة التي كانت تستعمل في ري الأراضي .

ويجب أن نقرر أن « أبا شادوف » ليس شاعراً معروف النسب والنشأة ، وقد حاول الشيخ يوسف الشربيني شارح قصيدة أبي شادوف أن يثبت نسبه ويذكر شيئاً عن نشأته فذكر في هذا الصدد روايتين ، أردفهما بشعر على لسان أبي شادوف ولكننا نشك في نسبة هذا الشعر إلى الشاعر الشعبي « أبي شادوف » بل أن هذا الشعر أمام الدراسة المقارنة يصبح وثيقة هامة تثبت أن « أبا شادوف » ليس شاعراً معروفاً بعينه ، وأنه صوت مجهول عبر عن حال الفلاح ، والشعر الذي ذكره الشيخ الشربيني على لسان أبي شادوف :

= بارة	
٢٠٠٠	ثمن حصان تقدمة
٢٠٠٠	عادة قائمقام
٣٠٠	عادة الخازندار
١٠٠٠	ثمن أغنام الضيافة
١٠٢٠	ثمن أغنام الهبة
١٠٠٠	ركبات مقررة
٣٠٦٠٠	ثمن سمن معتاد
٣٢٤٠	عادة الملتزم
٤١١٦٠	جمله مبلغ العوائد المقررة على قرية منية عامر بولايه الشرقية .

وقد سجلت دفاتر الترابيع العادات المقررة على القرى قرية قرية .

أنا ياناس فى قـــولى دلايل	ونظمى حق ماهوش هبايل
أبو شادوف أنا قال لى أبـويه	عليـــه وجدتى أم نايـــل
بـأنى قـــد تربيت ياجماعة	بكفر يعرفوه ناس أوايـــل
يسمى كـفر شبرلى وطاطى	فكن صاحب فهامة يافسافل
وذا قولى وأبو شادوف اسمى	وشعرى حق من جانى بسايل(١)

وإذا تلمسنا الدليل لأثبات عدم نسبة هذا الشعر إلى الصوت الذى نظم القصيدة موضوع الكتاب وجدناه فى لفظة . هبايل فهذه الكلمة لاترد فى قصيدة أبى شادوف وإنما وردت مرات عديدة ومكررة فى كل صفحة من صفحات الشرح ، وخاصة فى الجزء الأول من الكتاب ، الذى وضعه الشيخ الشربينى كمقدمة للشرح الذى خصص له الجزء الثانى ، فهو يذكر دائماً «هبايل» «هباليات» «هبالية» ، ولذا فإننا لا نستبعد أن يكون هذا الشعر ، من وضع الشيخ يوسف الشربينى نفسه لاستقامته مع أسلوبه الشعرى والنثرى ، وعدم استقامته مع صياغة قصيدة الشاعر الشعبى أبى شادوف .

ودليل ثان على عدم نسبة هذا الشعر لأبى شادوف ، وأثبات أنه شاعر مجهول نجده واضحاً فى الشطرة الثانية من البيت الأخير «وشعرى حـق من جانى بسايل» فإذا كان الشاعر معروفاً ويجيب على من يسأله عن شعره بأنه حق ، فلماذا اختلاف الروايات التى ذكرها الشيخ الشربينى حول نسبه ومــكان نشأته ؟ . إلا إذا كان الشاعر مجهولا ، وأن هذه الابيات اقحمت عليه .

دليـــل ثالث ، أن الشيـــخ يوسف الشربينى يقدم لــكلامه فى روايتيه اللتين ذكرها عن نسب ونشأة الشاعر الشعبى أبى شادوف بقوله «وسمعت» «وقيل لى»

١ــ هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ، ج٢ ، ص٩٠ ، جميع الصفحات التى ستذكر فى هذا البحث ، صفحات طبعة للطبعة المحمودية ، وسنشير إلى الكتاب بعد ذلك باختصار « هز » .

« وأقول » ونفينا نسبة الشعر السابق إلى « أبي شادوف » ينسحب على الشعر الذى ذكره الشيخ الشربينى على لسان « أبي شادوف » عن مكانته فى كفر شمرلى وطاطى والذى يقول فيه :

أبو شادوف عمــرى يا سلامة   أقول القول وأنا صاحب فهـامة

ولولا أن أبويه فى ترابـــو   أنا فى الـكفر شيخ بلا ملامة(١)

فإذا سلمنا بنسبة هذا الشعر إلى الشاعر الشعبي « أبي شادوف » فيجب علينا أن نسلم بوجود كفر باسم « شمرلى وطاطى » وبوجود «تل فندرك» الذى انتقل إليه الشاعر بعد وفاة والده على حد تعبير نص الشاعر المنسوب إليه ، ولـكن هذه الأسماء لا تجد الدليـل الجغرافى الذى يقف بجانبها ، فإن المصادر التى دونت أسماء كفور وتلال مصر ، المندرس منها والمستحدث ، لاتذكر إسمى « كفر شمرلى وطاطى » « وتل فندرك »(٢) .

ونستخلص مما سبق أن « أبا شادوف » شاعر شعبي مجهول ، علا صوته معبراً عما انتاب الفلاح المصرى من ظلم ، وما حل به من حرمان ، وأصبح هذا الصوت مصدر إزعاج لـكثير من أصحاب النقمة والسلطان ، وخاصة بعـد أن أصبحت قصيدته ، ينشدها كثير من أهل القاهرة ، فلجأ هؤلاء إلى أصحاب اليراع لوضع شرح عليها يقلل من قيمتها ، ويحط من شأن ناظمها ومن شأن أبناء طبقته من أهل

---

١ ـ هز ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

٢ ـ رجعنا إلى القاموس الجغرافى لمحمد رمزى ، والدليل الجغرافى الذى أصدرته مصلحة المساحة ، وبعض الأطالس القديمة ولم نعثر على أسماء هذه البلاد ، كما أن دفتر الجسور رقم ١٣٦٥ المحفوظ بدار المحفوظات الذى سجلت فيه جميع القرى وحدودها لم يسجل لا إسم كفر شمرلى وطاطى ولا إسم تل فندرك .

٣ ـ هز ، ج ٢ ، ص ١٣٠ .

الريف ، وكان هذا العمل من حظ الشيخ يوسف الشربينى . فمن هو هذا الشيخ ؟ ومن الذى كلفه القيام بهذا العمل ؟ وما الظروف التى دفعته إلى قبول هذا التكليف ؟ وهل حقق هدف مكلفيه ؟ .

* * *

الشيخ الشربينى هو يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى نسبة إلى بلدة شربين ، التى كانت أنذاك من أعمال ولاية الغربية فقد ذكر « اتفق لى أننى كنت فى سفينة مسافراً من بلدى شربين لمصر ..»(١)، تعلم بالأزهر وعلم به وعمل بالوعظ وكما يبدو من كتاباته أنه كان على صلة بأصوله الريفية ، رغم أن والده لم يكن يعمل بالفلاحة على حد تعبيره ، وهو يحرص دائماً على ذكر اتصاله بالريف بقوله «اتفق لى أن رأيت وحكى لى بعضهم ..» يقصد أهل الريف « وشاهدنا ذلك » وغير تلك العبارات التى تدل على كثرة تردده على الريف ، وكثرة تطوافه بصفة خاصة بريف الدلتا ، ما بين دمياط والقاهرة ، كما اتيحت له فرصة السفر عن طريق الوادى أثناء ذهابه لتأدية فريضة الحج سنة ١٠٧٤ هـ - ١٦٦٤ م ، وفى اتصاله بالريف هذا - كما يتضح من كتاباته نفى لقول بعض الكتاب بأن « نشأة الشيخ يوسف كانت فى القاهرة ، وأن هذه النشأة القاهرية أقامت بينه وبين الريف سداً، وغطت بصره ، فلم ير للفلاحين فضيلة واحدة ، ولم يذكرهم بمحمدة ، وإنما أطال لسانه فيهم بما كان أقرب إلى التجنى منه إلى التحدى»(٢).

---

(١) هز ، جـ ٢ ، ص ١٠٠

(٢) محمد عبد الغنى حسن ، الفلاح فى الأدب العربى ، المكتبة الثقافية ، العدد «١٢٨» ، ص ١٤١ .

وأصل ما ألجأنى لهـــذه	وشرحـه ونسخه ونقلـه
العارف الحبر وحيد الدهر	وعالم الإسلام زاكى الفخر
شيخ إمام مصدر الطلاب	وروضـة العلوم والآداب
ومعدن الجود مع المطلوب	وأعنى الإمام أحمد السندوبى
جزاه رب العرش جنات النعيم	مع النظر لوجه مولانا الكريم
والله يرحم من قرأ كتابى	هـذا ، ورشده إلى الصواب
ومن رأى فيه عيوبا وخلل	وسدها فالشخص معدن الذلل
ولا تلمنى فالسماح أفضـــل	واعذر أخاك مكرها يابطل(١)

ولكن لماذا عزف الشيخ أحمد السندوبى(٢) نفسه عن شرح القصيدة ؟ ولماذا لجأ إلى الشيخ يوسف الشربينى بالذات ؟

ربما كان عزوف الشيخ أحمد السندوبى عن شرح القصيدة بنفسه راجع إلى ما عرف عنه من مقاومة الظلم ، والقصيدة تعبر عن مشاعر طبقة مظلومة تشكو بؤسها وحرمانها وتعرضه لذلك سوف يقوده إلى مزالق قد تخشى عواقبها .

---

(١) هز ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤

(٢) ذكر على مبارك فى الخطط ، جـ ١٢ ، ص ٥٧ عن الشيخ أحمد السندوبى « بأنه أحمد بن على السندوبى الشافعى المصرى ، كان من أعيان المدرسين بالأزهر ، ومن أكابر الأفاضل ذا عبارات فصيحة ، تصدر للاقراء فى ضروب من الفنون . . وحج مرات وتوفى بمصر سنة ١٠٩٧ هـ ، ١٦٨٥ م . وعمره ثمان وستون سنة رحمه الله تعالى .

وذكره الجبرتى فى الجزء الأول من كتابه عجائب الآثار ، مرات عديدة تحت اسم « الشهاب أحمد » .

ثانياً ـ مداراة أصحاب السلطان :

ذكر الشيخ يوسف أنه أقبل على هـذا العمل مداراة منه لأصحاب السلطان « فالشخص يكون مع زمانه بحسب حاله ، يدارى وقته بما يناسب لأحواله ويكون حـذرا من دهره وصولته ، ويرقص القرد فى دولته ، ويعاشر الناس على قدر أحوالهم ، ويدور معهم ، وينسج على منوالهم ، ويندرج فى مدارج خلاعاتهم، ويظهر فى مظاهر براعاتهم كما قال بعضهم :

ودارهم مادمت فى دارهم وحيهم مادامت فى حيهم
وأحسن العشرة مع بعضهم يمينك البعـض على كلهم »(١)

وقد كان الشيخ يوسف دقيقاً فى كتابته ، فهو يذكر سبب كل خطوة اتبعها ، فهو مدرك لمزاج عصره ، الذى اصبح لا يميل إلى سماع الفكر الجاد ، نظرا للهموم التى كبلت هـذا المزاج ، وشلت حركته الفكرية ، ولذا علل سبب تسميته الكتاب بالإسم الذى حمله بقوله « وقد سميت هذا الشرح هز القحوف بشرح قصيدة أبى شادوف، وأطلب من القريحة الفاسدة ، والفكرة الكاسدة الإعانة على كلام أعرفه من بنات الأفكار واسطره من فشار ، وأن يكون من بحر الخرافات ، والأمور الهباليات، والخلاعة والمجون . . فقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة ، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة لأن النفوس الآن مشوقة إلى شىء يسليها من الهموم، ويزيل عنها وارد الغموم :

فنى مذهبى أن الخلاعة راحة تسلى هموم الشخص عند انقباضه »(٢)

ويمكن أن نستنتج من هذا النص ، إعتراف الشيخ يوسف بأن حكاياته الهبالية

---

(١) هز ، ج ١ ، ص ٤
(٢) هز ، ج ١ ، ص ٣

وخرافاته التى وزعها فى كثير من صفحات الكتاب ، كانت باعترافه من بحر الخرافات والمجون ومن نسج خياله لإدراكه الواعى بالظلم الواقع على أهل عصره حتى أصبحت النفوس على حد تعبيره « مشوقة إلى شيء يسليها من الهموم ، ويزيل عنها وارد الغموم » ثم أقبل على وضع الجزء الأول من كتابة قائلا « وللشرع الآن فيما وعدنا ، وما زمرنا به ، ورقصنا،والشخص يغلب عليه علمه وفنه، والزامر لا يخفى ذقنه »(١) .

وسنعرض الآن لدراسة هذا الجزء ، وما جاء فيه لنتبين إلى أى مدى حقق الشيخ يوسف هدفه فى تحقيق رغبات من يهمهم مثل هذا العمل .

* * *

الجـــزء الأول :

هذا الجزء تأليف خالص ، وضعه الشيخ يوسف الشربينى ليمهد به للشرح الذى خصص له الجزء الثانى حسب تقسيمه للكتاب ، وهـذا الجزء فى غالبه نسيـج من الحكايات الهزلية تحدث فيها عن أسماء أهل الريف ، رجالا ونساء ، والعادات السائدة بينهم والجهل المطبق عليهم ، وسوء اخلاق أهل الريف ـ كما يرى ـ حقيقة أن معظم هذه الحكايات ، إن لم تكن كلها مشحونة بالتشنيع والافتراء على أهل الريف، لكن لو أدركنا أن الشيخ الشربينى وضع هذه الحكايات الملفقة معللا ذلك بقوله ، «حتى يشتهر شرح هذا القصيد من دمياط إلى الصعيد ، وأرجو الا يخلو منه إقليم ولا بلد من بلاد العبيد »(٢) .

كما ذكر مثل هذا القول فى مقدمة أرجوزته التى ختم بها هذا الجزء من الكتاب قائلا« وبعد انى ناظم أرجوزة لطيفة ،مفيدة وجيزة ، تخبر عن حال ذوى الرزالة

(١) هز ، ج١ ، ص ٥

(٢) نفسه ، ج١ ، ص٢

كذا عوام الريف، لا محالة ، فخذ هـداك الله، ما أقـول فى نظمها، وعنه لاتحول»(١).

ولكن يجب ألا ينسينا مثل هذا القول، أن الشيخ يوسف، كان حريصاً دائما على أن يذكر بعض العبارات، التى يشعر القارىء أن فيها تصويراً لحال الفلاح السيئة والظلم الواقع عليه مثل عبارة «مال السلطان» التى كان يكررها على لسان الفلاح فى معظم حكاياته وكأنها سوط يقرع الفلاح وينهاه عن فعل أى شىء لنفسه قبل أن يسدد مال السلطان.

على أى حال فإن الشيخ يوسف، وضع أهل الريف فى هذا الجزء فى إطار يرضى فى ظاهره أصحاب السلطان، ويشبع رغبتهم، بتصوير أهل الريف فى صورة سيئة تأبى العين النظر إليها، ولكن فى ذات الوقت فإن التفصيلات الداخلية لهذه الصورة تحتوى بما لايدع شكا، تصويراً كاملا للظلم الذى حل بهذه الطبقة والاهمال الذى أصابها نتيجة للرقابة السيئة التى أصبحت تحكم العلاقة بين أفراد هذه الطبقة من جهة وأجهزة الإدارة من جهة أخرى ويكفى أن يرسم الشيخ يوسف الصورة التالية لسوء أخلاق أهل الريف ليرضى بها ظاهريا أولى الشأن فهو يقول «أما سوء اخلاقهم، وقلة لطافتهم فمن كثرة معاشرتهم للبهائم والأبقار، وملازمتهم لشيل الطين والسفار، وعدم اكتراثهم بأهل اللطافة، وامتزاجهم بأهل الكثافة كأنهم خلقوا من طينة البهائم .: وأيضا عندهم قلة الوفا، وعدم الانس والصفا، لايؤدون القرض، ولا يعرفون السنة من الفرض، ان عاملتهم أكلوك، وأن نصحتهم أبغضوك وإن ألمت لهم الشرع رفضوك، وأن ألنت لهم الجانب مقتوك، العالم عندهم حقير والظالم عندهم كبير أمورهم معاند، وليس عندهم فوائد، عندهم قابض المال أعز من العم والخال، سود الوجوه، إذا رأوا معروفا انكروه كما قال الشاعر فى المعنى:

---

(١) نفسه، ج١، ص ٨٣

أهل الفلاحة لاتكرمهم أبداً   فإن إكرامهم فى عقبه ندم
يبدو الصياح بلا ضرب ولا ألم   سود الوجوه إذا لم يظلموا ظلموا»(١)

ولكنه بجانب هذه الصورة فإنه يذكر كثيرا فى ثنايا حكاياته ، بعض مظاهر القسوة التى يرتكبها رجال الإدارة مع الفلاحين ، وهجر هؤلاء لقراهم ومزارعهم خوفا من العقاب ، فالإبن يفر هاربا إذا انكسر مال السلطان على أبيه ، وإلا أخذ رهينة حتى يفاق أبوه ماعليه من مال فعبارات « مال السلطان » و « المعونة » . «الوجبة» «نزلة الصراف» «مجىء الديوان» «نزلة الكشاف» لاتذكر فى هذا الجزء إلا ويشعر القارىء بمدى الرهبة التى كانت تسيطر على الفلاح عند سماعه إحداها . فحاول واحدة منها معناه طلب المال والعوائد من الفلاح رغم سوء حاله الاقتصادية التى أصبح يعيشها . ومن هنا كان الصراع بين طبقة الفلاحين من جهة ، وأجهزة الإدارة من جهة أخرى ، ولكن الغلبة كانت للفريق الأقوى ، وهروب الفريق الأضعف ، فهو صراع غير متكافىء على أى حال . أيضا فإن الشيخ يوسف فى هذا الجزء ، حرص كل الحرص ، أن يذكر دائما عبارة « عوام أهل الريف » فيقول

---

١ — هز ، ج ١ ص ٥ — ٦

للجبرتى وصف شبيه بهذا الوصف فقد «قال وقد سلط الله على هؤلاء الفلاحين بسوء أفعالهم ، وعدم ديانتهم وخيانتهم واضرارهم لبعضهم البعض من لايرحمهم ولا يعفو عنهم كما قال فيهم البدر الحجازى :

وسبعة بالفلح قد أنزلت   لما حووه من قبيح الفعال
شيوخهم ، استاذهم والشد   والقتل فيما بينهم والقتال
مع النصارى ، كاشف الناحية   وزد عليها كدهم فى اشتغال
ونقرهم ما بين عينيهم   مع أسوداد الوجه هذا النكال

عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٠٨ .

« وقال لى بعض عوام أهل الريف » ، « واتفق لبعض عوام أهل الريف » والتعريض دائما فى هذا الجزء موجه إلى عوام أهل الريف دون غيرهم ، وربما أراد الشيخ بذلك أن يخرج من أهل الريف العرب والمماليك وغيرهم من أجهزة الإدارة الذين استلزم عملهم إقامتهم بالريف ، على أى حال فإن التعريض فى هذا الجزء ارتبط بعوام أهل الريف ، ولعله قصد بهم العاملين بالفلاحة فعلا .

وختم الشيخ يوسف الجزء الأول من كتابه ، بارجوزة طويلة سرد فيها جميع الأفكار الرئيسية التى وردت فى حكاياته من سوء أخلاق عوام أهل الريف ، وبذاءة أسمائهم والجهل والفقر اللذين حلا بهم ، والطرق الصوفية وسيطرتها على عقولهم وتأثيرها على حياتهم ، ثم سفه شعرهم ، وربما لأنه أدرك أنه مقبل على شرح قصيدة من هذا الشعر ولذا قال :

ناظمهم إن قال يوما شعرا	فشعر يشبه طعم المفرا
سماعـــه إذا بدا رزية	لـكن له ما بينهم مزية(١)

ويجب أن نشير إلى أن الشيخ يوسف ، رغم كل ذلك ، قد التمس العذر لنفسه فالذى جعله يقبل على عمله هذا سمة العصر — على حد تعبيره — فهى التى دعته إلى مثل هذا التلون فى الأسلوب فذكر « فالسلامة فى مداراة الناس ، وحسن الانطباع معهم بلطف الإيناس وأن يكون الشخص متنقلا فى أطوارهم دائراً فى فلك أدوارهم كما صرحت بذلك فى بعض الأبيات .

فطورا ترانى عالمـا ومـــدرسا	وطورا ترانى فاسقا فلفوســـا
وطورا ترانى فى الزامر عاكفا	وطورا ترانى سيـــدا ورئيسا
مظاهر أنس إن تحققت سرها	تريك بدورا أقبلت وشموسا »(٢)

---

(١) هز ، جـ ١ ، ص ٨٧ (٢) نفسه ، جـ ١ ، ص ٥

وهكذا نرى أن الشيخ يوسف كان دائما يلتمس لنفســه العذر ، لكل مايقدم عليه ، وربما لأنه أدرك أن إقدامه على مثل هذا العمل سوف يجر عليه غضب ونقد الـكثيرين .

* * *

الجزء الثانى .

عندما بدأ الشيخ يوسف الشربينى فى الجزء الثانى الخاص بشرح القصيدة الشعبية فإنه اعترف فى بداية هذا الجزء بأنه أطلق « عنان اليراع لبيان تلك الأمور الحاصلة لحل معانى نظم القصيدة(١) ويجب أن نتنبه لمغزى معنى عبارته « لبيان تلك الأمور الحاصلة » فإنه من خلال هــذه الـكلمات أعطى لنفسه حق ذكر وإيضاح الأعباء الظالمة التى كان يشكو منها الفلاح .

والدارس يستطيع أن يميز بسهولة فى القصيدة ثلاثة أقسام ، كل قسم منها تناول موضوعا قائما بذاته ، وسنعرض لـكل منها على حدة ، نذكر نص الأبيات التى تشكل القسم ، ثم نتاولها بدراسة شرح الشيخ الشربينى لها ، وقد تناول القسم الأول (*)

---

(١) هز ج ٢ ، ص ٩٠ .

(*) أبيات القصيدة موزعة على صفحات الجزء الثانى كلـه ، حيث أن الشيخ الشربينى يذكر البيت من النص ويضع أمامـه حرف (ص) يقصد النص ثم شرحه بوضع حرف (ش) أمام كلامه ويقصد الشرح وقد قمت بتجميع نص القصيــدة من صفحات الجزء الثانى وكتبت أبيات كل قسم على حدة ، حسب التقسيم الذى وضعته لموضوعاتها .

١ ـ القسم الأول من القصيدة وموضوعه :

شكوى الفلاح من ظلم الملتزمين وأعوانهم من أجهزة الإدارة والأبيات التى تصور هذا الجانب من حياة الفلاح .

١ ـ يقول أبو شادوف من عظم ماشكى	من القمل جسمه مايضال نحيف
٢ ـ أنا القمل والصيبان فى طوق جبتى	شبه النخالة يجرفوه جريف
٣ ـ ولا ضرنى إلا ابن عمى عجيلة	يوم تجى الوجبة علىّ يحيف
٤ ـ وأيشم منه ابن أخوه خنافر	يقرط على بيضى يخليه ليف
٥ ـ ومن نزلة الكشاف شابت عوارضى	وصار لقلبى لوعة ورجيف
٦ ـ ويوم يجى الديوان تبطل مفاصلى	وأهر على روحى من التخويف
٧ ـ وأهرب حدا النسوان والتف بالعبا	ويبقى ضراطى شبه طبل عنيف
٨ ـ ويادوب عمرى فى الخراج وهمه	تقضى ولا لى فى الحصاد سيف
٩ ـ ويوم تجىء الدونة على الناس فى البلد	تخبينى فى الفرن أم وطيف

واضح من هذه الأبيات شكوى الشاعر الشعبى الذى يعبر عن إحساس بنى طبقته من الظلم الواقع عليهم من أجهزة الإدارة التى يتعاملون معها ، وقسوة هذه الأدوات العثمانية ـ المملوكية ، ـ فى جمعها للأموال ، واتباعها طرقا غير مشروعة ، وهذا مالم يستطع الشارح أن ينكره ؛ بل أكده كمعاصر ، وشرح هذه المظالم التى كانت سائدة فى عصره بإيضاح ، مما يجعل لمعلوماته أهمية كبيرة ، ترقى إلى مصادر الدرجة الأولى لدراسة تاريخ مصر فى تلك الفترة ، والأدلة على ذلك كثيرة فى الشرح نكتفى بذكر البعض منها ، فمثلا عندما يتعرض لشرح البيت الثالث الخاص بشكوى الفلاح من الوجبة يذكر « بمجرد طلوع الشد أو الملتزم أو النصرانى إلى الكفر ، أو البلد ، فتوزع على الفلاحين بحسب ما يخصهم فى الأرض من القراريط والفدن ،

ونحو ذلك ، فمنهم من يكون عليه فى الشهر يوم ، ومنهم من يفعلها فى كل جمعة(*) مرة ، ومنهم من يجعلها فى كل ثلاثة أيام ، وهكذا بحسب كثرة الفلاحين وقلتهم ، وحسب زيادة الأرض ونقصها فلابد منها فى كل يوم مدة الإقامة ، فيقوم الرجل بكلفة الشد أو النصرانى إن كان حاضرا ، وجميع من يكون من طائفة الملتزم ويلتزم بأكلهم وشربهم ، وجميع مايحتاجون إليه من عليق دوابهم وما يتمنونه من المأكل من اللحم والدجاج ، ولو كان فقيرا الزموه بذلك قهرا عليه ، وإلا حبسه الشد وضربه ضربا موجعا ، وربما هرب من قلة شىء يصنعه ، فيرسل الشد إلى أولاده وزوجته ويهددهم ، ويطلب منهم ذلك ، فربما رهنت المرأة شيئا من مصاغها أو ملبوسها على دراهم ، وأخذت الدجاج أو اللحم وأطعمتهم وأحرمت أولادها من الأكل منه خوفا على نفسها من أنه لايكفيهم مثلا ، وقد يربى الفلاح الدجاج فلايأكل منه شيئا ويحرم نفسه وعياله من خوفه من الضرب والحبس . . . وصارت (الوجبة) على الفلاحين حكم الأمر الواجب عليهم للملتزمين ، فلا بد من فعلها للشد بالقرية أو النصرانى أو الملتزم ، إذا حضر كما تقدم بيانه ، وإذا أسقطها بعض الملتزمين ، جعل فى مقابلتها شيئاً معلوما من الدراهم وأضافة إلى المال ويلزمهم بدفعه إلى الشد بالقرية ، تؤخذ منهم كل عام فهى من أنواع الظلم» (١) .

وفى رأينا أنه لايوجد أبلغ وأوقع فى النفس من هذا الوصف التصويرى الذى

(*) يقصد كل أسبوع .

(١) هز ، جـ ٢ ، ص ١١٥ .

سبق أن بينا من واقع سجلات الترابيع كيف كانت تقدر العادات بأموال تضاف إلى المال الميرى ، كما أن سجلات الالتزام سجلت ذلك أيضا .

أثبته الشيخ يوسف الشربينى لهذا النوع من الظلم الذى فرض على أهل الريف، وواضح أنه أصاب الهدف بتصويره هذا النوع من المظالم فى أسلوب واضح دقيق لا يحتاج معه إلى دليل آخر . وأنه إذا كان قد قسى على الفلاح فى ظاهر الكثير من ألفاظه إلا أن ذلك لم ينسه تسجيل المظالم التى وقعت عليه من أصحاب السلطان .

وكان منصفاً حقاً عندما ذكر أن بعض الملتزمين كان يتعفف عن الوجبة بالكلية وتحدث عن غرامة البطالين واستخدام الفلاحين بدون أجر قائلا « فكل ما كان فيه اضرار للناس فهو حرام » ، ويبين لنا بوضوح «أن الأمير أو غيره إذا التزم بقرية وجد فى دفاتر من التزم بها قبله الوجبة وغرامة البطالين ، وغير ذلك مما هو من أنواع الظلم ، فيجعل ذلك على أهلها حكم الحوادث * السابقة كما جرت به العادة »(١) والحقيقة أن الشيخ يوسف الشربينى فى شرحه هذا لايقل درجة عن ما اثبتته الوثائق فقد سجلت دفاتر الالتزام المحفوظة بدار المحفوظات العمومية بالقلعة بالقاهرة ، العادات المقررة على الفلاحين للملتزمين والكشاف وغيرهم .

وكذلك أوضح فى شرحه لنزلة الكشاف على القرى ، مدى الخراب الذى كان يلحق بعض القرى نتيجة لتصرفاتهم ، وكيف أن الفلاحين « يسرعون له فى الاكل والشرب والتقاديم على ماجرت به العادة » (٢) .

أما وقت مجى «الديوان» ، أى حلول ميعاد سداد مال الديوان « فيكثر الخوف والحبس والضرب لمن لايقدر على غلاق المال ، فمن الفلاحين من يقترض الدراهم بزيادة ، أو يأخذ على زرعه إلى أوان طلوعه بناقص عن بيعه فى ذلك الزمن ، أو

---

(١) هز ، جـ ٢ ، ص ١١٥ .
* الرسوم والضرائب المستحدثة
(٢) هز ، جـ ٢ ، ص ١٢٢ .

يبيع بهيمته التى تحاسب على عياله ، أو يأخذ مصاغ زوجته يرهنه ، أو يتصرف فيه بالبيع ولو قهرا عليها ، ويدفع الثمن للنصرانى ، أو لمن هـو متولى قبض المـال وإن لم يجد شيئا ، ولايرى من يعطيه ، وخشى الملتزم أو المشد من خرابه (*) من البلد أخذ ولده رهينة عنه ، حتى يغلق المال ، أو يأخذ أخاه ، أن لم يكن له ولد أو أحد من أقاربه ، أو يوضع فى الحبس للضرب والعقوبة حتى تنفذ فيه أحكام الله تعالى ، ومنهم من ينجو بنفسه فيهرب تحت ليله فلا يعود إلى بلده قط ، ويترك أهله ووطنه من هم المال وضيق المعيشة . . . حتى إشتهر وعم مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم» ثم يذكر «فنزول الديوان فى البلد على كل حال ، أمر مهول على الفلاحين ، ومصيبة على القلبين . . . فلابد على كل حال من تغليق المـال ، ولو حصل من ذلك الهم والنكال»(١) وهكذا نرى أن الشيخ الشربينى لم يستطع، ازاء شكوى الشاعر الشعبى سوى ذكر الحقائق، ووضعها بالصورة التى كانت تطبق بها فى وقته حتى أصبحت معلوماته ذات أهمية تاريخية كبيرة ، أضف إلى ذلك أن الشيخ الشربينى سجل لنا حقائق على قدر كبير من الأهمية ، فهو يذكر أن قابض المـال لم يكن فى كل الاحوال نصرانيا ، كما هو شائع ويفهم ذلك من قوله ويدفع الثمن للنصرانى ، أو لمن هو متولى قبض المـال .

ثم يواصل الشيخ رسم الصورة التى شكى منها الشاعر الشعبى ، ويزيدها إيضاحا عندما يعرض لشكواه من قضاء عمـره فى الهم من أجل الخراج ، عاقدا لنا مقارنة تاريخية جميلة بين المغارم التى أصبحت تحل بالفلاحين فى عصره نتيجـة للعوائد

---

* ــ يقصد هروبه من البلد .

١ ــ هز ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، ١٢٨

وكثرتها وبين الصورة اليسيرة التى كانت تسير عليها الأمور في العصر السابق لعصره وبين لنا كيف أن « الأرض لايقوم بزرعها إلا الفلاح القوى التيسر ، خصوصا لما زاد عليها الآن من المظالم ، وزيادة الخراج والعوائد المكتتبة على الفلاحين والمغارم فالزرع وإن ورد أن فيه تسعة أعشار البركة لايفى بهذا المقدار من كثرة الظلم ، وأما فى الزمن المتقدم فلم يكن عليه عوائد ، ولا كلف ولا مغارم ولا شىء مما هو موجود الآن بل كان الشخص يزرع الأرض ، وكان خراجها شيئا يسيراً ، ولايعرف وجبة ولا غرامة ولا شيئاً من ذلك قط » ويعقب بقوله «وكانت البركة حاصلة بزيادة والأرض كلها عامرة بالزرع والناس فى غاية الخير وسعة الرزق والكسب»(١) .

لاريب فى أن هذه المعلومات التى سجلها الشيخ الشربينى كمعاصر لوقت حدوثها بأمانة ودقة ، مع ربطها بالصورة التى كانت سائدة قبل عصره ، وهذا النهج يعطى لشرح الشيخ الشربينى الصفة العلمية الموضوعية .

وعندما يعرض للعونة وخوف الفلاح منها وخشيتها ، فإنه يشرحها بصورة واضحة يستطيع الدارس أن يجد فى شرحه كل مايبتغيه عن ماهيتها ووقتها والقرى التى تشملها وإقرارها ، وعدم شرعيتها فهى « أوان حفر السواقى وضم الزرع ، وحفر القنى ، مما يحتاج إليه فى هذا المعنى » والعونة (السخرة) إنما تكون فى بلاد الملتزمين التى فيها الاوسية ، وهو أن غالب الملتزمين إذا أخذ قرية ، أو كفرا من كفور الريف يزرع فيها ، أوفى الكفر جانباً من الأرض ، والبقية يعطيها الفلاحين بخراج معلوم ، ويسمى هذا الجانب الذى يزرعه زرع الأوسية فيرسل ثيراناً وأخشابا ومحاريث وما يحتاج إليه ، ويجعل له على ذلك وكيلا وغلاماً معداً لأخشابه وبهائمه ، ويقال لها دار الأوسية ، ويوكل من يصرف على البهائم وغيرها » بحساب وضبط ،

---

(١) هز ، ج٢ ، ص ١٤١ .

فإذا احتاج الأمر لشيل الطين من الآبار ، ولحفر القنى أو ضم الزرع ، أمر الشد بالقرية أو الكفر رجلا يقال له النذير فينادى العونة يافلاحين ، العونة يابطالين ، فيخرجون عند صبيحة النهار جميعهم ، ويسرحون للحفر ، أو لكل مايأمرهم به كل يوم ، من غير أجرة ، إلا أن يفرغ الحفر والضم ، وكل من تراخى أو تكاسل عن السروح ، أخذه الشد وعاقبه وغرمه دراهم معلومة ، وبعض البلاد تكون العونة فيها على رجال معروفين بالبيوت مثلا (*) ، فيقولون يخرج من بيت فلان شخص واحد ومن بيت فلان شخصان بحسب ماتقدر عليهم قديماً وحديثا ، فلاينفك من عليه العونة منها ، وإن مات جعلوها على ولده ، وهكذا ، فهى داهية كبرى على الفلاحين ومصيبة عظمى على البطالين ولله الحمد أراح الله قريتنا منها ، إنما هى قراريط معلومة على الفلاحين لايعرف الملتزم إلا خراجها يأخذه فى كل سنة على التمام والكمال ، وإن كان عليهم بعض العوائد ، ومظالم فليست كبلاد الأوسية ، لأنهم دائما فى تعب وكدر وغرامة وسخر وهم زائد »(١) .

وهكذا أوضح الشيخ الشربينى بما لايدع مجالا للشك مدى الظلم الذى كان يحيق بالفلاحين نتيجة للعونة وغيرها من العوائد ، بل أكد أن العونة من أشد أنواع المظالم التى حلت بالفلاح آنذاك ، وبذلك نستطيع أن نقرر أن الشيخ يوسف الشربينى فى شرحه لهذا القسم من قصيدة الشاعر الشعبى أبى شادوف وضع أمامنا الحقائق التالية .

(*) يقصد بالبيوت العائلات .

(١) هز ، ج ٢ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

ذكر الجبرتى عن العونة « وكان من طرائقهم أنه إذا آن وقت الحصاد والتخضير طلب الملتزم أو قائم مقامه الفلاحين فينادى عليهم النفير أمس اليوم المطلوبين فى صبيحه بالتبكير إلى شغل الملتزم ، فمن تخلف لعذر أحضره الغفير أو الشد وسحبه من

أولا . أن الفلاح كان يعانى الكثير من المظالم التى حلت به نتيجة لتطبيق نظام الالتزام عليه وادارة الأرض الزراعية عن طريقه .

ثانيا : استغلال الملتزمين واعوانهم من أجهزة الادارة ، لسلطاتهم ، وانباعهم طرقا غير مشروعة فى معاملاتهم الفلاحين ، وفرضهم كثيرا من العوائد التى أصبحت ترهق كاهل هذه الطبقة .

ثالثا : تقاعس السلطة المركزية فى القاهرة ، عن ردع هذه الاذوات وتركها فى ممارسة تعسفها مع الفلاحين ، دون تدخل من جانبها ، فيه دليل إدانة لها وبرهان على ضعفها .

وأخيرا يمكننا أن نقرر باطمئنان ، أن الشيخ الشربينى ، اذا كان قد الصق كثيرا من الصفات البذيئة بالفلاحين ، إلا أنه فى هذا الجزء من كتابه كان جريئا حقا عند توضيحه للمظالم التى حلت بالفلاحين ، ونقده للاوضاع السائدة ، وعدم تردده فى ذكر أنها ظلم وحرام وغير ذلك كما سبقت الإشارة ، ولذا يمكننا أن نذكر أنه اذا كان فى الكتاب جانب اتهام للفلاح — وربما كانت له دواعيه . فإن فيه أيضا جانب إنصاف .

* * *

٢ — القسم الثانى من القصيدة وموضوعه :

الأطعمة التى تمناها الشاعر الشعبى أبو شادوف ، تعبيرا عن حاجة ابناء طبقته اليها : رغم فقر هذه الأطعمة ، إلا أن تمنى الشاعر الشعبى بحرمانه منها ، يوضح لنا الى أى مدى ساء حال الفلاح حتى اصبحت نفسه تهفو الى هـذه الاطعمة ، وذلك نتيجة للمظالم التى سبقت الاشارة اليها والتى أرهقت كاهله أما الابيات فهى :

= شنيه واشيمه سبا وشتما وضربا ، وهو المسمى عندهم بالمونة والسخرة ، واعتادوا ذلك بل يرونه من اللازم الواجب » عجائب الآثار جـ٤ ص٢٠٧ وفى رأينا أن وصف الشيخ الشربينى أكثر إيضاحا وتصويرا وعمقا عما ذكره الجبرتى .

١٠ـولا هدنى من بعد هاد ، وهاده — سوى الكشك(*) لما يستحق غريف

١١ـولا شاقنى الا المدمس وريحتو — علا من جتو جفنه بنص رغيف

١٢ـعلامن رأى البيسار فى الجرن جالوا — ويدعس (**) ولو كان بالقلنج ضعيف

١٣ـعلى من قشع جفنه بليلة ملانـه — ولو كانت بلا قلقاس يادنديف

١٤ـعلى من جتو قصعه وهو بيحسرت — ويقعد يجرف الحنك تجريف

١٥ـعلى من دعس بالعزم فى المش بالبصل — ولو كان بالسكرات كان ضريف

١٦ـعلى من شرب مترد ملان مطنير — من اللبن الحامض يرف رفيف

١٧ـعلى من جتوا أم الحساول لدارو — ويعزم على أهل البلد ويضيف

١٨ـأنا إن شفت عندى، يوم طاجن مشكشك — فهداك يوم البسط والتقصيف

١٩ـمتى أنضر الخبز فى الدار عندنا — واندف منها بالعويش نديف

٢٠ـمتى أنضر الفول المشوى بقرننا — ولفو يقشروا والمزوق لفيف

٢١ـمتى أنضر أن طحن الطحين وجيتو — ويطلط لى منه فطير رهيف

٢٢ـأيا مطيب الجلبان والعدس إذا اشوى — وشرش بصل حولو ونيت رغيف

٢٣ـياحسن أالخبز القمر على الندى(***) — فوقو من السرسوب حلب نضيف

٢٤ـعلى من ملا قحفو جبينه طريه — وراح ورا الجاموس يرعى النيف

٢٥ـعلى من قشع لقانة أمو ملانه — من الحيطلية اللى لها ترصيف

٢٦ـوأقعد لها بالعزم فى رايق الضحى — واسحب لها مصبوبة أم وطيف

(*) نوع من الطعام لازال يستعمل فى الارياف .

(**) أى يأكل بشراهة حتى يملأ بطنه .

(***) يقصد فى الصباح المبكر وقت أن يكون الندى على النباتات .

٢٧- ألا يا ترى إشحال اللبن بعد غاوه ولو كان بالخبز السـخين رديف

٢٨- ألا يا ترى إشحال مفروكة اللبن على زلطها قلبي يرف رفيف

٢٩- أنا إن شفت لقانة ابن عمي عخيمر ملانة من التقتيت ماو طفيف

٣٠- قشرته جميعه ما تركت بقيته لنيرى ولا عنـدي بدا توقيف

٣١- أناخاطري أكلت فسيخ على النده أضـال عليها باكيا وأسيف

٣٢- على من نضرفي فرن دارو طواجن زغاليل من برج بن أبو شعنيف

٣٣- وفطر فطاير من طحين ابن عمه ويقعد لها قعدة غلام خسيف

٣٤- على من نضر طاجن سمك في فرينه ولو كان يا إخواني بلا تنضيف

٣٥- على من رأى في التل كرش ملقح ومن فوقه الدبان يعف عفيف

٣٦- دنا إن شفته خدتو بحالو سلقتو وكلتو بتلفوا ما أرى تقنيف(*)

ولم يزد عمل الشيخ الشربيني عند شرحه لهذا القسم رغم طوله ، عن وصف هذه الأطعمة وأن الفلاح حرم منها ، نتيجة للمظالم المادية التي حلت به ، ونظر لنشأة الشيخ الريفية ، وتردده على كثير من القرى، والتقائه بكثير من أهل الريف، فإنه أجاد في شرحه لصناعة هذه الأطعمة ، في كل من الريف والمدينة ، وأكد أن صناعة هذه المأكولات أحسن وأكثر إتقانا في المدينة عنها في الريف، كما ذكر بعض الحكايات المتعلقة بتسمية هذه الأطعمة ، وبعض فوائدها في علاج بعض الأمراض، وزمن ظهور بعضها،وفي زمن من الخلفاءوالسلاطين ظهرهذا الصنف أو ذاك ، وسجل بعض الأشعار والمواويل التي تغنى بها أهـل الريف عن هذه الأطعمة .

. . .

(*) وضع الشيخ الشربيني في شرحه وصفا واضحا لجميع هذه الأطعمة والأواني التي تستعمل في صناعتها .

٣ ـــ القسم الثالث من القصيدة وموضوعه :

تمنى الشاعر الشعبي زيارة المدينة وتحقيق بعض أمنياته فيها وأكل بعض الأطعمة التي حرم منها :

٣٧ـ أنا إن عشت لاروح المدينة وأشبع   كروش ولو أني أموت كفيف
٣٨ـ وآخذ من غزل العجوز وأبيعو   وآكل بحقو يا ابن بنت عريف
٣٩ـ وأسرق من الجامع زرابين عدة   وآكل بها من شهوتي في الريف
٤٠ـ وأشبع من الترمس وآكل مقيلي   وألفوا بقشرو ما أرى توقيف
٤١ـ وآخذ لي لبـــدة وكرمشنير   وأتزل كما كلب ابن أبو جفنيف
٤٢ـ ويجلس بجنبي ابن جرو وكل خره   وابن كل الصلك النضيف وضيف
٤٣ـ وأبن فسا النيران وابن خرا الحسه   وقاوط الزبـــلة وابن كنيف
٤٤ـ واختم قصيدى بالصلاة على النبي   نبي عربي مكي شريف عفيف

• • •

وواضح من هذا القسم أن الشاعر الشعبي عبر عما يعانيه أبناء طبقته من الحرمان والفاقة ، فدارت بخاطره أمنيات ، تمنى أن يحققها بذهابه إلى المدينة ، لعله يتمكن من إشباع نهمه بالمأكولات التي حرم منها ، حتى ولو كلفه ذلك ، ارتـكاب جريمة السرقة فترجم بذلك عن ذات نفسه ونفس أبناء طبقته بشعره هذا .

• • •

من العرض السابق لجزئي كـتاب هز القحوف ، يتضح لنا أن الـكتاب على جانب كبير من الأهمية لدراسة تاريخ مصر في العصر العثماني لأمور عدة :

(*) يقصد ثمنه .

أولا : إن القضية الأولى والهامة التى يثيرها الكتاب ، وتشكل عموده الفقرى هى قضية الفلاح وحاله فى العصر العثمانى المملوكى ، فإذا كان بطل الكتاب الأول الشاعر الشعبى أبو شادوف ، قد نظم قصيدته ، مبيناً لنا سوء الحال التى عانى منها الفلاح ، والظلم الذى وقع عليه فى ذلك العصر ، فإن الانصاف يستدعى أن نذكر أن الشيخ يوسف الشربينى ، قد أضاف بشرحه للقصيدة الأمور إيضاحا ، كما ظهر لنا من النصوص التى ذكرناها ، وأوضح بأسلوبه أن هذه من أمور الظلم التى حلت بالفلاح فى ذلك العصر .

ثانياً : أوضح الكتاب فى جزئه الأول ، مـــدى سيطرة الطرق الصوفية على سكان الريف وترك لنا بصمات تدل على أنه إذا كان قد وقع على الفلاح مكرها ، ظلم الإدارة نتيجة للأعباء التى أصبح يئن منها ، فإنه عن طواعية واختيار أضاف عبء العادات التى كان يتطلبها وقوعه تحت سلطان الطرق الصوفية وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

ثالثاً : يعد الكتاب مرجعاً وافياً لدراسة العادات والتقاليد الريفية والحضرية التى كانت سائدة فى مصر فى القرن السابع عشر الميلادى ، والتى مازال بعضهـــا حياً فى كثير من قرانا ومدننا ، ولذا فإن الكتاب يصبح مصدراً وثائقياً هاماً لدراسة المجتمع المصرى فى تلك الفترة،بل والفترة السابقة لأن الشارح كثير الاستطراد فى أسلوبه ، فكثيرا مايتتبع نشأة هذه المادة أو غيرها عن طريق سرد الكثير من القصص والحكايات .

رابعاً : فى الكتاب جانب طبى هام حيث أن الشيخ الشربينى فى أثناء شرحه

يسرد كثيراً من الحكايات عن فوائد بعض الأطعمة الطبيعية ، والأغراض التى تستعمل فيها ، وكيف يستعملها الفلاحون ، ورغم أن الكتاب يعد موسوعة فى هذه الفروع ، ورغم استطراد الشربينى من موضوع إلى موضوع والخروج من حكاية إلى حكاية ، فإن كل هذه الأمور لا تحجب عن العين القضية الأولى والهامة التى يعالجها الكتاب وهى قضية الفلاح . فالكتاب مصدر جدير بالاهتمام .

* * *

نقد الكتب

عرض كتاب

الخليج العربى — دراسة لتاريخ الإمارات العربية : ١٩١٤ — ١٩٤٥

تأليف : الدكتور جمال زكريا قاسم

(دار الفكر العربى بالقاهرة — ١٩٧٢ : ٥٧٦ صفحة)

بقلم

مصطفى عبد القادر النجار

مدرس التاريخ الحديث

بكلية الآداب — جامعه البصرة بالعراق

لاشك أن هذا الكتاب أول محاولة لكتابة التاريخ العام للخليج العربى فى أدق مراحله المعاصرة يتصدى لها باحث عربى متخصص . وهو بهذا يمكن أن يعد من بين الكتب النادرة المتفوقة التى سدت فراغاً ملحاً فى المكتبة العربية ، والتى هى فى حاجة لمثل تلك الدراسات الموضوعية الجادة .

يؤرخ الكتاب بوعى وعمق وشمول للحياة السياسية فى الخليج العربى فى الفترة ما بين (١٩١٤ — ١٩٤٥) وهى فترة لم يتصد لها أحد قبل الدكتور جمال زكريا قاسم فى بحثها رغم خطورتها والتطورات السريعة التى شهدتها المنطقة . ولقد كان صدور الكتاب حاجة ملحة يعيش فراغها القارىء العربى إلى أن تصدى المؤلف لكتابتها بأسلوب علمى مستند إلى الوثائق وأحدث المراجع والدوريات .

والكتاب يبدو لأول وهلة رسالة علمية أكاديمية نهج فيها المؤلف الأسلوب

التحليلي المنهجي . فقد برع المؤلف في عرض المادة ودراسة الظواهر واستنتاج الآراء مما يجعل للكتاب أهمية خاصة .

ولاشك أن الفترة التي اختارها المؤلف لكتابة تشكل فترة انتقالية حاسمة في تطور أقطار الخليج العربي . وعلى الرغم من أنها استمرار للتاريخ العام لتلك الأقطار إلا أنه كان لها آثار بعيدة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لافي منطقة الخليج العربي وحدها بل في منطقة الشرق الأوسط بشكل عام مما أدى إلى إحداث تغير سريع وشامل في بنيان هذه الأقطار بحيث أضحى لابد من دراسته على أسس رصينة .

لقد ظل تاريخ الخليج العربي إلى فترة متأخرة حكراً على الباحثين الأجانب الذين ظلوا يؤرخون لأحداثه من خلال مؤثراته الخارجية ومدى فهمهم لطبيعة ظروف المنطقة . فجاءت معظم كتاباتهم منحازة تمثل بعض جوانب الصورة لا الصورة كاملة . وكان لابد للباحثين العرب من ولوج الميدان الذي ظل يشكو عزلتهم . فهم أقدر على كتابة ذلك التاريخ وأخلص له وأحق به .

والواقع إن الدكتور جمال زكريا قاسم كان من الرواد الأوائل الذين جربوا حظهم في كتابة تاريخ الخليج العربي . فترك لنا دراسات عديدة عن تاريخه منذ بداية العصور الحديثة وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية . وأهم تلك المؤلفات : كتاب دولة بو سعيد في عمان وشرق أفريقيا ١٧٤١ — ١٨٦١ (القاهرة — ١٩٦٨) وكتاب الخليج العربي — ١٨٤٠ — ١٩١٤ (القاهرة — ١٩٦٦) والكتاب الذي نتطرق لنقده الآن جزء متمم له ، وكتاب مختارات من وثائق الكويت والخليج العربي المحفوظة في دور السجلات البريطانية (الكويت — ١٩٧٢) . هذا إلى جانب العديد من المقالات والبحوث التي نشرت في الحوليات العربية المختلفة .

والدراسة التى نتصدى لنقدها تقع فى ثلاثة أبواب تناول الباب الأول منها الكويت وعلاقتها بالقوى المجاورة ، وحدد الباحث تلك القوى بالعراق والمملكة العربية السعودية اللذين يتاخمان الكويت . أما الباب الثانى فشمل على دراسة البحرين وقطر ومشيخات الساحل العمانى . واقتصر الباب الثالث على سلطنة مسقط وإمامة عمان . وجعل خاتمة البحث دراسة لنفط الخليج .

وعليه فإن المؤلف قسم موضوعات كتابه تقسيما مكانياً ، ولم يشأ تقسيمها حسب الموضوعات أو التسلسل الزمنى . وعلى الرغم من أن التقسيم المكانى له مبرراته فى البحث وهو لا يتعارض مع المنهج العلمى الموضوعى إلا أنه من وجهة نظر القومية العربية يلاقى معارضة ولاسيما فى أرض كأرض الخليج العربى التى لم تعرف الكيانات السياسية المستقلة حتى وقت متأخر جداً .

وتاريخ المنطقة بشكل عام فى فترة ما بين الحربين التى يؤرخ لها الدكتور جمال لا يمكن الفصل بينها لخضوع حركة التاريخ فى المنطقة لمؤثرات داخلية وخارجية متشابهة . وإن الفصل بينها معناه تأكيد شخصية تلك الكيانات والعمل على خلق تاريخ متميز لها ، فى وقت أنها عاشت ضمن خط سياسى واقتصادى واجتماعى واحد ، وإن كانت هناك فروقاً بين إمارة وأخرى فهى فروق نسبية بسيطة . وعليه فإن عرضنا الكتاب سيكون على أساس الموضوعات التى تضمنها لا الأقطار موضوعة البحث .

وحتى بالنسبة لأقطار الخليج العربى فإن المؤلف لم يؤكد على تاريخ عربستان والساحل الشرقى للخليج العربى . وإنما اقتصر اهتمامه على الساحل العربى فقط . وكنت أرغب لو أن الباحث أولاها أهمية خاصة .

وأهم الملاحظات التى تسترعى الانتباه فى الكتاب أن البحث لم يقتصر على

الناحية السياسية التي درج معظم المؤرخون على التأكيد عليها وإنما تعداه إلى الناحية الاقتصادية التي أثرت تأثيراً كبيراً في تغيير مجتمع الخليج العربي من مجتمع قبلي متخلف إلى مجتمع عصري متطور . فزج بذلك بين السياسة والاقتصاد . وكم رغبت أن يكمل الباحث الناحية الاجتماعية لتكمل لنا جميع جوانب الخليج العربي ولكن يبدو أن المؤلف تركها للباحثين الاجتماعيين لإيفائها حقها .

تعرض الكتاب لمناقشة مشكلات الحدود بين أقطار الخليج العربي التي برزت بشكل خاص بعد الحرب العالمية الأولى نتيجة التنقيب عن حقول النفط . فأدت المنافسة حول منح امتيازات النفط إلى صراع حاد دائم لتحديد الحدود في منطقة لم تعرفها من قبل . وكان من الصعوبة تخطيط الحدود على نسق ما تعمله الدول المتقدمة في أرض عشائرية لم يعرف أهلها الاستقرار . ومن هنا نشأت أعقد المشكلات بين إمارات الخليج العربي . ومما زاد في تعقيدها منح امتيازات النفط في أراض متقاربة لشركات مختلفة . فانعكس ذلك الخلاف على الإمارات — مالكة الامتياز — ولم يكن هناك دليل مادي على إثبات حق ملكية الأراضي لم تعرف التحديد من قبل ، فاتجه حكام المنطقة للأخذ بالاعتبارات القبلية ومناطق سكنى العشائر وتنقلاتها وولاءاتها لتقرير الحدود .

وفي الكتاب عرض لمشكلات الحدود الكويتية مع سلطنة نجد — المملكة العربية السعودية بعدئذ — وقرر مؤلفه أن تخطيطها كان على حساب إمارة الكويت. فقد أعطى مؤتمر العقير الذي عقد سنة ١٩٢٢ ابن سعود ثلثي الكويت وحرمها من الأرض التي سبق أن قررت لها بموجب الخط الأخضر الذي حددته الاتفاقية البريطانية العثمانية لسنة ١٩١٣ . وأن السير برسي كوكس الذي حدد تلك الحدود قد أقدم على ذلك ترضية لابن سعود بعد أن اقتطع الكثير من أراضيه وضمها إلى العراق . وكان ابن سعود يطالب بالوصول إلى نهر الفرات كحد فاصل بينه وبين الدولة العراقية . وعليه فقد اعتبر المؤلف اتفاقية العقير « مجحفة إجحافاً بالغاً بحقوق الكويت » .

وبالنسبة للحدود العراقية ـ الكويتية فقد لمح إليها المؤلف لمحة سريعة وموجزة جداً . وكنا نأمل منه تفصيلا وافياً كما هو الحال بالنسبة للحدود الكويتية النجدية وركز المؤلف بدلا من مشكلات الحـــدود بين الجارتين العربيتين على الازمات الاقتصادية بينها .

والواقع أن الحدود العراقية الكويتية حددت من جانب الكويت سنة ١٩٢٣ في رسائل متبادلة بين المندوب السامى البريطانى وشيخ الكويت . ومن جانب العراق سنة ١٩٣٢ عند دخوله عصبة الأمم فى رسائل متبادلة أيضا بين نورى السعيد والمسؤولين البريطانيين فى المنطقة . ولكن بقى أمر تثبيتها معلقا ولم يشأ العراق بعدئذ الدخول فى مفاوضات من أجل ذلك عدا المحاولة التى بذلها وزير الخارجية العراقى على جودت الأيوبى سنة ١٩٣٩ — بعد مصرع الملك غازى — حيث اقترح تشكيل لجنة عراقية ـ كويتية لتنفيذ رسم وتثبيت الحدود . ويبدو أن المؤلف قد اختلط عليه الأمر فظن أن محاولة سنة ١٩٣٩ لتثبيت الحدود هى «مباحثات استهدفت إعادة تخطيط الحـدود » . والواقع أن المباحثات استهدفت وضع الاساس التى تؤلف بموجبها لجنة تثبيت الحدود والنظام الداخلى الذى تسير عليه ، والصلاحيات التى يمكن أن تخول لها . وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يتوصل إلى نتيجة حاسمة للامر . وظلت الحدود العراقية ـ الكويتية غير مثبتة حتى الآن .

وأما بالنسبة للحدود السياسية لإمارات الخليج العربى فلقد أولاها المؤلف اهتماماً خاصا . وهى فى الواقع أكثر تعقيداً من الحدود الشمالية لأقطار الخليج العربى التى عرضنا لها . وإن كانت هناك وحدات متميزة فى القسم الشمالى من الخليج

العربى إلا أنه فى القسم الجنوبى لم تظهر تلك الوحدات بشكل متميز بحيث يمكن تحديد أراضيها ، وإنما عاشت المنطقة كلها على أساس قبلى تحت الحماية البريطانية ولم يفكر فى تحديد كياناتها إلا عندما ظهر التنافس كبيراً بين شركات النفط البريطانية والأمريكية .

وعليه أكد المؤلف بأن مشكلات الحدود تلك « لم تكن فى حقيقة الأمر إلا صراعاً بين الشركات المتنافسة التى تؤيدها الدول التابعة لها من أجل الحصول على أكبر امتيازات للنفط فى المناطق المتنازع عليها » وقد تمسكت بريطانيا بالخط الأزرق الذى حددته اتفاقية سنه ١٩١٣ واعتبرته أساساً لتحديد الحدود بين الإمارات العربية على الساحل العمانى وبين المملكة العربية السعودية . ولكن الحكومة السعودية لم تبد ارتياحا لتمسك الحكومة البريطانية بهذا الخط . وقد رفضه ممثلها فؤاد حمزة . واقترح خطاً جديداً أشار إلى أنه « يمثل الحد الأدنى لمطالب ابن سعود . وأن الحكومة السعودية لم تعتمد المبدأ الواسع الذى يمثل علاقاتها مع قبائل الصحراء الذين أعلنوا ولاءهم للملك . وإنما اكتفت بذكر الحدود الطبيعية » . وقد شمل خلاف المملكة العربية السعودية بشأن الحدود كل من قطـــر وأبى ظبى ودبى ومسقط .

وإلى جانب اهتمام المؤلف بمشكلات الحدود تناول الأزمات الداخلية والخارجية لأقطار الخليج العربى فى فترة ما بين الحربين . ويذهب المؤلف إلى أن بريطانيا استغلت تلك الأزمات فأخذت تعمقها لتنفذ من خلالها أهدافها وضمان مصالحها .

وبالنسبة للأزمات التى تعرضت الكويت لها يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، الأولى أزماتها مع نجد، والثانية أزماتها مع العراق ، والثالثة أزماتها الداخلية .

والأزمات النجدية الكويتية حصرها الدكتور جمال بقضيتى الإخوان والحصار الاقتصادى السعودى . واعتبر أن حركة الإخوان انتفاضة وهابية جديدة شهدتها

الجزيرة العربية . وقد استغلها ابن سعود لتوسيع رقعة ممتلكاته . ولم تمنع معاهدة العقير بين الكويت ونجد،الإخوان من شن هجماتهم المستمرة على الكويت . وكان اشتباك سنة ١٩٢٨ أبرز تلك الاشتباكات . وحقق فيها الكويتيون انتصاراً عليهم. ومنذ ذلك الحين « تحولت الغارات الإخوانية إلى المقاطعات الجنوبية للعراق » . على أن فيصل الدويش زعيم الإخوان حاول فى الفترة التالية كسب شيخ الكويت إلى جانبه حينما قرر الثورة ضد ابن سعود . ولكن شيخ الكويت ظل محايداً « وحاول استغلال هـــذه الثورة لاسترداد مقاطعاته التى انتزعت منه خلال مؤتمر العقير » . ومن هنا جاء اتهام ابن سعود لشيخ الكويت « بعدم وفائه للعهود التى قطعها بالوقوف على الحياد » . وكانت الأمور تشير إلى احتمال تقارب بين الكويت ونجد بعد قمع ثورة الإخوان سنة ١٩٣٠ ، وتصفية زعامتهم . إلا أن الأمر كان أعقد من ذلك بسبب الحصار الاقتصادى السعودى . وهو الذى فرضه ابن سعود فى بداية العشرينات فى محاولة لإنماش اقتصاده الوطنى . وازدهار موانئه على الخليج العربى ، ولربط القبائل الجديدة التى استحوذ على أراضيها بموجب معاهدة العقير ببلاده ، وقطع كل صلاتها مع الكويت . كما يقرر المؤلف أن من أهداف الحصار أيضاً « رغبة ابن سعود فى تأكيد نفوذه على الكويت . وبذلك يمكن القول أن الحصار التجارى كان له مغزى اقتصادى وسياسى معاً » .

وكانت بريطانيا « تتغاضى فى كثير من الأحيان عن تلك التدابير الاقتصادية» . ومما زاد من دفع ابن سعود إلى الاستمرار فى تشدده أن طفرت الزيادة فى إيرادات الكمارك إلى عشرة أضعافها . وشهدت الفترة ما بين ١٩٣٠ — ١٩٤٠ مباحثات كويتية سعودية لرفع الحصار . وقد طرحت خلالها إقتراحات عديدة من الجانب السعودى كان نصيبها الرفض جميعاً من قبل شيخ الكويت . وعندئذ برزت دعوى سعودية تطالب « أن يوافق شيخ الكويت بأن تكون إمارته تحت السيادة السعودية » .

وفيما يبدو أن مشكلة خضوع الكويت للسيطرة السعودية كانت موضوعاً شغل بال الحكومة البريطانية . ذلك أنه سيفقدها مركزها الاستراتيجى لحساب شركات النفط الأمريكية . وكان لابد لبريطانيا أن تبذل جهودها لحل الخلافات بين الكويت والسعودية والوصول إلى معاهدات للتسوية . وعندئذ انتقلت المشكلة إلى طور المباحثات بين بريطانيا والسعودية . وانتهت بوضع تسويات نهائية خاصة . ومما شجع على قبولها استفحال الخطر العراقى على الكويت .

والأزمات العراقية الكويتية حددها المؤلف بمشكلتى بساتين النخيل الخاصة بشيوخ الكويت فى البصرة ، ومشكلة التهريب . وعلى الرغم من أن المشكلتين اقتصاديتان إلا أنهما تركا آثارهما الواضحة على العلاقات السياسية بين البلدين .

وتتلخص المشكلة الأولى فى محاولة الدولة العراقية فرض الضرائب على إقطاعيات شيوخ الكويت فى البصرة وصادراتها من التمور ، فى وقت أكد الحاكم الملكى البريطانى إعفاؤها بموجب البلاغ الصادر إلى شيخ الكويت عام ١٩١٤ عندما تقررت الحملة البريطانية لاحتلال العراق .

أما المشكلة الثانية فقد حدثت نتيجة الفارق بين الرسوم الكمركية المقررة على البضائع فى كل من العراق والكويت . ذلك أن العراق اتبع سياسة حماية التجارة . بينما اتبعت الكويت سياسة حرية التجارة . فأخذت البضائع والحالة هذه تهرب من الكويت حيث التعريفة الكمركية المنخفضة إلى العراق الذى كان يفرض تعريفة عالية على نفس البضائع ، ولم تجد اعتراضات العراق على تلك العمليات نفعاً . ذلك أن التهريب أصبح المتنفس الوحيد إلى الكويت بعد فرض الحصار التجارى السعودى عليها . ولما كان المجتمع الكويتى مجتمعاً تجارياً لايعرف مهنة أخرى . لذا فقد أصر شيخ الكويت والتجار على ممارسة تلك العمليات . ولم تحاول بريطانيا أن تضع حداً لها .

ويبدو إن سعة المادة التى تجمعت لدى المؤلف جعلته يقع فى بعض الإرباكات فى تسلسل الأحداث التاريخية . فمثلا جعل اقتراح السفير البريطانى فى بغداد الصادر سنة ١٩٣٣ حول عقد اجتماع عراقى كويتى لحل مشكلة التهريب ، اقتراحاً صادراً من وزير الخارجية العراقية سنة ١٩٣٤ .

وإنه أعطى اجتماع مكافحة التهريب المقترح نتائج متوقعة فى وقت أنه لم يعقد على الإطلاق .

ولقد أدت المشاكل الاقتصادية بين العراق والكويت إلى حدوث أزمة عنيفة كانت نتيجتها مطالبة العراق بالكويت بوصفه قضاءعثمانى كانت يتبع ولاية البصرة وقد أقرت اتفاقية سنة ١٩١٣ بين الدولة العثمانية وبريطانيا بذلك . وبهذا فإن الدعوة العراقية استندت أساساً إلى الأسس التاريخية التقليدية ، وهى دعوة رددتها كثير من الدول لإثبات حقها فى أراض معينة .

والثابت أن بريطانيا بمواقفها المترددة واستغلالها المشاكل المعلقة بين العراق والكويت دفعت الطرق دفعاً إلى تلك الدعوة . وقد تبنى الملك غازى الدعوة فى أواخر الثلاثينات وساعدته فى ذلك أزمة الحكم الداخلية فى الكويت . فأخذ يوجه للمعارضة الكويتية التى تمثلت فى المجلس التشريعى من خلال إذاعة قصر الزهور كلماته الحماسية : ويثير فيهم الحافز القومى الذى أخذ يتصاعد فى المنطقة العربية حول ذلك الوقت ، ويضمنها العراق والكويت .

والفاحص لدعوة الملك غازى يجد أنها لم تتعد الأسلوب النظرى . ولم يلاحظ أنه اتخذ خطوات عملية من أجل تنفيذها . كما أنها أعطيت صوراً أكثر من حقيقتها . وعليه فلا نتفق مع المؤلف فى أن إذاعة الملك غازى « تزعمت الحملة ضد الوجود

البريطاني في الخليج العربي » . فالثابت — من خلال مراجعة برامج الإذاعة — أن الإذاعة لم تمس النفوذ البريطاني مساً مباشراً . والعراق نفسه في ذلك كان يدور في فلك بريطانيا .

وقد وفق المؤلف توفيقاً كبيراً في تحليله لأزمة المجلس التشريعي في الكويت . وساط الأضواء على حركة المعارضة الكويتية . ومطالبتها بإصلاح الإدارة والتعليم والصحة .

ولكننا كنا نتمنى أن يقف المؤلف أكثر في تحليله لطبيعة الحركة والنتائج التي تركتها وعرض الآراء المختلفة حولها بغية إعطاء رأى واضح فيها .

وتناول المؤلف ضمن عرضه للأزمات في أقطار الخليج العربي ، الأزمات التي تعرضت لها البحرين . .أكد على أزمة الحكم الداخلية المتمثلة في الانتفاضات الوطنية وأزمة التهديد الخارجية المتمثلة في مطالبة إيران بالبحرين .

وبالنسبة للأولى أشار إلى أن بوادر الحركة الوطنية في البحرين ظهرت منذ عام ١٩١٩ وهي بهذا سبقت أقطار الخليج العربي كافة ، وكانت تطالب بالإصلاح ونجحت في عزل الشيخ عيسى سنة١٩٢٣، وإجبار بريطانيا على إدخال الإصلاحات في الإدارة والمالية والشرطة والتعليم والقضاء . ولكن الإصلاحات تلك أدت — بعكس ما كان يتوقع — إلى تقوية السيطرة البريطانية لا المعارضة الوطنية . ومع ذلك فإن الحركة الوطنية .استعادت نشاطها. وكان سوء الأوضاع الاقتصادية وانخفاض موارد الدخل نتيجة الأزمة الاقتصادية العالمية عاملا مساعدا لها . فكانت حركة الغواصين سنة ١٩٣٢ . والانتفاضة الشعبية سنة ١٩٣٨ . وقد وقفت بريطانيا بحزم تجاه الحركتين ، واستطاعت قمعهما بشدة متناهية .

وإن استطاعت بريطانيا النجاح فى كبح جماح الأزمة الداخلية فإن الأزمة الخارجية مع إيران كانت أكثر تعقيداً لها . وقد حاولت إيران سنة ١٩٢٧ من إسناد دعواها قانونيا فى عصبة الأمم . ولما لم تنجح دخلت مع بريطانيا فى مفاوضات من أجل التسوية . ولكن على الرغم من ذلك لم تبتعد عن تقديم الاحتجاجات المستمرة ضد بريطانيا وبالتالى الولايات المتحدة الأمريكية بسبب الإجراءات الإدارية والعسكرية ومنح امتيازات النفط . ويذهب المؤلف إلى « أن الادعاءات الإيرانية بعد الحرب العالمية الثانية ظهرت فى صيغة قومية عبرت عنها الصحف الإيرانية فى مقالات حماسية .

أما أبرز الأزمات التى تعرضت لها قطر فكانت أزمتها الخارجية مع المملكة العربية السعودية . وقد جاء فى دليل الصالح الخاص بالخليج الذى نشره القسم التاريخى بوزارة الخارجية البريطانية إلى أن سيطرة ابن سعود تمتد على شبه جزيرة قطر كلها . مما أفسح المجال لابن سعود لاستغلال ذلك فى إثبات حقه فى قطر . ولكن بريطانيا قطعت الطريق عليه بتوقيعها مع الشيخ عبد الله إتفاقية خاصة بامتياز النفط . وذكرت بأن ما جاء فى الدليل لا يعبر عن وجهة نظر الخارجية البريطانية . وهى لا تعدو عن كونها معلومات مجردة تقدم للبعثات الدبلوماسية البريطانية .

أما بالنسبة لمشيخات الساحل العمانى فأكد المؤلف على أزمتى الصراعات القبلية فيها والأطماع الإيرانية فى المشيخات وجزرها . وظهر أن الاغتيالات بين الشيوخ الحكام ، والحروب الأهلية ، والإضطرابات ، هو الطابع المميز لذلك الجزء من الخليج العربى فى فترة ما بين الحربين . وقد حاول السعوديون من استغلاله . ولكن بريطانيا كانت قد سبقتهم لذلك .

أما الأطماع الإيرانية فقد تركزت بصفة خاصة على جزر طنب وبو موسى .

وفى سبيل تحقيق تلك الغاية فى الجزر إدعت إيران بحقها فى مسقط ومشيخات الساحل العمانى كأسلوب تخرج منه فى النهاية بضم الجزر إليها . إلا أن بريطانيا وضعت حداً لتلك الاعتبارات ، واتخذت قراراً بتعيين وكيل إنجليزى لها فى دبى وأناطت مسألة الدفاع عن المشيخات إلى القيادة الجوية فى العراق .

وبالنسبة لسلطنة مسقط فإن أهم ما يسترعى الإنتباه هو أزمة الصراع بين السلطنة والإمامة التى تسببت فى خلق أزمة إقتصادية حادة فى البلاد . وحاولت بريطانيا إسناد السلطنة بإمدادها بالمساعدات المادية والعسكرية . وعلى الرغم من تسوية السيب سنة ١٩٢٠ بين السلطنة والإمامة إلا أن بريطانيا ظل تأييدها مطلقا للسلطنة .

وكان جوهر الخلاف بين السلطنة والإمامة هو معارضة الإمامة لنظام السلطنة الذى لا يقوم طبقاً للعقيدة الأباضية التى تحتم إختيار الحاكم بطريقة الانتخاب بينما كان سلاطين مسقط يأخذون بنظام الحكم الوراثى . وقد استطاع المؤلف ببراعة أن يظهر مدى المكر البريطانى فى معاملة السلاطين والأئمة . وفى تحسسه الدقيق لما تستخدمه بريطانيا من أساليب لتنفيذ رغباتها . وخاصة حينما جرت مراسيم عقد معاهدة السيب . ومنذ عقد المعاهدة « ظلت العلاقات هادئة نسبياً بين الإمامة والسلطنة إذ انحصرت الخلافات حول تبعية هذه القبيلة أو تلك للامامة أو السلطنة بالإضافة إلى الضرائب ومشكلات اللاجئين » .

وقد ختم المؤلف دراسته يبحث عن نمط الخليج مشيراً إلى التحولات السياسية والاقتصادية التى شهدتها أقطار الخليج العربى . وإبان الصراع بين الشركات المستقلة والأمريكية مما أدى إلى أن تنقسم منطقة الخليج إلى منطقتى نفوذ بريطانية وأمريكية ، انعكست آثارها على أقطار المنطقة . فنشأت خلافات كثيرة بين الحكام أصبح من الصعب تجاهلها .

ولا أدرى الدافع الذى حدى بالمؤلف أن يجعل من خاتمة كتابه دراسة عن نفط الخليج . وهى دراسة قيمة وموضوعية وتستند إلى الوثائق البريطانية . وكان عليه أن يخصها فى باب رابع من الكتاب لأهميتها فى تكملة ما بدأه من أبواب . بعد أن يوسع موضوع المؤثرات الاقتصادية والسياسية منها بشكل أكثر .

وقبل أن أختتم هذا العرض للكتاب لابد لى أن أشير إلى الملحق الأول من الكتاب الذى يتضمن وثيقة خطيرة جداً ، وربما يكشف الدكتور جمال عنها لأول مرة للدارسين العرب . فلم يسبق أن تم نشرها من قبل . وقد عثر عليها المؤلف من خلال تنقيبه فى دور السجلات العامة بلندن فاسترعى انتباهه . وتكشف الوثيقة إلى أن الأطماع اليهودية كانت قد امتدت إلى البحرين والاحساء لإنشاء دولة يهودية بهما . وقد قدم الاقتراح روتشيلد فى أيلول ١٩١٧ أى قبيل صدور وعد بالفور بوقت قصير جداً . وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية اعتذرت عن تنفيذ المشروع إلا أنه يفصح لنا عن مبلغ خطورة الأطماع اليهودية فى الوطن العربى وتأكيدهم على اختيار أماكن فيه ذات مواقع استراتيجية فى غاية الخطورة . وأنى آمل من المؤلف أن يتوفر على دراسة تلك الوثيقة والتعمق فى أصولها ، بغية تزويد طلاب التاريخ العربى بحقيقة جديدة حرية بالفحص والدرس .

وهكذا نجد المؤلف يرصد لتاريخ الخليج العربى بإدراك واسع . ويكشف حقائق ظلت مجهولة حتى وقت قريب . وهو يعتمد فى بحثه على مجموعة كبيرة من الوثائق البريطانية والمراجع والدوريات العربية والأجنبية مما هيأت له مادة استوحى منها كتاباته الناضجة تلك .

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها المؤلف فى كتابه إلا أنه بشكل عام لا يخلو من مآخذ أرى أن أعرض لبعضها إجمالا .

فهو يعطي السيد طالب النقيب صفة «نقيب الإشراف في البصرة بينما السيد طالب كان يحمل اللقب ولكنه لم يكن نقيباً للاشراف كما تصور المؤلف .

كما أن المؤلف يقرر في صفحة (١٥٥) أن طلب العراق لإيجاد ميناء على الخليج العربي قد جاء على إثر فشل المفاوضات العراقية الإيرانية سنة ١٩٣٨ . ولكن الثابت أنه منذ ١٩٣٧ شهدت العلاقات العراقية الإيرانية تحسناً لم تشهده من قبل ، فتم عقد معاهدة الحدود ، ومعاهدة الصداقة ، ومعاهدة حل الخلاف بالطرق السلمية ، وآخرها الاتفاق الخاص بتنظيم أعمال لجنة تحديد الحدود العراقية الإيرانية في ٨ كانون الأول ١٩٣٨ .

وأخيراً فإن هناك أخطاء مطبعية كان المفروض الانتباه إليها فمثلا استقلال الكويت سنة ١٩٦١ أصبح في صفحة ١٩٨ سنة ١٩٦٢ . وأن زيارة الشيخ أحمد إلى لندن سنة ١٩٢٥ أصبحت في صفحة ١٦٦ سنة ١٩٣٤ . وإن التصريح الإنكليزي الفرنسي الخاص بسلطنة مسقط في صفحة ٣٤٣ أصبح سنة ١٩٦٢ . وإن المعاهدة العراقية البريطانية سنة ١٩٢٧ أصبحت في صفحة ١٤١ سنة ١٩٢٨ وقيام الحكم الملكي في العراق سنة ١٩٢١ في نفس الصفحة السابقة أصبح سنة ١٩٢٢ .

ومما ينبغي ذكره أن المؤلف يتخذ نهاية الحرب العالمية الثانية نهاية لجميع أبحاثه في الكتاب مما يقطع الأحداث على القارىء الذي يكون في شوق لمتابعتها وكان بإمكانه — في الأقل — إعطاء الخطوط العريضة فقط لتلك الوقائع في الفترة التي أعقبت الحرب . وأرجو أن يكون ذلك في دراسة قادمة ولكن هذه الهنات البسيطة لم تقلل من قيمة الكتاب وسيظل مرجعاً رئيسياً للباحثين في تاريخ الخليج العربي بشكل خاص وتاريخ العرب المعاصر بشكل عام . وهو إضافة جديدة بكل ما تحتويه الكلمة من معاني .

(مراجع حديثـة فى تاريخ ليبيا)

(ضمت أخيراً لمكتبة الجمعية)

١ ــ أتليو مورى . (تعريب خليفة محمد التليسى) : الرحالة والكشف الجغرافى فى ليبيا ــ مكتبة الفرجانى طرابلس ١٩٧١

٢ ــ فردريك هورنمان : الرحلة من القاهرة إلى مرزق عاصمة فزان عام ١٧٩٧ (تعريب) ؟ مكتبة الفرجانى طرابلس ١٩٦٨

٣ ــ الطاهر أحمد الزاوى : اعلام ليبيا ــ مؤسسة الفرجانى طرابلس ١٩٧١

٤ ــ جلين تكر : معارك طرابلس بين الأسطول الليبي والأسطول الأمريكى فى القرن التاسع عشر ــ مكتبة الفرجانى طرابلس

٥ ــ على مصطفى المصراتى : ابن حمديس الصقلى ــ دار مكتبة الفكر طرابلس ١٩٧٢

٦ ــ محمد يوسف نجم وإحسان عباس : ليبيا فى كتب الجغرافية والرحالة دار ليبيا للنشر والتوزيع ١٩٦٨

٧ ــ محمود ناجى : تاريخ طرابلس الغرب (ترجمة عبدالسلام أدهم ومحمد الأسطى) مطبوعات الجامعة الليبية كلية الآداب ١٩٧٠

٨ ــ الطاهر أحمد الزاوى : معجم البلدان الليبية ــ مكتبة النور طرابلس

٩ ــ الطاهر أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ــ دار التراث العربى ليبيا

١٠ ــ على مصطفى المصراتى : ابن غلبون مؤرخ ليبيا ــ دار مكتبة الفكر طرابلس ١٩٧٢

١١ ــ مصطفى عبد الله بعيو : المختار فى مراجع تاريخ ليبيا (جزآن) ــ دار الطليعة بيروت ١٩٧٢

١٢ ــ خليفة محمد التليسى . معجم معارك الجهاد فى ليبيا (١٩١١ ــ ١٩٣١) دار الثقافة بيروت ١٩٧٢

انبـاء ومؤتمرات

١ — الموسم الثقافى :

ألقيت فى الموسم الثقافى للجمعية عام ١٩٧٢/١٩٧٣ م المحاضرات الآتية :

١ — الأستاذ فؤاد محمد شبل :

الشخصية المصرية وأثرها السياسى والحضارى

مساء الاثنين ١٩٧٢/١٠/٢٣

٢ — الاستاذ الدكتور محمد جمال الدين مختار :

شمبوليون والكتابة المصرية

مساء الاثنين ١٩٧٢/١١/٢٠

٣ — الاستاذ الدكتور يحي الخشاب :

إلتقاء الحضارتين الفارسية والعربية

مساء الاثنين ١٩٧٢/١٢/٤

٤ — الاستاذ الدكتور أحمد فخرى :

أحدث الاكتشافات الأثرية فى الوادى الجديد .

مساء الاثنين ١٩٧٢/١٢/١٨

٥ — الاستاذة الدكتورة حكمت أبو زيد :

تطور القرية المصرية فى العصر الحديث

مساء الاثنين ١٩٧٣/١/١

٦ — الاستاذ أحمد خاكى :

ولفرد سكاون بلنت والمسألة المصرية

مساء الاثنين ١٩٧٣/٢/١٢

٧ — الأستاذ الدكتور عبد الكريم أحمد :

القومية والاشتراكية

مساء الاثنين ١٩٧٣/٢/٢٦

٨ — الأستاذ الدكتور سيد أحمد الناصرى :

تأملات فى الفكر التاريخى عند الإغريق

مساء الاثنين ١٢/٣/١٩٧٣

٩ — الأستاذ الدكتور مصطفى كمال عبد العليم :

نص حجر رشيد

مساء الاثنين ٢٦/٣/١٩٧٣

١٠ — الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد

أضواء على البراكمة ونكبتهم

مساء الاثنين ٩/٤/١٩٧٢

وستقوم الجمعية بطبع هذه المحاضرات فى كتاب خاص .

٢ — ندوة الاسكندرية :

هذا وقد واصلت الجمعية موسمها الثقافى فأقامت بالاشتراك مع كلية الآداب — جامعة الأسكندرية ندوة علمية فى الفترة من ٢١ — ٢٦ أبريل سنة ١٩٧٣ . وكان موضوعها :

« مجتمع الاسكندرية دراسة تاريخية واجتماعية »

وقد نفذ البرنامج التالى للندوة :

اليوم الأول ٢١/٤/١٩٧٣

— كلمة السيد الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة .

— كلمة السيد الأستاذ الدكتور رئيس الجمعية .

— كلمة السيد الأستاذ الدكتور عميد كلية الآداب .

المحاضرات :

١ — المجتمع الأول للاسكندرية قبل إنشائها .

الدكتور رشيد سالم الناضورى .

اليوم الثانى ١٩٧٣/٤/٢٢

٢ — المجتمع المصرى اليونانى فى الاسكندرية البطلمية .

الدكتور مصطفى عبد الحميد العبادى .

٣ — مجتمع الاسكندرية فى العصر الرومانى

الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى .

٤ — مجتمع الاسكندرية وانتشار المسيحية

للدكتور جوزيف نسيم يوسف .

اليوم الثالث ١٩٧٣/٤/٢٣

٥ — يهود الاسكندرية فى العصر القديم

للدكتور مصطفى كمال عبد العليم .

٦ — تعريب مجتمع الاسكندرية

الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف .

٧ — الأثر المغربى والأندلسى فى مجتمع الاسكندرية

الدكتور سعد زغلول عبد الحميد .

اليوم الرابع ١٩٧٣/٤/٢٤

٨ — الجاليات الأوربية فى الاسكندرية فى العصور الوسطى

للدكتور عمر كمال توفيق .

٩ — مجتمع الاسكندرية فى العصر العثمانى

للدكتور عمر عبد العزيز عمر .

١٠ ـــ المؤثرات الأوربية فى مجتمع الاسكندرية فى العصر الحديث
الدكتور حسن محمد حسين صبحى .

اليوم الخامس ٢٥/٤/١٩٧٣

١١ ـــ مجتمع الاسكندرية والحركة الوطنية
الدكتور محمد محمود السروجى .

١٢ ـــ الحركة الأدبية فى الاسكندرية
الدكتور محمد زكى العشماوى

اليوم السادس ٢٦/٤/١٩٧٣

١٣ ـــ صحافة الاسكندرية
الأستاذ شارل شميل .

١٤ ـــ التغير الاجتماعى فى الاسكندرية المعاصرة
الدكتور محمد عاطف غيث .

١٥ ـــ مجتمع الاسكندرية بين مجتمعات حوض البحر المتوسط
الدكتور أحمد مصطفى أبو زيد .

وستقوم جامعة الاسكندرية بجمع هذه المحاضرات ونشرها .

٣ ـــ مؤتمر بغداد الدولى للتاريخ والآثار :

عقد المؤتمر فى الفترة من ٢٥ ـ ٣٠ مارس سنة ١٩٧٣ وقد نفذ برنامج المؤتمر على النحو الذى أشرنا إليه فى العدد السابق من المجلة وقد اشترك فى المؤتمر من أساتذة التاريخ المصريين :

١ ـ الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبدالكريم رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ممثلا لها .

٢ ـ الأستاذ الدكتور عبد اللطيف بدوى رئيس جامعة الأزهر ، ممثلا لها .

٣ ـ الأستاذ الدكتور محمد أحمد أنيس .

٤ ـ الاستاذة الدكتورة سعاد ماهر .

٥ ـ الاستاذ الدكتور حسن محمود

ممثلين لجامعة القاهرة

٦ ـ الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد .

٧ ـ الاستاذ الدكتور رشيد الناضورى

٨ ـ الاستاذ الدكتور عمر عبد العزيز عمر .

ممثلين لجامعة الاسكندرية

٩ ـ الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

١٠ ـ الأستاذ الدكتور عبد النعيم حسنين

١١ ـ الأستاذ الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف

١٢ ـ الاستاذ الدكتور صلاح العقاد .

١٣ ـ الاستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم .

ممثلين لجامعة عين شمس

١٤ ـ الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

١٥ ـ الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم .

ممثلين لجامعة بيروت العربية

١٦ ـ الأستاذ الدكتور أحمد فكرى الأستاذ بجامعة الجزائر ممثلا لها .

وقد ألقى كل منهم بحثاً كما اشتركوا فى مناقشات اللجان .

كما حضر المؤتمر عدد كبير من أساتذة التاريخ والآثار بالجامعات العربية والأجنبية وقد بذل القائمون على تنظيم المؤتمر وعلى رأسهم الاستاذ الدكتور حسين أمين أستاذ التاريخ بجامعة بغداد ورئيس الجمعية العراقية للتاريخ والآثار ـ جهودا مضنية فى سبيل إنجاح المؤتمر .

وستقوم الجمعية بنشر كتاب تذكارى يضم المحاضرات والبحوث التى ألقيت أو قدمت للمؤتمر .

كما اتفق على العمل على تشجيع إنشاء الجمعيات التاريخية فى سائر البلاد العربية ثم إنشاء اتحاد عام للجمعيات التاريخية العربية .

وفى الجلسة الختامية وافق المؤتمرون على إصدار البيان الآتى :

«بمبادرة من الجمعية العراقية للتاريخ والآثار تم عقد المؤتمر الدولى للتاريخ فى بغداد (٢٥ ـــ ٣٠ آذار (مارس) ١٩٧٣)، وكانت الجمعية تهدف من عقد هذا المؤتمر إلى :

١ ـــ إيجاد صلات وثيقة بين المؤرخين والآثاريين فى الوطن العربى وفى العالم ، وذلك من أجل تبادل وجهات النظر فى المشكلات الأساسية التى تجابه الوطن العربى فى الوقت الراهن ، وتشخيص سماتها وخصائصها وجذورها التاريخية فى محاولة للوصول إلى ما يسهم فى إيجاد حلول إيجابية لمثل هذه المشكلات .

٢ ـــ وقد وجدت اللجنة المنظمة أن من الضرورى طرح موضوعات للبحث ترتبط إرتباطاً عضوياً ببعضها (تحرير فلسطين والحفاظ على عروبة الخليج وإبراز العناصر الإيجابية فى التراث العربى) ، على أساس أن النهضة العربية المتطلبة لاتتأتى إلا بطريقة التجديد والانفتاح على الفكر العالمى ، والأخذ بأساليب وأسباب النهضة العلمية والتكنولوجية المعاصرة مع الحفاظ على العناصر الإيجابية فى تراثنا الحضارى وشخصيتنا المتميزة ، لنكون مبدعين لامقلدين ومسهمين لامتواكلين فى عملية التقدم الإنسانى . ومن أجل الوصول إلى رؤية واعية لهذه الأهداف نظمت الدراسات فى لجان ثلاث هى لجنة فلسطين والخليج العربى ، ولجنة الاستعمار وحركات التحرر الوطنى ، ولجنة التراث العربى . وخصصت محاضرات عامة تناولت هذه المشكلات نفسها .

أولا : لجنة فلسطين والخليج العربى .

١ — فلسطين .

فيما يتعلق بفلسطين أوضحت البحوث والمناقشات الحق العربى التاريخى فى فلسطين ودور العرب الحضارى فى التاريخ القديم والوسيط الذى أكسب البلاد شخصيتها العربية . وهو دور نابع من وحدة تاريخ المنطقة العربية واستمرارها وجرى تركيز على المؤامرات الاستعمارية والصهيونية منذ القرن التاسع عشر التى استهدف إقامة دولة صهيونية فى هذه البقعة العربية وكشف الباحثون عن الارتباط الوثيق بين الصهيونية العنصرية والاستعمار العالمى ، وجرى تأكيد خاص من الباحثين والناقشين على الدور الكبير الذى تقوم به الولايات المتحدة الأميركية فى تبنى أهداف الحركة الصهيونية ودعم الكيان الإسرائيلى .

وأكد المؤتمرون ضرورة وحدة القوى الوطنية فى كل قطر عربى وعلى صعيد الوطن العربى ككل ، وتضامنها مع قوى التقدم والتحرر فى العالم وفى مقدمتها البلدان الاشتراكية وبخاصة الاتحاد السوفييتى وجميع الدول والقوى الصديقة .

٢ — الخليج العربى .

وفيما يتعلق بالخليج العربى أكدت أبحاث المؤتمرين ومناقشاتهم العلمية عروبة الخليج والاحواز تاريخياً ، واستمرار الشخصية العربية فى هذه المنطقة وثباتها . وكشف الأبحاث خطورة التسلل الاستعمارى — الإيرانى فى هذه المنطقة بشرياً وسياسياً واقتصادياً . وقد تجلى ذلك فى أيامنا هذه بعملية الاغتصاب الإيرانى للجزر العربية الثلاث (أبو موسى والطنب الكبرى والطنب الصغرى) . وهذا مايؤلف حلقة فى السلسلة التى يراد بها تطويق العالم العربى بإيجاد مراكز صهيونية استعمارية فى مدخل البحر الأحمر .

أن إقامة جبهة التضامن التي أشرنا إليها وتعميق الوعي لدى الجماهير كفيلان بمجابهة مثل هذه المؤامرات التي تهدد مصير الأمة العربية .

ثانيا : لجنة الاستعمار وحركات التحرر الوطني :

أكد الباحثون أهمية حركات التحرر الوطني وضرورة التلاحم العضوي بين حركة التحرر العربي وحركات التحرر في العالم أجمع . وأكدوا ضرورة فهم الاستعمار الجديد وكشف أساليبه التي تشكل خطراً أساسياً يهدد مصالح الشعوب وامنها وابرزوا تلاحم النضال العربي الكردي المشترك ، وثمنوا بيان آذار التاريخي وأشادوا بالعلاقات التاريخية الوطيدة والمصير الواحد والمصالح المشتركة التي تربط الشعبين الشقيقين العربي والكردي في العراق.

إن إنجاز مهمات التحرر والقضاء على التمزق والتخلف ، وهي سمات بارزة في المجتمع العربي لن تتم إلا بتوفير الوسائل اللازمة لذلك ومنها ، بالإضافة إلى ما أشرنا إليه أعطاء الجماهير حقها في التعبير عن إرادتها ، وتحقيق وحدة القوى الوطنية والتقدمية في الوطن العربي وإشاعة التفكير العلمي الذي ينبذ الخرافات التي تعرقل تحررنا الاجتماعي والثقافي .

ثالثاً : لجنة التراث العربي .

لقد اتضح من مجموع البحوث المقدمة إلى المؤتمر والدراسات التي دارت في لجانه أن هناك اتجاها واضحا لاعطاء الحضارة العربية الإسلامية مركزها الحق بين الحضارات الإنسانية في مجالات العلوم والفلسفة والفنون والآداب والتشريع ، وقيم المؤتمرون العناصر الإيجابية في هذه الحضارة الصالحة لنهضة حديثة .

ودعا الباحثون إلى الانفتاح على الفكر العالمي والأخذ بأسباب التقدم العلمي والتكنولوجي مع الحفاظ على الجوانب المضيئة في تراثنا مما يمكن أن يهيىء لنا دورا رائدا في تقدم الحضارة الإنسانية .

التوصيات :

١ — إن ثمار اللقاء العلمي الذي تم في بغداد بين علماء التاريخ عربا وضيوفا من شتى جامعات العالم ومؤسساته العلمية والثقافية ، أثبتت جدوى وضرورة تعدد مثل هذا اللقاء بإقامة مؤتمرات تاريخية دورية تعقد في أقطار الوطن العربي .

٢ — وفي ضوء ذلك يوصي المؤتمر بتأسيس جمعيات تاريخية في الأقطار العربية التي لم تؤسس فيها بعد مثل هذه الجمعيات ، والتصدي من ثم إلى إقامة اتحاد يربط بين الجمعيات .

٣ — يدعو المؤتمر المؤرخين العرب والباحثين في أنحاء العالم إلى كتابة تاريخنا وفق منهج علمي يبرز الوجه المشرق للحضارة العربية ، ومن ثم يدعوهم إلى ابراز دور الشعوب في عملية التقدم الحضاري ، وتشذيب التاريخ من كل ما علق به من زيف وحشو ، وإبراز الحقائق التاريخية بصورة موضوعية بحيث نستطيع ربط حاضر هذه الأمة العربية بماضيها .

٤ — يوصي المؤتمر بإيجاد تعاون أوثق بين المؤسسات العلمية التي تهتم بدراسة التاريخ في الأقطار العربية من أجل تحقيق الأغراض السابقة .

٥ — العناية بجميع مصادر الحضارة العربية الإسلامية وبصورة خاصة المخطوطات والعمل على جمعها وتحقيقها ونشرها نشراً علمياً .

٦ — العمل على إعادة نشر أمهات المصادر التاريخية العربية نشراً علمياً وذلك بالتنسيق بين المؤسسات والجمعيات العلمية في الأقطار العربية والمعنية بالدراسات التاريخية.

٧ — الاهتمام بتراث الشعب الكردي في العراق وتاريخه ونشره والتعريف به وبدور الشعب الكردي في الحضارة العربية الإسلامية .

٨ — التوصية بإنشاء معهد للوثائق يعنى بجمع الوثائق الخاصة بالخليج العربى ودراستها .

٩ — التوصية بحفظ آثارنا والعناية بها وجعلها مورداً من موارد الدخل القومى ووسيلة من وسائل الثقافة الجماهيرية .

١٠ — دعوة المؤرخين والباحثين إلى دراسة عوامل إزدهار الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى وأسباب تأخرها والوسائل الكفيلة بإنبعاثها .

١١ — يوصى المؤتمر بأن توجه دراسة التاريخ فى أقطار الوطن العربى بحيث تساعد على خلق جيل مؤمن بقوميته وأمته ويهدف إلى تحقيق وحدتها .

١٢ — يوجه المؤتمر كل تقدير واعتزاز للثورة الفلسطينية المسلحة ويؤكد ضرورة دعمها وفسح مجال العمل أمامها فى كافة الميادين .

١٣ — أكد المؤتمرون أهمية الموارد الطبيعية فى الوطن العربى ، وبخاصة النفط : وأوضحوا ضرورة وضع هذه الموارد فى خدمة حركة التحرر الوطنى والتقدم الاجتماعى وأكدوا بصورة خاصة على وجوب زج النفط كسلاح فى معركة المواجهة ضد الاستعمار والصهيونية ، وثمنوا الخطوة التاريخية لتأميم النفط فى القطر العراقى .

١٤ — يوصى المؤتمر بتوجيه تحية إلى جميع المؤرخين النزيهين الذين طالما عملوا فى خدمة القضايا العربية ، ولم تسعفهم ظروفهم فى الحضور للإسهام فى هذا المؤتمر .

١٥ — يحيى المؤتمر السيد رئيس الجمهورية العراقية القائد المناضل أحمد حسن البكر على رعايته هذا المؤتمر ودعمه كما ويشكر الحكومة العراقية على ماقدمته من تسهيلات لإنجاز مهمات المؤتمر وتحقيق أهدافه العلمية والوطنية» .

لجنة الصياغة

وستصدر الأبحاث التي ألقيت في المؤتمر في كتاب تذكاري .

٤ ـــ إنشاء الجمعية التاريخية بحمص :

أنشئت أخيراً جمعية تاريخية بحمص ،تضم عدداً من أساتذة التاريخ المتخرجين في جامعة دمشق وقد أجازت السلطات المختصة تأسيسها ومن أهدافها إلقاء المحاضرات وعقد الندوات ونقد الكتب والمراجع وإصدار مجلة تاريخية ، وإجراء حفريات أثرية . وقد بعث الأستاذ محمد الدروبي رئيس مجلة إدارة الجمعية برسالة إلى الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية نبأه فيها بتأسيس الجمعية ويطالب عقد صلات علمية مع جمعيتنا وقد رحبت الجمعية بإنشاء الجمعية التاريخية بحمص وأبدت إستعدادها لتزويدها بمطبوعاتها وبكل ما تطلب من مساعدات .

٥ ـــ الجمعية العمومية

عقدت الجمعية العمومية للجمعية المصرية للدراسات التاريخية جلستها العادية السنوية مساء الاثنين ١٤ مايو ١٩٧٣ ووافقت على ما يأتي :

١ ـــ تقرير أمين الصندوق عن عام ١٩٧٢ .

٢ ـــ الميزانية العمومية / المركز المالي للجمعية المقدم من مراقب الحسابات .

٣ ـــ محضر اجتماع الجمعية العمومية في ٢٢ مايو سنة ١٩٧٢ م .

٤ ـــ تقرير الأمين العام عن نشاط الجمعية خلال العام ١٩٧٣/٧٢ م .

كما وافقت على بعض التوصيات على أن ترفع لمجلس الإدارة لبحثها .

ثم أجريت الأنتخابات لشغل الأماكن الحالية لمجلس الإدارة وفاز السادة :

١ ـــ الأستاذ الدكتور	أحمد عزت عبد الكريم	٣٣ صوتاً
٢ ـــ الأستاذ الدكتور	أحمد عبد الرحيم مصطفى	٣١ صوتاً
٣ ـــ الأستاذ الدكتور	محمد أحمد أنيس	٢٧ صوتاً

٤ ـــ الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم ٢٤ صوتاً

٥ ـــ الأستاذ الدكتور حسن محمود ١٩ صوتاً

وبذلك أصبح مجلس الإدارة يتكون من حضراتهم ومن .

- الأستاذ الدكتور أحمد فخري
- الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني
- الأستاذ الدكتور عبد الكريم أحمد
- الأستاذة الدكتورة حكمت أبو زيد
- الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد
- الأستاذ إبراهيم المويلحي
- الأستاذ الدكتور أحمد دراج
- الأستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل
- الأستاذ الدكتور جمال الدين محمد مختار
- الأستاذ الدكتور صلاح العقاد

٤ ـــ انتخاب المكتب التنفيذي للجمعية :

اجتمع مجلس إدارة الجمعية مساء الأثنين بتاريخ ٢٨/٥/١٩٧٣ وأجرى أختيار المكتب التنفيذي على النحو التالي :

١ ـــ الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم رئيساً

٢ ـــ الأستاذ الدكتور أحمد فخرى نائباً للرئيس

٣ ـــ الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أميناً عاماً

٤ ـــ الأستاذ الدكتور حسن محمود أميناً للصندوق

رسائل جامعية

أولا : رسائل الماجستير

١ ـ جامعة القاهرة

(ا) كلية الآداب ـ قسم التاريخ

١ ـ عصام ضياء الدين السيد

الحزب الوطني والنضال السري ١٩٠٧ م ـ ١٩١٥ م

تقدير جيد جداً بتاريخ ١٩٧٢/١١/٣٠ م

إشراف الأستاذ الدكتور محمد أحمد أنيس

٢ ـ عبد الكريم فيصل المبار

برقة في العصر الروماني ٧٤ ق م ـ ١١٧ م

تقدير جيد جداً بتاريخ ١٩٧٣/٤/٥

إشراف الأستاذ الدكتور مصطفى كمال عبد العليم ،

والدكتور سيد الناصري

٣ ـ عماد عبد السلام رؤوف العطار

ولاية الموصل في عهد آل الجليلي ١٧٣٠ م ـ ١٨٣٦ م

تقدير ممتاز بتاريخ ١٩٧٣/١/٣١ م

إشراف الأستاذ الدكتور السيد رجب حراز

(ب) كلية دار العلوم ـ قسم التاريخ

١ ـ عبد الحليم عبد الفتاح محمد عويس

دولة بني حماد في الجزائر

بتقدير جيد جداً بتاريخ ١٩٧٣/٣/١٨

إشراف الأستاذ الدكتور أحمد شلبي .

٢ — جامعة الاسكندرية

كلية الآداب ـ قسم التاريخ

١ — عنايات محمد أحمد على

الحياة اليومية وانعكاساتها فى الفن السكندرى فى عصر البطالمة

تقدير جيد جداً بتاريخ ١٩٧٢/٨/٢٨

إشراف الأستاذ الدكتور داود عبده داود .

٢ — درويش محفوظ النخيلى

فتح الفاطميين الشام فى المرحلة الأولى ٣٥٨ ـ ٣٦٢ هـ

تقدير ممتاز بتاريخ ١٩٧٢/١٠/١

إشراف الأستاذ الدكتور سعد زغلول .

٣ ـ جامعة عين شمس

كليه الآداب . قسم التاريخ

١ — محمد على الطيب

الحركة الوطنية فى السودان ١٩١٩-١٩٣٦

بتقدير ممتاز بتاريخ ١٩٧٣/٣/١١ م

إشراف الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

٤ ـ معهد الدراسات والبحوث العربية

قسم البحوث والدراسات التاريخية

١ — عبد الرءوف أحمد عمرو

قناة السويس فى مؤتمر الاستانة عام ١٨٨٨ م

بتقدير جيد جداً بتاريخ ١٩٧٢/٤/٢٤م

إشراف الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى .

قسم البحوث والدراسات الفلسطينية

١ — عبدالله عباس شوشة

نشاط المرأة اليهودية فى إسرائيل

بتقدير ممتاز بتاريخ ١٩٧٢/١١/٢٨ م

إشراف الأستاذ الدكتور حسن ظاظا

والأستاذ الدكتور حسن سعفان

ثانيا : رسائل الدكتوراه

١ – جامعة القاهرة

(ا) كلية الآداب – قسم التاريخ

١ – نبيل محمد عبد العزيز

نشر وتحقيق مخطوط نهاية السؤال والأمنية فى تعلم أعمال الفروسية

بتقدير مرتبة الشرف الأولى . بتاريخ ١٩٧٢/٦/٢٨

إشراف الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

٢ – زبيدة محمد عطا

تحقيق الجزء التاسع من مخطوط زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة

بتقدير مرتبة الشرف الثانية . بتاريخ ١٩٧٢/٦/١٧

إشراف الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

٣ – سر الختم عثمان على

مدينة صور فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ١٠٩٧ – ١٢٩٢ م

بتقدير مرتبة الشرف الأولى ١٩٧١/١٢/١٨

إشراف الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

(ب) كلية دار العلوم – قسم التاريخ

١ – حسن على حسن عبد الجواد

الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الأقصى فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة .

بتقدير مرتبة الشرف الأولى . بتاريخ ١٩٧٣/٦/٧

إشراف الأستاذ الدكتور أحمد شلبي

٢ ــ جامعة الاسكندرية

كلية الآداب ــ قسم التاريخ

ــ ليلى عطا الله حنا

الأضواء التى تلقيها كتب تل العمارنة على تاريخ مصر والشرق القديم .

بتقدير مقبول ــ بتاريخ ١٩٧٢/٨/٢٤ م

إشراف الأستاذ الدكتور رشيد الناضورى

٣ ــ جامعة عين شمس

كلية الآداب ــ قسم التاريخ

١ ــ عاصم أحمد السيد الدسوقى

كبار ملاك الأراضى الزراعية ودورهم فى المجتمع المصرى ١٩١٤-١٩٥٢م

بتقدير مرتبة الشرف الأولى بتاريخ ١٩٧٣/٣/١٨

إشراف الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى .

٢ ــ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

الريف المصرى فى القرن الثامن عشر

تقدير مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة بتاريخ ١٩٧٣/٤/١٩م

إشراف الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

٣ ــ مصطفى عبد القادر النجار

العلاقات السياسية للعراق مع القوى المجاورة فى شط العرب والخليج العربى ١٩١٣ - ١٩٣٩ م

بتقدير مرتبة الشرف الأولى بتاريخ ١٩٧٣/٦/٢٤م .

إشراف الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ، والأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم .

٤ ـــ عبد الخالق محمد محمد لاشين

سعد زغلول ودوره فى الحياة السياسية المصرية من ١٩١٤ – ١٩٢٧م

بتقدير مرتبة الشرف الأولى بتاريخ ١٣/٦/١٩٧٣

إشراف الأستاذ الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى .

تحت الطبع

١ ـــ الأرض والفلاح فى مصر

« على مر العصور »

مجموعة محاضرات ألقيت بالجمعية عام سنة ١٩٧١ م

٢ ـــ محاضرات الموسم الثقافى

لعام ١٩٧٢-١٩٧٣م

— Shukry, M. F., — The French Expedition and the Rise of Muhammad Ali (no date).

— Shukry, M. F., — Abdalla Jack-Menou and the deprture of the French, Cairo, 1952.

— Al-Sorougy, M. M., — History of Alexandria from the ancient times, Vol. III — Alexandria in the modern times, Alexandria 1963.

Periodicals

— Egyptian Historical Bulletin, Vol. 1963.

— Le Décade Egyptienne.

— Le Courrier de l'Egypte.

Arabic Sources

— Abdu, Dr. Ibrahim, — History of printing and journalism in Egypt during the French Expedition, Cairo, 1941.

— Ghorbal, M. S., — Egypt at the Cross-Roads 1798 — 1801 : (Administrative arrangement in Egypt under the Ottoman Empire as explained by Husayn Effendi, one of the Ruznamjis (treasurer) at the period of the French Expedition). (date ?)

— Ghorbal, M. S., — General Yâkub and cavalier Lascaris and the project of Egyptian independence in 1801, Cairo, 1932.

— Al-Jabarti, A., — Ajaib Al-Athar fi-t-tarajim wal-akhbar, 4 vols, (1297 A. H.), (1800 — 1).

— Al-Rafi, Abdul-Rahman, — History of the National movement and the development of ruling system, vols. I & II Cairo, 1929.

— Al-Sharkawi, M., — Studies in the history of al-Jabarti, Egypt in the 18th Century, 3 vols., Cairo 1956.

increase their resistance. The city also witnessed some important administrative changes. Moreover, on the outskirts of the city two battles were fought. The first was the battle of Abu-Kir against the Ottoman Army. Napoleon decided to leave for France on 22nd August 1799 immediately after his victory over the Ottomans.

On 13th March 1801 the battle of Nicopolis took place between the British and Ottoman troops on one hand and the French troops on the other. Later on, in 21st March 1801, the final battle was fought at Canopus near Alexandria. And finally Menou decided to leave Egypt and the French evacuated it in September, 1801. The book also deals with the effects of the expedition on the history of Alexandria.

Finally, the writer must refer to all the books which dealt with the economic history of Egypt during the 19th Century because they discussed Egypt's economic situation during the French Expedition.

To sum up: it is clear that Egyptian historians threw more lights on the history of Egypt during the French Expedition. In addition they translated into Arabic a number of Europgan books concerning Egyptian history at this period.

period, and the third about Alexandria in modern times.

Because of its geographical position, Alexandria was exposed to invasion more than once in modern times. The most important invasion was the French Expedition. I tried in this volume to show the attitude of the people of Alexandria towards the expedition, the condition of the city under French rule and the battle fought near Alexandria which decided the fate of Alexandria. The author narrates the history of Alexandria and derives his information from the European travellers such as Savary and Volny.(1)

The French Expedition was the beginning of a new era in the history of the city. When the people of Alexandria saw the French ships at the sea they began to defend their city.(2) The expedition landed on 2nd July 1798 and advanced towards the city. Thereafter Napoleon appointed Kléber as the military governor of the city, meanwhile Muhammad Korayyem was appointed as the civil governor of the city.

Napoleon met the Shaykhs(3) and the notables in the city and signed an agreement with them and the two sides agreed not to attack each other. But the people did not submit; the resistance movement was secretly organized and backed by Muhammad Korayyem. When the French knew of his role they arrested him and he was executed.

Near Alexandria also the Abu-Kir battle was fought on 1st August, 1798. The defeat of the French encouraged the Egyptians generally and the people of Alexandria, in particular, to

---

(1) Al-Sorougy, History of Alexandria. vol. 3 P. 334.
(2) Ibid, P. 336.
(3) Religious dignitary, holy man.

tion and the attitude of the Egyptians towards it. The history of Al-Jabarti is the greatest history written on Egypt in the eighteenth and the beginning of the nineteenth centuries. Al-Jabarti was an eyewitness of the history of Egypt from 1757 to 1821. Al-Sharkawi studied this book and divided it according to the subject and not to the date to enable the research student to use the material included in this source.(2) Al-Jabarti's original book consists of four volumes, which Al-Sharkawi was able to summarize in three volumes only. Volume I deals with the ideological and social life in Egypt during this period. In this volume Al-Sharkawi evaluated what is written by Al-Jabarti on the effects of the French Expedition on the Egyptian society. He discusses the effects of the French on the Egyptian women who publicly began to mix with men in Cairo. Cairo knew also for the first time the theatre and acting.(1)

The Second volume deals with the Mamluks and their days. He illustrates their struggle against Napoleon's troops. He also shows the role played by Al-Azhar in the field of learning and religious studies. Moreover, Al-Azhar was the centre of revolution against French rule. During the French Expedition the Ulema of Al-Azhar acted as representative of the people, when relations deteriorated between them and the French. Sometimes the French imprisoned some of the Ulemas and confiscated their properties. Al-Jabarti also recorded his impression of the scientific progress which was represented in the French scholars and scientific instruments which the French brought to Egypt. He describes their libraries and their books and how they read in these public places. They allowed muslim visitors to have a look at these books. Al-Jabarti says that he visited the French scho-

---

(2) See Al-Jabarti, Ajaib Al-Athar, vol. I the introduction Sharkawi, Egypt in the 18th C., Vol. I the introduction.

(1) Ibid, P. 179.

after the French arrival at Cairo. It recorded the internal news of Egypt, and local news of Cairo and the provinces. From time to time it published the news of France which came to Egypt secretly despite the British blockade of the Egyptian Coast.

On the other hand, "La Décade Egyptienne" was a scientific journal which was published every ten days. It dealt with literary, legislative and ideological matters. The first issue of this journal appeared on the first of October, 1798.

But Napoleon did not attempt to establish an Arabic journal at that time. When Menou succeeded to the leadership of the Expedition, Desgenettes, the chief doctor of the expedition, advised him to establish an Arabic journal, which would be the official journal of the government. This journal would be under the supervision of French orientalists and some Egyptians. So, on 26th November 1800 Menou ordered the establishment of the journal called L'Avertissent, which should be circulated in Egypt, Yemen, Syria and inside Africa. The journal would publish the government's news, the proceedings of the Egyptian Diwan and some European and Asiatic news. It would also deal with literature, science and arts.(1) But it was not issued because of the political developments of Egypt. So the hope of creating Egyptian journalism vanished.

8. As-Sharkawi, Mahmud, Studies in the history of Al-Jabarti, Egypt in the 18th Century, 3 vols., Cairo 1956.

The author was a man of letters. His book is a study of Al-Jabarti's book. Ajaib Al-Athar, from which he derived some information about the conditions of Egypt. He honestly summarized Al-Jabarti's writings especially on the French Expedi-

---

(1) Ibid, P. 97.

this press under the supervision of Jean Joseph Marcel, a French Orientalist.(3) This printing-press was called — in Cairo later on — the National Printing-press.(4) A private printing-press belonged to a French native called Joseph Emmanuel Marc Aurel was added to the official printing-press of the expedition on its way in the Mediterranean. He took his place on the ship called Sans-Cullote and became the publisher of the Expedition. In Cairo he founded the first Egyptian printing-press.(5)

Joseph printed Napoleon's declarations and orders in French and sent them to Alexandria to be printed in Arabic. His printing-press was the first one of appear in Cairo and Alexandria on 8th July 1798.(6)

The effects of the Arabic and French printing-press on the Egyptians was recorded in "Le Courrier de l'Egypte" issued on 3rd February 1801. To them it, was a new innovation, and many distinguished persons such as Shaykhs Al-Fayyumi, Al-Mahdi and Al-Sawi visited the National printing-press.(7)

Through this national printing-press Egypt knew the journal or the periodical in its full form. This was the starting point of Egyptian journalism. The French published two journals in Egypt, "Le Courrier de l'Egypte" and "La Decade Egyptienne". But their aims make us decide that they are not considered as Egyptian journals except they were published in Cairo.

La Courrier was issued on 28th August, 1798, immediately

---

(3) Ibid, P. 15.
(4) Ibid, P. 16.
(5) Ibid, PP. 25 — 27.
(6) Ibid, P. 27.
(7) Ibid, P. 30.

Egyptian Historiography of Napoleon Bonaparte in the Twentieth Century.

By

Dr. M.M. El-Sorougy, Professor of Modern History,

Faculty of Arts ,University of Alexandria and Libya

The French Expedition landed in Egypt in July 1798.